التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

٩

الخلفاء الراشدون

الجزء الأول

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

الخلفاء الراشدون

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف/ فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مواقف وعبر

فى خلافة

أبى بكر الصديق رضى الله عنه

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: فقد سبق نشر المجموعة الأولى من سلسلة « التاريخ الإسلامي/ مواقف وعبر » ، وموضوعها « السيرة النبوية »، وقد تم ترتيبها في ثمانية أجزاء، وهذه هي المجموعة الثانية، وموضوعها «عهد الخلفاء الراشدين » ، وأغلب موضوعاتها في المواقف الجهادية والإدارية، وقد تم ترتيب هذه المجموعة في أربعة أجزاء في مجلدين.

وحيث إن كل مجموعة تعتبر كتابا مستقلا فإنني قد رأيت ترقيم أجزاء كل مجموعة بأرقام مستقله مع بقاء تسلسل الرقم العام تحت عنوان السلسلة .

هذا وقد اتجهت النية إلى نشر هذه السلسلة في مجلدات، وبناء على هذا فقد تم ترقيم الصفحات كل مجلد بشكل متسلسل ، كما تم دمج فهرسي كل جزأين في فهرس واحد ليكون أيسر للقراء .

لقد برز في هذا العهد نوعان من الجهاد: أحدهما الجهاد الدفاعي، وذلك في جهاد المرتدين والمتمردين على دولة الإسلام، وقد تم في أول سنة من هذا العهد القضاء على جميع تجمعات هؤلاء المرتدين والمتمردين، حتى عادت السيادة للدولة الإسلامية في جزيرة العرب كما كانت في عهد رسول الله ﷺ ،والنوع الآخر الجهاد الهجومي الدعوي، حيث قام المسلمون بجهاد دولتي الفرس والروم لإفساح

الطريق أمام دعـوة الإسلام لتـصل إلى الشعوب المغلوبـة على أمرها، ولتكون كلمة الله هي العليا، والسيادة في الأرض لدولة الإسلام .

لقد كان هذا العهد عهد الفتـوح الإسلامية الكبرى، حيث تم فيه القضاء على دولة الفرس التي كـانت دولة العالم العظمى في المشرق، ودخلت جـميع ممالكهـا في دولة الإسـلام ، كمـا تم فتح عـدد من الأقاليم التي تكـونت منها دولة الروم التي كانت دولة الـعالم العظمى في المغرب ، وذلك بـالاستيـلاء على بلاد الشام ومـصر وبعض بلاد المغرب وضمها إلى الدولة الإسلامية .

ومن أبرز مايلاحظ في ذلك الفتح الواسع أن المسلمين الفاتحين قد واجهوا حضارتين عريقتين هما الحضارة الفارسية والرومية، ومع ذلك فإن حضارة المسلمين العظيمة قد استوعبت تلك الحضارتين، وتم على يد هؤلاء الفاتحين صـهر تلك الحضارتين وتمحـيصهما، وذلـك بقبول مايوافق حضارة الإسلام وصبغه بالصبغة الإسلامية ورفض مايخالفها.

ولو أننا قارنا بما تم بعد ذلك في أواخر عهد العباسيين من هجوم التتـار الوحشي على بلاد المـسلمين لوجدنا الفـرق واضحا بين الـفتح الإسلامي الـذي كان فتـحا للقلوب قـبل البلاد، حـيث تم على إثره دخـول آلاف من الكفـار في الإسلام ، وذوبان حـضـارة تلك الدول المفـتوحـة بحـضارة المسلـمين ، بينما لم يـتم شيء من ذلك على يد التتار، بل بضد ذلك دخلت أمة التتـار في الإسلام وتحضرت بحضارة المسلمين .

مصادر الكتاب في هذا العهد :

لقد اعتمدتُ في الكتابة عن هذا العهد على عدد من الكتب التاريخية، من أبرزها « تاريخ الرسل والملوك» للطبري، و« البداية والنهاية » لابن كثير ، و « فتوح مصر» لابن عبد الحكم المصري، و«فتوح الشام » لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي .

وقد رأيت أن أترجم لهؤلاء البارزين الذين كثر ذكرهم في هذا العهد بشكل موجز .

محمد بن جرير الطبري :

هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، من أهل آمل بطبرستان ، ولد في عام أربعة وعشرين ومائتين [١] .

قال الإمام أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي : استوطن الطبري بغداد وأقام بها إلى حين وفاته ، وكان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظا لكتاب الله تعالى، عارفا بالقراءات ، بصيرا بالمعاني، فقيها في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين ، في الأحكام ومسائل الحلال والحرام ، عارفا بأيام الناس وأخبارهم [٢].

وقال الإمام الذهبي عنه: كان ثقة صادقا رأسا في التفسير إمامًا في

---

(١) تذكرة الحفاظ / ٧١٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣ .

الفقه والإجماع والاختلاف ، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفا بالقراءات وباللغة وغير ذلك [1] .

وقال الإمام ابن خزيمة : ماأعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير .

وقد توفي رحمه الله عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة [2] .

أما كتاب الطبري « تاريخ الرسل والملوك» فهو موسوعة تاريخية كبرى حوى فيها كثيرا من كتب المتقدمين إلى جانب كتابة تاريخ عصره، ولقد حفظ للأمة الإسلامية تاريخا شاملا لعصر صدر الإسلام، ومايزال هو المرجع الأكبر في ذلك العصر .

وإن المطلع على هذا التاريخ بتمعن في مراحله المتعددة يجد أنه قد توسع في عرض السيرة النبوية نظرًا لكثرة المصادر عنده، كما أنه توسع في عرض فتوحات العراق والمشرق لتوفر مصادرها عنده، بينما أوجز الكلام عن فتوحات الشام والمغرب لعدم توفر الرواية في تفاصيل ذلك في بغداد التي عاش فيها ، فبينما نجده يغطي أحداث القادسية مثلا في ثلاث عشرة ومائة صفحة نجده يعرض معركة اليرموك في عشرين صفحة ، ولذلك فإن من يكتب عن فتوحات الشام والمغرب لابد له من إضافة مصادر أخرى لتغطية تفاصيل تلك الفتوحات .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ / ٧١٥ .

البداية والنهاية ١١/١٥٦ - ١٥٧ .

سيف بن عمر الضبّي التميمي :

هذا ولكثرة مرويات ابن جرير الطبري في الفتوحات التي رواها من طريق سيف بن عمر التميمي ولِماَ اشتهر في تراجم علوم الحديث من تضعيفه واتهامه بالكذب فإنني أرى من الضروري أن أنقل بعض أقوال المعتدلين الذين يتحرون في أحكامهم على الرواة، ولقد رأيت أجمع وأصدق ماقيل فيه قول الحافظ ابن حجر العسقلاني عنه حيث قال في ترجمته « ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ » [١].

وقد اعتبره الحافظ ابن كثير إماما في التاريخ [٢] .

وقال عنه الحافظ الذهبي « كان أخباريا عارفا » [٣] .

وهذا لايعني قبول جميع رواياته في التاريخ ، بل لابد من مقارنتها مع الروايات الأخرى والترجيح خاصة في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم .

أبو إسماعيل الأزدي :

هو أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي ، صاحب كتاب «تاريخ فتوح الشام » وهذا الكتاب له قيمة تاريخية كبيرة، حيث إنه انفرد بعدد كثير من النصوص التاريخية في فتوح الشام على عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما، ومن مزايا الكتاب أنه قد احتوى على جملة من الرسائل التي كانت تدور

(١) تقريب التهذيب ١/ ٣٤٤ رقم ٦٣٣ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٢٤٧ .

(٣) ميزان الاعتدال ٢/ ٢٥٥ .

بين أمير المؤمنين عمر وأمرائه في الشام رضي الله عنهم .

والكتاب ليس له مصادر من كتب أخرى وإنما يرويه مؤلفه بالإسناد عن الذين شهدوا الوقائع ، وقد ساعده على جمع ذلك الكم الكبير من تاريخ فتوح الشام أنه من قبيلة الأزد ، وقد ارتحل عدد كبير من الأزد نحو الشام وشهدوا الفتوح فكان بعضهم يروي عن بعض.

ولم أجد له ترجمة في كتب التراجم التي اطلعت عليها، ولعل سبب عدم شهرته عند المترجمين كونه ليس من رواة الأحاديث، وقد كان الدافع لوجود علم الجرح والتعديل هو حفظ السنة النبوية .

ومن دراسة تراجم شيوخه وتلاميذه يتبين أنه قد عاش في القرن الثاني ، وعلى هذا فإن كتابه يعتبر من مصادر التاريخ القديمة .

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري، ولد في حدود سنة ١٨٧هـ وتوفي في سنة ٢٥٧هـ وأبوه فقيه مصر الكبير في المذهب المالكي .

أبرز مؤلفاته « فتوح مصر » ويسمى « فتوح مصر والمغرب» وكذلك يسمى « فتوح مصر وأفريقية » وقد اعتمدت عليه بالدرجة الأولى في فتوح مصر .

أما درجته في الرواية فقد قال عنه ابن أبي حاتم : هو صدوق، وقال :سئل عنه أبي فقال : صدوق [1] . وقال النسائي :لابأس به .

---

(١) الجرح والتعديل ٢٥٧/٥ .

وقال القضاعي : كان من أهل الحديث عالما بالتواريخ وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني : ذكره ابن حبان في الثقات (١) .

الحافظ ابن كثير :

هو الإمام المحدث الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي ذكر ذلك ابن كثير نفسه في ترجمه والده (٢).

ولد ابن كثير في عام سبعمائة أو بعدها بقليل وتوفي في شهر شعبان من عام أربعة وسبعين وسبعمائة .

من أشهر كتبه تفسيره المشهور وكتابه الكبير في التاريخ « البداية والنهاية » وقد اعتمدت عليه كثيرا في تاريخ الخلفاء الراشدين ومن بعدهم .

قال عنه الإمام الذهبي : الإمام المفتي المحدث البارع ، ثقة متفنن محدث متقن .

وقال عنه الداوودي : كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئًا كثيرا في الفقه والتاريخ ، قليل النسيان ، وكان فقيها جيد الفهم صحيح الذهن (٣) .

---

(١) تهذيب التهذيب ٦/٢٠٨ .

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣٣ .

(٣) ينظر في ترجمته « طبقات المفسرين » للداوودي ١٤/ ١١١، والدرر الكامنة لابن حجر ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤ وذيل تذكرة الحافظ / ٣٦١ .

مواقف وعبر

في

جهـــاد المـــرتدين

١ – موقف لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ –

لقد أدَّى رسول الله ﷺ الرسالة أكمل أداء ، وبلَّغ الأمانة التي حمَّله الله جل وعلا أكمل بلاغ ، فلما دنا أجله خيَّره الله بين البقاء في الدنيا إلى أجل وبين اللَّحاق بالرفيق الأعلى ، فاختار ماعند الله كما جاء في رواية الإمام البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ الناس وقال : إن اللهَ خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ذلك العبد ماعند الله ، قال : فبكى أبو بكر ، فعَجبنا لبكائه أن يُخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيِّر ، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر وكان أبو بكر أعلمنا ، فقال رسول الله ﷺ : إن أمَنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لايبقَيَنَّ في المسجد باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر [(١)] .

ففهم أبو بكر مراد النبي ﷺ لدقة ملاحظته وشدة متابعته لأحوال النبي ﷺ واشفاقه عليه وعلى أمته من بعده ، حيث كان هذا التفكير يشغل باله ففهم التلميح من دون الصحابة رضي الله عنهم ، وكان هذا الفهم بداية لموقف كبير منه ثبَّت الله به الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ .

وقد فهمتْ عائشة رضي الله عنها هذا في مرض النبي ﷺ كما أخرج الإمام البخاري من حديثها أنها قالت : « كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح : إنه لم يُقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخيَّر ، فلما نزل به ورأسه على فخذي غُشيَ عليه ، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٦٥٤ ، فضائل الصحابة (٧/ ١٢) .

البيت ثم قال : اللهم الرفيق الأعلى ، فقلت : إذًا لايختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح ، قالت : فكان آخر كلمة تكلم بها : اللهم الرفيق الأعلى » (١) .

ولما توفي رسول الله ﷺ أصابت الناس دهشة عظيمة وبرز المنافقون فكان عمر رضي الله عنه يهدِّد ويتوعد من يقول إن رسول الله قد مات ، كما أخرج الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ قالت : وقال عمر : والله ماكان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنَّه الله فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم (٢) .

ومن كلامه في ذلك « إن رسول الله ﷺ لايموت حتى يُفْني الله المنافقين » أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها ، وكذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن أبا بكر مرَّ بعمر وهو يقول : ما مات رسول الله ﷺ ولايموت حتى يَقتل الله المنافقين ، وكانوا قد أظهروا الاستبشار ورفعوا رؤوسهم (٣) .

وهكذا كان عمر يرى أن بقاء الرسول ﷺ ضروري حتى يفني الله تعالى المنافقين ، وهذا يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعتبرون المنافقين أكبر أعدائهم ، وهذا موافق لقول الله تعالى فيهم ﴿ **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ [**المنافقون** : ٤] .

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه غائبا ذلك اليوم ، فلما حضر كشف

---

(١) صحيح البخاري ، المغازي ، رقم ٤٤٦٣ (٨/ ١٥٠) .

(٢) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٦٧ (٧/ ١٩) .

(٣) فتح الباري ٨/ ١٤٦ .

الأمر للمسلمين وأنقذ الله تعالى به الموقف كما أخرج الإمام البخاري رحمه الله من حديث الزهري عن أبي سلمة أن عائشة أخبرته « أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلِّم الناس حتى دخل على عائشة فتَيَمَّم رسول الله ﷺ وهو مُغَشَّى بثوب حبَرة ، فكشف عن وجهه ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لايجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كُتبَتْ عليك فقد مُتَّها [1] .

قال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن عبد الله بن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلِّم الناس . فقال : اجلس ياعمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لايموت ، قال الله ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [**آل عمران** : ١٤٤] .

وقال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقَّاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها .

قال [يعني الزهري] : فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرتُ حتى ماتقلُّني رجلاي ،

---

(١) أراد بهذا أبو بكر الرد على من قال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم سيحيا فيقطع أيدي رجال . . لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى (فتح الباري ٨/ ١٤٥) .

وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ، علمت أن النبي ﷺ قد مات (١) .

وقال الحافظ ابن حجر : وفي حديث ابن عمر نحوه وزاد : ثم نزل فاستبشر المسلمون وأخذ المنافقين الكآبة ، قال ابن عمر : وكأن على وجوهنا أغطية فكُشفَتْ (٢) .

وإنما استبشر المسلمون لأن الله تعالى جمع شملهم ووحَّدَ كلمتهم بأبي بكر رضي الله عنه وزال الخلاف بينهم ، وأصاب المنافقين حسرة وكآبة لَّما رأوا اجتماع كلمة المؤمنين ، ولماَ في خطبة أبي بكر من التهديد لهم ولأمثالهم ممن تسوِّل له نفسه محاولة إثارة الفتنة وتفريق شمل المسلمين كما جاء في رواية للإمام البيهقي عن عروة بن الزبير أنه ذكر ما كان من أمر المسلمين آنذاك وذكر خطبة أبي بكر . . ومنها قوله : واتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وإن كلمة الله تامة وإن الله ناصر من نصره ، ومعز دينه ، وإن كتاب الله عز وجل بين أظهرنا وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله محمداً ﷺ وفيه حلال الله وحرامه ، والله لانبالي من أجلب علينا من خلق الله ، إن سيوف الله لمسلولة ماوضعناها بعد ، ولنجاهدنَّ من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يَبغينَّ أحد إلا على نفسه (٣) .

وبهذه الكلمات المضيئة القوية خمدت رؤوس الفتنة واطمأن المسلمون إلى وجود القيادة القوية الحكيمة التي ستسلك بهم الطريق .

* * *

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٤٥٢ ، كتاب المغازي (٨/ ١٤٥) .

(٢) فتح الباري ٨/ ١٤٦ .

(٣) دلائل النبوة ٧/ ٢١٨ .

٢ - نماذج من وسائل الإقناع المؤثرة والتجرد من الهوى - (بيعة سقيفة بني ساعدة)

لما علم الصحابة رضي الله عنهم بوفاة رسول الله ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة في اليوم نفسه وهو يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة ، وتداولوا الأمر بينهم في اختيار من يلي الخلافة من بعده .

فلما علم بذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . ذهبا إليهم كما أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه من خطبة عمر رضي الله عنه التي جاء فيها قوله : وإنه قد كان من خبرنا حين تَوفَّى اللهُ نبيَّهُ ﷺ ، أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، وخالف عنا عليٌّ والزُبَيرُ ومن معهما واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلتُ لأبي بكر : يا أبا بكر ، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار فانطلقنا نُريدهم ، فلما دنونا منهم لقيَنا منهم رجُلان صالحان فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا : أين تريدون يامعشر المهاجرين ؟ فقلنا : نُريدُ إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فقالا : لا عليكم أن لاتقربوهم ، اقضوا أمركم . فقلتُ : والله لنأتينَّهم [١] .

فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا رجلٌ مُزمَّلٌ بين ظهرانَيهم ، فقلتُ : من هذا؟ فقالوا : هذا سعدُ بن عبادة ، فقلتُ : ماله؟ قالوا : يُوعَك . فلما جلَسْنا قليلا تَشهَّدَ خطيبهم فأثنى على الله

---

(١) وهذان الرجلان الأنصاريان هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي رضي الله عنهما- مصنف عبد الرزاق ٥/ ٤٤٥ ، فتح الباري ١٢/ ١٥١ - .

بماهو أهله ، ثم قال : أما بعد فنحنُ أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام ، وأنتم -معشر المهاجرين - رَهْطٌ ، وقد دَفَّت دافَّةٌ من قومكم [(١)] ، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يَحضنونا من الأمر [(٢)] .

فلما سكت أردتُ أن أتكلم - وكنتُ قد زَوَّرتُ مقالة أعجبتني أريدُ أن أقدِّمها بين يدي أبي بكر - وكنتُ أداري منه بعض الحدِّ ، فلما أردتُ أن أتكلم قال أبو بكر : على رِسْلك . فكرهتُ أن أغضبه ، فتكلم أبو بكر ، فكان هو أحْلَم مني وأوقر ، والله ماتركَ من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بَديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكتَ . فقال : ماذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحيِّ من قريش ، هم أوسط العرب نَسبًا ودارا . وقد رضيتُ لكم أحدَ هذين الرجُلين فبايعوا أيَّهما شئتم - فأخذَ بيدي ويد أبي عُبيدة بن الجراح وهو جالسٌ بيننا - فلم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أقدَّم فتضرب عنقي لا يُقربِّني ذلك من إثم أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهمَّ إلا أن تُسَوِّل إليَّ نفسي عند الموت شيئًا لا أجدهُ الآن .

فقال قائلٌ من الأنصار : أنا جُذيلها المحكَّك ، وعُذيقُها المرَجَّب[(٣)] . منَّا أميرٌ ومنكم أمير يامعشرَ قُريش ، فكثرَ اللغَط ، وارتفعت الأصوات ،

---

(١) أي عدد قليل .

(٢) أي يخرجوننا من أمر الخلافة .

(٣) قائل هذا هو الحباب بن المنذر رضي الله عنه ، والجُذَيل عود ينصب للإبل الجَرْبَى لتحتَكَّ به ، والمحكَّك الذي يُحَتكُّ به كثيرًا ، أراد أنه يُستشفى برأيه ، والعُذَيق هو النخلة ، والمرَجَّب من رَجْب النخلة إذا جُعل لها ما تعتمد عليه لكثرة حملها ، يعني أنا الذي يُعتمد علي لكفاءتي وجودة رأيي - هامش مصنف عبد الرزاق ٥/ ٤٤٤ - .

حتى فَرِقتُ من الاختلاف ، فقلتُ : أبسُطْ يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعته وبايعهُ المهاجرون ثم بايعَتْه الأنصار [(١)] .

وجاء في حديث حميد بن عبد الرحمن الحميَري رحمه الله الذي أخرجه الإمام أحمد رحمه الله إضافة مهمة ، وهي قوله « فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فلم يترك شيئًا أُنزل في الأنصار ولاذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذكره ، وقال : ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال : لو سلك الناس واديا وسلكَت الأنصار واديا سلكت وادي الأنصار ، ولقد علمتَ ياسعد [(٢)] أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد : قريش ولاة هذا الأمر فَبَرُّ الناس تبع لبَرِّهم ، وفاجر الناس تبع لفاجرهم ، قال فقال له سعد : صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء [(٣)] .

ومن هذا النص يتبين لنا كيف استطاع أبو بكر رضي الله عنه أن يَدخُل إلى نفوس الأنصار فيقنعهم بما رآه هو الحق من غير أن يُعَرِّض المسلمين للفتنة ، فأثنى على الأنصار ببيان ما جاء في فضلهم من الكتاب والسنة ، والثناءُ على المخالف منهج إسلامي يُقصد منه إنصاف المخالف وامتصاص غضبه وانتزاع بواعث الأثرة والأنانية في نفسه ليكون مهيّأ

---

(١) صحيح البخاري ، الحدود ، رقم ٦٨٣٠ (١٢/ ١٤٤ - ١٤٥) .

(٢) يعني سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه .

(٣) مسند أحمد ١/ ٥ .

و ذكره الإمام ابن تيمية وقال : فهذا مرسل حسن ، ولعل حميدًا أخذه عن بعض الصحابة الذين شهدوا ذلك ، قال : وفيه فائدة جليلة جدًا وهي أن سعد بن عبادة نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة وأذعن للصديق بالإمارة فرضى الله عنهم أجمعين - منهاج السنة النبوية ١/ ٥٣٦ - .

لقبــول الحق إذا تبين لـه ، وقـد تقـدمَت أمـثلة لذلـك من عـمل الـنبي ﷺ وأصحابه .

ثم توصل أبو بكر من ذلك إلى أن فـضلهم وإن كـان كـبيـرًا لا يعني أحقيتهم في الخلافة لأن النبي ﷺ قد نص على أن المهـاجرين من قـريش هم المقدَّمون في هذا الأمر .

ولاشك في أن هـذا المعنى كـان غـائبـا عن أذهان الأنـصـار لأن دينـهم المتين يمنعهم من أن يخالفوا أوامر النبي ﷺ .

كما أشار أبو بكر إلى أن من مؤهلات القـوم الذين يُرشحون للخلافة أن يكونـوا ممن يَدين لهـم العـرب بالسـيـادة وتسـتـقـر بهـم الأمـور ، حـتى لاتحدث الفتن فيما إذا تولى غيرهم ، وأبـان أن العرب لايعترفون بالسيادة إلا للمسلمين من قريش لكون النبي ﷺ منهم ولماَ استقر في اذهان العرب من تعظيمهم واحترامهم .

ولقـد اسـتطاع أبو بكر بهـذه الـكلمـات النيِّـرة أن يغـيـر من قناعـات الأنصار الذين اجتمعوا ذلك اليوم وأن يحوِّلهم إلى وزراء مُعيْنين وجنود مخلصين كما كانوا في عهد النبي ﷺ وأن يجمع كلمة المسلمين .

وحينما وصلت القضية إلى هذا الحد من الوضـوح قدَّم أبو بكر عـمر أو أبا عبيدة للخلافة ، ولكن عمر كره ذلك ورأى أن احتمال الموت قتلا أهون على نفسه من أن يتأمر على قوم فيهم أبو بكر .

وبهذه القناعة من عمر بأحقية أبي بكر بالخلافة قال له : « ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، قـال : فبايعته وبايعه المهـاجرون والأنصـار » ،

وبهذا الموقف الحازم حسم عمر القضية وأنهى الخلاف وجمع الصحابة على أبي بكر .

ولقد جاء في رواية أخرى أن عمر مهّد لذلك الأمر بذكر تقديم النبي ﷺ أبا بكر بالإمامة وذلك فيما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما قُبض رسول الله ﷺ قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال : يامعشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤمَّ الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر [1] .

وهذا ملحظ مهم وُفِّق إليه عمر رضي الله عنه ، وقد اهتم بذلك النبي ﷺ في مرض موته فأصرَّ على إمامة أبي بكر ، وهو من باب الإشارة بأنه أحق من غيره بالخلافة .

ولقد ظهر في هذا الخبر زهد الصحابة رضي الله عنهم في الإمارة والجاه الدنيوي ، فأبو بكر رضي الله عنه مع أنه أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة ومع تقديم النبي ﷺ إياه في الإمامة فإنه يقول للصحابة « وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين » يعني عمر وأبا عبيدة رضي الله عنهما ، وعمر يقول في حكاية ذلك « فلم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أُقَدَّم فتُضرب عنقي لا يقرِّبني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر » ، وهذا غاية الأدب والتواضع والتجرد من حظ النفس .

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢١ ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر ١/ ٢١٣ رقم ١٣٣ .

ولقد ظهر زهد أبي بكر رضي الله عنه في الإمارة في خطبته التي اعتذر فيها من قبول الخلافة .

وقد أخرج خبر ذلك الحاكم بإسناده من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : ثم قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم وقال : والله ماكنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ولاكنت فيها راغبًا ولا سألتها الله عز وجل في سرٍّ وعلانية ، ولكني أشفقت من الفتنة ، ومالي في الإمارة من راحة ولكن قُلِّدت أمرًا عظيمًا مالي به من طاقة ولايد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوَددت أنَّ أقوى الناس عليها مكاني اليوم .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي (١) .

هذا وبعد أن تمت بيعة أبي بكر رضي الله عنه البيعة الخاصة في سقيفة بني ساعدة ، كان لعمر رضي الله عنه موقف آخر في تأييد أبي بكر وذلك في اليوم التالي حينما اجتمع المسلمون للبيعة العامة .

قال ابن إسحاق رحمه الله : وحدثني الزهري قال : حدثني أنس ابن مالك قال : لما بويع أبو بكر في السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أيها الناس إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ماكانت مما وجدتها في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهده إلي رسول الله ﷺ ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيَدْبُرُ أمرنا - يقول يكون آخرنا - وإن الله قد

---

(١) المستدرك ٣/ ٦٦ .

أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال : أما بعد أيها الناس فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أُريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لايدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولاتشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله [1] .

وذكره الحافظ ابن كثير وقال : وهذا إسناد صحيح [2] .

وأخرج الإمام البخاري منه خبر خطبة عمر ، وجاء في آخره : قال الزهري عن أنس بن مالك : سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ : اصعد المنبر ، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة [3] .

ففي هذا الخبر موقف جليل لعمر رضي الله عنه حيث شد من أزر أبي بكر رضي الله عنه وأمر الناس ببيعته وألح عليه في صعود المنبر لاستقبال بيعة المسلمين العامة .

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٤٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٣) صحيح البخاري ، الأحكام ، رقم ٧٢١٩ (١٣/ ٢٠٦) .

وفي هذا الخبر موقف جليل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته الرائعة التي تعتبر من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، فقد ضرب أبو بكر من نفسه مثلا عاليًا في التواضع حيث قال: « ولست بخيركم » وقرر قواعد العدل والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله تعالى لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد.

هذا وقد أجمع الصحابة على بيعة أبي بكر رضي الله عنه وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى:

« وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على بيعة الصديق في ذلك الوقت، حتى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما، والدليل على ذلك ما رواه البيهقي حيث قال: أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن علي الحافظ الاسفراييني، ثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، ثنا أبو بكر بن خزيمة وإبراهيم بن أبي طالب قالا: ثنا بندار بن يسار، ثنا أبو هشام المخزومي، ثنا وهيب، ثنا داود بن أبي هند، ثنا أبو نضْرة عن أبي سعيد الخدري قال: قُبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة، وفيهم أبو بكر وعمر قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أنَّا أنصار رسول الله ﷺ فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره، قال: فقام عمر بن الخطاب فقال: صدق قائلكم ولو قلتم غير هذا لم نبايعكم فأخذ بيد أبي بكر وقال: هذا صاحبكم فبايعوه، فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار.

وقال : فصعد أبو بكر المنبر فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير ، قال : فدعا الزبير فجاء قال : قلتَ : ابن عمة رسول الله ﷺ أردتَ أن تشق عصا المسلمين ، قال : لاتثريب ياخليفة رسول الله ، فقام فبايعه ، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليًا ، فدعا بعلي بن أبي طالب قال : قلتَ : ابن عمِّ رسول الله ﷺ وختنه على ابنته ، أردتَ أن تشق عصا المسلمين ، قال : لاتثريب ياخليفة رسول الله فبايعه ، هذا أو معناه .

قال الحافظ أبو علي النيسابوري : سمعت ابن خزيمة يقول : جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث فكتبته له في رقعة وقرأت عليه ، فقال : هذا حديث يساوي بدنة ، فقلت : يسوى بدنة ! بل هذا يسوى بدرة [1] .

وقد رواه الإمام أحمد عن الثقة عن وهيب مختصراً ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من طريق عفان بن مسلم عن وهيب مطولاً كنحو ماتقدم » [2] .

* * *

(١) بكسر الباء يعني صرة ذهب .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٦ ، وقال ابن كثير في موضع آخر : وهذا إسناد صحيح محفوظ- البداية ٥/ ٢٤٩ - ، المستدرك٣/ ٧٦ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

٣ – مثل من الاستسلام لأوامر النبي ﷺ –
(إنفاذ أبي بكر جيش أسامة)

كان النبي ﷺ قد جهز جيشًا في أواخر حياته لغزو الروم ومن يواليهم من قبائل العرب ، فلما ثقل به المرض توقف الجيش في مكان يقال له « الجرف » قرب المدينة .

فلما توفي رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر أمر بمسير هذا الجيش نحو الوجهة التي وجهه إليها رسول الله ﷺ .

وفي بيان ذلك يقول عروة بن الزبير : لما بويع أبو بكر وجمع الأنصار في الأمر الذي افترقوا فيه قال : ليَتمّ بعث أسامة – وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبّت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم – فقال له الناس : إن هؤلاء جُلّ المسلمين ، والعرب – على ما ترى – قد انتقضت بك ، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين ، فقال أبو بكر : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته [١] .

وإننا حينما نتأمل رأي جمهور الصحابة رضي الله عنهم نجد وجاهةً في النظرة الأولى للأمر المبنية على الاجتهاد البشري في سياسة الأمور ، حيث إن بقاء هذه القوة مناسب في دار الخلافة لتساعد في صد هجمات المرتدين من حول المدينة الذين بدت منهم علامات التنكُّر والعداء

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٢٥ .

للمسلمين في المدينة ، ومن ورائهم أكثر القبائل العربية التي ارتدت عن الإسلام ، وخلعت يد الطاعة بعد موت النبي ﷺ ، ولو أن أبا بكر نظر باجتهاده المجرد لمَاَ خالف الصحابة فيما أشاروا عليه به ، بل لمَاَ فكر في إرسال هذا الجيش إلى بلاد الشام ، ولكن الاتجاه الذي كان مهيمنا على تفكيره هو تنفيذ أوامر النبي ﷺ مهما تكن الظروف والأحوال ، لأنه يعلم يقينا أن أوامره من أوامر الله تعالى ، والله سبحانه أعلم بما يصلح الأمة ، ولذلك انطلق في تنفيذ هذ الأمر بحزم وقوة غير عابئ باعتراض المعترضين ، وهذا منتهى التسليم لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ الذي يعتبر علامة على بلوغ كمال التوحيد .

وهو في محاولة إقناع الصحابة بما ذهب إليه لايفرض عليهم رأيه بلغة الاستبداد والتسلط والانتصار للرأي وإنما يبين لهم بحكمة وقوة أنه ينفذ أمرًا من أوامر النبي ﷺ ، ومن ذا الذي يردُّ أمره أو يتقاعس عن تنفيذه ؟ !

ولقد بلغت قوة إيمانه بلزوم تنفيذ أمر النبي ﷺ هذا إلى هذا الحد المدهش الذي يفرض على سامعه أن يؤيده فيما ذهب إليه حيث يقول : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته .

ولايُظَن بالصحابة رضي الله عنهم أنهم يردون أمر النبي ﷺ أو يتقاعسون عن تنفيذه وهم السباقون إلى الفضائل المتنافسون على المعالي ، ولم يكن أبو بكر يتهمهم بذلك ، ولكنهم كانوا يرون أن النبي ﷺ عقد لهذا الجيش في إسلام ومسالمة من جميع قبائل العرب حيث كانت كلمة

الله هي العليا ودولة الإسلام هي الغالبة في جزيرة العرب ، فلما رمتهم العرب بقوس واحدة بعد وفاة النبي ﷺ رأوا أن الوضع السياسي قد تغير، وأن الوضع الحربي يتغير تبعا لذلك .

وهذا الفهم سليم وحكيم لو كان الذي أصدر الأمر غير النبي ﷺ ، وهذا هو الفارق الكبير بين فهم المعارضين من الصحابة وفهم أبي بكر ، فلما شرح لهم وجهة نظره سلَّموا له جميعًا رضي الله عنهم .

ولقد بيَّنَتْ نتائج هذا البعث الحكمة العظيمة من هذا الأمر النبوي ، وقد بين هذه النتائج أبو هريرة رضي الله عنه في حديثه الذي أخرجه عنه البيهقي أنه قال : والله الذي لا إله غيره لولا أن أبا بكر استُخلف ما عُبد الله، ثم قال الثانية : ثم قال الثالثة فقيل له : مه يا أبا هريرة ؟ فقال : إن رسول الله وجَّه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام فلما نزل بذي خشب قُبض رسول الله ﷺ ، وارتدت العرب حول المدينة فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا بكر رُدَّ هؤلاء ، تُوجِّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة ؟ فقال : والله الذي لا إله غيره لو جرَّت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ مارددت جيشًا وجهه رسول الله ﷺ ولاحللت لواء عقده رسول الله ، فوجَّه أسامة ، فجعل لايمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم ، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ، ورجعوا سالمين ، فثبتوا على الإسلام (١) .

وبهذا تبينت الحكمة العظيمة من إرسال هذا الجيش حيث صدَّ الله به

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٨ .

عن المسلمين حروبا كثيرة كان عليهم أن يخوضوها مع بعض القبائل فأخمد الله الفتن معهم بغير قتال ، وتبين من ذلك تفوق أبي بكر على بقية الصحابة في مجال فهم الإسلام وتطبيقه .

ولقد أشار بعض الصحابة على أبي بكر بتغيير قائد الجيش لكونه حديث السن ، ونقل مشورتهم عمر بن الخطاب فكان لأبي بكر موقف آخر يدل على شدة تمسكه بأوامر النبي ﷺ وكان مما قال لعمر في ذلك : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أُؤَمِّر غير أمير رسول الله ﷺ ؟ ! ثم نهض بنفسه إلى الجُرف - وهو مكان الجيش - فاستعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير ، وسار معهم ماشيا وأسامة راكبا ، فقال : ياخليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل فقال : والله لستَ بنازل ولستُ براكب [1] .

وهكذا رأينا اهتمام أبي بكر رضي الله عنه بإنفاذ هذا الجيش الذي ترتبت عليه هذه النتائج الكبيرة ، وهو نموذج من مواقفه العالية رضي الله عنه ، كما يبين هذا النص تواضعه الجم حيث سار ماشيًا في توديع الجيش ولم يقبل من أسامة وهو الذي لم يتجاوز العشرين من عمره أن ينزل عن راحلته من أجله رضي الله عنهم .

* * *

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٩ .

٤ - مثل من العلم الراسخ والقوة في تنفيذ الحق - (أبو بكر وجهاد المرتدين والمتمردين)

لقد كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه جهود كبيرة ومواقف عالية في مواجهة المرتدين عن الإسلام والمتمردين على الدولة الإسلامية ، وذلك أنه بعد وفاة النبي ﷺ ارتدت قبائل كثيرة عن الإسلام ، ومن زعماء هذه القبائل من ادّعى النبوة كمسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي ، ومن القبائل من بقيت على إسلامها لكنها امتنعت من دفع الزكاة ، وقد جاء وفود بعض هؤلاء إلى المدينة وهم يُقرُّون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة وتكلم الصحابة مع أبي بكر في أن يتركهم وماهم عليه من منع الزكاة حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم فأبى من ذلك وأصر على قتالهم[1]، كما جاء في حديث أبي هريرة الذي أخرجه الشيخان أنه قال : لما توفي النبي ﷺ واستُخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر : يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرْت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله . قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها ، قال عمر : فو الله ماهو إلا أن رأيت أنْ قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق» [2] .

وقوله « فإن الزكاة حق المال » يعني كما أن الصلاة حق النفس وقد

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣١٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين ، رقم ٦٩٢٤ ، ٦٩٢٥ (١٢/ ٢٧٥) ، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، (١/ ٢٠٠) .

قال ﷺ في هذا الحديث « فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه » وقد اقتنع عمر رضي الله عنه بهذا الفهم وعرف أن أبا بكر رضي الله عنه على الحق .

وهذا مثل من الأمثلة الدالة على علو كعب الصديق في العلم وأنه كان أفقه الصحابة وأعلمهم بالإسلام .

وهذا الحديث الذي استدل به عمر على أبي بكر لم يَردْ فيه ذكر الصلاة والزكاة ، وإنما فهم الصديق من قول النبي ﷺ « إلا بحقه » أن حق النفس الصلاة وحق المال الزكاة ، وكون الصديق استشهد بالصلاة وقرن بها الزكاة في قوله « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » دليل على أن قتال تاركي الصلاة كان محل اتفاق بين الصحابة .

وقد جاء ذكر الصلاة والزكاة في قول الله تعالى﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [1] ، وفي قول رسول الله ﷺ الذي أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام » [2] .

وعلى هذا فاجتهاد الصديق رضي الله عنه في فهم الحديث الأول المجمل قد جاء موافقا لصريح الكتاب والسنة .

---

(١) التوبة / ٥ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، رقم ٢٥ (١/ ٧٥) ، صحيح مسلم ، الإيمان ، باب فضل أبي بكر (١/ ٢١٢) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بهذه المناسبة من حديث صالح بن كيسان ، ومما جاء في هذه الخطبة قوله :

إن مَنْ حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم ، ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهد منهم يومهم هذا ، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا ، على ما تقدم من بركة نبيكم ﷺ ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي ، الذي وجده ضالاً فهداه ، وعائلاً فأغناه ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [1] الآية ، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ، ويوفي لنا عهده ، يُقتل من قتل منا شهيداً من أهل الجنة ، ويبقي من بقي منها خليفته وذريته في أرضه ، قضاء الله الحق ، وقوله الذي لا خُلف له ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية [2] [3] .

وهذه الخطبة تدل على قوة إيمان أبي بكر رضي الله عنه ورسوخ يقينه وثقته العالية بنصر الله تعالى أولياءه ، ونجده وقد انتقضت عليه أكثر قبائل العرب يَصفُ جنود دولته بأنهم لم يكونوا أقوى منهم في تلك الحال ، وهذه عزمة صدِّيقية بعثتْها روحه القوية ومعنويته العالية ، وقد أكسب بذلك جنود الإسلام هذه القوة بعدما اعترى بعضهم شيء من الخوف والقلق من مصير دولة الإسلام .

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٣ .

(٢) سورة النور / ٥٥ .

(٣) البداية والنهاية ٦/ ٣١٥ - ٣١٦ .

فما أعظم الدين الإسلامي الذي يحول الفرد الواحد إلى طاقة عالية لاتعادلها طاقة الألوف من البشر !

ومما يصور ضخامة المسئولية التي تحملها أبو بكر الصديق رضي الله عنه والمسلمون معه في ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث عمرو ابن شعيب ، قال : كان رسول الله ﷺ قد بعث عمرو بن العاص إلى جَيْفر ، منصرفه من حجة الوداع ، فماتَ رسولُ الله ﷺ وعمرو بعُمان ، فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوَى في الموت . فقال له المنذر : أشِرْ عليَّ في مالي بأمر لي ولا عليّ ، قال : صَدِّقْ بعَقار صَدَقةً تجري من بعدك ، ففعل . ثم خرج من عنده ، فسار في بني تميم ، ثم خرج منها إلى بلاد بني عامر ، فنزل على قُرَّة بن هبيرة ، وقرّة يقدّم رجْلا ويؤخِّر رجلاً ، وعلى ذلك بنو عامر كلهم إلا خَوَاصَّ ، ثم سار حتى قدم المدينة ، فأطافت به قريش ، وسألوه فأخبرهم أن العساكر مُعَسكرة من دَبَا [1] إلى حيث انتهيت إليكم ، فتفرقوا وتَحلَّقوا حلَقًا ، وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو ، فمر بحلْقة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو ، في تلك الحلْقة عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد ، فلما دنا عمر منهم سكتوا ، فقال : فيم أنتم ؟ فلم يجيبوه ، فقال : ما أعلمني بالذي خلوتم عليه ! فغضب طلحة ، وقال : تالله يابن الخطاب لتُخبرنَّا بالغيب ! قال : لايعلم الغيبَ إلا الله ، ولكن أظن قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يُقرُّوا بهذا الأمر ! قالوا : صدقت ، قال : فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوفُ منِّي من العرب عليكم ، والله لو تدخلون

---

(١) هي بلدة في عمان .

معاشر قريش جُحْراً لدخلتْه العرب في آثاركم ، فاتقوا الله فيهم ومضى إلى عمرو فسلمّ عليه ، ثم انصرف إلى أبي بكر .

ومما يصور ذلك ماأخرجه الإمام الطبري من حديث هشام بن عروة، عن أبيه ، قال: نزل عمرو بن العاص منصرفه من عُمان - بعد وفاة رسول الله ﷺ- بقُرَّة بن هُبيرة بن سلمة بن قُشير ، وحوله عسكر من بني عامر من أفنائهم ، فذبح له وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة، فقال: ياهذا، إن العرب لاتطيبُ لكم نفسًا بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم . فقال عمرو : أكفرت ياقرّة ؟ . . ثم ذكر أن قرة هدد بغزو المدينة. فقال عمرو: أتوعدنا بالعرب وتخوّفنا بها ! موعدك حَفْشُ[1] أمك، فو الله لأوطئنّ عليك الخيل . وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبرهم[2].

وهذا الخبر يبين لنا شجاعة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وذلك في جهره بقول الحق أمام بني عامر الذين تنكَّر كثير منهم لدولة الإسلام وهددوها بالغزو ، ومع ذلك ومع كونه وحده فإنه يواجه زعيمهم قرة بن هبيرة بوصف الكفر حينما سمَّى الزكاة إتاوة وأبدى رفضه لإخراجها ، كما أنه يهدد ذلك الزعيم بحرب مفنية وبتعبير فيه شيء من تحقيره ، وهذه شجاعة عالية من عمرو بن العاص تدل على رسوخ إيمانه وقوة قلبه .

وفي أثناء هذا الخبر موقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يدل على

---

(١) الحفش : حقيبة المرأة تضع فيه زينتها ، يريد تحقيره .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٨ - ٢٥٩ .

قوة يقينه وثقته البالغة بوعد الله تعالى بنصر أوليائه حيث أبان بأنه لايخاف من العرب على دولة الإسلام وإن رموها بقوس واحدة وإنما يخاف على العرب من قريش بعد سيادتهم أن يظلموهم .

ولقد عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن حالهم آنذاك بقوله : « لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاما كدْنا نهلك فيه لولا أن منَّ الله علينا بأبي بكر ، اجتمع رأينا جميعا على أن لانقاتل . . ونعبد الله حتى يأتينا اليقين [(١)] وعزم الله لأبي بكر رضي الله عنه على قتالهم فو الله ما رضي منهم إلا بالخطَّة المخزية [(٢)] أو الحرب المجلية ، فأما الحطة المخزية فأن يُقرُّوا بأن من قتل منهم في النار وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم » رواه البلاذري بإسناده عن الشعبي [(٣)] .

وهكذا عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن القعود عن الجهاد بالهلاك مما يدل على فظاعة هذا الأمر وأنه من الآثام الكبيرة .

لقد اجتمع رأي كثير من الصحابة رضي الله عنهم على أن يتركوا العرب وشأنهم ، وأن يقصروا دولتهم على المدينة وماحولها ومن أطاعهم بغير قتال ، لا لأنهم يرون عدم وجوب إقامة دولة الإسلام الكبرى ، ولا لأنهم يرون عدم وجوب إنكار هذا المنكر العظيم ، وهو ارتداد من ارتد من العرب أو تمرَّد على الدولة الإسلامية ، فليسوا

---

(١) يعني الموت ، من قوله تعالى ﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

(٢) جاء في الأصل الخطة بالخاء وصوابه الحطة بالحاء المكسورة كما في الروايات الأخرى .

(٣) فتوح البلدان / ١٣١ .

يجهلون حكم الإسلام في ذلك ، وإنما لأن أكثر العرب رموهم عن قوس واحدة ، وقد ذكر لهم عمرو بن العاص - كما سبق في الخبر الذي قبل هذا - أن بلاد العرب من عُمان إلى المدينة قد عسكروا يريدون إقامة تجمعات كبرى ، ويرفضون دفع الزكاة وتبعية دولة الإسلام في المدينة ، فلم يَصل كثير من الصحابة من اليقين إلى الدرجة التي وصل إليها أبو بكر رضي الله عنه من ضرورة قيام دولة الإسلام وانتصار أنصاره في النهاية مهما بلغ حجم الأعداء ، فاعتبر أبو هريرة رضي الله عنه نقصهم في هذا اليقين الذي حملهم على إرادة القعود عن الجهاد هلاكا في دينهم ، واعتبر أبا بكر منقذا لهم من ذلك الهلاك حيث صمم على جهاد جميع من ارتد أو تمرد من العرب من غير نظر إلى نتائج ذلك ، حيث إنه يطبق الإسلام الذي سيظل ناقصا بغير إقامة دولة الإسلام ، فهو في جهاده يؤدي فرضا لازما عليه وعلى المسلمين جميعا .

ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قدوة عظمى لهذه الأمة فيما لو مرت بواقع يشبه ذلك الواقع الذي عاصره وتبوأ مقام المسئولية العليا فيه .

* * *

٥ – جهاد المرتدين والمتمردين حول المدينة –

١ – أخرج الإمام ابن جرير الطبري خبر المرتدين والمتمردين من القبائل القريبة من المدينة وذلك فيما يرويه بإسناده عن القاسم بن محمد قال : ماتَ رسولُ الله ﷺ ، واجتمعت أسد وغَطفان وطيئ على طليحة، إلا ما كان من خواصٍّ أقوام في القبائل الثلاث ، فاجتمعت أسد بسميراء ، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة ، وطيئ على حدود أرضهم . واجتمعت ثَعلبة بن سعد ومن يليهم من مُرة وعَبْس بالأبرق من الرَّبذة ، وتأشَّبَ [١] ، إليهم ناسٌ من بني كنانة ، فلم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين ، فأقامت فرقة منهم بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذي القَصّة ، وأمدهم طليحة بحبال [٢] فكان حبال على أهل ذي القصة من بني أسد ومن تأشَّب من لَيْث والدِّيل ومُدْلج . وكان على مُرّة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان ، وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان ، أحد بني سَبيع .

وقد بعثوا وفودًا فقدموا المدينة ، فنزلوا على وجوه الناس ، فأنزلوهم ما خلا عبَّاسًا فتحملوا بهم على أبي بكر ، على أن يقيموا الصلاة، وعلى ألا يؤتوا الزكاة ، فعزم الله لأبي بكر على الحق ، وقال : لو منعوني عقالا [٣] لجاهدتهم عليه – وكان عُقُل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة – فردّهم فرجع وفدُ من يلَي المدينة من المرتدَّة إليهم، فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة وأطمعوهم فيها [٤] .

---

(١) أي انضم .

(٢) حبال بكسر الحاء وفتح الباء هو أخو طليحة بن خويلد الأسدي .

(٣) العقال هو الحبل الذي يربط به البعير ، وذلك كناية عن الشيء القليل .

(٤) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٤ .

٢ - وقال الإمام الطبري : فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هَرب ضرار وقُضاعيّ وسنان ومن كان قام بشيء من أمر النبي ﷺ في بني أسد إلى أبي بكر ، وارفض من كان معهم ، فأخبروا أبا بكر الخبر ، وأمروه بالحذر ، فقال ضرار بن الأزور : فما رأيتُ أحدًا - ليس رسول الله ﷺ - أملأ بحرب شعواء من أبي بكر ، فجعلنا نخبره ، ولكأنما نخبره بما له ولا عليه [١] .

٣- وفي جهاد هؤلاء المرتدين والمتمردين حول المدينة يقول الإمام الطبري فيما يرويه عن القاسم بن محمد : وجعل أبو بكر بعدما أخرج الوفد [٢] على أنقاب المدينة نفرًا : عليًا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود ، وأخذ أهلَ المدينة بحضور المسجد ، وقال لهم : إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليْلاً تُؤتَون أم نهارًا! وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا إليهم عهدهم ، فاستعدوا وأعدّوا .

فما لبثوا إلا ثلاثًا حتى طرقوا المدينة غارةً مع الليل ، وخلفوا بعضهم بذي حُسَى ، ليكونوا لهم ردْءًا ، فوافق الغُوَّار ليلا الأنقاب ، وعليها المقاتلة ، ودونهم أقوام يدرجون ، فنبّهوهم ، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر ، فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ، ففعلوا . وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم ، فانفشَّ العدوّ ، فاتّبعهم المسلمون على إبلهم ، حتى بلغوا ذا حُسَى ، فخرج عليهم الرّدء بأنحاء قد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٨ .

(٢) يعني وفد القبائل الذين حضروا للمفاوضة في ترك الزكاة .

نفخوها[1]، وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها [2]بأرجلهم في وجوه الإبل، فتدهده كل نحْي في طوَله [3]، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها - ولاتنفر الإبل من شيء نفارَها من الأنحاء - فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة فلم يُصْرَع مسلمٌ ولم يُصَبْ إلى أن قال: وقال عبد الله الليثي - وكانت بنو عبد مناة من المرتدّة - وهم بنو ذُبيان - في ذلك الأمر بذي القَصَّة وبذي حُسَى -:

أطَعنا رسولَ الله ماكان بيننا فيا لَعباد الله ما لأبي بكر!
أيُورثُها بَكرًا إذا مات بعده وتلكَ لعمرُ الله قاصمة الظهر
فهلا رَدَدْتم وفْدَنا بزَمَانه وهلا خشيتم حسَّ راغية البكر!
وإنَّ التي سالُوكُمُ فمنعتُمُ لكالتَّمْر أوْ أحلى إليّ منَ التمر

فظنَّ القوم بالمسلمين الوهَن، وبعثوا إلى أهل ذي القَصَّة بالخبر، فقدموا عليهم اعتمادًا في الذين أخبروهم، وهم لايشعرون لأمر الله عز وجل الذي أراده، وأحب أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر ليلته يتهيأ، فعبَّى الناس، ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النُّعمان بن مُقرِّن، وعلي ميسرته عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة سُويد بن مقرن معه الرُّكاب، فما طلع الفجر إلا وهُم والعدوُّ في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين هَمْسًا ولاحسًّا حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذَرَّقرن الشَّمس حتى ولوهم الأدبار،

(١) الأنحاء هي القرَب.

(٢) أي دفعوها.

(٣) أي في حبله.

وغلبوهم على عامة ظهرهم ، وقُتل حبالٌ واتبعهم أبو بكر ، حتى نزل بذي القصَة - وكان أول الفتح - ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد ، ورجع إلى المدينة فذل بها المشركون .

فوثب بنو ذُبيان وعبس على من فيهم من المسلمين ، فقتلوهم كل قتلة ، وفعل من وراءهم فعلهم ، وعزَّ المسلمون بوقعة أبي بكر ، وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة ، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة ، وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي :

أقمنا لهم عُرض الشمال فكُبكِبُوا ... ككَبْكَبَة الغُزَّى أناخوا على الوَفر

فما صَبَرُوا للحرب عندَ قيامها ... صبيحةَ يسمُو بالرجال أبو بكر

طرقنا بني عبس بأدنى نباجها[1] ... وذُبيانَ نَهْنَهْنا بقاصمة الظهر

ثم لم يُصنع إلا ذلك ، حتى ازداد المسلمون لها ثباتًا على دينهم في كل قبيلة ، وازداد لها المشركون انعكاسًا من أمرهم في كل قبيلة ، وطرقت المدينة صدقاتُ نفر : صفوان ،الزبرقان ، عدي [2] ، صفوان ، ثم الزبرقان، ثم عدي ، صفوان في أول الليل ، والثاني في وسطه ، والثالث في آخره . وكان الذي بشر بصفوان سعد بن أبي وقاص ، والذي بشر بالزبرقان عبدُ الرحمن بن عوف ، والذي بشر بعديّ عبدُ الله ابن مسعود . وقال غيره : أبو قتادة .

قال : وقال الناس لكلِّهم حين طلع : نذير ، وقال أبو بكر : هذا

(١) أي أقرب مرتفعاتها .

(٢) صفوان هو صفوان بن صفوان سيد بني عمرو من تميم ، والزبرقان هو الزبرقان بن بدر سيد بني الرباب من تميم ، وعدي هو بن حاتم سيد طيئ .

بشير ، هذا حام وليس بوان ، فإذا نادى بالخير ، قالوا : طالما بشرت بالخير! وذلك لتمام ستين يومًا من مخرج أسامة . وقدم أسامة بعد ذلك بأيام لشهرين وأيام ، فاستخلفه أبو بكر على المدينة ، وقال له ولجنده : أريحوا وأريحوا ظهركم .

ثم خرج في الذين خرجوا إلى ذي القَصّة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر ، فقال له المسلمون : ننشُدك الله ياخليفة رسول الله أن تُعرِّض نفسك ! فإنك إن تُصَب لم يكن للناس نظامٌ ، ومقامُك أشدُّ على العدوّ ، فابعث رجلاً ، فإن أصيب أمّرت آخر ، فقال : لا والله لا أفعلُ ولأواسينّكم بنفسي ، فخرج في تعبيته إلى ذي حُسَى وذي القصة ، والنُّعمان وعبد الله وسُويد على ماكانوا عليه ، حتى نزل على أهل الرَّبذة بالأبرق ، فاقتتلوا ، فهزم الله الحارث وعوفًا ، وأُخذ الحطيئة أسيراً . فطارت عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر على الأبرق أيامًا ، وقد غلب بني ذُبيان على البلاد . وقال : حرام على بني ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذْ غنَّمَناها اللهُ ! وأجلاها .

فلما غُلب أهل الردّة ، ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه ، وسامح الناس جاءت بنو ثَعلبة ، وهي كانت منازلهم لينزلوها ، فمُنعوا منها فأتوه في المدينة . فقالوا : عَلاَمَ نُمْنع من نزول بلادنا ! فقال : كذبتم ، ليست لكم ببلاد ، ولكنها مَوْهبي ونَقَذى [١] ، ولم يُعْتبْهم [٢] ، وحَمَى الأبرق لخيول المسلمين . وأرعى سائر بلاد الرَّبذة الناس على بني ثعلبة ، ثم حَمَاها كلَّها لصدقات المسلمين ، لقتال كان وقع بين الناس

(١) النَّقَذ ما استُنقذ من الأعداء .

(٢) أي لم يُقل عثرتهم .

وأصحاب الصدقات ، فمنع بذلك بعضهم من بعض .

ولما فُضّتْ عبس وذبيان أرَزوا إلى طُليحة وقد نزل طليحة على بُزَاخة ، وارتحل عن سَميراء إليها ، فأقام عليها ، وقال في يوم الأبرق زياد بن حنظلة :

ويوم بالأبارق قد شَهِدنا على ذُبيانَ يَلْتهب التهابا
أتَيْناهم بداهَية نَسُوُف (١) مَعَ الصّدّيق إذ تركَ العتَابَا (٢) (٣)

في هذه الأخبار مواقف عالية لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فمن ذلك أولاً وقوفه القوي الحازم في وجه الأعراب الذين أرادوا أن يفرقوا الدين فيستسلموا لبعض ويتمردوا على البعض الآخر ، حيث عرضوا عليه أن يقيموا الصلاة وأن لايؤتوا الزكاة فرفض طلبهم هذا بقوة وإباء ، بالرغم من قلة المؤمنين وكثره أعدائهم ، ومع معارضة بعض الصحابة رضي الله عنهم إياه في ذلك ، وذلك دليل على قوة إيمانه وغزارة علمه .

وقد تكون النظرة السياسية لهذا الأمر أن يقبل أبو بكر من هؤلاء ماعرضوا عليه وأن يوادعهم ويصرف النظر عن موضوع الزكاة إلى حين ، وأن يوجه جهوده لقتال المرتدين . . قد تكون سياسة الأمور تقتضي هذا خاصة في حال قلة المؤمنين آنذاك ، ولكن أبا بكر لم يكن ليقبل منهم إسلاما ناقصا ، وماقيمة إسلام قد اختل ركن من أركانه ؟ فالإسلام إما أن يؤخذ كاملا كما جاء من عند الله تعالى أو فلا إسلام .

(١) أي شاقة .

(٢) أي ترك إقالة العثرات .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٥ - ٢٤٨ .

ثانيًا : موقف بارع من أبي بكر رضي الله عنه في التخطيط الحربي فحينما رأى المدينة مهددة من القبائل المجاورة وضع على مداخلها حرسًا من كبار الصحابة ، وأمر أهل المدينة بأن يرابطوا في المسجد ليكونوا على استعداد دائم حتى يتمكنوا من صد المهاجمين بسرعة ، وهذا مثل من أمثلة اليقظة وأخذ الحذر والتصرف بحزم للوقاية والدفاع ، وقد أفادت هذه الاحتياطات في معرفة قدوم العدو أول ما قدم والهجوم عليه قبل أن يتمكن .

ثالثًا : عَزْمٌ قوي من أبي بكر لاتؤثر فيه الزعازع والمحن ، فحينما دبَّر الأعداء مكيدتهم في تنفير إبل المسلمين وتفرق بها جيشهم لم ييأس أبو بكر ولم يعْتَره الوهن ولم تعرف الراحة إلى جسمه سبيلا ، بل نهض من ساعة وصوله إلى المدينة وقام بتعبية جيشه في تلك الليلة ، فلم ينم ولم يترك أحدًا ينام بل سرى بذلك الجيش ليلته حتى صبَّح الأعداء وهم مستسلمون للراحة ، ولم يَدُرْ بخَلَدهم أن جيشا من الأسود الكاسرة قد بيَّتوهم ليعصفوا بهم ويحيلوهم كأمس الذاهب .

إنه لم يكن في عرف العرب الحربي أن جيشًا يُفَلُّ ويتفرق شذَر مذَر يستطيع أن يلمَّ شعثه ويجمع شمله وينطلق بتعبية ونظام في ليلة واحدة ، فلذلك كان أفراد تلك القبائل في أمان من هجوم المسلمين عليهم قبل مرور أيام من الوقعة السابقة ، بل كانوا يريدون جمع أكبر عدد ممكن من المقاتلين ليهجموا بهم على المدينة ، فإذا بالشيخ الذي ظنوه قد فقد حيوية الشباب يعود وقد حوى حيوية أمة من الشباب فيقتلعهم من جذورهم ويهيمن على ممتلكاتهم .

وبهذا العزم القوي والسياسة الحكيمة أرهب أبو بكر جميع القبائل

المحيطة بالمدينة وأظهر للقبائل العربية قوة المسلمين ووحدة كلمتهم .

وإن من أسباب نجاحه المهمة طاعة المسلمين التامة له في المدينة ، حتى في الأحوال التي لا يقتنعون برأيه فيها في بداية الأمر ، مما يدل على مكانته العالية في نفوس الصحابة جميعًا رضي الله عنهم ، وقد أبانت الأحداث أن رأيه كان هو السديد الموافق للسنة في القضايا التي اختلف فيها معه بعض الصحابة .

رابعًا : في خروج أبي بكر رضي الله عنه للجهاد للمرة الثالثة تضحية كبيرة وفدائية عالية ، فقد ناشده المسلمون أن يبقى في المدينة ويبعث قائدًا على الجيش فلم يقبل بل قال : لا والله لا أفعل ولأواسينّكم بنفسي ، وهذا يدل على تواضعه الجمِّ ، واهتمامه الكبير بمصلحة الأمة وتجرده من حظ النفس ، وقد أصبح بذلك قدوة صالحة لغيره ، فلا شك أن خروجه للجهاد ثلاث مرات متتاليات وهو الشيخ الذي بلغ الستين من عمره قد أعطى بقية الصحابة دفعات قوية من النشاط والحيوية .

وقد جاء في إحدى هذه الروايات أن ضرار بن الأزور حينما أخبر أبا بكر الصديق بخبر تجمع طليحة الأسدي قال : « فما رأيت أحدًا - ليس رسول الله ﷺ - أملأ بحرب شعواء من أبي بكر ، فجعلنا نخبره ولكأنما نخبر بما لَهُ ولا عليه » .

وهذا وصف بليغ لما كان يتصف به أبو بكر من اليقين الراسخ والثقة التامة بوعد الله تعالى أولياءه بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض ، وأبو بكر لم يَفُق الصحابة بكبير عمل وإنما فاقهم بحيازة الدرجات العلى من اليقين رضي الله عنهم جميعًا .

* * *

٦ – مخاطبة المرتدين والمتمردين وعقد الألوية لقتالهم –

لما وصل جيش أسامة بعد شهرين من مسيرهم واستراحوا خرج أبو بكر الصديق بالصحابة رضي الله عنهم إلى « ذي القَّصَّة » وهي على مرحلة من المدينة ، وذلك لقتال المرتدين والمتمردين ، فعرض عليه الصحابة أن يبعث غيره على القيادة وأن يرجع إلى المدينة ليتولَّى إدارة أمور الأمة وألحُّوا عليه بذلك ، ومما رُوي في هذا الموضوع ماذكره الحافظ ابن كثير من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : خرج أبي شاهراً سيفه راكبًا راحلته إلى وادي ذي القصة فجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأخذ بزمام راحلته فقال : إلى أين ياخليفة رسول الله ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد [1] ، لُمَّ سيفك ولاتفجعنا بنفسك ، فو الله لئن أُصبنا بك لايكون للإسلام بعدك نظام أبدًا ، فرجع وأمضى الجيش [2] .

ومن هذا الخبر يتبين لنا كيف كان الصحابة رضي الله عنهم مغتبطين بخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث جمعهم الله به وألهمه الصواب في قضايا مهمة اختلفوا فيها وأنهم كانوا مشفقين عليه من مواجهة الأعداء بنفسه حتى لايَفقدوه فيختل نظامهم بعده ، فإنه كان الرجل الذي اجتمعت عليه كلمتهم بعد شيء من الخلاف الذي مرَّ ذكره ، وهو المدبِّر الحكيم القوي الذي صدع بالحق في قضايا تهيَّب منها غيره .

وقد قسم أبو بكر الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواء وجعل على

---

(١) يعني قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر يوم أحد حينما أراد أن يبارز ابنه عبد الرحمن : شِمْ سيفك وارجع إلى مكانك ومتِّعنا بنفسك – انظر ج٥ ص ١١٧ من هذا الكتاب .

(٢) البداية والنهاية ٦/ ٣١٩ .

كل لواء أميراً ، كما أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق سيف ابن عمر عن سهل بن يوسف ، عن القاسم بن محمد ، قال : لما أراح أسامة وجنده ظهرهم وجَمُّوا - وقد جاءت صدقات كثيرة تفضُل عنهم - قطع أبو بكر البعوثَ وعقد الألوية ، فعقد أحد عشر لواءً : عقد لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُوَيرة بالبِطاح إن أقام له ، ولعكْرمة بن أبي جهل وأمره بمسيْلمة ، والمهاجر بن أبي أمية وأمره بجنود العنسي ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم ، ثم يمضي إلى كنْدة بحضْرَمَوت ، ولخالد بن سعيد بن العاص - وكان قدم على تفيئة [1] ذلك من اليمن وترك عمله وبعثه إلى الحَمْقَتَيْن من مشارف الشام ، ولعمرو بن العاص إلى جُمّاع قُضاعة ووديعة والحارث ، ولحذيفة بن محْصَن الغلفاني وأمره بأهل دبا ، ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمَهرة ، وأمرهما أن يجتمعا وكل واحد منهما في عمله على صاحبه ، وبعث شُرحْبيل بن حَسَنة في أثر عكرمة بن أبي جهل . وقال : إذا فرغ من اليمامة فالحق بقُضاعة ، وأنت على خيلك تقاتلُ أهل الردة ، ولطُريفة بن حاجز وأمره ببني سُليم ومن معهم من هوازن، ولسُويد بن مُقرِّن وأمره بتهامة اليمن ، والعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين [2] .

وهكذا قسم الصديق الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواء مع قلة المسلمين ، وإن هذا ليعتبر مثلا عاليا في كمال الثقة بنصر الله تعالى لأوليائه المؤمنين ماداموا قد حققوا الشروط المطلوبة منهم .

---

(١) يعني حين ذلك .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٤٩ .

أما لماذا غامر الصديق بتوزيع الجيش على هذا النحو مع أنه لو كان التوزيع أقل من ذلك وكانت البداءة بالأهم فالأهم لكان ضمان نجاح المهمة أكبر فلعله لاحظ أمرًا أهم من ذلك وهو أن المرتدين لازالوا متفرقين كلٌّ في بلده ولم يحصل منهم تحزب ضد المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في المكان ، أوَّلاً لأن الوقت لم يكن كافيا للقيام بعمل كهذا حيث لم يمض على ارتدادهم إلا مايقرب من ثلاثة شهور، وثانيًا لأنهم لم يدركوا خطر المسلمين عليهم وأنهم باستطاعتهم أن يكتسحوهم جميعًا في شهور معدودة ، فلعل الصديق أراد أن يعاجلهم بضربات قاضية عليهم جميعًا قبل أن يجتمعوا في نصرة باطلهم .

وانطلقت هذه الألوية التي ترفرف عليها أعلام التوحيد مصحوبة بدعوات خالصة من قلوب لم يتسرب إليها تعظيم أحد غير الله تعالى، ومن حناجر لم تلهج إلا بذكره تعالى ، فاستجاب الله جل وعلا هذه الدعوات النقية فأنزل عليهم نصره وأعلى بهم كلمته وحمى بهم دينه حتى دانت جزيرة العرب للإسلام في شهور معدودات .

هذا وقد كتب أبو بكر الصديق كتابًا واحداً إلى قبائل العرب من المرتدين والمتمردين ، كما أخرج الإمام الطبري من حديث عبد الرحمن ابن كعب بن مالك ، وهذه نسخة الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بَلَغه كتابي هذا من عامَّة وخاصَّة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه ، سلامٌ علَى مَن اتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده

لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، نُقرُّ بما جاء به ، ونكفِّر من أبى ونُجاهده .

أمّا بعدُ ، فإن الله تعالى أرسلَ محمداً بالحقّ من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً ، لينذر من كان حيًا ويحقّ القول على الكافرين . فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضربَ رسولُ الله ﷺ بإذنه[1] من أدبر عنه ، حتى صار إلى الإسلام طوْعًا وكَرْهًا .

ثم تَوَفَّى الله رسوله ﷺ وقد نَفَذ لأمر الله ، ونصح لأمته ، وقضى الذي عليه ، وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل ، فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ وما جعلْنا لبشر مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [3] ، وقال للمؤمنين : ﴿ وما مُحمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [4] ، فمن كان إنما يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان إنما يعبدُ الله وحده لاشريك له فإن الله له بالمرصاد ، حيٌّ قيُّومٌ لايموت ، ولاتأخذُهُ سِنَة ولانومٌ ، حافظ لأمره ، منتقمٌ من عدوّه ، يجزيه .

وإنيّ أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ، وماجاءكم به نبيُّكم ﷺ ، وأن تهتدوا بهُداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإنّ كلّ من

(١) أي بإذن الله تعالى .

(٢) سورة الزمر : ٣٠ .

(٣) سورة الأنبياء ٣٤ .

(٤) سورة آل عمران ١٤٤ .

لم يهده الله ضالٌ ، وكلّ من لم يُعافه مُبْتلَى ، وكل من لم يُعنه الله مخذول . فمن هداه الله كان مُهْتديًا ومن أضله كان ضالاً ، قال الله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (١) ، ولم يُقبل منه في الدنيا عملٌ حتى يقر به ، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولاعدل .

وقد بلغني رجوعُ من رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به اغترارًا بالله ، وجهالة بأمره ، وإجابة للشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ (٢) . وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) ، وإني بعثتُ إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرتُه ألا يقاتل أحدًا ولايقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكفّ وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرتُ أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يُبقي على أحد منهم قدر عليه ، وأن يُحرقهم بالنار ، ويقتلهم كل قتلة ، وأن يَسبي النساء والذراري ، ولايقبل من أحد إلا الإسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعجز الله . وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان : فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كُفّوا عنهم ، وإن لم

---

(١) سورة الكهف ١٧ .

(٢) سورة الكهف ٥٠ .

(٣) سورة فاطر ٦ .

يؤذّنوا عاجلوهم ، وإن أذّنوا اسألوهم ماعليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقرّوا قَبل منهم ، وحَمَلهم على ما ينبغي لهم .

فنفذت الرُّسل بالكتب أمام الجنود ، وخرجت الأمراء ومعهم العهود :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهدٌ من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كلِّه سرّه وعلانيته ، وأمره بالجدّ في أمر الله ، ومجاهدة مَنْ تولّى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان بعد أن يُعذر إليهم فيدعوَهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرُّوا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذي لهم ، لايُنظرهم ، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم . فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقرّ له قَبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيلٌ ، وكان الله حسيبه بعدُ فيما استسرّ به ، ومن لم يجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغَمُه ، لايقبل من أحد شيئًا أعطاه إلا الإسلام ، فمَن أجابه وأقرّ قَبل منه وعلّمه ، ومَنْ أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قَتَل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسَّم ما أفاء الله عليه ، إلا الخُمس فإنه يبلّغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألاّ يُدخل فيهم حَشْوًا حتى يعرفهم ويعلم ماهم ، لايكونوا عيونًا ، ولئلاّ يُؤتى المسلمون من قِبَلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقّدهم ، ولا يُعَجّل

بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حُسْن الصحبة ولين القول(١) .

وهكذا قدَّم خليفة رسول الله ﷺ أبوبكر الصديق رضي الله عنه دعوة أولئك المرتدين والمتمردين إلى العودة إلى الإسلام وتطبيقه كاملا كما جاء من عند الله تعالى ثم حذرهم من سوء العاقبة فيما لو ظلوا على ماهم عليه في الدنيا والآخرة ، وكان قويا في إنذارهم ، وهذا هو المناسب لشدة انحرافهم وقوة تصلبهم في التمسك بباطلهم ، فكان لابد من إنذار شديد يتبعه عمل جريء قوي لإزالة الطغيان الذي عشَّش في أفكار زعماء تلك القبائل والعصبية العمياء التي سيطرت على أفكار أتباعهم .



---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٠ - ٢٥٢ .

٧ - جهاد تجمع طليحة الأسدي -

١- أخرج الإمام ابن جرير الطبري بإسناده عن سهل بن يوسف، عن القاسم بن محمد وبدر بن الخليل وهشام بن عروة، قالوا: لما أرَزَتْ عَبْس وذُبيان ولفُّها إلى البُزَاخَة [١] أرسل طليحة إلى جَديلة والغَوْث أن ينضمُّوا إليه، فتعجَّل إليه أناس من الحَيَّيْن، وأمروا قومهم باللحاق بهم، فقدموا على طُليحة، وبعث أبو بكر عَدِيًا قبل توجيه خالد من ذي القَصَّة إلى قومه، وقال: أدْركْهُم لا يُؤكلُوا. فخرج إليهم ففَتلهم في الذِّرْوَة والغارب، وخرج خالد في أثره، وأمره أبو بكر أن يبدأ بطيئ على الأكناف، ثم يكون وجهه إلى البُزاخة، ثم يثلِّث بالبُطاح، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يُحدِّث إليه، ويأمره بذلك. وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خَيْبر ومُنصَبٌّ عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف: أكناف سَلْمَى.

فخرج خالد فازوارَّ عن البُزاخة، وجَنَح إلى أجأ، وأظهر أنه خارج إلى خيبر، ثم مُنْصَبّ عليهم، فقعَّد ذلك طيئًا وبطَّأهم عن طليحة، وقدم عليهم عديٌّ، فدعاهم فقالوا: لانبايع أبا الفَصيل أبدًا [٢] فقال: لقد أتاكم قوم ليُبيحُنّ حريمكم، ولتُكَنُّنَّه بالفَحْل الأكبر، فشأنكم به. فقالوا له: فاستقبل الجيش فنهنهْه [٣] عنّا حتى نستخرج من لحق بالبُزاخة منّا، فإنا إن خالفنا طُليحة وهم في يديه قَتلهم أو ارْتهنهم. فاستقبلَ عديٌّ خالدًا وهو بالسُّنْح، فقال: ياخالد، أمسكْ عنِّي ثلاثًا يجتمع لك

(١) يعني بعد أن أوقع بهم أبو بكر كما في الخبر السابق.

(٢) يريدون بذلك أبا بكر رضي الله عنه، والبكر والفصيل اسمان لولد الناقة، وقصدهم الاستخفاف به.

(٣) أي ادفعه وكفه.

خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك ، وذلك خيرٌ من أن تُعْجلَهم إلى النار وتتشاغل بهم ، ففعل .

فعاد عدي إليهم وقد أرسلوا إخوانهم ، فأتوهم من بُزاخة كالمدد لهم ، ولولا ذلك لم يُتركوا ، فعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد ، وارتحل خالد نحو الأنسُر يريد جَديلة ، فقال له عديّ : إن طيئًا كالطائر ، وإن جَديلة أحدُ جناحي طيئ ، فأجِّلني أيامًا لعل الله أن يَنْتقذ جَديلة كما انتقذ الغوْث ، ففعل ، فأتاهم عديّ فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه بإسلامهم ، ولحق المسلمين منهم ألف راكب ، فكان خير مولود وُلد في أرض طيئ وأعظمه عليهم بركة [1] .

٢ - أخرج الإمام الطبري من حديث سعد بن مجاهد ، أنه سمع أشياخًا من قومه [2] يقولون : سألنا خالدًا أن نكفيه قيسًا فإن بني أسد حلفاؤنا ، فقال : والله ما قيسٌ بأوهن الشوْكتين ، اصمُدُوا إلى أيّ القبيلتين أحببتم ، فقال عديٌّ : لو ترك هذا الدين أسرتي الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه . فأنا أمتنع من جهاد بني أسد لحلْفهم ! لا لعمرُ الله لا أفعل ! فقال له خالد : إنّ جهاد الفريقين جميعًا جهادٌ ، لاتخالفْ رأيَ أصحابك ، امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط [3] .

٣ - أخرج الإمام الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن طلحة بن يزيد بن رُكانة ، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة ، قال :

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) يعني من قبيلة طيء .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٥ .

حُدِّثت أنّ الناس لما اقتتلوا ، قاتل عُيينة مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالا شديدًا ، وطليحة متلفِّف في كساء له بفناء بيت له من شعر ، يتنبأ لهم ، والناس يقتتلون ، فلما هزَّتْ عُيينة الحربُ ، وضرّس القتال ، كرَّ على طليحة ، فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا ، قال : فرجع فقاتل حتى إذا ضرَّس القتال وهزّته الحرب كرَّ عليه فقال : لا أبا لك! أجاءك جبريل بعد ؟ قال : لا والله ، قال : يقول عْيينة : حلفا حتى متى ! قد والله بلَغ منّا ! قال : ثم رجع فقاتل ، حتى إذا بلغ كرّ عليه، فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم ، قال: فماذا قال لك؟ قال : قال لي : « إن لك رحًا كرَحاه ، وحديثًا لاتنساه » ، قال : يقول عيينة : أظنّ أن قد علم الله أنه سيكون حديث لاتنساه ، يابني فزارة هكذا ، فانصرفوا ، فهذا والله كذاب .

فانصرفوا وانهزم الناس فغَشُوا طليحة يقولون : ماذا تأمرنا؟ وقد كان أعدّ فرسه عنده ، وهيأ بعيرًا لامرأته النّوَار ، فلما أن غشْوه يقولون : ماذا تأمرنا ؟ قام فوثب على فرسه ، وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل مافعلت وينجو بأهله فليْفعل ، ثم سلك الحوشيّة حتى لحق بالشام وارفضّ جمعه ، وقتل الله من قتل منهم ، وبنو عامر قريبًا منهم على قادتهم وسادتهم ، وتلك القبائل من سليم وهوازن على تلك الحال ، فلما أوقع الله بُطليحة وفزارة ما أوقع ، أقبل أولئك يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلّم لحُكْمه في أموالنا وأنفسنا (١) .

٤ - أخرج الإمام الطبري من حديث عبد الرحمن بن كعب ، عمن

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٦ .

شهد بزاخة من الأنصار ، قال : لم يُصبْ خالد على البُزاخة عيِّلا [1] واحدًا ، كانت عيالات بني أسد محرزة - وقال أبو يعقوب : بين مثْقَب وفلْج ، وكانت عيالات قيس بين فلج وواسط - فلم يعْدُ أن انهزموا ، فأقرُّوا جميعًا بالإسلام خشية على الذراري . واتقوا خالدًا بطلبته . واستحقوا الأمان .

ومضى طُليحة ، حتى نزل كلْب [2] على النَّقْع . فأسلم، ولم يزل مقيمًا في كلْب حتى مات أبو بكر ، وكان إسلامه هنالك حين بلغه أن أسدًا وغطفان وعامرا قد أسلموا ، ثم خرج نحو مكة معتمرًا في إمارة أبي بكر ، ومرّ بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر : هذا طليحة ، فقال: ما أصنع به ! خلوا عنه ، فقد هداه الله للإسلام .

ومضى طليحة نحو مكة فقضى عمرته ، ثم أتى عمر إلى البيعة حين استخْلف . فقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت [3] والله لا أحبُّك أبدًا . فقال : يا أمير المؤمنين ، ماتَهْتَمُّ من رجلين أكرمهما الله بيدي ، ولم يُهنِّي بأيديهما ! فبايعه عمر ثم قال له : ياخُدَع ، مابقي من كهانتك؟ قال: نفخة أو نفختان بالكير . ثم رجع إلى دار قومه ، فأقام بها حتى خرج إلى العراق [4] .

في هذه الأخبار مواقف منها :

---

(١) يعني النساء والذراري .

(٢) أي نزل في قبيلة كلب .

(٣) يعني عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم رضي الله عنهما . وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه ارسلهما طليعة لجيشه فقتلهما طليحة .

(٤) تاريخ الطبري ٣/ ٢٦١ .

أولا : قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعدي بن حاتم رضي الله عنه عن قومه « أدركهم لايؤكلوا » فيه مثل على قوة يقين أبي بكر وثقته بنصر الله تعالى فقد حكم على نتيجة المعركة مع طيء قبل الدخول فيها .

ثانيًا : أمْر أبي بكر خالدا رضي الله عنهما بأن يبدأ بحرب قبيلة طيء مع أنها أبعد من تجمع طليحة خطة حربية ناجحة ، وذلك ليحول دون انضمام طيء إلى طليحة وليضطر من انضم إليه منهم إلى التخلي عنه للدفاع عن قبيلتهم ، ثم في إظهار أبي بكر أنه خارج جهة خيبر ليلاقي خالدا ببلاد طيء تخطيط حربي بارع ، وذلك لإرهاب تلك القبيلة والقبائل المجاورة .

ثالثًا : موقف حربي كبير لعدي بن حاتم الطائي حيث استطاع إقناع قبيلته بفرعيها بني الغوث وبني جديلة بالتخلي عن معسكر طليحة والانضمام إلى جيش خالد بن الوليد ، وهذا تحوّل مهم في تقرير نتائج معركة بزاخة الحاسمة ، ولقد كان للتخطيط السابق الذكر بالبداءة بحرب قبيلة طيء في منازلهم أثر واضح في نجاح عدي في مهمته من ناحية خوف الطائيين من مداهمة جيش خالد ومن ناحية مقدرتهم على التمويه على طليحة بأن انسحاب من وصلوا إليه منهم كان الدافع إليه الإسراع في نجدة قومهم .

وهذا موقف عظيم يسجل لعدي رضي الله عنه إلى جانب موقفه الأول حينما قدم على الصديق بصدقات قومه ، وكان المسلمون بأمسّ الحاجة إلى المال آنذاك ، ولقد كان إسلامه من أول يوم إسلام رجل العلم والفهم فكان عن قناعة واختيار كما سبق في قصة إسلامه ولم يكن مجرد

استسلام لقوة المسلمين كما هو حال كثير ممن ارتدوا عن الإسلام ، وكان واثقًا من انتصار الإسلام والمسلمين في النهاية كما بشره بذلك النبي ﷺ يوم إسلامه ، فكان لإيمانه القوي أثر في إقناع قومه في العدول عما توجهوا إليه من مناصرة أعداء الإسلام ولم تكن قناعتهم إلى حد الحياد والانتظار حتى يروا لمن تكون الدائرة ، بل انضم منهم ألف وخمسمائة إلى جيش المسلمين مما يدل على مبلغ أثره فيهم .

رابعًا : موقف آخر لعدي بن حاتم ، وذلك حينما أنكر على قومه تمنعهم من حرب حلفائهم بني أسد وأظهر لهم أنه لو ترك الإسلام أقاربه الأدنون لجاهدهم في سبيله ، وهذا دليل على قوة إيمانه وغزارة علمه حيث والى أولياء الله وإن كانوا بعيدين عنه في النسب وتبرأ من أعداء الله وإن كانوا من أقاربه .

خامسًا : موقف لخالد بن الوليد رضي الله عنه يدل على خبرته الحربية وذلك حينما أمر عديًا بأن لايخالف قومه في تمنُّعهم من مواجهة حلفائهم بني أسد وأن يوجههم إلى الوجه الجهادي الذي يكونون فيه أنشط على القتال .

سادسًا : في الخبر الثالث وصف لمعركة بزاخة التي دارت بين تجمع طليحة من بني أسد وغطفان وقيس وعبس وذبيان من جهة والمسلمين بقيادة خالد بن الوليد من جهة ، وقد كانت معركة مصيرية حيث وقفت القبائل القريبة موقف المترقب الحذر ، ينتظرون نتيجة تلك المعركة لمن تكون له الدائرة أو عليه ، وذلك مثل قبيلة بني عامر وهوازن وسليم ، وقد كانت معركة عظيمة أبلى فيها الصحابة رضي الله عنهم بلاء عظيمًا

حتى هزموا أعداءهم وقتلوا منهم خلقا وأسروا آخرين وفرّ بقيتهم .

ومما يصور بلاء الصحابة العظيم وشجاعتهم الفذة ماذكره الإمام الذهبي من حديث الإمام الزهري قال : فسار خالد لقتال طليحة الكذاب فهزمه الله ، وكان قد بايع عيينة بن حصن ، فلما رأى طليحة كثرة انهزام أصحابه قال : مايهزمكم ؟ فقال رجل : أنا أحدثك ، ليس منا رجل إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإنا نلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه (1) .

وهذه شهادة باهرة للمسلمين من أعدائهم ، والحقّ ماشهدت به الأعداء ، أما لماذا هذا الفارق الكبير بين المسلمين والكفار فإنما هو لأن المسلمين يقاتلون من أجل الحياة الآخرة ، وأسرع الوسائل للوصول إلى المنازل العليا فيها أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى ، فلذلك كانوا يتسابقون إليها ، أما الكفار فإنما يقاتلون من أجل الدنيا ، ولن يصلوا إليها إلا بالبقاء على قيد الحياة ، فلذلك كانوا يتّقون الموت ويلوذون بغيرهم ، وهذا يعني أنهم يقاتلون بجزء يسير من طاقتهم ، ويبذلون أكثر طاقتهم في الدفاع عن أنفسهم ، بينما يبذل المسلمون كل طاقتهم في الهجوم على أعدائهم .

وبينما نرى طالب الحياة الدنيا يبتعد عن الأهوال ومواطن الخطر نرى طالب الحياة الآخرة يخوض غمارها بإقدام وقوة فينفر من بين يديه طلاب الحياة الدنيا ، ولذلك فإن طالب الشهادة في سبيل الله تعالى لايُقتل غالبا حتى يَقتل أو يهزم أعداداً كبيرة من الأعداء ، فلذلك كان الواحد منهم

---

(1) تاريخ الإسلام ، الخلفاء الراشدون / ٢٩ .

عن عشرة من غيرهم ممن هم مثله في القوة والشجاعة ، ومن أجل هذا كانوا ينتصرون على أضعافهم في العدد .

وهكذا استطاع الجيش الإسلامي بفضل الله تعالى ثم بقيادة القائد المحنَّك والبطل المغوار خالد بن الوليد أن يقضوا على ذلك التجمع الخطير .

وكان من براعة أبي بكر الصديق في اختيار الرجال أن اختار لهذه المهمة التي لها مابعدها أبا سليمان الذي لم تنتكس له راية ، وقد أثنى عليه أبو بكر حينما عقد له اللواء بقوله : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعْمَ عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سلَّه الله على الكفار والمنافقين » ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الإمام أحمد[1] .

فلما أوقع الله بطليحة وجمعه قالت بنو عامر وسليم وهوازن : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا ، كما سبق في الرواية الثالثة ، وهكذا زال طغيان أولئك الأعراب الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر لينضموا إلى أعدائهم ولكن الله سلَّم وحمى أولياءه من تحزب أعدائه عليهم .

وقال الحافظ ابن كثير في بيان موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من نتائج هذه المعركة :

وقد كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه أنه كسر طليحة ومن كان في صفه وقام بنصره فكتب إليه : ليَزِدْك ما أنعم الله به

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٢١ .

خيراً واتق الله في أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، جدَّ في أمرك ولاتلن ولاتظفر بأحد من المشركين قتل من المسلمين إلا نكلت به ، ومن أخذت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن في ذلك صلاحًا فاقتله .

فأقام خالد ببزاخة شهراً يُصعِّد فيها ويصوِّب ويرجع إليها في طلب الذين وصاه بسببهم الصديق ، فجعل يتردد في طلب هؤلاء شهراً يأخذهم بثأر من قُتلوا من المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم حين ارتدوا ، فمنهم من حرقه بالنار ، ومنهم من رضخه بالحجارة ومنهم من رمى به من شواهق الجبال ، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب، رضي الله عنه [1] .

وهذا الكتاب يتضمن الدعاء لخالد الذي يفهم منه الثناء عليه بإحسان، كما يتضمن أمره بتقوى الله عز وجل ، وذلك فيه العصمة من الوقوع في الزلل واتباع الهوى ، كما أمره بالجد والحزم مع الأعداء لأنهم مازالوا في فورة طغيانهم .

وهذا موقف قوي يدل على حزم الصديق رضي الله عنه وبصيرته النافذة ، فهناك قبائل لاتزال متحيرة ومترددة بين الحق والباطل ، ولو آنسَتْ من الباطل قوة لمالت معه ، والذين جنحوا إلى الباطل بحاجة إلى تأديب وردع حتى يزول طغيانهم .

ولذلك نجد أن مواقف أبي بكر في مواجهة المرتدين قوية وصارمة ، بخلاف ما اشتهر عنه من الرفق والرحمة ، وإنما خرج أبو بكر عن الخلق

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٢٣ .

الذي عُرف عنه لأن الموقف كان يقتضي أعلى درجات القوة والحزم والسرعة ، فكانت منه القوة في محل القوة كما كان منه اللين في محل اللين .

ولقد عبر الشاعر المتنبي عن هذا المعنى بقوله :

ووضْعُ النَّدَى في موضع السيف للندى
مُضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

وقد كان خالد شديدًا وحازمًا مع الأعداء الذين نكَّلوا بالمسلمين كما جاء في هذا الخبر ، وهذا موقف جليل فيه إظهار لعزة الإسلام وكرامة المسلمين ، فدماء المسلمين ليست رخيصة ولا مهينة ، والويل والثبور لمن يتعرض لمسلم بريء بالقتل أو التعذيب مادامت دولة الإسلام قائمة وعزيزة .

وقال الحافظ ابن كثير أيضا في بيان موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال : لما قدم وفد بزاخة – أسد وغطفان – على أبي بكر يسألونه الصلح ، خيَّرهم أبو بكر بين حرب مُجليَة أو حطَّة مخزية ، فقالوا : ياخليفة رسول الله أما الحرب المجلية فقد عرفناها ، فما الحطة المخزية ؟ قال : تُؤخذ منكم الحلقة والكراع [1] وتتركون أقوامًا يتبعون أذناب الإبل حتى يُريَ الله خليفة نبيه والمؤمنين أمرًا يعذرونكم به ، وتؤدون ما أصبتم منا ، ولانؤدي ما أصبنا منكم ، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وأن قتلاكم في

---

(١) الحلقة هي السلاح ، والكراع هي الخيل .

النار ، وتَدُون قتلانا [1] ولانَدي قتلاكم ، فقال عمر : أما قولك : تدون قتلانا ، فإن قتلانا قُتلوا على أمر الله لاديات لهم ، فاتَّبع [2] عمر وقال عمر في الثاني : نعْمَ ما رأيت . ورواه البخاري من حديث الثوري بسنده مختصراً [3] .

وهذا موقف آخر لأبي بكر رضي الله عنه في إظهار عزة الإسلام وهيبة دولته ، فهو لم يقبل استسلام هؤلاء المحاربين إلا بهذه الشروط القوية ، التي من أشدها عليهم مصادرة أسلحتهم وخيولهم ، وهذا الشرط مؤقت بظهور صدق توبتهم وخضوعهم لدولة الإسلام ، وقد كان لابد منه لضمان عدم عودتهم إلى التمرد مرة أخرى .

أما الخبر الرابع ففيه بيان توبة طليحة بن خويلد الأسدي وإسلامه ومجيئه للعمرة ثم خروجه للجهاد في العراق ، وفي خبره هذا يقول الحافظ ابن كثير : وأما طليحة فإنه راجع الإسلام بعد ذلك أيضاً وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصديق واستحيَى أن يواجهه مدة حياته ، وقد رجع فشهد القتال مع خالد ، وكتب الصدِّيق إلى خالد « أن استشره في الحرب ولاتؤمره » يعني معاملته بنقيض ماكان قصده من الرئاسة في الباطن ، وهذا من فقه الصديق رضي الله عنه وأرضاه [4] .

وهذا التوجيه الذي وجه به الحافظ ابن كثير تصرف الصديق وارد ،

---

(١) أي تدفعون دياتهم .

(٢) أي وافق أبو بكر عمر فيما قال ، وفي البداية والنهاية جاءت العبارة «فامتنع» والتصويب من كتاب تاريخ الإسلام للذهبي ، قسم الخلفاء الراشدين / ٣٢ .

(٣) البداية والنهاية ٦/ ٣٢٣ .

(٤) البداية والنهاية ٦/ ٣٢٣ .

كما أنه يحتمل أن يكون ذلك من باب الاحتياط لأمر الأمة ، لأن من كان له سوابق في الضلال والكيد للمسلمين لايُؤْمن أن يكون رجوعه من باب الاستسلام لقوة المسلمين وإن كان لايُظن بأبي بكر أنه يتهم طليحة بذلك، ولكن أبا بكر رضي الله عنه من الأئمة الذين يرسمون للناس خط سيرهم ويتأسَّى بهم الناس بأقوالهم وأفعالهم ، فهو لذلك يأخذ بمبدإ الاحتياط لما فيه صالح الأمة وإن كان في ذلك وضع من شأن بعض الأفراد.

وإن التساهل في هذا الباب من حيث وضْع الثقة بمن كانت لهم سوابق في الإلحاد ثم ظهر منهم العودة إلى الالتزام بالدين . . إنَّ وضْع الثقة الكاملة بهؤلاء وإسناد الأعمال القيادية لهم قد جرَّ على الأمة آحيانًا ويلات كثيرة وأوصلها إلى مآزق خطيرة ، لأن الإخلاص أحيانًا يشتبه مع النفاق إذا كان المنافق بارعًا في تغطية معتقده الحقيقي .

على أن أخذ الحذر من مثل هؤلاء لايعني اتهامهم في دينهم ولانزع الثقة منهم بالكلية بل يمكن أن تسند إليهم المهمات التي يتقنون أداءها إذا كانت من النوع الذي لايشكِّل خطرًا على المسلمين فيما إذا ظهر عدم إخلاص هؤلاء في توبتهم ، مع عدم التعرض لما كان منهم في الماضي ولا التشكيك في صحة توبتهم مالم تقم القرائن الواضحة التي تدينهم في ذلك وهذا هو الذي سار عليه الصديق وأصحابه رضي الله عنهم .



٨ - جهاد تجَمُّع أم زِمْل سلمى بنت مالك -

أخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي عن سهل بن يوسف وأبي يعقوب سعيد بن عبيد قالا : واجتمعت فُلاَّل غطفان إلى «ظفر» وبها أم زمل سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر ، وهي تُشبَّه بأمها أم قرفة بنت ربيعة بن فلان بن بدر . . وكانت في مثل عزِّ أمها ،وعندها جمل أم قرفة ، فنزلوا إليها فذمَّرتهم وأمرتهم بالحرب ، وصعَّدت سائرة فيها وصوَّبت تدعوهم إلى حرب خالد ، حتى اجتمعوا لها وتشجعوا على ذلك ، وتأشَّب إليهم الشُّرداء من كل جانب [(١)] . . وتجمع إليها كل فَلٍّ ومضيَّق عليه من تلك الأحياء ، من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطيء ، فلما بلغ ذلك خالدًا - وهو فيما هو فيه من تتبُّع الثأر وأخذ الصدقة ودعاء الناس وتسكينهم - سار إلى المرأة وقد استكثف أمرها وغلظ شأنها ، فنزل عليها وعلى جُمَّاعها فاقتتلوا قتالا شديداً وهي واقفة على جمل أمها وفي مثل عزها ، وكان يقال : من نَخَسَ جملها فله مائة من الإبل لعزِّها . . وكان قتالهم شديدًا حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها ، وقُتل حول جملها مائة رجل ، وبعث خالد بالفتح[(٢)] .

في هذا الخبر موقف حربي كبير للصحابة رضي الله عنهم حيث استطاع فوارسهم أن يصلوا إلى ذلك الجمل الذي لا يوصل إليه في الجاهلية لكثرة عدد المحامين الذين يستبسلون في الدفاع عنه ، وقد كانت أمُّ زِمْل وقومها يظنون لجهلهم أنهم إذا واجهوا المسلمين سيدخلون حربا كحروب الجاهلية التي يعتمد أصحابها على انتهاز الفرص ثم الفرار إذا

(١) أي التجئوا إليها .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤ باختصار وتصرف .

ضرّست الحرب بهم ، فأقدمت على ما أقدمت عليه من جمع العرب لقتال المسلمين ، وقد كانت في تلك المعركة الضارية نهايتها ونهاية حُماتها الذين وقفوا للدفاع عنها .

* * *

٩ - خبر بني تميم وموقف خالد منهم -

كان النبي ﷺ قد ولّى سادة بني تميم على قبائلهم ، فالزِّبرقان بن بدر على الرِّباب وعوف والأبناء ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان على بَهْدَى من بني عمرو ، وسبرة بن عمرو على خضَّم من بني عمرو ، ووكيع بن مالك على بني مالك من بني حنظلة ، ومالك بن نويرة على بني يربوع من بني حنظلة .

فلما توفي رسول الله ﷺ سار صفوان بن صفوان بصدقة بني عمرو بفرعيها بَهْدَى وخَضَّم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وسار الزبرقان بن بدر إليه بصدقات الرِّباب وعوف والأبناء ، أما قيس بن عاصم فإنه قسمها في قومه ، ثم ندم بعد ذلك فحمل صدقة قومه وتلقى بها العلاء ابن الحضرمي لما مرَّ بدياره وخرج معه للجهاد .

وفي أثناء ذلك أقبلت سَجَاح بنت الحارث من الجزيرة وقد ادَّعت النبوة وتبعها بعض بني تغلب والنمر وإياد وشيبان فاتبعها بعض فروع بني تميم ومنهم مالك بن نويرة .

وكانت سجاح تريد غزو المسلمين في المدينة ، ثم غيرت رأيها فأمرت أتباعها بغزو أهل اليمامة ، وقد سارت بجيشها إلى مسيلمة الكذاب ولكنه وادعها وصالحها على نصف غلاَّت اليمامة ، فانصرفت بذلك إلى الجزيرة .

ولما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وسمعت بنو تميم بانتصار المسلمين الكبير على أعدائهم في بزاخة رجع إلى الإسلام منهم من كانوا ارتدوا مع سجاح وقابل خالدَ بن الوليد رضي الله عنه بعضُ زعمائهم بالصدقات

ماعدا مالك بن نويرة فإنه ظل متحيرا مترددا وقد اجتمع حوله جيش بمكان يسمى « البُطاح » .

ذكر ذلك الإمام ابن جرير الطبري [1] ، ثم روى بإسناده من خبر القاسم بن محمد وعمرو بن شعيب ، قالا : لما أراد خالد السَّيْر خرج من ظَفَر ، وقد استبرأ أسداً وغطفان وطيئًا وهوازن ، فسار يريدُ البُطاح دون الحزن ، وعليها مالك بن نُويرة ، وقد تردد عليه أمره ، وقد ترددت الأنصار على خالد وتخلَّفت عنه ، وقالوا : ماهذا بعهد الخليفة إلينا! إنّ الخليفة عَهد إلينا إنْ نحن فرغنا من البُزاخة ، واستبرأنا بلادَ القوم أن نقيم حتَّى يكتب إلينا .

فقال خالد : إن يكُ عهد إليكم هذا فقد عهد إليّ أن أمضي ، وأنا الأمير وإليّ تنتهي الأخبار . ولو أنَّه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصةً ، فكنت إن أعلمته فاتتني لم أعلِمْه حتى أنتهزها ، كذلك لو ابتُلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه لم نَدع أن نرى أفضل مابحضرتنا ، ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد إليه ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ، ولست أكرهكم .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ، وتَذامروا [2] ، وقالوا : إن أصاب القوم خيراً إنه لخيرٌ حُرمتموه ، وإن أصابتهم مصيبة ليجْتَنبنَّكُم الناس . فأجمعوا اللّحاق بخالد وجرّدوا إليه رسولا ، فأقام عليهم حتى

(١) تاريخ الطبري ، باختصار ٣/ ٢٦٧ - ٢٧٥ ، وقد أسلمت سجاح بعد ذلك وعاشت إلى خلافة معاوية - الإصابة / ٣٣١رقم ٦١٠ .

(٢) يعني تلاوموا وحض بعضهم بعضا .

لحقوا به ، ثم سار حتى قدم البُطاح فلم يجد به أحدًا [(١)] .

هذا وقد قُتل مالك بن نويرة بأيدي المسلمين ، وقد اختلفت الروايات في سبب قتله وكيفية ذلك وتضمنت بعض الروايات طعنا في خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وأمثل الروايات في ذلك رواية محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى وفيها أن خالدًا لما حاور مالكًا في شأن الزكاة قال مالك : ما إخَال صاحبكم -يعني رسول الله ﷺ - إلا وقد كان يقول كذا وكذا، ففهم خالد من هذا الكلام أن مالكا لايزال على ردته ، فقال له : أوَما تعدُّه لك صاحبا ! ثم قدَّمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه[(٢)] .

ومما يؤيد كون مالك بن نويرة قد مات على الشك والتردد وأنه لم يمت على الإسلام خبر الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومُتَمِّم بن نويرة ، وقد ذكره الإمام ابن الأثير قال : ولما قدم على عمر قال : مابلغ بك الوَجْد على أخيك ؟ قال : بكيته حولا حتى أسعدَتْ عيني الذاهبة عيني الصحيحة وما رأيت نارًا قط إلا كدت أنقطع أسفًا عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف ولا يعرف مكانه . . إلى أن قال : قال - يعني عمر - : أنشدني بعض ماقلت فيه ، فأنشده مرثيته التي يقول فيها :

وكنا كندمَانَي جذيمة حقبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا

فلمَا تفرقنا كأني ومالكًا ... لطول اجتماع لم نَبتْ ليلةً معا

فقال عمر : لو كنت أقول الشعر لرثيت أخي زيدًا ، فقال متمم :

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨٠ ، وانظر كتاب « خالد بن الوليد » للدكتور صادق إبراهيم عرجون رحمه الله فإن فيه دفاعا جيدًا عن خالد بن الوليد رضي الله عنه ص ١٥٥ - ١٧٣ .

ولا سواءَ يا أمير المؤمنين لو كان أخي صُرِع مصرع أخيك لما بكيته ، فقال عمر : ماعزَّاني أحد بأحسن مما عزيتني به [1] .

وكان مالك قد فرَّق قومه وبقي في نفر معه فلقيَتْه سرية من السرايا التي بثها خالد بن الوليد في بلاد تميم فأسروهم [2] .

وجاء في رواية للطبري أن بعض الصحابة انتقدوا خالداً في قتل مالك وأصحابه ، وأن أبا قتادة غضب ومضى إلى المدينة حتى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر حتى كلَّمه عمر ، فلم يرض إلا أن يرجع إلى خالد ، فرجع إليه [3] .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : موقف خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما عزم على السير إلى مالك بن نويرة لما سمع بجمعه ، وذلك يدل على بصيرة خالد الحربية ورأيه السديد ، فقد فهم اتجاه الخليفة أبي بكر رضي الله عنه ورغبته في القضاء على المرتدين بحزم وشدة ، وانتهاز الفرص المواتية لإضعافهم وتفريق شملهم فسار على تطبيق هذا المبدإ ، ورأى أنه ليس من المصلحة أن يراجعه في كل أمر يواجهه ، إذ أن هذه المراجعة ستُفَوِّت عليه فرصًا مواتية للإثخان في الأعداء والقضاء على تجمعاتهم قبل أن يعظم أمرهم ، فكان رأيه المضي في الأمور التي تَجدُّ عليه بما يحقق مصلحة المسلمين ، وهذا رأي صائب ، ولاتستقيم الأمور بدونه خاصة إذا كان الاتصال بالمسئول الأعلى يحتاج إلى وقت تفوت فيه الفرصة المناسبة .

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٢٤٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٢٧٨ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٢٧٨ .

ثانيًا : موقف جليل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما أعاد أبا قتادة رضي الله عنه إلى خالد رضي الله عنه ولم يسمع شكواه إياه إلا بعد انتهاء الحرب ومجيئه هو وإياه ، وهذا فهم ثاقب من الصديق يدل على علو كعبه في الخبرة الحربية ، حيث إنه لو أتيحت الفرصة لكل من خالف قائده وغاضبه أن يترك ساحة القتال وأن يذهب ليقدِّم شكواه للمسئول الأعلى لسادت الفوضى ولضعف أمر الجيش إذ أن هذا الأمر قد لايقتصر على رجل واحد ، بل قد يفعله عدد يؤثر فقدهم على تماسك الجيش وقوته .

* * *

١٠ - معركة اليمامة ونهاية مسيلمة الكذاب -

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري في عدد من الروايات عن عدد من الشيوخ قالوا : كان أبو بكر حين بعث عكْرِمة بن أبي جهل إلى مُسيلمة وأتبعه شُرحبيل عجَّل عكرمة ، فبادر شرحْبيلَ ليذهب بصوتها[١] فواقعهم ، فنكبوه ، وأقام شُرحبيل بالطريق حيث أدركه الخبر ، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره ، فكتب إليه أبو بكر ، يابن أمّ عكرمة ، لا أرينَّك ولاتراني على حالها ! لا ترجع فتوهن الناسَ ، امض على وجهك حتى تساند حُذيفة وعَرْفجة فقاتل معهما أهل عُمان ومَهرة . وإن شغلا فامض أنت ، ثم تسير وتُسيِّر جندك تستبرئون من مررتم به ، حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أميَّة باليمن وحضرموت .

وكتب إلى شُرحبيل يأمره بالمقام حتى يأتيه أمرُه ، ثم كتب إليه قبل أن يوجه خالداً بأيام إلى اليمامة : إذا قدم عليك خالدٌ ، ثم فرغتم إن شاء الله فالحقْ بقُضاعة ، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على مَنْ أبى منهم وخالف .

فلما قدم خالدٌ على أبي بكر من البُطاح رضى أبو بكر عن خالد . وسمع عذره[٢] وقبل منه وصدَّقه ورضى عنه ، ووجَّهه إلى مُسيلمة وأوعب معه الناس ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبَراء بن فلان [٣] ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد[٤] ، وعلى القبائل ، علَى كل قبيلة رجلٌ .

---

(١) يعني بشرف النصر ، والأولى أن يحمل ذلك على شدة حماسه للجهاد .

(٢) يعني فيما أقدم عليه من قتل مالك بن نويرة كما تقدم .

(٣) لعله البراء بن مالك .

(٤) يعني أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزيد بن الخطاب .

وتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبُطاح ، وانتظر البعث الذي ضُرب بالمدينة ، فلمَّا قدم عليه نهض حتَّى أتى اليَمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير .

قالوا : وكان عددُ بني حنيفة يومئذ أربعين ألف مقاتل، في قُراها وحُجَرها .

وأمد أبو بكر خالدًا بسَليط ليكون ردءًا له من أن يأتيه أحد من خلفه .

وكان مُسيلمة يصانع كل أحد ويتألّفه ولايبالي أن يطلع الناس منه على قبيح ، وكان معه نهار الرَّجَّال بن عُنفُوة ، وكان قد هاجر إلى النبي ﷺ ، وقرأ القرآن ، وفُقِّه في الدِّين ، فبعثه مُعَلمًا لأهل اليمامة وليشْغب على مُسيلمة وليَشْدُد من أمر المسلمين ، فكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مُسيلمة ، شهد له أنَّه سمع محمدًا ﷺ يقول: إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له .

ولما بلغ مسيلمة دنوُّ خالد ، ضرب عسكره بعقرباء ، واستنفر الناس، فجعل النَّاس يخرجون إليه ، وخرج مَجَّاعة بن مُرارة في سرية يطلب ثأرًا له في بني عامر وبني تميم قد خاف فواته ، وبادر به الشغل ، فأمَّا ثأره في بني عامر فكانت خوْلة ابنة جعفر فيهم ، فمنعوه منها ، فاختلجها ، وأما ثأره في بني تميم فنعَمٌ أخذُوا له .

واستقبل خالدٌ شُرَحبيل بن حَسَنة ، فقدَّمه وأمَّر على المقدمة خالد ابن فلان المخزوميّ ، وجعل على المجنَّبَتَيْن زيدًا وأبا حُذيفة .

وجعل مُسيلمة على مجنبتيه المحكَّم والرَّجَّال .

فسار خالد ومعه شُرَحبيل ، حتى إذا كان من عسكر مسيلمة على

ليلة ، هجم على جُبيلة هجومٌ - المقلِّل يقول : أربعين ، والمكثِّر يقول : ستين - فإذا هو مجَّاعة وأصحابه ، وقد غَلبهم الكرَى ، وكانوا راجعين من بلاد بني عامر ، قد طووْا إليهم ، واستخرجوا خولة ابنة جعفر فهي معهم ، فعرسوا دون أصل الثنيَّة ، ثنية اليمامة ، فوجدوهم نيامًا وأرسان خيولهم بأيديهم تحت خدودهم وهم لايشعرون بقرب الجيش منهم ، فأنبهوهم ، وقالوا : من أنتم ؟ قالوا : هذا مَجَّاعة وهذه حنيفة ، قالوا : وأنتم فلا حيَّاكم الله ! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد ، فأتوه بهم ، فظن خالد أنهم جاءوه ليستقبلوه وليتَّقوه بحاجته ، فقال : متى سمعتم بنا ؟ قالوا : ماشعرنا بك ، إنَّما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم . ولو فطنوا لقالوا : تلقّيناك حين سمعنا بك .

ودعا خالد بمجَّاعة ومن أخذ معه حين أصبح . فقال : يابني حنيفة ، ماتقولون ؟ قالوا : نقول : منَّا نبيٌّ ومنكم نبيٌّ ، فعرضَهم على السيف ، حتى إذا بقي منهم رجلٌ يقال له سارية بن عامر ومجَّاعة بن مُرارة ، قال له سارية : أيها الرجل ، إن كنت تريد بهذه القرية غدًا خيرًا أو شرًا . فاستبق هذا الرجل - يعني مجَّاعة - فأمر به خالد فأوثقه في الحديد ، ثم دفعه إلى أم تميم امرأته ، فقال : استوصي به خيرًا .

ثم سار إلى اليمامة ، فخرج مسيلمة وبنو حنيفة حين سمعوا بخالد ، فنزلوا بعقرباء ، فحل بها عليهم - وهي طرف اليمامة دون الأموال - وريف اليمامة وراء ظهورهم .

وقال شُرحبيل بن مُسيلمة : يابني حنيفة ، اليوم يومُ الغَيْرة ، اليوم إن هزمتم تستردفُ النساء سبيَّات ، ويُنْكحْن غير خطيبات ، فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم .

فاقتتلوا بعقرباء ، وكانت رايةُ المهاجرين مع سالم مولَى أبي حذيفة ، فقالوا : تخشى علينا من نفسك شيئًا ! فقال : بئس حامل القرآن أنا إذًا ! وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شمَّاس ، وكانت العرب على راياتها .

ثم التقى الناس ولم يلقهم حربٌ قط مثلها من حرب العرب ، فاقتتل الناس قتالاً شديدًا ، حتى انهزم المسلمون وخلص بنو حنيفة إلى مجَّاعة وإلى خالد ، فزال خالد عن فُسطاطه ودخل أناس الفسطاطَ و فيه مجَّاعة عند أم تميم ، فحمل عليها رجل بالسيف ، فقال مجّاعة : مَهْ ، أنا لها جارٌ ، فنعْمَت الحُرَّة ! عليكم بالرجال ، فرَعبَلوا الفُسْطاط بالسيوف (١) .

ثم إن المسلمين تَداعَوْا ، فقال ثابت بن قيس : بئسما عَوَّدْتم أنفسكم يامعشر المسلمين ! اللهم إنّي أبرأ إليك ممَّا يعبُد هؤلاء - يعني أهل اليمامة- وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم جالد بسيفه حتى قُتل .

وقال زيد بن الخطاب حين انكشف الناس عن رحالهم : لاتحوُّز بعد الرّحال (٢) ، ثم قاتل حتى قتل .

ثم قام البَرَاءُ بن مالك أخو أنس بن مالك فقال : أين يامعشر المسلمين ! أنا البراءُ بن مالك ، هلمّ إليّ ! وفاءَتْ فئة من النّاس ، فقاتلوا القوم حتى قتلهم الله ، وخَلَصوا إلى مُحكَّم اليمامة - وهو مُحكّم بن

---

(١) أي مزقوه .

(٢) أي لاتنحّي عن القتال بعد حط الرحال .

الطُّفيل - فقال حين بلغه القتال : يامعشر بني حنيفة ، الآن والله تُستحْقَب الكرائم غير رضيَّات ، ويُنكحن غير خطيبات ، فماعندكم من حَسَب فأخرجوه . فقاتل قتالا شديداً ، ورماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم فوضعه في نحره فقتله .

ثم زحف المسلمون حتى ألْجئوهم إلى الحديقة ، حديقة الموت ، وفيها عدوّ الله مُسيلمة الكذاب ، فقال البراء : يامعشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة . فقال الناس : لاتفعل يابَرَاء ، فقال : والله لتطرَحُنِّي عليهم فيها ، فاحتُمل حتى إذا أشرف على الحديقة من الجدار ، اقتحم فقاتلهم عن باب الحديقة ، حتى فتحها للمسلمين ، ودخل المسلمون عليهم فيها .

وتذامر زيدٌ وخالد وأبو حذيفة ، وتكلم الناس وكان يوم جنوب له غبار - فقال زيد : لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحُجتي ! عضُّوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم ، وامضوا قدُمًا . ففعلوا ، فَردّوهم إلى مصافهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التي حيزوا إليها من عسكرهم ، وقُتل زيد رحمه الله .

وتكلَّم ثابت فقال : يامعشر المسلمين ، أنتم حزبُ الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزّة لله ولرسوله ولحزبه ، أرُوني كما أريكم ، ثم جلد فيهم حتى حازهم .

وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال ، وحمل فحازهم حتى أنفذهم ، وأصيب رحمه الله .

وحمل خالد بن الوليد ، وقال لحُماته : لا أوتينَّ من خلفي ، حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفُرصة ويرْقب مسيلمة .

ولما أعْطي سالم الراية يومئذ [١] ، قال : ما أعلَمَني لأي شيء أعطيتمونيها ! قلتم : صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات ! قالوا : أجل . وقالوا : فانظر كيف تكون ؟ فقال : بئس والله حامل القرآن أنا إن لم أثبت ! وكان صاحبُ الراية قبْله عبد الله بن حفص ابن غانم .

ولمَّا اشتدَّ القتال - وكانت يومئذ سجالا إنما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين - قال خالد : أيُّها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حيّ . ولنعلم من أين نؤتَى ! فامتاز أهل القرى والبوادي ، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كلّ أب على رايتهم ، فقاتلوا جميعًا . فقال أهل البوادي يومئذ : الآن يستحر القتل في الأجزع الأضعف ، فاستحر القتل في أهل القرى .

وثبت مسيلمة . ودارت رحاهم عليه . فعرف خالد أنَّها لاتركدُ إلا بقتل مسيلمة ، ولم تحفل بنو حنيفة بقتل من قتل منهم .

ثم برز خالد ، حتى إذا كان أمام الصّف دعا إلى البراز وانتمى ، وقال : أنا ابن الوليد العَوْد ، أنا ابن عامر وزيد ! ونادى بشعارهم يومئذ ، وكان شعارهم يومئذ : يامحمداه [١] .

---

(١) يعني سالما مولى أبي حذيفة .

(٢) هذا الشعار جاء في هذه الرواية وهي مما رواه الإمام ابن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر التميمي بإسناده عن رجل من بني سحيم قد شهد المعركة ، وسيف بن عمر وإن كان ضعيفًا في الحديث إلا أنه عمدة في التاريخ كما قال الحافظ ابن حجر - تقريب التهذيب ١/ ٣٤٤ رقم ٦٣٣ - .

فإن ثبت أن شعار المسلمين آنذاك كان«يامحمداه » فهو محمول على أنه مجرد شعار يتعارف::

فجعل لايبرز له أحد إلا قتله ، ولايبرز له شيء إلا أكله ، ودارت رحا المسلمين وطحنت .

ثم نادى خالد حين دنا من مُسيلمة - وكان رسول الله ﷺ قال : «إنَّ مع مسيلمة شيطانًا لايعصيه ، فإذا اعتراه أزْبَدَ كأنّ شدْقيه زَبيبتان لايهمُّ بخير أبدًا إلا صَرَفه عنه ، فإذا رأيتم منه عَوْرة فلا تُقيلوه العَثْرةَ » فلما دنا خالدٌ منه طلب تلك ، ورآه ثابتًا ورحاهم تدور عليه ، عرف أنها لاتزول إلا بزواله ، فدعا مسيلمةَ طلبًا لعورته ، فأجابه فعرض عليه أشياءَ مما يشتهي مسيلمة ، وقال : إن قبلنا النِّصْفَ ، فأيَّ الأنصاف تعطينا؟ فكان إذا همَّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيراً ، فينهاه شيطانه أن يقبل ، فأعرض بوجهه مرة من ذلك ، وركبه خالدٌ فأرهقه فأدبر ، وزالوا فذمَّرَ خالد الناس ، وقال : دونكم لاتُقيلوهم ، وركبوهم فكانت هزيمتهم .

فقال مسيلمة حين قام ، وقد تطاير الناس عنه ، وقال قائلون : فأين ماكنتَ تَعدُنا ؟ فقال : قاتلُوا عن أحسابكم ، قال : ونادى المحكَّم : يابني حنيفة ، الحديقة الحديقة .

ويأتي وحشيٌّ على مسيلمة وهو مُزْبدٌ متساندٌ لايعقل من الغيظ ،

= به المسلمون ولم يكن القصد منه الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يُعهد من الصحابة أبدا أنهم استغاثوا بغير الله تعالى ، وهذا الأمر من الأمور المعلومة عندهم بالضرورة ، ولأن الصحابة رضي الله عنهم لم يعرف عنهم أبدًا أنهم نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم باسمه وإنما كانوا يقولون في ندائه يارسول الله أو يانبي الله .

أما لماذا اختاروا هذا الشعار في هذا اليوم بالذات فلعل ذلك لكونهم يقاتلون قوما يؤمنون بنبوة مسيلمة عن عقيدة وقناعة فأراد المسلمون أن يركِّزوا على ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدِّيًا لهم ورفعا لمعنوية المسلمين .

فخرط عليه حربته فقتله ، واقتحم النَّاس عليهم حديقة الموت من حيطانها وأبوابها ، فقُتل في المعركة وحديقة الموت عشرة آلاف مقاتل .

ولما فرغ خالد من مُسيلمة والجند قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر : ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون، فقال : دعاني أبُثُّ الخيول فألقط مَن ليس في الحصون ، ثم أرى رأيي .

فبث الخيول فَحووْا ما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضموا هذا إلى العسكر ، ونادى بالرّحيل لينزل على الحصون ، فقال له مجّاعة ، إنّه والله ماجاءك إلا سَرَعان الناس ، وإن الحصون لمملوءة رجالاً ، فهلمّ لك إلى الصُّلح على ما ورائي ، فصالحه على كل شيء دون النفوس . ثم قال : أنطلقُ إليهم فأشاورهم وننظر في هذا الأمر ، ثم أرجع إليك . فدخل مجَّاعة الحصون . وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية . ورجال ضَعفَى فظَاهَر الحديد على النساء وأمرهن أن ينشرن شعورهن ، وأن يُشرفْن على رؤس الحصون حتى يرجع إليهن ، ثم رجع فأتى خالدًا فقال : قد أبوْا أن يُجيزوا ماصنعتُ ، وقد أشرف لك بعضهم نقضًا عليّ وهم منّي بُرآء .

فنظر خالد إلى رؤوس الحصون وقد اسودّت ، وقد نَهكَت المسلمين الحرب ، وطال اللقاء ، وأحبُّوا أن يرجعوا على الظَّفَر ، ولم يدروا ماكان كائنًا لو كان فيها رجال وقتال ، وقد قُتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون . قال سهل : ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلثمائة من هؤلاء وثلثمائة من هؤلاء ، ستمائة أو يزيدون . وقتل ثابت بن قيس يومئذ ، قتله رجل من المشركين

قُطعت رجلُه ، فرمى بها قاتله فقتله ، وقُتل من بني حنيفة في الفضاء بعقْرباء سبعة آلاف ، وفي حديقة الموت سبعة آلاف وفي الطلب نحو منها .

فصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح ورُبع السَّبي .

فلما فرغا فتحت الحصون فإذا ليس فيها إلا النساء والصبيان ، فقال خالد لمجَّاعة : ويحك خدعتني ، قال : قَوْمي ولم أستطع إلا ماصنعت(١) .

في هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : حينما وجه أبو بكر الصديق رضي الله عنه الجيوش لقتال المرتدين وجه إلى مسيلمة الكذاب جيشين ، أحدهما بقيادة عكرمة بن أبي جهل والثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة وهذا دليل على خبرة أبي بكر الدقيقة بدرجات القوة عند الأعداء ومقدار مقدرتهم على الصمود ، وحينما تعجل عكرمة لحرب مسيلمة فنُكب هو وجيشه أرسل إليه أبو بكر يقول له : « لا أرَينَّك ولاتراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس» وهذا أيضا من خبرة أبي بكر الحربية ، فإن الروح المعنوية لها أثر كبير في نتائج المعارك ، فإذا قدم هؤلاء المنهزمون فقابلوا الجيش المتوجه لقتال الأعداء أنفسهم فإن نفوس أفراد هذا الجيش سيكون فيها شيء من التخوف والضعف خصوصا فيما إذا رَوَى لهم المنهزمون شيئًا عن ضخامة جيش الأعداء وقوته .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٢٨١ - ٢٩٨ باختصار وتصرف . وانظر البداية والنهاية ٦/ ٣٢٨ - ٣٣١ والكامل في التاريخ ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٩ .

وكذلك من الخبرة الحربية إمداد أبي بكر خالد بن الوليد رضي الله عنهما بجيش من خلفه يكون حاميا لجيش المسلمين خشية أن يُؤتوا من خلفهم ، نظرًا إلى أن القبائل التي بين اليمامة والمدينة قد حاربت المسلمين وحاربوها وإن كانت قد استسلمت آنذاك ، ولكن يُخشى أن تنتهز فرصة انشغال خالد وجيشه بمقارعة أعنف قوة حربية في بلاد العرب آنذاك فتنقضَّ على المسلمين من ورائهم .

ثانيًا : كانت للصحابة رضي الله عنهم مواقف عالية في الثبات والهجوم على الأعداء ، وكانت معركة اليمامة معركة هائلة قابل فيها الصحابة ومن معهم قوما بأسهم شديد في القتال كما قال رافع بن خديج رضي الله عنه : فانتهينا إلى اليمامة فننتهي إلى قوم هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [الفتح : ١٦] (١) .

ومما يبين شدة بأسهم مارُوي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال : شهدت عشرين زحفا فلم أر قوما أصبر لوقع السيوف ولا أضرب لها ولا أثبت أقدامًا من بني حنيفة يوم اليمامة (٢) .

ولعل من أسباب شدة بأسهم أنهم كانوا يقاتلون عن عقيدة ، فقد كانوا يؤمنون بنبوة مسيلمة الكذاب ، ولكن مهما كانت عقيدتهم فإنها لاتعتبر شيئًا أمام عقيدة المسلمين ، ولايمكن أن يكون هناك موازنة بين العقيدتين ، فلذلك انتصر المسلمون عليهم مع أنهم كانوا أقل منهم عددًا(٣)، ويقاتلونهم في بلادهم .

---

(١) خالد بن الوليد للدكتور صادق عرجون / ١٧٧ .

(٢) خالد بن الوليد ١٨٠ .

(٣) حيث إن عدد المسلمين أحد عشر ألف في مقابل أربعين ألفا .

لقد أبلى الصحابة رضي الله عنهم في قتال بني حنيفة بلاء عظيما ، وقد وصف رافع بن خديج بلاءهم بقوله :

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو ، فهم في نحورهم مايجد أحد مدخلا إلا أن يقتل رجلا منهم أو يخرج فيقع فيخلف مكانه آخر حتى أوجعنا فيهم وبان خلل صفوفهم ، وضجُّوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة وأقمنا على بابها رجلا لئلا يهرب منهم أحد ، فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت فجدُّوا في القتال ، ودكَّت السيوف بيننا وبينهم ، مافيها رمي بسهم ولاحجر ولاطعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلمة(١) .

ثالثًا : رُويت لبعض الصحابة كلمات قوية في تثبيت المؤمنين ودفعهم إلى البذل والتضحية ، من ذلك قول زيد بن الخطاب رضي الله عنه « لاتحوُّز بعد الرحال » أي لامفر من مواجهة الأعداء بعد التقاء الصفين فإلى أين تتراجعون أيها الناس ، وقوله « والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله بحجتي ، عُضُّوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدُما » .

وقال ثابت بن قيس رضي الله عنه : « يامعشر المسلمين أنتم حزب الله وهم أحزاب الشيطان ، والعزة لله ولرسوله ولحزبه أروني كما أريكم» .

وقال أبو حذيفة : « يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفَعَال » .

ولقد كان لهذه الكلمات النيرة القوية أثر كبير في تثبيت المسلمين

---

(١) خالد بن الوليد / ١٧٨ .

ودفعهم إلى الصمود لهجمات الأعداء والتقدم في الهجوم عليهم حتى ألجؤوهم إلى حديقتهم ، ثم هجموا عليهم داخلها .

ومما يبين ضخامة العبء الذي تحمله المسلمون وقوة الطاقة التي بذلوها كثرة القتلى في اعدائهم ، حيث جاء في رواية أن قتلاهم بلغوا عشرة آلاف وفي رواية أخرى أنهم واحد وعشرون ألفا ، وعلى فرض أنهم عشرة آلاف فقط فإن قتل هذا العدد في ثلاثة أرباع يوم وهم يحملون السلاح ويقاتلون بضراوة وعنف يعتبر جهداً كبيراً .

أما الشهداء من المسلمين فقد كانوا - كما جاء في بعض هذه الروايات - قريبا من ألف شهيد ، منهم ستون وثلاثمائة من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ، وستمائة أو يزيدون من المهاجرين من غير أهل المدينة ومن التابعين ، وهذا العدد وإن كان كبيراً بالنسبة لحروب المسلمين السابقة إلا أنه قليل بالنسبة لقتلَى الأعداء في هذه المعركة .

لقد كان هؤلاء الصحابة الأماجد الذين استشهدوا وشرفت بهم بطاح اليمامة ، والذين بقوا على الحياة بعدما أبلوا بلاء عظيما هم الصخرة الصلبة التي تحطمت أمامها أحلام طغاة الكفار ، ومن ورائهم شياطين الجن الذين زينوا لهم ركوب الضلالة ، وأعوانهم الذين روجوا بضاعتهم الدنيئة أمام عوام الناس وبسطائهم .

ولقد كان من هؤلاء الذين استشهدوا علماء وقراء من سادة الصحابة رضي الله عنهم منهم على سبيل المثال زيد بن الخطاب وكان أسنَّ من أخيه عمر ، وكان مصاب عمرَ به كبيراً حتى قال لابنه عبد الله بن عمر : ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حي ألا واريت وجهك عني؟ فقال

عبد الله : سأل الله الشهادة فأعطيَها وجهدت أن تُساق إليَّ فلم أعْطَها[1] ، وكان عمر يقول : ماهبَّت ريح الصبا إلا ذكرت زيداً ، يعني لأنها تهب من جهة المشرق حيث قُتل زيد ، بَيْدَ أن شرف المقصد الذي قتل من أجله زيد كان أكبر عزاء لعمر رضي الله عنهما .

وممن قُتل في اليمامة من أعيان الصحابة أبو حذيفة بن عتبة ومولاه سالم وثابت بن قيس بن شماس وعبَّاد بن بشر رضي الله عنهم وغيرهم من السادة الذين جمعوا بين العلم والشجاعة وكان لهم مواقف عالية في الجهاد في سبيل الله تعالى .

ولقد بلغ عدد الذين قُتلوا من القراء سبعين شهيداً ، ولقد اغتمَّ الصحابة لذلك حتى إن عمر أشار على أبي بكر بجمع القرآن وكتابته حيث إنه لايزال في الصحابة حفاظ متقنون ، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمع ماكُتب من القرآن وعرضه على حفاظ الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

رابعًا : في هذه المعركة مواقف جهادية كبيرة لأبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه ، سواء في مجال القيادة أو في مجال القتال .

ومن ذلك أنه خرج أمام الصف ودعا إلى البراز ، والمبارزة فن من فنون الحرب الخطيرة ، فلا يُقدم عليها - عادة - إلا الأبطال المبَرِّزون في الشجاعة وفنون الحرب ، وهي مغامرة يترتب على نجاحها ارتفاع معنوية الجيش الفائز فيها وضعف معنوية الجيش المقابل ، ولما كان أبو سليمان واثقا - بعد توفيق الله تعالى - من النجاح في ذلك أراد أن يرفع من

---

(١) الكامل ٢/ ٢٤٧ .

معنوية المسلمين وأن يحطِّم معنوية جيش الأعداء الذين لم يزالوا يقاومون هجوم الجيش الإسلامي فدعا إلى المبارزة ، فجعل لايبرز له أحد إلا قتله ، ولايدنو منه شيء إلا أكله كما جاء في إحدى الروايات السابقة .

وهكذا كانت نتيجة هذه المبارزة رفع معنوية المسلمين وتحطيم معنوية أعدائهم لأن خالدًا نجح فيها نجاحًا كبيراً .

ومن ذلك أن خالدًا حدد الهدف للقضاء السريع على بني حنيفة بالقضاء على مسيلمة ، وهذا هدف صعب المنال لكثرة الحراس حوله ولأن ا لحرب تدور رحاها عليه ، ولكن خالدًا من النوع الذي لايتردد في ركوب الصعاب واقتحام الأهوال ، بل يقصدها ويحب الدخول فيها ، ولذلك صمم على الوصول إلى مسيلمة ، وقال لحماته : لاأوتين من خلفي ، ثم قاتل بضراوة وشدة وهجوم مكثف حتى كان بقرب مسيلمة .

ومن ذلك أن خالدًا مازال يذكر قول النبي ﷺ عن مسيلمة « فإذا رأيتم منه عورة فلا تُقيلُوه العثرة » فدعاه خالد طلبا لعورته فكان يُعرض بوجهه يستشير شيطانه ، فاغتنم خالد الفرصة فهجم عليه وعلى من حوله هجومًا سريعًا حتى تطاير الناس عنه فكانت نهايته على يد وحشي الحبشي الذي رماه بالحربة من بُعْد ، وكان يجيد الرمي بها ، ثم ضربه أحد الأنصار بسيفه فقضى عليه ، وقد جاء في بعض الروايات أنه أبو دجانة سماك بن خرشة وجاء في بعضها أنه عبد الله بن زيد رضي الله عنهما .

خامسًا : وفي هذه الأخبار موقف فدائي كبير لبطل الإسلام البراء ابن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، فإن الأعداء لما أغلقوا على أنفسهم

باب الحديقة طلب البراء من المسلمين أن يحملوه وأن يلقوه عليهم في الحديقة ، فحملوه فوق الحُجُف - وهي التروس - ودفعوها بالرماح حتى ألقوه على الأعداء من فوق السور ، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحه .

إن المتأمل لهذا الموقف العظيم يتملكه العجب ويندهش من إقدام هذا البطل الكبير على تنفيذ هذه الخطة الفدائية ، فإن أي فرد يلقي بنفسه في وسط الأعداء سيتصور الموت قتلاً بأبشع أنواع القتل ، فهل كان البراء ابن مالك يتصور ذلك وهو يلقي بنفسه ؟ نعم كان يتوقع ذلك ولكنه من قوم تهون أنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، وقد أقدم على هذا الأمر الهائل ابتغاء الظفر بالأعداء وفَتْحَ الباب للمسلمين ، فإن تم له ذلك وإلا فإن هذا موطن من المواطن التي تُطلب فيها الشهادة .

فلنَدَعْ هذا التصور ، ولنتأمل في نتيجة هذا الموقف ، كيف استطاع وحده أن يَجْلي الأعداء وأن يفتح الباب ؟ وكيف سلم من سلاح الكفار؟ لاشك عندي في أن هذه كرامة من كرامات الله تعالى لأوليائه المؤمنين لأن سلامته وقد أحاط به الأعداء على هذه الصورة من الأمور الخارقة للعادة ، وقد ثبت أن الملائكة عليهم السلام يقاتلون مع المؤمنين كما سبق ، فلعل الملائكة كانوا معه في هذه المعمعة إما بالقتال والحماية أو بالحماية فقط حتى أنجز هذه المهمة الخطيرة .

لقد أطلَّ على الأعداء شبح مخيف ، ربما ظنوا أنه من عالم آخر ، إذ يبعد أن يصل البشر العاديون إلى هذه الشجاعة الفائقة والمقدرة الخارقة ، فلذلك فسحوا له المجال لذهولهم من نزوله المفاجيء ، وكان بإمكانهم أن

ينتظموه وهو في الهواء برماحهم ، فلما هبط إلى الأرض قاتلهم حتى أجلاهم عن الباب ، ويبدو أنهم قد أصيبوا منه برعب عظيم ، مما جعل مقاومتهم إياه ضعيفة ، واستطاع أنْ يتغلب عليهم في النهاية وأن يفتح الباب بمشهد منهم .

وهكذا فُتح الباب فاندفعت جحافل الحق الهادرة لتقضي علي جحافل الباطل المبهوتة ، وكان البراء بن مالك من أسباب تمكين المسلمين من أعدائهم ، وقد تأسى به بعض جنود الحق لما لم يتسع لهم الباب فَعَلَوا على الأسوار وهبطوا على أعدائهم كالصواعق المحرقة .

* * *

١١ - جهاد المرتدين في منطقة مكة -

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أن أول من كتب لأبي بكر الصديق بمن ارتد من أهل عمله أمير مكة عَتَّاب بن أسيد ، وقد بعث أخاه خالد بن أسيد إلى أهل تهامة ، وقد تجمَّعت بها جُمَّاعٌ من مُدْلج ، وتأشَّب إليهم شذاذٌ من خزاعة وأفْنَاء كنانة ، عليهم جُندَب بن سلْمَى ، أحد بني شَنُوق ، من بني مُدْلج ، ولم يكن في عمل عتَّاب جمعٌ غيره ، فالتقوا بالأبارق ، ففرّقهم وقَتلهم ، واستحرَّ القتل في بني شَنُوق ، فما زالوا أذلاء قليلاً ، وبرئت عمالة عتَّاب ، وأفلت جندب ، فقال جندب في ذلك :

ندمتُ وأيقنت الغَدَاة بأنَّني ... أتَيْتُ الَّتي يَبْقى على المَرْء عارُها

شهدتُ بأنَّ الله لاشيءَ غيرُه ... بني مُدْلج فاللّهُ رَبِّي وجارُها (١)

وهذا جهاد يذكر لعتاب بن أسيد وأخيه والمجاهدين معه حيث سارع إلى القضاء على فتنة المرتدين في منطقة عمله قبل أن يستفحل أمرها ويصعب القضاء عليها .

وهذا الموقف من عتاب يدل على حسن اختيار النبي ﷺ حيث اختاره أميرًا على مكة .

أما أهل مكة فقدهمَّ بعضهم بالارتداد ، لولا أن ثبتهم الله بسهيل بن عمرو الذي قام فيهم خطيبا ، وكان مما قال : يامعشر قريش لاتكونوا آخر الناس إسلامًا وأولهم ردة ، من رَآبَنَا ضربْنا عنقه ، وكان فيهم شريفا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣١٩ .

مطاعـا ، وقد تقـدم خبر ذلك في معـركـة بدر [1] ، وهذا مـوقف يذكـر لسهيل بن عمرو رضي الله عنه .

* * *

(1) انظر ج٤ ص ١٨٠ .

١٢ - جهاد المرتدين من علكّ والأشعريين -

قال أبو جعفر الطبري وكان أول منتقض بعد النبي ﷺ بتهامة علكّ والأشعريون ، وذلك أنَّهم حين بلَغهم موتُ النبي ﷺ تجمَّع منهم طَخارير [(١)] ، فأقبل إليهم طَخاريرُ من الأشعريين وخَضَّم فانضمُّوا إليهم، فأقاموا على الأعلاب طريق الساحل ، وتأشَّب إليهم أوزاعٌ على غير رئيس ، فكتب بذلك الطاهر بن أبي هالة إلى أبي بكر ، وسار إليهم ، وكتب أيضًا بمسيره إليهم ، ومعه مَسْرُوق العكِّيّ حتى انتهى إلى تلك الأوزاع ، على الأعلاب ، فالتقوا فاقتتلوا ، فهزمهم الله ، وقتلوهم كلّ قتْلة ، وأنْتَنَت السُّبل لقتلهم ، وكان مقتلُهم فتحًا عظيمًا . وأجاب أبو بكر الطَّاهرَ قبل أن يأتيه كتابه بالفتح :

بلغني كتابك تخبرُني فيه مسيرك واستنفارك مسروقًا وقومَه إلى الأخابث بالأعلاب ، فقد أصَبْتَ ، فعاجلوا هذا الضَّرْب ولاتُرَفِّهوا عنْهم، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمَن طريق الأخابث ، ويأتيكم أمري ، فسمِّيَتْ تلك الجموع من علكّ ومَنْ تأشَّب إليهم إلى اليوم الأخابث ، وسُمِّي ذلك الطريق طريق الأخابث [(٢)] .

فهذا موقف جهادي يذكر للطاهر بن أبي هالة أمير قبيلة علكّ والأشعريين ، ولقد كان حازما حينما عاجل ذلك الجمع الذي تجمع من عدد من القبائل وقد كتب الله له النصر عليهم حتى تشتت من بقي منهم ولم يجتمعوا مرة أخرى .

---

(١) أي جاؤوا متفرقين .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٢٠ .

ومـوقـف آخـر لمسـروق الـعكّي حـيث نهض مع الـطاهر بن أبي هالة لقتال المرتدين من قومه مما يدل على قوة إيمانه وولائه للإسلام ودولته .

* * *

١٣ - جهاد المرتدين في منطقة الطائف -

لم يُذكر ارتداد داخل مدينة الطائف ، ولكن ارتدت قبائل تابعة لإمارة الطائف ، وقد كتب أمير الطائف عثمان بن أبي العاص إلى أبي بكر الصديق بمن ارتد من أهل عمله ، ذكره الإمام ابن جرير الطبري ثم قال :

وبعث عثمان بن أبي العاص بعثا إلى شَنوءة ، وقد تجَّمعت بها جُمَّاع من الأزْد وبَجيلة وخثعم ، عليهم حُمَيْضة بن النعمان ، وعلى أهل الطائف عثمان بن ربيعة ، فالتقوا بشنوءة ، فهزموا تلك الجماع ، وتفرقوا عن حُميضة وهرب حُميضة في البلاد ، فقال في ذلك عثمان بن ربيعة :

فضضنا جَمعهم والنَّقْعُ كاب ... وقد تُعْدَى على الغَدْر الفُتُوقُ

وأبْرقَ بارقٌ لَمَّا التقينا ... فعادت خُلَّبًا تلك البروق (١)

وكون أهل الطائف ثبتوا على الإسلام مع حداثة إسلامهم يدل على تمكن الإيمان من قلوبهم ، ومبادرة أمير الطائف عثمان بن أبي العاص إلى جهاد المرتدين في منطقته موقف جهادي يذكر له رضي الله عنه .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٢٠ .

١٤ - جهاد المرتدين في البحرين -

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من حديث سيف بن عمر التميمي قال : خرج العَلاء بن الحضرمي نحو البحرين (١) ، وكان من حديث البحرين أن النبي ﷺ والمنذر بن ساوي اشتكيا في شهر واحد، ثم مات المنذر بعد النبي ﷺ بقليل ، وارتد بعده أهل البحرين، فأمَّا عبد القيس ففاءت ، وأمَّا بكر فتمَّت على ردتها ، وكان الذي ثنَى عبدَ القيس الجارودُ حتى فاءوا .

ثم أخرج الإمام الطبري من حديث الحسن بن أبي الحسن ، قال : قدم الجارود بن المُعَلَّى عَلَى النبيّ ﷺ مرتادًا ، فقال : أسلم ياجارود .

ثم ذكر إسلامه إلى أن قال : فلما قدم على قومه دعاهم إلى الإسلام فأجابوه كلهم ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات النبي ﷺ . فقالت عبد القيس : لو كان محمدٌ نبيًا لما مات ، وارتدوا . وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم ، ثم قام فخطبهم . فقال : يامعشر عبد القيس ، إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ولاتجيبوني إن لم تَعْلموا . قالوا: سل عَمَّا بدا لك . قال : تعلمون أنَّه كان لله أنبياء فيما مضى ؟ قالوا : نعم ، قال : تعلمونه أو ترونه ؟ قالوا : لا بل نعلمه ، قال : فمافعلوا ؟ قالوا: ماتوا ، قال : فإن محمداً صلَّى الله عليه وسلم مات كما ماتوا . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنَّك سيِّدنا وأفضلُنا . وثبتوا على إسلامهم .

---

(١) البحرين اسم لمناطق في شرق جزيرة العرب ، وحدُّها من الشمال العراق ومن الجنوب عمان، كما ذكر ياقوت الحموي ، أما التسمية الحالية للبحرين فهي حديثة .

فهذا موقف يُذكر للجارود بن المعلّى رضي الله عنه فقد ثبَّت الله به قومه عبد القيس فثبتوا على إسلامهم، وقد ألهمه الله تعالى بضرب المثل بالأنبياء السابقين عليهم السلام حيث كانت نهايتهم الموت فكذلك رسول الله ﷺ فاقتنع قومه وزال عنهم الشك، وهذا مما يبين مزية التفقه في الدين وأثر ذلك في توجيه الاعتقاد والسلوك، وخاصة عند حدوث الفتن.

وأخرج الإمام الطبري من حديث عُمَير بن فلان العَبْدي. قال: لَمَّا مات النبي ﷺ خرج الحُطمُ بن ضُبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة فيمن اتبعه من بكر بن وائل على الرّدة، ومنْ تأشَّب [1] إليه من غير المرتدين ممَّن لم يزل كافرًا. حتى نزل القَطيف وهَجَر، واستغوى الخُطّ ومن فيها من الزُّطّ والسَّيابجة. وبعث بعثًا إلى دارين، فأقاموا له ليجعل عبد القيس بينه وبينهم، وكانوا مخالفين لهم، يمدُّون المنذر [2] والمسلمين، وأرسل إلى الغرور بن سُوَيد، أخي النعمان بن المنذر، فبعثه إلى جُوَاثَى [3]، وقال: اثبت فإني إن ظفرت ملَّكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة. وبعث إلى جواثي، فحصرهم وألحُّوا عليهم فاشتد على المحصورين الحصر، وفي المسلمين المحصورين رجُل من صالح المسلمين يقال له عبد الله بن حذَف، أحد بني أبي بكر بن كلاب، وقد اشتد عليه وعليهم الجوع حتى كادوا أن يهلكوا. وقال في ذلك عبد الله بن حَذَف:

ألا أبْلغْ أبـا بكْـر رسـولاً ... وفتيـانَ المدينة أجمَـعينَا

فهـل لكُمُ إلى قوم كــرَام ... قُعُود في جُوَاثَى مُحْصَرينا!

(١) يعني تجمّع.

(٢) يعني المنذر بن ساوَى الذي تقدم ذكره.

(٣) هي بلدة في منطقة الأحساء وماتزال معروفة بهذا الاسم.

كأنَّ دمَاءَهُمْ في كـلِّ فَـجٍّ شُعَاعُ الشَّمس يغْشَى الناظرينا
توكّلْنا عـلى الرَّحمـن إنَّـا وَجَـدْنـا الصَّبْـرَ للمتوكّـلينا

فـهـذا مـوقف يذكـر في الثـبـات على الحق لهـؤلاء المسلمين الذين حـصرهـم الأعداء في « جُوَاثَى » حتى كـادوا يهلكون من الجـوع ، وفي الأبيات المذكورة في الرواية التي قالها عبد الله بن حذف دليل على عمق إيمان هؤلاء المحصورين وقوة توكلهم على الله تعالى وثقتهم بنصره .

وأخـرج الإمـام الطبـري من حـديث منجـاب بن راشـد قـال : بعث أبوبكر العـلاءَ بن الحضرمي على قتال أهل الردة بالبحرين ، فلمـا أقبل إليهـا فكان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال في مُسلمة بني حنيفة . . إلى أن ذكر خروج قيس بن عاصم المنقري التميمي ومن معه من قومه مع العلاء ابن الحضرمي ، قال : فأكرمه العلاء ، وخرج مع العلاء من بني عمرو وسعد والرباب [1] مثل عسكره ، وسلك بنا الدهناء ، حتى إذا كنا في بحبوحتها ، والعنانات والعزافات [2] عن يمينه وشـماله ، وأراد الله عزَّ وجل أن يُرِيَنَا آياته نزل وأمـر الناس بالنزول فنفـرت الإبل في جـوف الليل ، فـمـا بقي عندنا بعيـر ولازاد ولا مـزاد ولابناء إلا ذهب عليـهـا في عـرض الرمل ، وذلك حين نزل الناس ، وقبل أن يحطوا ، فـمـا علمت جـمعًا هجم عليـهم من الغم ماهجم علينا وأوصى بعضُنا إلى بعض ، ونادى منادي العَلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا إليه ، فقال : ماهذا الذي ظهر فيكم وغلب عليكم ؟ فقال الناس : وكيف نلامُ ونحن إن بلغنا غداً

---

(١) هذه فروع من قبيلة تميم وبني عمهم .

(٢) أسماء مواضع في صحراء الدهناء .

لم تَحْمَ شمسه حتى نصير حديثًا ! (١) فقال : أيها الناس ، لاتُراعوا ، ألستم مسلمين ! ألستم في سبيل الله ! ألستم أنصار الله ! قالوا : بلى ، قال : فأبشروا ، فو الله لايَخْذُل الله من كان في مثل حالكم .

ونادى المنادي بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلَّى بنا ، ومنَّا المتيمِّم ، ومنَّا من لم يزل على طَهُوره ، فلما قضى صلاته جثا لرُكْبَتَيه وجَثا النَّاس ، فَنَصب (٢) في الدعاء ونصبوا معه ، فلمع لهم سرابُ الشمس ، فالتفت إلى الصَّفّ ، فقال : رائد ينظر ماهذا ؟ ففعل ثم رجع ، فقال : سراب ، فأقبل على الدعاء ، ثم لمع لهم آخر فكذلك ، ثم لمع لهم آخر ، فقال : ماء ، فقام وقام الناس ، فمشينا إليه حتى نزلنا عليه ، فشربنا واغتسلنا ، فما تعالى النَّهار حتى أقبلت الإبل تُكْرَد (٣) من كل وجه ، فأناخت إلينا ، فقام كلّ رجل إلى ظهره ، فأخذه ، فما فقدنا سلْكًا . فأرويناها وأسقيناها العَللَ بعد النَّهَل (٤) ، وتَرَوَّينا ثم تروحنا .

وكان أبو هريرة رفيقي ، فلما غبنا عن ذلك المكان ، قال لي : كيف علمُك بموضع ذلك الماء ؟ فقلت : أنا من أهدى العرب بهذه البلاد قال : فكن معي حتى تقيمني عليه ، فكررتُ به ، فأتيت به على ذلك المكان بعينه ، فإذا هو لاغدير به ، ولا أثر للماء ، فقلت له : والله لولا أنني لا أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان ، ومارأيت بهذا المكان ماءً ناقعًا قبل اليوم ، وإذا إداوة مملوءة ، فقال : ياأبا سهم ، هذا والله المكان ولهذا

---

(١) يعني نهلك عطشا حتى يتحدث الناس عنا .

(٢) أي اجتهد وتعب .

(٣) أي تطرد .

(٤) يعني شربة بعد شربة ، فالأولى تسمى نهلا والثانية تسمى عللا وذلك أبلغ في الرِّي .

رجعت ورجعت بك . ملأت إداوتي ثم وضعتها على شفيره ، فقلت : إن كان منّا من المنِّ وكانت آية عرفتها ، وإن كان غياثًا عرفته ، فإذا منٌّ من المنّ (1) ، فحمد الله .

وبعد فإن هذا الخبر العجيب يحتاج منا إلى وقفات وتأمل .

فلننظر أولا إلى الإبل كيف نفرت بأجمعها من بين قوم تعتبر الإبل جزءًا من حياتهم يعرفون كل مايتصل بها من صفات وعادات بدقة متناهية ، فكيف نفرت من بين أيديهم وبشكل جماعي ، ولم يقدر أحد منهم على رد شيء منها ؟

لاأشك أن ذلك كان تدبيرًا من الله تعالى على خلاف المعتاد في حياة العرب ليكون تمهيدًا لظهور هذه الكرامة العظيمة .

ثم لننظر إلى هذه الثقة البالغة من هذا العبد الصالح الذي كان مشهورًا بكثرة العبادة وكان مجاب الدعوة . . هذه الثقة بمعية الله تعالى لأوليائه التي جعلته يقسم على الله جل وعلا بأنه لايخذل أولياءه وأنصاره ، وإنه لينطبق عليه قول النبي ﷺ « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (2) .

ثم لننظر إلى هذا الإلحاح الطويل في الدعاء فلقد استمروا في الدعاء

---

(1) المنُّ هو الذي كان ينزل على بني إسرائيل لمّا تاهوا في صحراء سيناء ، وقد أراد أبو هريرة رضي الله عنه برجوعه أن يعرف إن كان بقي من الماء ماهو معتاد فهو غيث من المطر لأن الغدران عادة تجفُّ شيئًا فشيئًا ، فلما رأى الأرض جفت بسرعة وكأنه لم يكن فيها ماء عرف أن ذلك الماء مما منَّ الله به عليهم على غير المعتاد .

(2) صحيح البخاري ، رقم ٢٨٠٦ ، كتاب الجهاد (٦/ ٢١) .

من بعد صلاة الفجر إلى مابعد طلوع الشمس حتى فرج الله كربتهم فأنبع لهم الماء من جوف الرمل ثم تكوَّن منه غدير عظيم .

ولاشك في أن قلوبهم كانت موصولة بالله تعالى ، وأنهم كانوا يشعرون بأن الأرض ومافيها والسموات في قبضة الجبار جل وعلا ، وأن بيده حياتهم وموتهم ، وأنه هو الذي خلق الأسباب المعروفة الموصلة لنتائجها المألوفة ، وهو قادر جل جلاله أن يخرق قانون الأسباب فيوجد النتائج المطلوبة من غير الأسباب المعروفة ، فكان أن أوجد لهم هذا الغدير العظيم من غير سحاب ولامطر ليكون أبلغ في حصول المقصود من تقوية الإيمان وتثبيت القلوب .

قال الإمام الطبري في سياق روايته السابقة عن منجاب بن راشد : ثم سرنا حتى ننزل هَجَر ، قال : فأرسل العلاء إلى الجارود ورجل آخر أن انضما في عبد القيس حتى تنزلا على الحطَم ممَّا يليكما ، وخرج هو في من جاء معه وفي من قدم عليه ، حتى ينزل عليه ممَّا يلي هَجَر ، وتجمَّع المشركون كلُّهم إلى الحُطَم إلا أهل دارين .

وتجمع المسلمون كلهم إلى العلاء بن الحضرمي ، وخندق المسلمون والمشركون ، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خَنْدقهم ، فكانوا كذلك شهرًا ، فبينا الناس ليلةً إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة ، كأنها ضوضاءُ هزيمة أو قتال ، فقال العلاء : من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال عبد الله بن حَذَف : أنا آتيكم بخبر القوم -وكانت أمّه عجْليَّة[1]- فخرج حتى إذا دنا من خَندقهم أخذوه ، فقالوا له : من

(١) يعني من بني عجل .

أنت؟ فانتسب لهم ، وجعل ينادي : يا أبْجَراه ! فجاء أبجر بن بُجَير ، فعرفه فقال : ماشأنُك ؟ فقال : لا أضيعنَّ الليلة بين اللَّهَازم ! عَلاَمَ أقتَل وحولي عساكر من عجْل وتيْم اللّات وقيس وعَنَزَة ! أيتلاعب بي الحُطم ونُزَّاع القبائل وأنتم شهود ! فتخلَّصه ، وقال : والله إنّي لأظنّك بئس ابن الأخت لأخوالك الليلة ! فقال : دَعْني من هذا وأطعمْني ، فإني قد متّ جوعًا . فقرّب له طعامًا ، فأكل ثم قال : زوّدني واحملْني وجَوِّزني أنطلق إلى طيَّتي . ويقول ذلك لرجل قد غلب عليه الشراب ، ففعل وحَمَله على بعير ، وزوّده وجَوَّزه ، وخرج عبد الله بن حَذَف حتى دخل عسكر المسلمين ، فأخبرهم أنّ القوم سكارى .

فخرج المسلمون عليهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم ، فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا ، واقتحموا الخندق هُرّابا ، فمُتَردٍّ، وناج ودَهش، ومقتول أو مأسور ، واستولى المسلمون على مافي العسكر ، لم يفلت رجل إلا بما عليه .

وقصد عُظْمُ الفُلاّل لدارين (١) ، فركبوا فيها السفن ، ورجع الآخرون إلى بلاد قومهم .

فكتب العلاء بن الحضرمي إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل فيهم ، وأرسل إلى عُتيبة بن النَّهَّاس وإلى عامر بن عبد الأسود بلزوم ماهم عليه والقعود لأهل الردة بكل سبيل ، وأمر مسْمَعًا بمبادرتهم ، وأرسل إلى خَصَفَة التميمي والمثنَّى به حارثة الشيباني ، فأقاموا لأولئك بالطريق ، فمنهم منْ أناب ، فقبلوا منه واشتملوا عليه ، ومنهم من أبى

(١) أي ذهب أكثر الفارين إلى جزيرة دارين .

ولَجَّ فمنع من الرجوع ، فرجعوا عَوْدَهم على بدئهم ، حتى عَبَرُوا إلى دارين ، فجمعهم الله بها .

في هذا الخبر موقف حربي جيد للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه حيث تنبه إلى حركة الأعداء ومايجري داخل معسكرهم واهتم بمعرفة ذلك فأرسل عبد الله بن حذف لمعرفة خبرهم ، وكان هذا التصرف سببا في القضاء عليهم بعد حرب دامت شهراً بينهم وبين أعدائهم .

وموقف فدائي لعبد الله بن حذف الذي استعد للقيام بهذه المهمة مع مافيها من الخطورة ، ولقد قام بمهمته خير قيام ، وكان سياسيًا بارعًا حيث استطاع أن يخفي مهمته عن الأعداء وأن يحوز على قناعتهم بأنه لم يَقدم لكشف أمرهم للمسلمين ، وكان نجاحه في مهمته مقدمة الفتح الذي تم بعد ذلك للجيش الإسلامي .

وهكذا رأينا الفرق بين حياة الجد والسمو نحو المعالي والترفع عن الدنايا وبين حياة اللهو والنزول نحو الرذائل ، فقد كان المسلمون في يقظة تامة وترصد دائم لحركات العدو وسكناته ، بينما كان عدوهم سادرًا في غيه وغوايته ، قد استسلموا لأُمِّ الخبائث التي سلبتهم عقولهم المفكرة فأصبحوا كقطيع من المواشي تنتظر جازرها ، فكانت نهايتهم على أيدي هؤلاء الليوث العبَّاد الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله فهيأ لهم سبحانه سُبل النجاح وأعزَّ بهم دينه وأولياءه .

وما أهون الرجال وإن عظموا في أعين الناس حين يرتضون لأنفسهم أن تُسلب منهم عقولهم ولو لحظة واحدة ، فيتصرفون تصرف المجانين ، وتُنتهك حصونهم وتُبتَذل كرامتهم !

وقال الإمام ابن جرير الطبري في سياق روايته السابقة عن منجاب ابن راشد : ولم يزل العَلاءُ مقيمًا في عسكر المشركين حتى رجعت إليه الكتب من عند منْ كان كتب إليه من بكْر بن وائل ، وبلَغه عنهم القيام بأمر الله ، والغضبُ لدينه ، فلمَّا جاءه عنهم من ذلك ماكان يشتهي ، أيقن أنه لن يؤتى من خلفه بشيء يكرهه على أحد من أهل البحرين ، وندَب النَّاس إلى دارين ، ثم جمعهم فخطبهم ، وقال : إنّ الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشُرَّدَ الحرب في هذا البحر ، وقد أراكم من اياته في البّر لتعتبروا بها في البحر ، فانهضوا إلى عدوّكم . ثم استعرضوا البحر إليهم . فإنّ الله قد جَمعهم ، فقالوا : نفعل ولانهاب والله بعد الدَّهناء هَوْلاً مابقينا .

فارتحل وارتحلوا . حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الخيل والإبل والبغال ، منهم الراكب ومنهم الراجل ، ودعا ودعواْ ، وكان دعاؤه ودعاؤهم : يا أرحم الراحمين ، ياكريم ، ياحليم ، يا أحدْ ، ياصَمَد ياحيّ يامُحيي الموتى ، ياحيّ ياقيوم ، لا إله إلا أنت ياربنا . فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعًا يمشون على مثل رَمْلة مَيْثاءَ [١] ، فوقها ماء يغمُر أخفاف الإبل ، وإنّ مابين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفُن البحر في بعض الحالات ، فالتقوا بها واقتتلوا قتالا شديدًا ، فما تركوا بها مُخْبراً وسبوا الذراري ، واستاقوا الأموالَ ، فبلغ نَفَل الفارس ستَّة آلاف . والراجل ألفَيْن . قطعوا ليلهم وساروا يومَهم ، فلمَّا فرغوا رجعوا عَوْدَهم على بدئهم حتى عَبَروا ، وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر :

---

(١) أي سهلة ليِّنة .

ألــــم تَـرَ أنَّ الـلـه ذَلَّلَ بَـحْـره   وأنـزل بالكُفَّار إحدَى الجلائـل !

دَعَونا الذي شق البحارَ فجاءَنا   بأعجب من فَلْق البحار الأوائل

ولَمّا رجع العلاء إلى البحرين ، وضرب الإسلام فيها بجرانه ، وعزّ الإسلامُ وأهله ، وذلّ الشرْك وأهلُه ، أقبل الذين في قلوبهم مافيها على الإرجـاف ، فأرجف مُرْجِفُون ، وقـالوا : هاذاك مَفْرُوق ، قد جمع رهطه . شيبان وتغلب والنّمر ، فقال لهم أقوام من المسلمين : إذاً تشغَلهم عنا اللَّهَازم - واللَّهَازم يومئذ قد استجمع أمرهم على نصر العلاء وطابقوا - .

قال : وكان مع المسلمين راهبٌ في هَجَر ، فأسلم يومئذ فقيل : مادعاك إلى الإسلام ؟ قال : ثلاثة أشياء ، خشيت أن يمسخني الله بعدها إن أنا لم أفعل : فَيْضٌ في الرمال ، وتمهيد أثباج البحار ، ودعاءٌ سمعته في عسكرهم في الهواء من السَّحَر . قالوا : وماهو ؟ قال : اللهم أنتَ الرحمن الرّحيم ، لا إله غيرُك ، والبديع ليس قبلك شيء . والدائم غير الغافل ، والحيّ الذي لايموت ، وخالق مايُرَى وما لايُرَى ، وكل يوم أنت في شأن ، وعَلمتَ اللهمّ كلّ شيء بغير تَعَلُّم ، فعلمتُ أن القوم لم يُعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله .

فلقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ يسمعون من ذلك الهَجَرِيّ بعد .

وكتب العَلاء إلى أبي بكر : أما بعدُ ، فإنّ الله تبارك وتعالى فَجَّر لنا الدّهناء فيضًا لاتُرَى غواربه . وأرانا آية وعبرة بعد غمّ وكرب ، لنحمد الله ونمجِّده ، فادعُ الله واستنصرْه لجنوده وأعوان دينه .

فحمد أبو بكر الله ودعاه ، وقال : مازالت العرب فيما تحدّث عن

بلدانها يقولون : إنّ لقمان حين سئل عن الدّهناء : أيحتفرونها أو يَدَعونها؟ نهاهم ، وقال : لاتبلغها الأرْشية ، ولم تقرّ العيون ، وإنّ شأن هذا الفَيض من عظيم الآيات ، وماسمعنا به في أمّة قبلها ، اللهم أخلف محمدًا صلى الله عليه وسلم فينا .

ثم كتب إليه العلاءُ بهزيمة أهل الخندق وقتْل الحطم : أمَّا بعد ، فإن الله تبارك اسْمُه سلَب عدوَّنا عقولهم ، وأذهب ريحَهم بشراب أصابوه من النَّهار . فاقتحمنا عليهم خندقهم ، فوجدناهم سُكارى ، فقتلناهم إلاّ الشريد ، وقد قتل الله الحُطَم .

فكتب إليه أبو بكر : أمَّا بعد ، فإنْ بلغك عن بني شيبان بن ثعلبة تمامٌ علي ما بلغك ، وخاض فيه المُرْجفون ، فابعث إليهم جندًا فأوطئهم وشرِّدْ بهم من خلفهم . فلم يجتمعوا ، ولم يَصِرْ ذلك من إرجافهم إلى شيء [1] .

وهكذا سار العلاء بن الحضرمي وجيشه إلى أعدائهم الذين تحصنوا بجزيرة دارين ، ولم يكن عندهم سفن يعبرون بها البحر فدعوا الله تعالى أن يسهل لهم عبور البحر فأجاب دعاءهم وذلّله لهم .

وهذه كرامة عظيمة أجراها الله تعالى على يد هؤلاء السادة الأماجد بقيادة العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه حيث استجاب الله دعاءهم فذلّلَ لهم ماء البحر حتى عبروا وقضوا على أعدائهم ثم رجعوا ، وذلك نصر من الله تعالى لدينه وتأييد لأوليائه ، فلو بقي الأعداء في جزيرتهم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٠١ - ٣١٣ بتصرف واختصار .

وانظر البداية والنهاية ٦/ ٣٣١ - ٣٣٤ ، والكامل في التاريخ ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٢ .

المحصنة بالماء لأصبحوا مصدر إزعاج دائم للمسلمين خصوصا وأن لديهم السفن التي عبروا بها وليس لدى المسلمين سفن آنذاك ، وحروب الردة كانت في مواجهة فتنة عارمة ، فهي تحتاج إلى الإجهاز السريع على الأعداء قبل أن يتجمعوا وتكون لهم شوكة ، فمنَّ الله تعالى على أوليائه الصادقين بهذه الكرامة العظيمة ليكمل لهم الفتح ، وإخضاع جميع المرتدين في المنطقة ليتفرغ المسلمون بعد ذلك للفتوح الإسلامية .

هذا وإن بعض من كتبوا من العلماء المعاصرين عن التاريخ الإسلامي أنكروا هذه الكرامة ومايماثلها وأوَّلوها بتأويلات يقبلها العقل المجرد، حيث أوَّلوا ذلك بظاهرة المد والجزر ، وأن الصحابة ومن معهم اغتنموا وقت الجزر فعبروا على أرض البحر بعد أن جزر عنها الماء ، وعللوا هذا الإنكار بأن المعجزات قد انقطعت وذهبت مع الأنبياء عليهم السلام .

وإن الجواب على ذلك من وجوه :

١ - قد اتفق علماء أهل السنة على الإقرار بكرامات الأولياء ، وهي ما يجريه الله على أيديهم من خوارق العادات ، وذكروا أن هذه الكرامات تعتبر معجزات للأنبياء عليهم السلام لأنها لم تحصل على يد الأولياء إلا بإيمانهم بالأنبياء عليهم السلام واتباعهم إياهم ، وقد ذكر العلماء من ذلك أنواعا وأمثله كثيرة لايمكن أن يتطرق إليها الشك بمجموعها وإن كان بعض أفرادها قد لايصح [١] .

٢ - أن إنكار هذه الكرامات وأمثالها يعتبر إزراء بكل من رواها أو استشهد بها منذ عهد الرواة الذين شاهدوا هذه الكرامات إلى عهد

---

(١) انظر مثلا كتاب « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » لشيخ الإسلام ابن تيمية .

التدوين ، وعلى رأس هؤلاء أئمة مشهورون بالعلم الراسخ من أمثال الأئمة الطبري وأبي نعيم والبيهقي وابن الجوزي وابن كثير وابن تيمية وغيرهم ، فهل كان هؤلاء ينقلون ظواهر طبيعية ويصورونها للناس على أنها كرامات خارقة للعاده ؟

٣ - أن البحر الذي قطعه الجيش الإسلامي بحر عميق حيث جاء في الروايات المذكورة أن الأعداء عبروا إلى « دارين » بالسفن ، والسفن لاتسير على ماء قليل ، والتعليل بالمد والجزر لايتصور في بحار عميقة ، وإنما هو ممكن في السواحل ونحوها التي يغمرها الماء أحيانا ويتقلص عنها أحيانا أخرى .

٤ - إذا كان الأمر لايعدو كونه اغتنام فرصة سنحت للجيش الإسلامي في عبور أرض البحر بعد ماجزر عنها الماء بفعل الظواهر الطبيعية فما هو الداعي لأن يقف العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه وجيشه يدعون الله تعالى مُتَذَلِّلين أن يسخر لهم البحر ؟

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا جمعهم العلاء وخطبهم وذكّرهم بكرامة الله تعالى لهم السابقة في البر ؟ ولماذا أمرهم بعبور البحر مادام قد تحول إلى أرض جافة بفعل ظاهرة الجزر ؟

وإذا كان الأمر كذلك فما الداعي لقولهم للعلاء : نفعل ولانهاب والله بعد الدهناء هولاً ما بقينا ؟ فأي هول في اجتياز أرض جافة قد جزر عنها ماء البحر ؟

وهذه الكرامة وهي اجتياز الجيش الإسلامي لهذا البحر العميق من غير أن يستخدموا السفن تظل أمرًا خارقا للعادة سواء كان البحر قد بقي

على حاله وأن الله تعالى قد سخره لهم فلم تغمرهم مياهه العميقة ، أو أن الله تعالى جفف لهم ماءه فساروا على أرضه .

وقد جاء في الرواية السابقة « فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله تعالى جميعًا يمشون على مثل رملة ميثاء - يعني لينة سهلة - فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل » .

وظاهر هذا النص يؤيد أن الله تعالى جفف لهم ماء البحر فأصبحوا يمشون على أرض لينة فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، بعد أن دعوا الله تعالى بالدعاء المذكور وهو قولهم « يا أرحم الراحمين ياكريم ياحليم ، يا أحد ياصمد ، ياحي يامحيي الموتى ياحي ياقيوم لا إله إلا أنت ياربنا» .

ومما يدل على أن ماحدث لهذا الجيش من تذليل البحر كان أمرًا خارقا للعادة ، ماجاء في رواية الإمام الطبري من قول عفيف بن المنذر وكان أحد أفراد ذلك الجيش :

ألم تر أن الله ذلَّل بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذي شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل

ومما يدل على ذلك أيضًا ماجاء في رواية الطبري المذكورة من ذكر ذلك الراهب الذي أسلم لما رأى هذه الآية وماسبقها .

فقد ذكر هذا الراهب الذي أسلم الكرامتين اللتين سبق ذكرهما وكرامة ثالثة و هي أن الملائكة عليهم السلام كانوا يدعون للمسلمين ، فاستدل بذلك على أن أولئك المسلمين كانوا على أمر الله مستقيمين .

وهكذا رأينا أن من شاهدوا هذه الكرامات والمعاصرين لها كانوا

يرونها من خوارق العادات ، وقد قادت بعضهم إلى الدخول في الإسلام . وثبَّت الله جل وعلا بها كثيراً من المسلمين على إسلامهم ومازالت هذه الكرامات تحدث لبعض المؤمنين في كل عصر إنقاذاً لبعضهم من مأزق وقع فيه . وتثبيتًا لبعضهم على دينه ، ونصراً لدين الله تعالى وتمكينًا له في الأرض .

ومما تلزم الإشارة إليه أن هذه الكرامات وأمثالها لم تكن من الأمور التي يهتم بها الصحابة رضي الله عنهم ، ولم يكونوا يستشرفون لها ، ولا كانوا يعملون لها أعمالاً تمهد لحدوثها كما يفعله المنحرفون عن منهج السلف ، بل كانت كرامات من الله تعالى يُنقذ بها بعض أوليائه حينما يبذلون كل ما في وسعهم من الأسباب الشرعية ثم يكون الواقع الذي مر بهم أكبر من أن تحيط به تلك الأسباب ، وقد يكرمهم الله تعالى لأنهم أهل لانتصار الإسلام بهم فتأتي هذه الكرامات بعد استفراغ الوسع وبذل الجهد في جهاد الأعداء .

وقد يتخلف وجود هذه الكرامات مع احتياج المسلمين للإنقاذ ومع كونهم من أولياء الله تعالى كما هو الحال في شهداء بئر معونة لأن الله تعالى شاءت حكمته أن يصطفي عدداً من أوليائه شهداء لرفع ذكرهم وليكونوا شهداء على عظمة هذا الدين الذي ضحوا بأنفسهم من أجله .

وقد رباهم النبي ﷺ بقوله وعمله على أخذ الأسباب التي خلقها الله تعالى وهيأها لغاياتها المحددة .

ولذلك فإنهم لم يكونوا يفهمون الكرامات على أنها غايات تطلب لذاتها أو أنها طريق مختصر يمكن السعي إليه ليكون بديلا عن الأسباب

المعروفة لدى جمهور العقلاء فضلا عن أولياء الله المهتدين ، بل كانوا يبذلون كل طاقتهم في تأمين هذه الأسباب ويسارعون إلى تعلُّم ماعند غيرهم من ذلك ثم يتفوقون فيه على الآخرين ، ولقد مرَّت بهم ألوان من المشاقِّ والأهوال ونجحوا كثيراً وأخفقوا قليلا ، وكانوا في نجاحهم شاكرين متواضعين ، وكانوا في إخفاقهم صابرين محتسبين رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

١٥ - جهاد المرتدين في عمان -

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري من حديث ابن مُحَيْرِيز ، قال : نبغ بعمان ذو التَّاج لَقيط بن مالك الأزديّ ، وكان يُدْعَى في الجاهلية الجُلَنْدَى ، وادَّعى بمثل ما ادعى به من كان تنبأ ، وغلب على عُمَان مرتدًا ، وألجأ جَيْفَرًا وعبّادًا إلى الأجبال والبحر [1] ، فبعث جَيْفر إلى أبي بكر يخبره بذلك ، ويستجيشه عليه . فبعث أبو بكر الصّدّيق حُذَيفة بن محصن الغَلْفانيّ من حمْير ، وعَرْفجةَ البارقيّ من الأزد ، حذيفة إلى عُمَان وعرفجة إلى مَهْرة . وأمرهما إذا اتَّفقا أن يجتمعا على مَن بُعثا إليه ، وأن يبتدئا بعمان ، وحُذيفة على عَرْفجة في وجْهه ، وعَرْفجة على حذيفة في وجهه . فخرجا متساندين ، وأمرهما أن يُجدّا السَّيْرَ حتى يقدَما عُمان ، فإذا كانا منها قريبًا كاتَبا جَيْفَرًا وعبّادًا ، وعملا برأيهما . فمضيا لما أُمرا به .

وقد كان أبو بكر بعث عكرمة إلى مُسيلمة باليمامة ، وأتبعه شُرحبيل بن حَسَنة ، وسمَّى لهما اليمامة ، وأمرهما بما أمر به حُذيفة وعرفجة ، فبادر عكرمة شُرحبيل ، وطلب حظوة الظفر ، فنكبه مُسيلمة ، فأحجم عن مُسيلمة ، وكتب إلى أبي بكر بالخبر ، وأقام شُرحبيل عليه حيث بلغه الخبر ، وكتب أبو بكر إلىٰ شرحبيل بن حسنة ، أن أقم بأدنى اليمامة حتى يأتيك أمري ، وترك أن يُمضيه لوجهه الذي وجهه له ، وكتب إلى عكرمة يعنفه لتسرُّعه ، ويقول : لا أرينك ولا أسمعن بك إلا بعد بلاء ، والحَقْ بعُمان حتى تقاتل أهل عُمان ، وتُعين حذيفة وعرفجة ، وكل واحد منكم

---

(١) جيفر أمير عمان في الجاهلية فلما أسلم ولاه النبي صلى الله عليه وسلم عليها ومعه عباد .

على خيله ، وحذيفة مادُمتم في عمله على الناس ، فإذا فرغتم فامض إلى مهرة ، ثم ليكن وجهُك منها إلى اليمن ، حتى تُلاقي المهاجر بن أبي أمية باليمن وبحضْرَمَوت ، وأوطئ مَنْ بين عمان واليمن ممنْ ارتد ، وليبْلُغني بلاؤك .

فمضى عكرمة في أثر عرفجة وحُذيفة فيمن كان معه حتى لحق بهما قبل أن ينتهيا إلى عمان ، وقد عهد إليهم أن ينتهوا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ في السير معه أو المقام بعُمان ، فلما تلاحقوا - وكانوا قريبًا من عُمان بمكان يُدعى رجَامًا - راسلوا جَيفرًا وعَبَّادًا .

وبلغ لَقيطا مجيء الجيش ، فجمع جموعه وعسكر بدَبَا ، وخرج جيفر وعبَّاد من موضعهما الذي كانا فيه ، فعسكرا بصُحار ، وبعثا إلى حُذيفة وعرفجة وعكرمة في القدوم عليهما ، فقدموا عليهما بصُحَار ، فاستبرءُوا ما يليهم حتى رضُوا ممّن يليهم ، وكاتبوا رؤساءَ مع لقيط وبدءوا بسيد بني جُدَيْد ، فكاتبهم وكاتبوه حتى ارفضُّوا عنه ؟

ونهَدوا إلى لَقيط ، فالتقوا على دَبَا ، وقد جمع لقيط العيَالات ، فجعلهم وراء صفوفهم ليُجَرّبهم ، وليحافظوا على حُرَمهم - ودَبَا هي المصْر والسوق العظمى - فاقتتلوا بدَبَا قتالا شديدًا ، وكاد لَقيط يستعلي النَّاس ، فبيناهم كذلك وقد رأى المسلمون الخَلَل ورأى المشركون الظَّفَر جاءت المسلمين موادُّهم العُظْمى من بني ناجية ، وعليهم الخرِّيتُ بن راشد ، ومن عبد القيس وعليهم سَيْحان بن صُوحان ، وشواذب [1] عُمان من بني ناجية وعبد القيس . فقوَّى الله بهم أهل الإسلام . ووهَّن

---

(١) الشواذب : جمع شاذب ، وهو المتنحّي عن وطنه .

الله بهم أهل الشِّرْك ، فولّى المشركون الأدبار ، فقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف ، وركبوهم حتى أثخنوا فيهم ، وسَبَوُا الذّراري ، وقسموا الأموال على المسلمين ، وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عَرْفجة .

ورأى عكْرمة وحذيفة أن يقيم حُذَيفة بعُمان حتى يوطّئ الأمور . ويُسكِّن الناس ، وكان الخمس ثمانمائة رأس ، وغنموا السوق بحذافيرها . فسار عرفجة إلى أبي بكر بخُمس السَّبْي والمغانم ، وأقام حُذَيفة لتسكين النَّاس [1] .

تبين لنا من هذا الخبر أن عمان خرج بها رجل يَدَّعي النبوة وهو لقيط ابن مالك الأزدي ، كما تنبأ طليحة الأسدي والأسود العنسي ومسيلمة الحنفي، وقد كان لادِّعاء النبوة في ذلك الزمن رواج لماَ رأى زعماء القبائل من سرعة إقبال العرب على اتباع النبي ﷺ .

وهكذا رأينا أنه قد برز في كل قبيلة أو في مجموع القبائل رجل من طلاب الجاه والشهرة ، فجمع الناس من حوله وأعلن انفراده بالمسئولية وشقَّ عصا الطاعة ، فمنهم من تذرع للوصول إلى مقاصده بادِّعاء النبوة، ومنهم من اكتفى بما ورثه في الجاهلية من شرف وسيادة ، فمنَّ الله جل وعلا على الأمة الإسلامية آنذاك برجل المواقف العظيمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي فجَّر الطاقات الكامنة في الرجال ووجهها لسحق الطغيان الذي عشَّش في رؤوس هؤلاء المتطاولين حتى قُتل من قتل منهم وتطَامَن من بقي واستسلم لقوة دولة الإسلام .

لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يغتنم الفرص ويستنفذ

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣١٤ - ٣١٦ باختصار .

الطاقات ويستحث الهمم ليصل من الأعمال المقدَّمة إلى أعلى النتائج ، فحينما أخطأ عكرمة في تسرعه في قتال بني حنيفة اغتنم أبو بكر ندمه على ذلك ليوجهه إلى مجموعة من القبائل فيستنفذ بذلك طاقته الكاملة في البلاء في سبيل الله ، وهو يعلم أن الذي دفعه إلى التعجل في قتال بني حنيفة الرغبة في نصر الإسلام ودحر أعداء الله تعالى ، فلم يكبت أبو بكر في نفسه هذه الرغبة الملحة بل وجهه إلى عدة ميادين كان أهلا لها ، وأبلى فيها بلاءً حسنًا .

لقد اجتمع عكرمة بجيشه مع القائدين حذيفة وعرفجة وواجهوا جميعًا تجمعًا كبيرًا بقيادة مُدَّعي النبوة لقيط بن مالك ، وكاد أن ينتصر مما يدل على ضخامة جيشه لولا أنْ قَيَّظَ الله تعالى للمسلمين مددًا من بني ناجية بقيادة الخرِّيت بن راشد ومن عبد القيس بقيادة سَيْحان بن صوحان ، فنصر الله جل وعلا المسلمين نصرًا مؤزرا كما جاء في الخبر .

وهكذا أمدَّ الله سبحانه المسلمين بمدد عظيم لم يحسبوا له حسابا ، وهو مثل من أمثلة نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين إذا أخلصوا النية وبذلوا الجهد المستطاع في سبيله جل وعلا .

* * *

١٦ – جهاد المرتدين في مهرة –

قال الإمام محمد بن جرير الطبري : ولمَّا فرغ عكرمة وعرفجة وحذيفة من ردّة عُمان ، خرج عكرمة في جنده نحو مهرة ، واستنصر من حول عُمان وأهل عمان ، وسار حتى يأتي مهرة ، ومعه ممَّن استنصره من ناجية والأزد وعبد القيس وراسب وسَعْد من بني تميم بَشَرٌ ، حتى اقتحم على مهرة بلادها ، فوافق بها جمعين من مهرة : أمَّا أحدُهما فبمكان من أرض مَهْرة يقال له : جَيْرُوت ، وقد امتلأ ذلك الحَيّز إلى نَضَدُون -قاعَيْن من قيعان مَهْرة - عليهم شخريت ، رجل من بني شخراة ، وأمَّا الآخر فبالنَّجد ، وقد انقادت مهرة جميعًا لصاحب هذا الجمع ، عليهم المُصَبَّح ، أحد بني مُحارب والناس كلهم معه ، إلا ما كان من شخريت ، فكانا مختلفين ، كل واحد من الرئيسين يدعو الآخر إلى نفسه ، وكلٌّ واحد من الجُندين يشتهي أن يكون الفلْج [1] لرئيسهم ، وكان ذلك مما أعان الله به المسلمين وقَوَّاهم على عدوهم ، ووهنهم .

ولما رأى عكرمة قلة من مع شخريت دعاه إلى الرجوع إلى الإسلام ، فكان لأول الدعاء ، فأجابه ووهَّن الله بذلك المصبَّح . ثم أرسل إلى المصبَّح يدعوه إلى الإسلام والرجوع عن الكفر ، فاغترَّ بكثرة من معه ، وازداد مباعدةً لمكان شخريت ، فسار إليه عكرمة ، وسار معه شخريت ، فالتقوا هم والمصبَّح بالنَّجد ، فاقتتلوا أشدّ من قتال دَبَا .

ثم إنّ الله كشفَ جنودَ المرتدين ، وقُتل رئيسهم ، وركبهم المسلمون فقتلوا منهم ماشاءوا ، وأصابوا ماشاءوا ، وأصابوا فيما أصابوا ٱلْفَيْ

(١) أي الفوز والسيادة .

نجيبة [١] ، فخمَّس عكرمة الفيء ، فبعثَ بالأخماس مع شخريت إلى أبي بكر ، وقسم الأربعة الأخماس على المسلمين ، وازداد عكرمة وجنده قوة بالظَّهر والمتَاع والأداة ، وأقام عكرمة حتى جمعهم على الذي يحب ، وجمع أهل النَّجد ، أهل رياض الروضة ، وأهل الساحل ، وأهل الجزائر ، وأهل المُرّ واللّبان وأهل جيْروت ، وظهور الشِّحْر والصَّبَرات ، وينعب ، وذات الخيم ، فبايعوا على الإسلام ، فكتب بذلك مع البشير - وهو السائب أحد بني عابد من مخزوم - فقدم على أبي بكر بالفَتْح ، وقدم شخريت بعده بالأخماس [٢] .

في هذا الخبر موقف حربي جيد لعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ، فإنه حينما وصل إلى بلاد مهرة ووجدهم منقسمين إلى قسمين ولكل قسم قائد ورأى أنَّ بين القائدين تنافس وخلاف اغتنم هذه الفرصة فدعا أقلَّهما جندا وهو شخريت إلى الإسلام ، فاستجاب لذلك سريعًا وكأنه كان ينتظر هذه الدعوة ليكون مع المسلمين ضد منافسه المصبَّح ، وهذه سياسة جيدة من عكرمة حصل بها على مدد قوي لجيشه ، ولم يُغْفل عكرمة دعوة الزعيم الآخر إلى الإسلام ، لأن الإسلام هو الهدف الذي من أجله عُقدت ألوية الجهاد ، لكن هذا الزعيم « المصبَّح » اغتر بكثرة جنده فرفض قبول الدعوة إلى الإسلام ، فكانت نهايته وهزيمة جيشه في تلك المعركة .

* * *

(١) يعني ألفي ناقة والنجيبة الناقة السريعة .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣١٦ - ٣١٧ .

١٧ – جهاد المرتدين والمتمردين في اليمن –

أما أهل اليمن فكان كثير منهم ارتدوا مع الأسود العنسي الكذاب الذي ادعى النبوة قبيل وفاة النبي ﷺ ، وقد أرسل النبي ﷺ الرسل والكتب يأمر المسلمين هناك بمدافعته وقتاله ، وثبّت الله تعالى المسلمين هناك بمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري وغيرهما من الصحابة ، حتى قتل الله الأسود العنسي على يد فيروز أحد أبناء أمراء اليمن الذين هم من أصل فارسي ، وذلك قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أيام ، وقد كاد الخلاف يقع بين أمراء اليمن حتى جمعهم الله بمعاذ بن جبل .

وما أن علم أهل اليمن بوفاة النبي ﷺ حتى ارتد بعضهم مرة ثانية وعدا قيس بن عبد يغوث على الأمراء من أبناء فارس يريد قتلهم وكان قبل ذلك مشاركًا لهم في محاولة القضاء على الأسود العنسي ، فتمكن قيس من قتل أحدهم وهو ذادويه ، وأفلت منهم الآخرون لما علموا خديعته وعلى رأسهم فيروز وكان أبو بكر رضي الله عنه كتب إلى وجهاء اليمن بتأمير فيروز وأمرهم بالقيام معه في نصرة الإسلام .

وقد تصدى فيروز لحرب قيس ، واستنصر بقبيلة خولان وكانوا أخواله فنصروه ، كما استنصر بقبيلتي بني عُقَيل وعكّ فأمدوه بالرجال فالتقى بجيشه مع قيس دون صنعاء فهزم الله قيسا وفرّ هاربًا مع جنده .

ولاشك أن لمبادرة أبي بكر رضي الله عنه إلى تأمير فيروز على اليمن أكبر الأثر في قيام القبائل بنصرته ، فأصبحت الأمور ممهدة في اليمن قبل وصول الجيش الإسلامي إليها ، وهذه المبادرة تعتبر منقبة من مناقب أبي بكر الكثيرة التي تجلّت في أيام خلافته .

أما الجيش الذي وجهه أبو بكر رضي الله عنه لإخضاع المتمردين في اليمن وحضرموت فكان بقيادة المهاجر بن أبي أمية ، وكان من آخر من فصل من عند أبي بكر من الجيوش التي وجهها لحرب المرتدين والمتمردين، وقد كان أبو بكر كتب إلى الأمراء في طريقه أن يمدوه بالجيوش فأمده أمير مكة عتَّاب بن أسيد بجيش بقيادة أخيه خالد، وأمده أمير الطائف عثمان بن أبي العاص بجيش بقيادة عبد الرحمن بن أبي العاص ، كما انضم إليه جرير بن عبد الله البجلي ، وعبد الله بن ثور حينما حاذى بلادهما ، وغير ذلك من الأمداد حتى وصل إلى اليمن فوطَّد الأمور فيها وتتبع المتمردين فقتل من قدر عليه منهم ، حتى دانت اليمن لدولة الإسلام . ثم انطلق إلى حضرموت حسب توجيهات الصديق رضي الله عنه .

أما عكرمة بن أبي جهل فإنه بعد أن قضى على المرتدين في بلاد مَهْرة أقام حتى وطد البلاد وأخذ منهم البيعة على الإسلام ولزوم الجماعة ، ثم واصل زحفه تنفيذاً لأوامر أبي بكر حتى التقى بحضر موت بالمهاجر بن أبي أمية وجيشه ، وكان أبو بكر بعثه إلى المرتدين في اليمن وحضرموت، فاجتمعت ثلاثة جيوش للمسلمين أحدها بقيادة المهاجر بن أبي أمية والثاني بقيادة عكرمة بن أبي جهل والثالث بقيادة زياد بن لبيد البياضي وهو أحد أمراء المسلمين في البلاد ، فسدوا الطرق على أعدائهم المرتدين من كندة ومن انضم إليهم من القبائل ، وقد كانت بينهم حروب قبل ذلك واشترك عكرمة في المعركة الفاصلة التي كان الظفر فيها للمسلمين، ولجأ فلول المرتدين إلى حصنهم « النُّجَير » .

ثم إن الأشعث بن قيس خرج من الحصن فطلب الأمان لعشرة من

القوم بأهليهم على أن يفتح الباب للمسلمين فاصطلحوا على ذلك ونسي الأشعث أن يكتب اسمه ، فلما جيء بالكتاب قال المهاجر : الحمد لله الذي أخطأك نوءُك يا أشعث ياعدو الله قد كنت اشتهي أن يخزيك الله ، فشده وثاقا وهمَّ بقتله ، فقال له عكرمة : أخِّره وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا ، وإنه كان رجلا نسي اسمه أن يكتبه وهو ولي المخاطبة ، أفذاك يبطل ذاك ؟ فقال المهاجر : إن أمره لبيِّن ولكني أتبع المشورة وأوثرها، وأخَّره وبعث به إلى أبي بكر مع السبي [1] .

وهذا موقف جيد من المهاجر بن أبي أمية حيث آثر قبول مشورة عكرمة ولم يصرَّ على رأيه ، وقد عفا أبو بكر عن الأشعث بعد تأنيب شديد له ووعْد من الأشعث بالاستقامة على الإسلام .

وهكذا انتهت حروب الردة التي تم بها إخضاع جزيرة العرب بأكملها في عام واحد [2].

ولقد كان لتخطيط أبي بكر المحكم في توزيع قوة المسلمين على جزيرة العرب في وقت واحد أثر كبير في الحيلولة دون تحزب الأعداء ضد المسلمين .

ولعل بعض التجمعات لم تكن تعلم بوصول قوة المسلمين حتى فاجئوهم لظنهم أنهم مشغولون بأعدائهم القريبين من المدينة .

إن المتأمل في عمل أبي بكر في حروب الردة يجد تخطيطًا عسكريًا محكما حيث عمل على تطويق الجزيرة العربية من جميع نواحيها، وإن

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٢٣ - ٣٤٢ بتصرف واختصار .

(٢) ينظر في هذه الأخبار تاريخ الطبري ٣/ ٣١٨ .

من أبرز الأمثلة على ذلك إرسال المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن وحضرموت وإرسال عكرمة بن أبي جهل إلى شرق الجزيرة ثم إلى جنوبها ممتداً إلى الجنوب الغربي ليلتقي بالمهاجر في حضرموت .

ولقد دُهشت القبائل العربية في كل مكان بهذا السيل الجارف من الجيوش التي انطلقت في الأصل من المدينة ، ثم انضم إليها من ثبتوا على إسلامهم وولائهم من أفراد القبائل .

ومن المؤكد أن أصحاب التجمعات الكبيرة كطليحة الأسدي ومسيلمة الكذاب لم يكونوا يحسبون لقوة جماعة المسلمين في المدينة حسابًا ، وحينما أمد طليحة عبسًا وذبيان على أهل المدينة لم يأت بنفسه وإنما أرسل أخاه « حبالاً » في قيادة جيش صغير ، مما يدل على عدم اهتمامه كثيراً بقوة المسلمين في المدينة ، ولكن الله دحر جمعه بجيش واحد من الجيوش الأحد عشر التي وجهها الصديق لقتال المرتدين والمتمردين .



١٨ - نتائج حروب الردة -

لقد كان من نتائج هذه الحروب المتواصلة أن قامت للإسلام دولة عظيمة في جزيرة العرب خضعت لها كل القبائل العربية إما طوعا وإما كرها .

ولو لم يقم أبو بكر بما قام به من قتال المرتدين والمتمردين لم تقم للإسلام دولة ، ولرجعت القبائل العربية إلى سابق عهدها الجاهلي في الحروب والتطاحن فيما بينهم .

ولو لم يجاهد أبو بكر ومن معه من المؤمنين لإقامة دولة الإسلام لأصبح المسلمون كالنصارى يعبدون الله في خاصة أنفسهم ، ولاشأن لهم بسياسة الأمة ، ولأصبح الإسلام المطبَّق في الأرض ناقصا لفقد أصل من أصوله وهو إقامة حكم الله تعالى في الأرض .

ومن هنا نعلم أن الأمر الذي صمم عليه أبو بكر ووافقه عليه الصحابة بعد أن أقنعهم برأيه هو الأمر المستقيم الذي لابد منه ليتم تطبيق الإسلام كاملا كما جاء من عند الله تعالى .

وكان ما أقدم عليه من ذلك أمرًا عظيمًا لايُقدم عليه إلا عظماء الرجال الذين بلغ عندهم الإيمان بالله تعالى واليقين بنصره لأوليائه ودينه حدا يفوق كل التصورات والتقديرات التي تعرض للإنسان فتزعزع إيمانه ويقينه .

ولقد وصفت عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما هذا الموقف العظيم بقولها : لَمَّا قُبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة واشرأبَّ النفاق ، والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، وصار

أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزَى مطيرة في حُشٍّ في ليلة مطيرة بأرض مَسْبَعة ، فو الله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بخَطَلها وعنانها وفصلها ، ثم ذكرت عمر فقالت : من رأى عمر علم أنه خُلق غنًى للإسلام ، كان والله أحوذيًا نسيجَ وَحْده ، قد أعدَّ للأمور أقرانها .

ذكره الحافظ ابن كثير من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها [(١)] .

ومع هذه القوة العظيمة التي أبداها أبو بكر رضي الله عنه في حرب المتمردين وإقامة الدولة الإسلامية فإنه لم يقبل الخلافة إلا مكرها خوفًا من انفلات الأمور وحدوث الفتن تحت إلحاح كبار الصحابة ، ولقد جاء في بعض الروايات أن أبا بكر قال لعمر : ابسط يدك نبايع لك فقال عمر أنت أفضل مني ، فقال أبو بكر : أنت أقوى مني ، قال : إن قوتي لك مع فضلك ، ذكر ذلك الذهبي في رواية عن ابن سيرين رحمهما الله [(٢)] .

وهذا تواضع عظيم من أبي بكر رضي الله عنه فلقد أبانت الأيام بعد ذلك أنه كان أقوى الصحابة في مواجهة الفتنة الكبيرة وإن كانت قوة عمر رضي الله عنه قد برزت في كثير من المواقف وساندت قوة أبي بكر رضي الله عنه .

وهكذا رأينا أن الجهاد في سبيل الله هو السبيل الأقوم الذي سلكه أبو بكر رضي الله عنه وأصرَّ عليه حتى أعاد جماعة المسلمين ودولتهم تحت إمام واحد .

---

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٠٩ .

(٢) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين / ٩ .

وهذا الذي تم من ألفة العرب بالإسلام وانخراطهم جميعًا تحت لواء واحد يعتبر من بركة تنفيذ الجهاد في سبيل الله تعالى الذي هو ذروة سنام الإسلام .

ولاشك أن هذه التضحيات الضخمة التي قدمها هؤلاء الصحابة ومن والاهم والمغامرات الجريئة التي خاضوها مع أولئك المرتدين كان لنتائجها الباهرة أبلغ الأثر في خضوع قبائل الجزيرة العربية لدولة الخلافة ، فإن في رؤوس زعماء هذه القبائل طغيانًا يرون بسببه أنهم أعلى شأنًا من ورثة النبوة ، ولو أن هذه القبائل بايعت دولة الخلافة وفي رؤوس قادتها هذا الطغيان فإن الأمور لاتنتظم لدولة الخلافة ولن تتوفر الطاعة التامة من جميع قبائل العرب على النحو الذي تم بعد حروب الردة في فتوح الشام والعراق ، فإن تلك الطاعة التامة التي أنتجت النتائج الباهرة في مجال الفتوح لم تتمثَّل في عالم الواقع إلا بعد أنهار من دماء الأطهار الأبرار التي سفكت على جنبات الجزيرة العربية ، والتي خرج بعدها من بقوا على قيد الحياة قادة الفتوح وسادة الأمم ، وأصبح كل من كان يتطلع قبل ذلك من العرب أن يكون الزعيم المطلق في جزيرة العرب ينظر إليهم بعين الإجلال والإكبار ويقرع سنَّ الندم على مابدر منه من طيش وجهل ، ويحاول أن يكون الجندي المطيع الذي يسابق أنداده على محاولة تحسين سمعته أمام الله وأمام أوليائه حتى يُكفِّر عما بدر منه في أيام جاهليته .

وما أن خضعت جزيرة العرب لدولة الإسلام وانتهت مهمة القواد الذين وجههم الخليفة أبو بكر رضي الله عنه لإخضاع المرتدين والمتمردين حتى وجههم الصديق مرة أخرى للجهاد في سبيل الله تعالى من أجل

نشر الدعوة الإسلامية وإزالة الدول التي تحكم بالجاهلية وتحول دون الشعوب وتفهُّم دعوة الإسلام .

ولما كانت أكثر شعوب العالم آنذاك تخضع لدولتين كبيرتين هما دولة فارس والروم فقد اتجهت أنظار الصديق ومن معه من أهل الشورى إلى غزو هاتين الدولتين وإخضاعهما لدولة الإسلام وتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها من سلطانهم ليستطيعوا بعد إزالة الطغيان المهيمن على نفوسهم أن يفهموا دعوة الإسلام وتقوم عليهم الحجة إن فضَّلوا البقاء على جاهليتهم .

هذا وإن توجيه القبائل العربية إلى الجهاد في سبيل الله تعالى يعتبر من فقه أبي بكر وفهمه العظيم ، وذلك أن إشغالهم بالجهاد يمتص ما لديهم من طاقة ، ولو لم يُشغَلوا بذلك لربما صرفوا هذه الطاقة في القتال فيما بينهم خاصة وأن الإسلام لم يتمكن من سائر أنحاء الجزيرة كتمكُّنه في المدينة النبوية .

هذا إلى جانب ما يحصل عليه هؤلاء العرب من التربية الدينية العالية على يد المؤمنين الصادقين الذين رباهم النبي ﷺ ، وذلك في معاشرتهم إياهم أثناء رحلاتهم الطويلة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى .

ولقد أنجز المسلمون في أقل من عام ونصف في خلافة أبي بكر ما تعجز عنه الأمم في أعوام كثيرة ، وذلك بفضل الله تعالى ، ثم بتوجيهات أبي بكر الحازمة الحكيمة ، وقيادة النبلاء في كل من العراق والشام كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

* * *

مواقف وعبر
فى
فتوح العراق الأولى

١ - مسير خالد بن الوليد إلى العراق -

أخرج الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر الشعبي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو باليمامة : أن سرْ إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهي الأُبُلَّة ، وتألّف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم .

وذكر في رواية أخرى أن أبا بكر أمره أن يأذن لمن شاء من أصحابه بالرجوع إلى بلادهم وأن لايُكره أحدا بالسير معه .

وكان ذلك في شهر محرم سنة اثنتي عشرة (١) . وقد استمد خالد أبا بكر حينما رجع أكثر جنده فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمي فقيل له : أتُمدُّ رجلا قد ارْفضَّ عنه جنوده برجل ؟ ! فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا (٢) .

وهذه فراسة صادقة من أبي بكر بينتها أحداث العراق بعد ذلك ، وقد كان أبو بكر أعلم الناس بالرجال ومايتصفون به من طاقات وكفاءات مختلفة ، وسيأتي فيما بعد أمثلة من شهادة الصحابة له بذلك وخاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين .

وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الرواية الأولى « وتألّفْ أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » يبين لنا الهدف من الجهاد الإسلامي خارج بلاد الإسلام فهو جهاد دعوي يُقصد به دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام ، ولما كانت الدعوة غير ممكنة مع بقاء الحكومات

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٣ - ٣٤٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٦ .

الكافرة فإنه لابد من إزالتها لتمكين شعوبها من الدخول في الإسلام .

وهذا الهدف ظاهر في جميع المعارك التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم حيث كانوا يدعون أعداءهم إلى الإسلام فيكون لهم ماللمسلمين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا فليستسلموا لحكم الإسلام ويدفعوا الجزية مقابل حماية المسلمين لهم ، فإن أبوا فلابد من القتال حتى تكون كلمة الله هي العليا .

هذا ومن المواقف التي تذكر في الجهاد في العراق ماكان من المثنى بن حارثة الشيباني ، وكان يقاتل الأعداء في العراق بقومه ، ولما علم بذلك أبو بكر سرَّه ماكان منه فأمَّره على من بناحيته وذلك قبل مجيء خالد ، فلما توجهت همة الصديق لغزو فارس رأى أن خالدًا أجدر القواد بهذه المهمة فوجهه لها ، وكتب كتابًا إلى المثنى يأمره بالانضمام إلى خالد وطاعته ، فما كان منه إلا أن سارع في الاستجابة ولحق بخالد هو وجيشه[1] .

وإن هذا موقف يذكر للمثنى حيث لم يَغُرَّه كثرة جيشه ولا كونه أقدم من خالد في إمرة جيوش العراق فلم يحمله ذلك على أن يرى أنه أحق بالقيادة من خالد .

ولقد كتب خالد إلى ثلاثة من الأمراء في العراق قد اجتمعت لهم جيوش لغرض الجهاد وهم مذعور بن عدي العجلي وسُلْمَى بن القين التميمي وحرملة بن مُرَيْطة التميمي فاستجابوا وضموا جيوشهم التي بلغ تعدادها مع جيش المثنى ثمانية آلاف ، وكان قد بقي مع خالد من جيش

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٤ .

اليمامة ألفان ، وانضم إليه من ربيعة ومضر ثمانية آلاف فأصبح جيشه ثمانية عشر ألفا [(١)] .

هذا وقد جاء في كتاب أبي بكر لخالد وعياض بن غَنْم : « أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولايغزوَنَّ معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي » فلم يشهد الأيام مرتد [(٢)] يعني في أول الأمر وقد شهدوا الأيام بعد ذلك حينما ثبتت استقامتهم كما سيأتي .

وهذا الموقف من أبي بكر مبنيٌّ على الاحتياط لأمر الجهاد في سبيل الله تعالى حتى لايشترك فيه طلاب الدنيا فيكونوا سببا في فشل المجاهدين واختلال صفوفهم .

وهذا درس تربوي من أبي بكر استفاده من الدروس النبوية العالية وذلك في تنقية الصف الإسلامي من الشوائب وتوحيد هدفه حتى يكون خالصا لوجه الله تعالى ، فيأمن بذلك من الانتكاسات الخطيرة التي تحدث بسبب تعدد الأهداف .

ولقد حرص أبو بكر على هذا المبدإ السامي مع شدة احتياج الجيش الإسلامي آنذاك إلى الرجال مما يدل على قناعته التامة بأن العبرة بسمو الهدف والإخلاص لابكثرة العدد .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٧ ، والمراد بالأيام المعارك .

٢ – معركة كاظمة –

كان خالد بن الوليد قد بعث قبل وصوله إلى العراق كتابا إلى هرمز الذي كان واليا على « الأُبُلَّة » الواقعة في جنوب العراق يقول فيه : « أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذمة وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» (١) .

ولما وصل الكتاب إلى هرمز كتب بذلك إلى كسرى وجمع جيشه وبادر إلى المكان الذي سار إليه خالد وهو « كاظمة » فنزل على الماء ونزل المسلمون بعده على غير ماء ، وقالوا لخالد في ذلك ، فأمر مناديه فنادى : ألا انزلوا وحُطُّوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرنَّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين .

وهكذا حوَّل خالد بفكره العبقري هذه المصيبة بفقد الماء إلى مكرمة ونعمة ، فاغتنم ذلك لدفع المسلمين إلى الاستبسال في القتال ليكون الحصول على الماء دافعًا جديداً يضاف إلى الدوافع الأخرى الثابتة في الحض على القتال ، فانقلب هاجس الكفار الذي دفعهم إلى المسارعة ومنع المسلمين من الماء وبالاً عليهم .

وحط المسلمون أثقالهم والخيل وقوف ، وتقدم الراجلون ، وزحفوا إلى الكفار ، ومنَّ الله تعالى بكرمه وفضله على المسلمين بسحابة فأمطرت وراء صفوف المسلمين ونهلوا من غدرانها فتقوى بذلك المسلمون.

---

(١) أخرجه الإمام الطبري من خبر الشعبي – تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٧ – ٣٤٨ .

وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة الشاهدة على معية الله جل جلاله لأوليائه المؤمنين بنصره وإمداده .

وواجه المسلمون هرمز وكان مشهوراً بالخبث والسوء حتى ضُرب المثل بخبثه فعمل مكيدة لخالد وذلك أنه اتفق مع حاميته على أن يبارز خالدا ثم يغدروا به ويهجموا عليه ، فبرز بين الصفين ودعا خالداً إلى البراز فبرز إليه ، والتقيا فاختلفا ضربتين واحتضنه خالد فحملت حامية هرمز على خالد وأحْدَقوا به فما شغله ذلك عن قتل هرمز ، وما أن لمح ذلك البطل المغوار القعقاع بن عمرو حتى حمل بجماعة من الفرسان على حامية هرمز وكان خالد يجالدهم فأناموهم (١)، وحمل المسلمون من وراء القعقاع حتى هزموا الفرس .

وهذا هو أول المشاهد التي ظهر فيها صدق فراسة أبي بكر حينما قال عن القعقاع : « لايُهزم جيش فيهم مثل هذا » .

أما خالد فقد ضرب أروع الأمثال في البطولة ورباطة الجأش فقد أجهز على قائد الفرس وحاميته من حوله فلم يستطيعوا تخليصه منه ، ثم ظل يجالدهم حتى وصل إليه القعقاع ومن معه فقضى عليهم .

وقد كان الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لايفروا فلم تغن عنهم شيئًا أمام الليوث البواسل ، وسمِّيت هذه المعركة لذلك بذات السلاسل (٢) .

* * *

(١) أي أبادوهم وهو تعبير بليغ عن القتل .

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩ ، البداية والنهاية ٦/ ٣٤٨ - ٣٤٩ ، الكامل ٢/ ٢٦٢ .

٣ – معركة المذار –

كان هرمز قد كتب إلى كسرى بكتاب خالد فأمده كسرى بجيش بقيادة « قارن » ولكن هرمز استخف بجيش المسلمين فسارع إليهم قبل وصول قارن فنُكب ونكب جيشه ، وهرب فلول المنهزمين فالتقوا بجيش «قارن» وتذامروا فيما بينهم وتشجعوا على قتال المسلمين ، وعسكروا بمكان يسمى « المذار » .

وكان خالد قد بعث المثنى بن حارثة وأخاه المعنَّى في آثار القوم ففتحا بعض الحصون ، وعلما بمجيء جيش الفرس فأبلغا خالداً الخبر ، وكتب خالد إلى أبي بكر يخبره بمسيره إليهم ، وسار وهو مستعد للقتال حتى لايفاجأ بهم ، والتقى المسلمون معهم في « المذار » فاقتتلوا والفرس قد أغضبهم وأثار حفيظتهم ماوقع لهم قبل ذلك ، وخرج قائدهم «قارن» ودعا إلى البراز ، فبرز إليه خالد ولكن سبقه إليه معقل بن الأعشى بن النباش فقتله ، وكان قارن وضع على ميمنته « قباذ» وعلى ميسرته«أنوشجان » وهما من القواد الذين حضروا اللقاء الأول وفروا من المعركة ، فتصدَّى لهما بطلان من أبطال المسلمين ، فأما قباذ فقتله عدي ابن حاتم الطائي ، وأما أنوشجان ، فقتله عاصم بن عمرو التميمي ، واشتد القتال بين الفريقين ولكن الفرس انهزموا بعد مقتل قادتهم . وقُتل منهم ثلاثون ألفا ولجأ بقيتهم إلى السفن فهربوا عليها ومَنَع الماءُ المسلمين من ملاحقتهم [1] .

ففي هذه المعركة برز ثلاثة من أبطال المسلمين وهم معقل بن الأعشى

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٣/ ٣٥١ – ٣٥٢ ، البداية ٦/ ٣٤٩ الكامل ٢/ ٢٦٣ .

ابن النباش ، وعدي بن حاتم الطائي ، وعاصم بن عمرو التميمي حيث قتلوا قادة الفرس الثلاثة ، وكان ذلك سببا في هزيمة الفرس .

وفي كثرة عدد قتلى الفرس الذين بلغوا ثلاثين ألفًا دلالة على ضخامة الجهد الذي بذله المسلمون في هذه المعركة .

* * *

٤ - معركة الولجة -

قال الإمام محمد بن جرير الطبري : ثم كان أمر الولجة في صفر من سنة اثنتي عشرة ، والولجة مما يلي كسكر من البر .

ثم أخرج من طريق سيف بن عمر التميمي عن المهلب بن عقبة وزياد ابن سرجس وعبد الرحمن بن سياه قالوا : لما وقع الخبر بأردشير [يعني كسرى] بمصاب قارن وأهل المذار أرسل الأندرْزَغَر وأرسل بَهمن جاذَوَيْه في أثره في جيش ، وأمره أن يعبُر طريق الأندرْزَغَر وكان الأندرزغر قبل ذلك على فَرْج خُراسان ، فخرج الأندرْزَغَر سائرًا من المَدَائن حتى أتى كَسْكَر ، ثم جازَها إلى الوَلَجة ، وخرج بَهْمَن جاذويه في أثره ، وأخذ غير طريقه ، فسلك وسط السَّواد ، وقد حشر إلى الأندرزغر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين فعسكروا إلى جَنب عسكره بالوَلجة ، فلما اجتمع له ما أراد واستتم أعجبه ماهو فيه ، وأجمع السَّير إلى خالد .

ولما بلغ خالدًا وهو بالثِّنْي خبرُ الأندرزغر ونزوله الولَجة ، نادى بالرحيل ، وخلَّف سُوَيد بن مُقرِّن ، وأمره بلزوم الحفير ، وتقدم إلى من خلَّف في أسفل دجلة ، وأمرهم بالحذر وقلَّة الغفلة ، وترك الاغترار ، وخرج سائرًا في الجنود نحو الوَلَجة ، حتى ينزل على الأندرزغَر وجنوده ومن تأشب إليه ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، هو أعظم من قتال الثِّنْي .

ثم أخرج من طريق سيف بن عمر التميمي عن محمد بن أبي عثمان ، قال : نزل خالدٌ على الأندرْزغر بالولجة في صفر ، فاقتتلوا بها قتالا شديدًا ، حتى ظن الفريقان أن الصبر قد فرغ ، واستبطأ خالد

كمينه، وكان قد وضع لهم كمينًا في ناحيتين ، عليهم بُسْر بن أبي رُهْم وسعيد بن مُرة العجلي ، فخرج الكمين في وجهين ، فانهزمت صفوف الأعاجم وولَّوا ، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، فلم ير رجلٌ منهم مقتل صاحبه ، ومضى الأندرزغر في هزيمته، فمات عطشًا (١) .

وهكذا تم نجاح المسلمين بالرغم من خطة الأعداء التي كانت مدروسة ومحكمة هذه المرة ، ولقد ساعد المسلمين على النجاح - بعد توفيق الله تعالى - فشل قادة الفرس في تنفيذ الخطط الحربية وبراعة خالد في التخطيط الحربي ، فأما فشل قادة الفرس فإن القائد الأول سارع إلى الدنو من جيش المسلمين بعد أن اغتر بانضمام بعض عرب العراق إليه، بينما أبطأ القائد الثاني وسار من طريق آخر فانفرد الجيش الأول بالمعركة، وأما براعة خالد الحربية فإنها قد ظهرت في اغتنامه الفرص وإسراعه في مناجزة الأعداء قبل أن يجتمع شملهم ، وفي الخطة الحربية الرائعة التي طبقها بوضع الكمينين اللذين خرجا على حين فتور في جيش الفرس فقضى خروجهما على ما بقي لديهم من قوة ، وبهذا ظهر تفوق المسلمين الحربي على دولة كانت عريقة في الحضارة المادية ولها خبرة طويلة في الحروب .

وأخرج الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الشعبي قال: بارز خالد يوم الولجة رجلا من أهل فارس يعدل بألف رجل فقتله ، فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه (٢) .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٣ -٣٥٤ ، وانظر البداية والنهاية ٦/ ٣٤٩، والكامل في التاريخ ٢/ ٢٦٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٤ .

وإن في هذا التصرف الجليل من سيف الله رضي الله عنه إذلالا للفرس وتحطيمًا لكبريائهم وتوهينا لعزائمهم ، ولئن كان هذا يعتبر مظهراً من مظاهر الكبرياء فإن ذلك على الكافرين وهو مطلوب من المؤمنين خصوصا في حال الحرب ، ولقد رأى رسول الله ﷺ أبا دجانة يوم أحد يتبختر في مشيته بين الصفين فقال : إن هذه مشية يبغضها الله في غير هذا الموطن .

ولاشك أن تصرف خالد هذا وأمثاله قد أوقع الرعب في قلوب الأعداء ، فأصبح كبارهم الذين يقابلون فرسان الروم يجبنون عن مواجهة فرسان المسلمين ، وذلك خوفا من القتل أولا ، وخوفا من الذل ثانيا فيما إذا تعرضوا لمثل هذه الإهانة .

وفي سياق الرواية السابقة التي أخرجها الإمام الطبري عن محمد بن أبي عثمان قال : وقام خالد في الناس خطيبا يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب ، وقال : ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب[1] ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولّي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثَّاقل عما أنتم عليه (٢) .

وهذا يشير إلى أن العرب وهم في جاهليتهم إضافة إلى أنهم ليسوا من طلاب الآخرة فإنهم لم يظفروا بالدنيا لتفرقهم وتناحرهم فيما بينهم ، فخالد يقول : نحن طلاب الآخرة ولنا هدف سام نسعى إليه ، من أجله ندعو ومن أجله نجاهد ، ولو فرض أننا لانحمل هذا الهدف ولا نجاهد من

(١) الرفغ : مجتمع التراب .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٤ .

أجله فإن العقل يقتضي أن نقاتل من أجل أن نُصلح أحوالنا المعيشية ، وخالد حينما يذكر ذلك لايجعل هذا الهدف ثنائيا مع الهدف السامي الذي ذكره ، وإنما يذكر ذلك على أنه مجرد افتراض يفرض نفسه لو لم يوجد الهدف السامي المذكور ، وكأنه يقول : إذا كنا سنقارع هؤلاء من أجل هذا الهدف الدنيوي أفلا نقارعهم من أجل الهدف الأخروي وابتغاء مرضاة الله جل وعلا ؟

ولاشك أن هذا الكلام مما يوقظ القلوب ويشحذ الهمم ، لتنطلق بعد ذلك النفوس المؤمنة مجاهدة في سبيل الله تعالى بكل طاقاتها .



٥ – معركة أُلَّيْسْ –

أخرج الإمام الطبري من خبر المغير ة بن عتيبة قال : : ولمّا أصاب خالد يوم الوَلَجة مَن أصاب من بكْر بن وائل من نصاراهم الذين أعانوا أهل فارس غضب لهم نصارى قومهم ، فكاتبوا الأعاجم وكاتبتهم الأعاجم، فاجتمعوا إلى ألَّيس ، وعليهم عبد الأسود العجْليّ، وكان أشد الناس على أولئك النصارى مسلمو بني عجْل : عُتيبة بن النَّهاس وسعيد بن مُرّة وفرات بن حَيَّان والمثنَّى بن لاحق ومذعور بن عدي .

وكتب أردشير إلى بَهمن جاذَوَيْه ، وهو بقُسْيَانا : أن سر حتى تقدم ألّيس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب . فقدَّم بَهْمن جاذويه جابان وأمره بالحثّ ، وقال : كفكفْ نفسَك وجندَك من قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يُعجلوك . فسار جابان نحو ألَّيس ، وانطلق بَهْمن جاذويه إلى أردشير ليُحدث به عهدًا ، وليستأمره فيما يريد أن يشير به ، فوجده مريضًا ، فعرَّج عليه ، وأخلَى جابان بذلك الوجه ، ومضى حتى أتى ألَّيْس ، فنزل بها في صفَر ، واجتمعت إليه المسالح ا لتي كانت بإزاء العرب ، وعبد الأسود في نصارى العرب من بني عجْل وتيم اللات وضُبَيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وكان جابر بن بجير نصرانيا ، فساند عبد الأسود .

وقد كان خالد بلغه تجمُّع عبد الأسود وجابر وزُهير فيمن تأشَّب إليهم، فنَهدلهم ولايشعر بدنوّ جابان، وليست لخالد همة إلا من تجمّع له من عَرَب الضّاحية ونصاراهم ، فأقبل فلمَّا طلع على جابان بألَّيْس ، قالت الأعاجم لجابان : أنعاجلهم أم نُغَدّي الناس ولانريهم أنا نحفل

بهم، ثم نقاتلهم بعد الفراغ ؟ فقال جابان : إن تركوكم والتَّهاون بكم فتهاونوا ، ولكن ظنّي بهم أن سيُعجلوكم ويعجِّلوكم عن الطعام. فعصوه وبسطوا البُسُط ووضعوا الأطعمة ، وتداعوا إليها ، وتوافوْا عليها.

فلمَّا انتهى خالد إليهم ، وقف وأمر بحطّ الأثقال ، فلما وُضعت توجَّه إليهم ، ووكَّل خالد بنفسه حوامىَ يحمُون ظهره، ثم بَدَرَ أمام الصفّ، فنادى : أين أبجر ؟ أين عبد الأسود؟ أين مالك بن قيس؟ رجلٌ من جَذْرة ، فنكَلُوا عنه جميعًا إلا مالكا ، فبرز له ، فقال له خالد: يابن الخبيثة ، وماجرَّأك عليَّ من بينهم ، وليس فيك وفاء ! فضربه فقتله ، وأجهض الأعاجم عن طعامهم قبل أن يأكلوا ، فقال جابان : ألم أقل لكم ياقومُ ! أما والله ما دخلَتْني من رئيس وحشة قطُّ حتى كان اليوم، فقالوا حيث لم يقدروا على الأكل تجلُّداً : نَدعُها حتى نفرغ منهم ، ونعود إليها. فقال جابان : وأيضًا أظنكم والله لهم وضعتموها وأنتم لاتشعرون، فالآن فأطيعوني ، سُمّوها ، فإن كانت لكم فأهْونُ هالك، وإن كانت عليكم كنتم قد صنعتم شيئًا ، وأبلَيْتم عذرًا. فقالوا: لا ، اقتدارًا عليهم .

فجعل جابان على مجنَّبَتَيْه عبد الأسود وأبجر ، وخالد على تعبئته في الأيام التي قبلها ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، والمشركون يزيدهم كَلَبًا وشدَّةً ما يتوقَّعون من قدوم بَهْمن جاذويه ، فصابروا المسلمين للذي كان في علم الله أن يصيِّرَهم إليه ، وحَربَ المسلمون عليهم ، وقال خالد: اللهمّ إنَّ لك عليّ إن منحتنا أكتافَهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليه حتى أجري نهرَهم بدمائهم! ثم إن الله عز و جل كشفهم للمسلمين ،

ومنحهم أكتافهم ، فأمر خالد مناديه ، فنادى في الناس : الأسرَ الأسرَ! لاتقتلوا إلا من امتنع ، فأقبلت الخيول بهم أفواجًا مستأسرين يساقون سَوْقًا ، وقد وكَّل بهم رِجالاً يضربون أعناقهم في النهر ، ففعل ذلك بهم يومًا وليلة ، وطلبوهم الغد وبعد الغد ، حتى انتهوا إلى النّهربن ، ومقدار ذلك من كلّ جوانب ألّيْس . فضرب أعناقهم .

ولما هُزم القوم وأجْلُوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من طلبهم ودخلوه، وقف خالد على الطعام ، فقال: قد نفَّلْتكموه فهو لكم . وقال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى على طعام مصنوع نفَّله . فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل مَنْ لم يرَ الأرياف ولايعرف الرّقاق يقول: ماهذه الرّقاق البيض ! وجعل مَنْ قد عرفها يجيبهم ، ويقول لهم مازحًا : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : هو هذا، فسُمِّي الرّقاق ، وكانت العرب تسمّيه القِرَى (١) .

في هذا الخبر مواقف لأبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه في الحزم والتدبير الحربي والشجاعة فقد عاجل الأعداء بتلك الضربات الموجعة المهلكة حال وصولهم ولم يترك فرصة للتفكير والتخطيط للحرب، كما أنه طلب مبارزة ثلاثة من أبطال العرب في العراق فنكل اثنان وتقدم له الثالث فَسخر منه بكلام حطَّم فيه معنويته ثم قضى عليه، وقد قام خالد بهذا العمل البطولي ليحرج زعماء الكفار وليحطِّم معنوية جيشهم ويهزمهم نفسيا قبل الدخول في المعركة ، وليبين لهم أن اجتماع

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٧ باختصار ، وانظر البداية والنهاية ٦/ ٣٥٠ ، و الكامل ٢/ ٢٦٤ .

العرب والعجم في حرب المسلمين لم يؤثر على إقدامهم ولم يُضعف من شخصيتهم .

وبملاحظة ما وقع من الكفار من اهتمامهم بوضع موائد الطعام أولاً وعدوُّهم واقف أمامهم يتربص بهم ، وماكان من سرعة هجوم المسلمين عليهم يتبين لنا الفرق الكبير بين المعسكرين حيث يتصف الفرس بالغرور والتعاظم والانقطاع إلى شهوات الدنيا ، وعدم الانسجام بين الأفراد والقادة حيث أظهر أفراد الجيش معصيتهم لقائدهم وأصروا على بسط الموائد والتهاون بالمسلمين .

بينما يتصف المسلمون بالتواضع والحزم وأخذ الحذر وترقب الفرص والزهد في الدنيا والانسجام الكامل بين الأفراد والقادة .

* * *

٦ - فتح أمْغيشَيا -

ذكر الإمام الطبري أن ذلك كان في شهر صفر يعني من العام الثاني عشر، وأن الله عز وجل أفاءها بغير خيل .

ثم روى من خبر المغيرة بن عتيبة قال : لما فرغ خالد من وقعة أُلَّيس نهض فأتى أمغيشيا وقد أعجلهم عما فيها ، وقد جلا أهلها ، فأمر خالد بهدم أَمْغيشَيا وكل شيء كان في حيِّزها ، قال: وكانت مصْرًا كالحيرة وكان فرات بادَقْلَى ينتهي إليها ، وكانت أُلَّيس من مسالحها، فأصابوا فيها مالم يصيبوا مثله قط .

ثم روى من خبر عدد من الشيوخ قالوا : قال أبو بكر رحمه الله حين بلغه ذلك : يامعشر قريش - يخبرهم بالذي أتاه - عَدَا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله [1] ، أعَجَزَت النساء أن ينسلْن مثل خالد![2] .

فهذه الكلمة العظيمة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه تعتبر وسام شرف لخالد ، فهي اعتراف بالجميل ، ورفع لأهل البلاء والفضل والهمم العالية، ودفع لأصحاب الهمم الضعيفة ليضاعفوا من جهودهم وينافسوا على المكارم .

* * *

---

(١) الخراذيل قطع اللحم .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٨ .

٧ – فتح الحِيَرة –

بعد أن هزم خالد الأعداء المتحزِّبين من العجم والعرب في «ألَّيس» وهدم مدينة « أمغيشيا » حتى لاتكون مأوى لتجمع الأعداء ، أحس أمير «الحيرة » « الآزاذبه » بالخطر ، لدنو خالد منه فتهيأ لحرب خالد، وأمر ابنه بسدِّ الفرات ليحول بين المسلمين وعبور النهر بالسفن ، وكان خالد قد حمل الرجال والأمتعة على السفن ، ففوجئوا بتوقف السفن لضحالة ماء النهر ، فقال الملاحون : إن أهل فارس سدوا النهر فسلك الماء غير طريقه .

وكان خالد على الخيل فسارع نحو ابن أمير الحيرة فلقي حاميةً له وهم آمنون فأبادهم ثم سارع إلى « فم فرات بادَقْلَى » حيث يعسكر ابن أمير الحيرة فلقيه هو وجنده فاقتتلوا فقضى عليهم خالد ، وفجَّر الفرات وسلك الماءُ سبيله ، واستلحق خالد جيشه وسار نحو الحيرة .

وهكذا كان خالد بن الوليد بارعًا في اتخاذ الموقف المناسب في أسرع وقت، مغتنمًا الفرص في النكاية بالأعداء وإيقاعهم في الارتباك والحيرة، فما ينتهي بهم الحديث عن مغامرة أوجعهم فيها إلا ويفاجئهم بأخرى لم يستعدوا لها ولم تخطر لهم على بال .

ولما علم أمير الحيرة بقتل ابنه ، وكان بلغه موت كسرى « أردشير» خرج وقطع الفرات هاربًا ، وأخلى الحيرة ليواجه أهلها جيش المسلمين .

وكان في الحيرة أربعة حصون ، فأمر خالد بكل حصن قائدا من قواده، فأمر ضرار بن الأزور أن يحاصر القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي وأمر ضرار بن الخطاب أن يحاصر قصر العدسيين وفيه

عدي بن عدي المقتول ، وأمر ضرار بن مقرّن المزني أن يحاصر قصر بني مازن وفيه حيرى بن أكّال ، وأمر المثنى بن حارثة أن يحاصر قصر ابن بُقَيْلة وفيه عمرو بن عبد المسيح .

وعهد خالد إلى قواده أن يبدؤوا هؤلاء المحصورين بالدعوة إلى الإسلام فإن قبلوا وأسلموا قبلوا منهم وكفوا عنهم ، وإن أبوا ذلك فأن يؤجلوهم يوما ، وقال : لاتمكنوا عدوكم من آذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم ، ولاتُردِّدوا المسلمين عن قتال عدوهم .

وهذا المنهج الواضح الحازم الذي أمر به خالد قواده هو الذي سار عليه قبل ذلك ، وانتج له النتائج السريعة الباهرة .

وما كان قواده بالذين يتلكؤون عن تنفيذه وقد طبقه على نفسه سابقا ورأوا بأعينهم آثاره الظاهرة في النصر وكيد الأعداء .

وقد كان أول القواد أنشب القتال بعد تأجيل يوم ضرار بن الأزور ، وكان على قتال أهل القصر الأبيض فأصبحوا وهم مشرفون ، فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزاء ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة وتنادوا : عليكم الخزازيف ، فقال ضرار : تنحوا لاينالكم الرمي حتى ننظر في الذي هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال معهم عدَّة الرمي ، فرموا المسلمين بالمداحي المعمولة من الخزف ، فقال ضرار : ارشقوهم ، فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رؤوس الحيطان ، ثم بثوا غاراتهم فيمن يليهم وفعل القادة الآخرون مثل ذلك ، فاستسلم الأعداء ورضوا بالصلح .

لقد كانت هذه الحصون المنيعة تَصُدُّ الغزاة من قبل وقد صُمِّمت

لذلك ، لأن من دنا منها يكون قد دنا من الموت على أيدي الرماة الذين يملؤون الشرفات ، ولكن المسلمين من طراز آخر ، فإنهم لا يصدهم حصون ولا خنادق ، لأنها تعتبر من مواطن الموت وهم يتسابقون على نيل الشهادة ، ولذلك دنوا من الحصون ورشقوا أهلها بالنبال حتى خلت شرفاتها من المقاتلين ، وإن تفوُّق من هم في الأرض على من كانوا فوق الحصون في الرماية يعتبر من الأمور النادرة ، ويستحق كل إعجاب وتقدير ، وقد أثار الرعبَ في قلوب الأعداء وهم محصَّنون في قصورهم ، فاستسلموا لقوة المسلمين وشجاعتهم .

وقد خرج رؤساؤهم لمقابلة خالد ، فخلا بأهل كل قصر دون الآخرين وبدأ بأصحاب عدي بن عدي فقال : اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ماعلينا إن نهضتم وهاجرتهم وإن أقمتم في دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة ، فقال : بل نعطيك الجزية ، فقال خالد : تبًا لكم ، ويْحكم إن الكفر فلاة مُضلَّة فأحمق العرب من سلكها .

وإن لنا أمام هذا الموقف الجليل وقفات ، فهو أولاً يبين الهدف الأسمى من الجهاد الإسلامي ، ألا وهو الدعوة إلى الإسلام وتبليغ الهداية للبشرية ، وليس هو التوسع في الممالك وفرض السلطان والتمتع بالحياة الدنيا ، وهو يبين ثانيًا أهم مقومات نجاح المسلمين في حروبهم ، هذا النجاح الذي يقوم على الحرص الأكيد على طلب الشهادة وابتغاء ماعند الله تعالى في الآخرة ، ولاشك أن الذي يحرص على الموت يقاتل الأعداء بطاقته الكاملة غير مستَبْق بعضها للدفاع عن نفسه ، أما الذي

يقاتل وهو حريص على الحياة فإنه يصرف معظم طاقته في استبقاء نفسه ليتمتع بثمرات النصر التي لا تعدو هذه الحياة الدنيا .

كما أن هذا النص يؤكد لنا أخيراً حرص الصحابة رضي الله عنهم على تطبيق سنة النبي ﷺ ، وذلك بالرغبة القلبية في هداية البشرية ، حيث إن خالداً وبَّخهم على اختيار البقاء على الكفر مع أن بقاءهم على الكفر ودفع الجزية فيه مصلحة مالية للمسلمين ولكن خالداً من قوم هانت عليهم الحياة الدنيا وفضلوا ماعند الله جل وعلا في الآخرة ، وقد سنَّ رسول الله ﷺ لهم هذا المبدأ السامي بمثل قوله لعلي رضي الله عنه حينما أعطاه الراية يوم خيبر «لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النَّعم» .

هذا وقد ظهر في فتح الحيرة تصديق معجزة من معجزات النبي ﷺ حيث أخبر بفتحها ووصف قصورها ، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام الطبري بإسنادين عن الشعبي قال : لما قدم شُوَيل إلى خالد قال : إني سمعت النبي ﷺ يذكر فتح الحيرة فسألته كرامة [١] ، فقال : « هي لك إذا فُتحت عنوة » وشُهد له بذلك ، وعلى ذلك صالحهم ، فدفعها إليه ، فاشتد ذلك على أهل بيتها وأهل قريتها ما وقعت فيه ، وأعظموا الخطر [٢] ، فقالت : لاتُخطروه ولكن اصبروا ، ماتخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ! فإنما هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إليه ، فقالت : ما أرَبُك إلى عجوز كما ترى ! فَادني [٣] ، قال : لا إلا على حكمي ، قالت : فلك

(١) يعني بنت عبد المسيح أخت عمرو بن عبد المسيح أحد زعماء الحيرة .

(٢) أي بالغوا في طلب افتداتها بالمال .

(٣) بكسر الدال أي خذ المال فداء لي .

حكمك مرسلا ، فقال : لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم، فاستكثرتْ ذلك لتخدعه ، ثم أتته بها ، فرجعت إلى أهلها ، فتسامع الناس بذلك ، فعنَّفوه ، فقال : ماكنت أرى أن عددا يزيد على ألف! فأبوا عليه إلا يخاصمهم ، فخاصمهم فقال : كانت نيتي غاية العدد، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف ، فقال خالد : أردت أمرًا، وأراد الله غيره ، نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك كاذبا كنت أو صادقا [1] .

وهكذا تحقق فتح الحيرة كما أخبر النبي ﷺ ، وقد جاء في خبر آخر أخرجه الطبري أنها كُشفت للنبي ﷺ فرآها ووصف شُرَفَ قصورها وشبَّهها بأضراس الكلاب [2] .

ولقد قدر الله تعالى أن يكون شويل حاضرًا وأن يطلب هذه المرأة التي كانت تشغل باله ليتم تثبيت تذكُّر الصحابة رضي الله عنهم لهذه المعجزة وليعرفها غيرهم من المسلمين ومن أبناء البلاد المفتوحة حيث ترتب على الوعد الكريم من رسول الله ﷺ قضية أهمَّت أهلها وأهل بلدها .

وفي هذه القصة الطريفة موقف إسلامي جليل من خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث قضى لصالح الأعداء ضد صاحب القصة حيث ادَّعى أنه لم يُردْ ألف درهم وإنما أراد نهاية العدد فأخذه بظاهر قوله دون ما كان يضمر في نفسه ، وهذا مثل من الأمثلة العالية لنزاهة المسلمين في القضاء .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٦٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٦٦ .

وبفتح الحيرة تحقق شطر من أمل أبي بكر رضي الله عنه في فتح العراق وإخضاعه تمهيداً لغزو فارس في عقر دارهم ، وقد قام خالد بن الوليد رضي الله عنه بمهمته في ذلك خير قيام ووصل إلى الحيرة في وقت قياسي حيث بدأ صراعه مع الأعداء في شهر محرم من العام الثاني عشر في معركة كاظمة ، وانتهى من فتح الحيرة في شهر ربيع الأول من العام نفسه ، أما الشطر الثاني من أمل أبي بكر فكان في فتح شمال العراق بقيادة عياض بن غَنْم ولكنه حُصر في دومة الجندل حتى خَفَّ إليه خالد فانقذهم الله به ثم سارع في إنهاء مهمته كما سيأتي بيان مواقف ذلك إن شاء الله تعالى .

بقي موقف من مواقف فتح الحيرة ، وذلك فيما جرى من خالد بن الوليد حينما ابتلع السم القاتل فلم يؤثر عليه بإذن الله تعالى ، وقد أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري بإسناده عن يونس بن إسحاق وعن رجل من بني كنانة عن الزهري عن رجل من الضِّباب ، وعن محمد بن أبي السَّفَر عن ذي الجوشن الضِّبابي أنهم قالوا : وكان مع ابن بُقَيْلة [1] مَنْصَف له [2] فعلق كيسًا في حقْوه ، فتناول خالد الكيس ونثر مافيه في راحته ، فقال : ماهذا ياعمرو ؟ قال : هذا وأمانة الله سمٌّ ساعة ، قال : لمَ تحتقب السم؟ قال : خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت ، وقد أتيتُ على أجلي ، والموت أحب إلي من مكروه أُدخله على قومي وأهل قريتي ، فقال خالد : إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها ، وقال : بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض ورب السماء ، الذي ليس يضر مع

(١) يعني عمرو بن عبد المسيح وهو سيد قومه .

(٢) يعني خادم .

اسمه داء ، الرحمن الرحيم ، فأهووا إليه ليمنعوه منه ، وبادرهم فابتلعه ، فقال عمرو : والله يامعشر العرب لتملكن ما أردتم مادام منكم أحد أيها القَرْن [1] وأقبل على أهل الحيرة فقال : لم أرَ كاليوم أوضح إقبالا [2] .

وقد ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير ولم يضعفها [3] .

وذكرها الحافظ ابن حجر وقال : رواه أبو يعلى ورواه ابن سعد من طريقين آخرين ولم يضعفها [4] . وذكرها الإمام ابن تيمية مثالا من أمثلة الكرامات [5] .

وقد أنكر بعض الكتاب المعاصرين هذا الخبر ، واعتبره من نسج خيال بعض الرواة حول شخصية خالد الشهيرة كما هو المعتاد في حياة بعض المشاهير .

وقد تبين لنا ثبوت هذه الرواية من ناحية الإسناد ، فقد ارتضاها الأئمة المذكورون وهم الطبري وابن سعد وابن كثير وابن حجر وابن تيمية ولم يضعفوا إسنادها ، وكلهم من العلماء بالسنة دراية ورواية ، ومن غير اللائق أن نصف ما ارتضاه هؤلاء الأئمة بأنه من الأساطير التي هي من نسج الخيال .

وإذا ثبتت هذه القصة فكيف نفسِّر إقدام خالد على شرب السم مع

---

(١) يعني يا أهل الجيل المعاصر .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٦٣ .

(٣) البداية والنهاية ٦/ ٣٤٧ .

(٤) الإصابة ١/ ٤١٤ .

(٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان / ١٢٧ .

معـرفتـه بأنه قـاتـل ؟ فهل كـان سيقـدم على قتل نفسـه ولو على سبيل الاحتمال البعيد ؟

إنه لن يفعل ذلك أبدًا لأنه مؤمن بالله حقًّا أوَّلاً ويعلم الوعيد المترتب على من قـتل نفسـه ، ولأنه ثانيًـا في قـمـة المجـد الدنيـوي الذي خُلِّد له بالانتصارات المتلاحقة الباهرة ، فما الذي حمله على احتساء هذا السم القاتل؟ ثم ما الذي جعله على ثقة بالغة ويقين تام بأن السم لن يضره بإذن الله تعالى .

أما الحامل له على الإقدام على هذه المغامرة العجيبة فهو مصلحة الدعوة الإسلامية بلاريب .

إن الانتصارات الباهرة التي حققها المسلمون بقيادة خالد لا شك أنها قـد دفـعت عـجلة الاسـتـجـابة للدعـوة إلى الأمـام ، ولكن تظل بعض النفوس بحاجة إلى دفعات قوية من نوع آخر ، وخاصة بالنسبة لأهل الكتاب الذين يتأثرون بخوارق العادات التي ألفوا حدوثها من الأنبياء عليهم السلام ومن بعض الصالحين ، وقد كان كثير من أهل البلاد التي وقعت فيها هذه الحادثة من النصارى .

و لاشك أن خـالدًا قـد وضع في ذهنه أن الفتـوح التي أجراها الله تعـالى على يديه ومن معـه من المسلمين ليست فـتوح ممالك ولاتوسعـة سلطان وإنما هي فتوح القلوب المتلهفة إلى معرفة الحق ، والتي حال بينها وبين إدراكه ركام الجاهلية المتسلط على الرقاب والعقول .

أما كيف أقدم خالد على هذه المغامرة مع أنها بالنسبة للأسباب المادية مورد متيقَّنٌ من موارد الهلاك ، فإن هذا مَعْلَمٌ من معالم الإيمان العالية

التي يعجز الذهن عن تصوره تصوراً كاملا ، ويعجز القلم عن تصويره، ولكن مما يُلقي بعض الضوء على هذا الموضوع أن نتصور أن خالدًا في تلك اللحظات التي حمل فيها السم في يده كان في قمة من اليقين والإيمان بأن الله جل جلاله هو الذي خلق كل شيء وأودع في كل شيء خصائصه ، وأنه القادر على أن يلغي مفعول هذه الخصائص إذا أراد، لحكمة عالية وهدف عظيم ، كما أذهب فعالية النار حينما أُلقيَ فيها إبراهيم عليه السلام ، وجعلها عليه بردًا وسلاما ، وقد حصل ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام كما حصل لأبي مسلم الخولاني لما رفض أن يقر بنبوة الأسود العنسي الكذاب فألقاه في النار فوجدوه فيها قائمًا يصلي ولم تضره ، وقد وفد بعد وفاة النبي ﷺ إلى المدينة فقال عمر رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله عليه السلام [(١)] .

فخالد حينما أقدم على ذلك كان موقنًا بأن النتيجة ستكون على غير مألوف البشر ، وأن شأن الإسلام سيعلو بسبب هذه الخارقة ، فأقدم على ابتلاع السم القاتل .

وقد استشهد العلماء بهذا الخبر على ناحية الكمال التي يمكن أن يصل إليها أقوياء الإيمان من مباشرة الأسباب الضارة اعتمادا على الثقة العظيمة بالله عز وجل والتوكل الكامل عليه ، واستدلوا لذلك بما رواه الإمامان أبو داود والترمذي « أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ، ثم قال : كل بسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه » [(٢)] مع أنه

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان / ١٢٩ ، سير أعلام النبلاء ٤/ ٨ .

(٢) فتح المجيد / ٣١٢ ، سنن أبي داود رقم ٣٩٢٥ ، سنن الترمذي رقم ١٨١٧ .

قال ﷺ « فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد » أخرجه الإمام البخاري [1] وهذا لعموم الناس حتى لايضعف إيمان من أصيب بالعدوى ويقلُّ توكله على الله ويقوى اعتماده على الأسباب وحدها .

ولاشك في أن خالداً وهو يقدم على ذلك لم يخالج قلبه ذرة من إرادة حظ النفس وكسب السمعة والجاه ، لأنه لو نوى شيئًا من ذلك لعلم أن الله تعالى سيتخلى عنه ، وهو لا حول له ولا قوة على انتزاع أثر السم الضار .

وهذه تجربة فذة لايُطلب من أي مسلم أن يخوضها ولو كان هدفه هو نفس الهدف الذي رمى إليه خالد ، لأنه يندر أن يوجد من يبلغ إيمانه وثقته بالله تعالى إلى المستوى الذي بلغ إليه خالد رضي الله عنه وأرضاه .

* * *

(١) صحيح البخاري ١٠/١٥٨ رقم ٥٧٠٧ كتاب الطب .

٨ - فتح الأنبار -

تبين لنا أن خالد بن الوليد رضي الله عنه قد أنهى المهمة التي كُلِّف بها من فتح نصف العراق الجنوبي ، وكان مقتضى خطة أبي بكر رضي الله عنه أن ينتهي عياض بن غنم رضي الله عنه من فتح النصف الشمالي من العراق في نفس الوقت أو ما يقاربه ليستعدا بعد ذلك لغزو فارس وقد أمنا على ظهور الجيش الإسلامي من أن يُؤتَى من خلفه ، وذلك بإخضاع جميع الولايات التي كانت خاضعة للفرس .

وقد ذكر ابن جرير الطبري خطاب أبي بكر رضي الله عنه إلى خالد وعياض بتكليفهما بغزو العراق من جنوبه وشماله وجاء في الكتاب : وأيُّكما ما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فَضَضْتُما مسالح مابين العرب وفارس [(١)] وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فليُقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم وجالدوهم عما في أيديهم واستعينوا بالله واتقوه ، وآثروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتُسلبوهما ، واحذروا ماحذركم الله بترك المعاصي ومعاجلة التوبة ، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة [(٢)] .

وإن هذا الكتاب الجليل يدل على فكر أبي بكر العالي وتخطيطه الدقيق ، وقَبْل ذلك يدل على إلهام الله جل وعلا له ، فإنه لم يكن علي علم مفصل عن أرض العراق وفارس وما فيهما من قوة ولم يكن هناك

---

(١) يعني تفريق التجمعات الحربية التي دون بلاد فارس .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٧٢ .

وقت للقيام بدراسة حربية للمنطقة ، ومع ذلك جاء تخطيطه الحربي موافقًا تماما لما اقتضته مصلحة الجيوش الإسلامية أثناء تطبيق هذه الخطة الحكيمة ، وقد شهد ببراعة أبي بكر في التخطيط الحربي أخبر الناس بالحروب آنذاك وهو خالد بن الوليد ، فإنه لما نهض للقيام بمهمة عياض في فتح شمال العراق ونزل بكرْ بلاءو اشتكى إليه المسلمون ماقعوا فيه من التأذي بذُبَابها الكثيف قال لعبد الله بن وثيمة : اصبر فإني إنما أريد أن أستفرغ المسالح التي أُمر بها عياض فنُسكنها العرب فتأمن جنود المسلمين أن يؤتَوا من خلفهم ، وتجيئنا العرب آمنة وغير مُتَعْتَعَة ، وبذلك أمرنا الخليفة ، ورأيه يعدل نجدة الأمة [1] .

وفي كون أبي بكر لم يذكر الأمير على العراق بعد فتحه بعينه حكمةٌ واحتياط للمستقبل الذي لايعلمه إلا الله تعالى ، فقد يتعثر مسير من عيَّنه أميرًا فلا يصل إلى العراق بينما يصل الآخر ، وهذا ماحصل حيث وصل خالد وتعثَّر عياض ، فكانت الإمرة لخالد بموجب تنفيذ ماجاء في هذا الكتاب .

وكونه لم يحدد من يقتحم بلاد الفرس ومن يبقى مرابطًا في الحيرة ليس فيه شيء من الإرباك والتحير لأن الذي سيكون أميرًا على العراق هو الذي سيحدد ذلك .

وقد ختم أبو بكر خطابه بهذه الوصايا النافعة من الاستعانة بالله تعالى وتقواه ، وإيثار الآخرة على الدنيا وأن من وُفق إلى ذلك حصلت له الدنيا والآخرة ، ومن آثر الدنيا سُلب الدنيا والآخرة ، وهو وإن حصل

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٣ .

على بعض النعيم في الدنيا ، فإنه لن يحصل على الأمن وسعادة النفس إلا في ظل الإيمان بالله تعالى والدار الآخرة .

كما أوصى أبو بكر قواده وجنود المسلمين باجتناب معصية الله تعالى ، والإسراع في التوبة لمن غلبته نفسه الأمارة بالسوء ، وهذه الوصية قبس من يقين أبي بكر ومعرفته التامة بالله تعالى ، وأنه هو الذي بيده النصر والخذلان ، ومن كان بالله أعرف كان من الله أخوف .

هذا ولما أنهى خالد مهمته في فتح جنوب العراق واستعصى على عياض أن يصل إلى شمال العراق توجه خالد ليكمل المناطق التي كُلِّف بها عياض في نصف العراق الشمالي .

وقد كان في شمال العراق ثلاثة تجمعات كبيرة لعسكر الفرس ومن والاهم من العرب ، أحدها بالأنبار والثاني بعين التمر ، والثالث بالفراض [1] .

وقد استخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو التميمي الذي يعتبر من أبرز أبطال المسلمين وفرسانهم ، وهو يشبه خالدا في مجال الكَرِّ والفَرِّ ، واغتنام الفرص ومباغتة الأعداء .

وسار خالد نحو الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، وكان يلي أمر الأنبار وقيادة جنودها « شيرزاد » وكان أعقل الفرس وأبلغهم قناعة لدى الناس .

وما أن وصل خالد حتى أطاف بخندقهم وعرف مكامن ضعفهم ، ثم أنشب القتال وكان قليل الصبر عنه إذا رآه أو سمع به ، وتقدم إلى

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٢ .

رُمَاته فأوصاهم وقال : إني أرى أقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولاتوَخَّوا غيرها ، فرموا باتجاه واحد ، ثم تابعوا ففقؤوا ألف عين يومئذ ، فسميت تلك الوقعة ذات العيون ، وتصايح القوم : ذهبت عيون أهل الأنبار ، فقال شيرزاد : مايقولون ؟ ففسِّر له ، فأعجبه أمرهم، وراسل خالدًا في الصلح على أمر لم يَرْضَه خالد ، فرد رسله .

وأتى خالد إلى أضيق مكان في الخندق فأمر بنحر رديء الإبل ورمَى بها وجعلها جسرا عبر منه الجيش الإسلامي ، والتقوا بأعدائهم داخل الخندق فلجأ الأعداء إلى حصنهم ، وراسل شيرزاد خالدا في الصلح على ما أراد ، على أن يخلي له طريق الخروج مع حامية له حتى يصل مأمنه ، فقبل منه (١) .

وهنا نقف قليلا أمام هذه المشاهد المثيرة فلقد أدرك خالد بسرعة عجيبة أن القوم لا علم لهم بالحرب وهذا يدل على بصره الخارق في الأمور الحربية ، وأدرك أن القوم يعلوهم شيء من الرعب فأمر الرماة بأن يركزوا رمايتهم على عيونهم ليقضي على ما تبقى لديهم من قوة وثبات .

وقد رماهم المسلمون ففقؤوا في هجوم واحد ألف عين ، وهذا دليل واضح على براعة المسلمين الأوائل في الرماية وإصابة الأهداف الدقيقة .

ثم رَدَم خالد عليهم خندقهم الذي اعتبروه حاجزًا منيعًا لعلمه بأنهم لن يستطيعوا الدفاع عنه لما سبق من إرهابهم عن طريق الرماة فاضطر قائدهم وأميرهم الفارسي إلى أن يطلب النجاة لنفسه وأن يصالح خالدا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٤ ، البداية والنهاية ٦/ ٣٥٣ .

على ما أراد ، ومعلوم أن الصلح يكون على دفع الجزية لأنهم لم يدخلوا في الإسلام .

وأمن أهل الأنبار في ظل حكم المسلمين ، وتعلّم منهم المسلمون الخط لأنهم كانوا ماهرين في الكتابة .

* * *

٩ – فتح عين التمر –

لما قام خالد بن الوليد بفتح عين التمر وتم له إخضاع ماحولها من القرى توجه إلى التجمع الثاني في شمال العراق ، وذلك في « عين التمر » حيث قد اجتمع فيها جيش كبير للفرس بقيادة « مهران بن بهرام » وجيش كبير من العرب من النَّمر وتغلب وإياد ومن انضم إليهم بقيادة «عَقَّة بن أبي عقة » ، فلما سمعوا بمجيء خالد قال عَقَّة بسذاجة وتهور لمهران : إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدا ، فقال مهران بخبث ومكر : صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم ، فخدعه واتَّقى به وقال : دونكموه وإن احتجتم إلينا أعناكم ، فسار عقَّةُ لملاقاة خالد ، فقدم عليه خالد وهو في تعبئة جنده ، فعبّى خالد جنده وقال لميمنة الجيش وميسرته : اكفونا ماعنده فإني حامل ووكَّل بنفسه حوامي ، ثم حمل وعَقَّة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيراً، وانهزم صفُّه من غير قتال ، فأكثر المسلمون فيهم الأسر وتبعوهم وهم منهزمون .

ولما جاء الخبر « مهران » هرب في جنده وتركوا الحصن ، ثم استسلم بقية جيش عقَّةَ من العرب ، فقتل خالد قائدهم عقَّة أمامهم ثم قتل بقية الأسرى ليرهب بهم جميع العرب المجاورين لهم [١] .

هذا وإن مغامرة الاختطاف التي قام بها سيف الله لَعَملٌ مدهش حقا ، فقد انقض انقضاض الصقر على فريسته وكأن الذي أمامه جثة هامدة وليس رجلا مدججا بالسلاح وحوله جيش كامل يمكن أن يدافعوا عنه جميعًا .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٦ .

وإن العقل المجرد ليعجز عن تصور مثل هذا الموقف الذي يندر في التاريخ وجود مثيل له ، ولكن الأمر في الحقيقة إلى جانب كونه صدر من رجل يعتبر في القمة في الشجاعة فإن خالدًا قد نُصر بالرعب الذي يعتبر من خصائص هذه الأمة ، التي بينها النبي ﷺ في قوله « أُعطيتُ خمسا لم يعطهن أحد قبلي ، نُصرت بالرعب مسيرة شهر » الحديث [1] ، وإن الرعب ليلاحظ جليًا في هذه المعركة وفيما سبقها من معارك حيث لم يكن الأعداء يُقْدمون على قتال المسلمين إلا وقد اكتنفهم الرعب منهم حتى قال أحد قواد الفرس وهو « جابان » : أما والله مادخَلَتْني من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم ، وذلك في معركة « أُلَّيس » [2] .

ولو أن خالدًا بارز قائد القوم لكان قرنٌ ضد قرنه ، أما أن يهجم عليه وهو في مَنَعة من قومه فيلتقطه التقاطًا فهذا دليل واضح على أن الرعب قد ملأ قلب ذلك القائد وقلوب جنده ففروا جميعًا بعد أسر قائدهم .

وإننا ونحن نعرض هذه الأحداث المدهشة يجب أن نتصور أن الله جل جلاله لايزال ينصر أولياءه المؤمنين بالرعب حتى تقوم الساعة مادام المسلمون يرفعون راية التوحيد ويُعلون كلمة الله تعالى ، فالله سبحانه الذي نصر خالدًا بما يشبه الخوارق من سُنَّته الماضية أن ينصر كل من أخلص في جهاده وطبق عوامل النصر التي بينها تعالى في كتابه وبينها رسوله ﷺ في سنته .

* * *

(١) صحيح البخاري ، التيمم ، رقم ٣٣٥، صحيح مسلم، المساجد، رقم ٥٢١ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٣٥٦ .

١٠ - فتح دومة الجندل -

تبين أن القائد الآخر الذي وجهه أبو بكر لغزو العراق وهو عياض بن غَنْم قد حُصر في « دومة الجندل » وقد كان محاصرًا لأهلها فسدُّوا عليه الطرق وحصروه ، فأمدّه أبو بكر بالوليد بن عقبة ، فلما قدم عليه قال له : الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف ، ابعث إلى خالد فاستمدَّه، ففعل ، فقدم على خالد رسوله عقب وقعة عين التمر مستغيثًا، فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض إياك أريد .

لبِّث قليلا تأتك الحلائبُ[1] يحملْن آسادًا عليها القاشب

كتائبٌ يتبعها كتائب

هذا وقد كان عياض حاصر دومة الجندل فاستمد أهلُها القبائلَ القريبة منهم فأمدوهم ، وكانوا أكبر من طاقة جيش عياض ، ومع ذلك ثبت لهم مدة طويلة ولم يستطيعوا هزيمته مع أنهم في بلادهم وقد أطمعهم فيه كونه بعيدًا عن دار الخلافة وكان بعيدًا أيضًا عن العراق حيث يقيم فيه خالد بن الوليد وجيشه ، وقد أتعبهم في الحرب وأتعبوه ولكن لم يكن لأحد الفريقين قوة على الآخر .

ولما علم أهل دومة بقدوم خالد استنجدوا بقبائل أخرى فأمدوهم ، وكان أمرهم إلى رئيسين هما : أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة ، فاختلفا فقال أكيدر : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحَدَ أيْمنُ طائرًا منه ، ولا أحَدٌّ في حرب ، ولايرى وجهَ خالد قوم أبدًا قلوا أو كثروا إلا انهزموا

---

(١) يعني الجماعات .

عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال : لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم .

وهذه شهادة عالية من عدو ، والحقُّ ماشهدت به الأعداء وقد كان خالد أسره قبل ذلك حينما أرسله إليه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فأخذه وأتى به إلى النبي ﷺ فمنَّ عليه وكتب له كتاب عهد ، ولكنه خان العهد بعد ذلك ، ولقد بقي في مخيلته الرعب الذي واجهه يوم أسره خالد إلى جانب سمعته الشهيرة في حروبه مع العرب والعجم .

وخرج أكيدر مفارقًا قومه ، وبلغ خالدًا خبره وهو في طريقه إلى «دومة» فأرسل إليه عاصم بن عمرو معارضا له فأخذه ، فقال : إنما تلقيت الأمير خالدا ، ولكن خيانته السابقة لم تجعل خالدًا ينظر في كلامه فقتله ، وهكذا قتله الله بخيانته ونقضه العهد ، ولم يُغْنِ الحذر من القدر .

وإن في معرفة خالد بأمر مفارقته قومه ورحيله عنهم دلالة واضحة على قوة الرصد الحربي ودقته لدى المسلمين آنذاك .

ولما وصل خالد إلى دومة جعلها بينه وبين عسكر عياض ، فاضطر أهلها إلى أن يقسموا جيشهم قسمين ، فخرج الجودي بن ربيعة ومعه وديعة الكلبي في جيش لملاقاة خالد ، وخرج ابن الحدرجان وابن الأيهم في جيش لملاقاة عياض ، فاقتتلوا فهزم المسلمون أعداءهم من الفريقين ، وانهزم بعضهم إلى الحصن فتحصنوا به ، فأطاف خالد بالحصن فلم يَزُلْ عنه حتى اقلع بابه ، وقتل من فيه من المقاتلة [١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٧ – ٢٧٩ باختصار .

وبهذا انتهت مشكلة دومة الجندل التي أعاقت عياضا من القيام بالمهمة التي كُلِّف بها من فتح شمال العراق .

وهنا يجدر بنا أن نعطي نبذة موجزة عن عياض بن غَنْم رضي الله عنه حتى لايظن أحد أنه لم يكن أهلا لهذه المهمة التي كلف بها ، فقد كان من أفاضل المهاجرين ومن سادات قريش ، وكان سمحًا جوادًا ، وقد وثق به الخلفاء وولاتهم بعد ذلك ، فكان أحد قادة اليرموك ، وكان على مقدمة جيش أبي عبيدة ثم فتح بعد ذلك الجزيرة بأكملها وهي المناطق التي بين الشام والعراق ، واستخلفه أبو عبيدة رضي الله عنه على الشام لما حانت وفاته ، فأقره عمر رضي الله عنه على الشام إلى أن احتاج إليه في الفتوح فوجهه إليها .

ولئن كانت حروب خالد رضي الله عنه مثالا للبراعة في الهجوم السريع واغتنام الفرص وإثارة الرعب لدى الأعداء فإن ثبات عياض رضي الله عنه هذه المدة الطويلة في وجه أعداء قد تكالبوا عليه من كل مكان دليل على تمتع الجيش الإسلامي أيضا بالصبر والمصابرة وطول الأمل والثقة بنصر الله تعالى في النهاية .



١١ - معركة الحُصَيد -

لما انتهى خالد وعياض من فتح دُومَة الجندل أقام بها خالد ، وردَّ الأقرع بن حابس ببعض الجيش إلى الأنبار ، فلما علم الأعداء في العراق بإقامة خالد بدومة ، ظن الأعاجم أن بإمكانهم أن ينالوا من الجيش الإسلامي وأن يستعيدوا بعض مجدهم الذي أطاح به خالد وجيشه ، وكاتبهم عرب الجزيرة في القتال غضبا لمن قتل منهم في الحروب السابقة ، فخرج من الفرس جيشان بقيادة زَرْمهر وروزبة .

وكان خالد قد استخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو فكان أهلا لهذه الثقة فإنه أرسل جيشين بقيادة أعْبَد بن فَدكي السعدي وأمره أن يرابط بالحُصَيد ، وعروة بن الجعد البارقي وأمره أن يرابط بالخنافس ، فخرجا فحالا بين الفرس وبين الريف وأغلقا عليهم الطرق ، وانتظر الفرس اجتماع من كاتبهم من العرب .

ورجع خالد من دومة إلى الحيرة ، ولما بلغه تحزب العرب والفرس وجَّه القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فَدكي إلى جيوش الفرس ، ثم خرج وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، واستخلف على الحيرة عياض بن غنم .

ولما رأى القعقاع قائدي الفرس لايتحركان تقدم إلى أحدهما وهو روزبة في حُصَيد فاستمد هذا قائد الفرس الآخر زَرْمهر فأمده بنفسه ، والتقى المسلمون بهم فهزم الله الفرس وقتل القعقاع قائدهم الأكبر زرمهر وقتل عصمة بن عبد الله الضبي قائدهم الآخر روزبة (١) .

وهنا نجد أن القعقاع بن عمرو ومن معه من الأبطال قد انتهجوا نهج

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٩ - ٣٨٠ .

خالد في اقتناص قادة الفرس ، وهي خطة حكيمة لأن الأعداء لاتقوم لهم قائمة إذا قُتل قوادهم .

* * *

١٢ - معركة المُصَيَّخ -

لما رد الله كيد الأعاجم بقي كيد العرب الذين اجتمعوا للثأر من المسلمين الذين قتلوا زعماءهم ورجالهم ، وكان بعضهم قد اجتمعوا بمكان يقال له « المُصَيَّخ » بقيادة الهُذَيل بن عمران ، فوضع خالد خطة للهجوم المباغت عليهم قبل أن يجتمعوا مع بقية المحاربين ، فحدد ساعة معينة من ليلة معينة لقادته الذين بعثهم قبل ذلك وهم القعقاع بن عمرو وأبو ليلى ين فدكي وأعبد بن فدكى ، وعروة بن الجعد ، ليوافوه بالمصيخ .

وسار خالد وسار قادته ، ونجحت الخطة فوصلوا جميعًا إلى هذا المكان في الساعة المحددة ، وهجموا على الهذيل ومن معه ومن أوى إليه وهم نائمون من ثلاثة أوجه ، فقتلوهم ، وأفلت الهذيل في أناس معه قليل إلى معسكر آخر في « الزُمَيْل » لهؤلاء العرب المحاربين[1] .

هذا وإن في تحديد خالد الليلة التي يلتقون فيها مع تباعد المسافة بينهم دليل واضح على اهتمام المسلمين البالغ بدراسة المناطق التي يقاتلون فيها ، لأن أي خطأ في تقدير المسافة بين كل جيش والمكان المقصود لهم قد يجعل واحدا من الجيوش يصل قبل البقية فيواجه وحده المعركة وتضيع الخطة التي رتبها خالد .

وقد سلك خالد في هذه المعركة طريقة جديدة لم يطبقها من قبل وهي مفاجأة العدو ليلاً والإيقاع بهم وهم نائمون ، فلماذا لم يسلك خالد الطريقة السابقة وهي الدعوة إلى الإسلام أوَّلاً ثم إمهال الأعداء

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨١ .

بعض الوقت لعلهم يقبلون الإسلام أو الجزية كما هو معلوم من أحكام الجهاد؟

فالجواب أن هؤلاء قد سبقت دعوتهم ، وقد واجهوا خالدا في عين التمر بقيادة عقة بن أبي عقة فقُتل قائدهم وقُتل عدد كبير من قبائلهم ، وقد اجتمعوا في « المصيخ » بقصد الانتقام من المسلمين والأخذ بثأر عقة ومن قتل معه من قبائلهم ، فقتال خالد إياهم كان حملة تأديبية لهم لإصرارهم على عداء المسلمين وممالأة الفرس عليهم ، فليس خالد ملزمًا بدعوتهم إلى الإسلام مرة أخرى ، ومعاجلته إياهم بهذه الطريقة تضمن له القضاء على كل تجمع بمفرده وذلك يكفل للمسلمين القضاء عليهم بدون أن يعرض الجيش الإسلامي لخسارة تذكر .

* * *

١٣ - معركتا الثَّنيّ والزُّمَيل -

لما انتهى خالد من ذلك سار إلى التجمع الثاني وهو في مكان يسمى « الثَّنيّ » وفيه ربيعة التغلبي ، فقدَّم أمامه القعقاع بن عمرو وأبا ليلى بن فدكى في جيشين وواعدهما ليلة معينة يُبَيِّتون فيها الأعداء كما فعلوا في «المصيَّخ » فالتقوا في الليلة المحددة فهجموا على الأعداء من ثلاث جهات فقتلوهم جميعًا ولم يفلت منهم أحد .

ثم تقدموا سراعًا إلى التجمع الثالث وهو قريب من« الثَّنيّ » في مكان يقال له « البشْر » ويسمى « الزُّمَيْل » أيضًا ، وبه تجمع كبير بقيادة رجل يقال له « عتَّاب » وقد انضم إليه الهذيل ومن معه لما نجوا من غارة «المصيَّخ » فهجموا عليهم ليلا بنفس التخطيط السابق ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وكان خالد قد أقسم : ليَبْغَتَن تغلب في دارها ، لشدة مالقي منهم المسلمون ، فبرَّ بذلك في قسمه [١] .

وبهذه الهجمات الليلية المباغتة قضى خالد على ثلاثة تجمعات كبيرة للعرب كان أصحابها يعلِّقون عليها آمالا كبيرة في غزو المسلمين وإخراجهم من أرض العراق ، وكان الفرس أيضا يعلقون عليها آمالاً في إضعاف المسلمين ليتهيئوا للإجهاز عليهم واستعادة مجد الفرس .

ولكن آمال العجم والعرب المشركين جميعًا تحطمت أمام عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة ، والتخطيط الحربي المتفوق من قائدهم المظفر ، فقد سارع مع قادته للقضاء على جيشي الفرس ، ثم سار إلى هؤلاء العرب فباغتهم ليلا وبسرعة هائلة ، فلم يترك لهم الفرصة للتفكير والنظر .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

وقد كان هدف هؤلاء الأعداء واحدًا وهو الاجتماع لحرب المسلمين انتقامًا منهم ، وقد أرادوا أن يكون جيشهم كبيرًا فاستعانوا بالفرس فأمدوهم بجيشين كما سبق ، فلو اجتمعوا جميعًا كما هو تخطيطهم لكانوا جيشًا مكونا من خمسة جيوش ، ولقد كان خالد واثقًا بعد توفيق الله تعالى من كفاءة جيشه الحربية ، فكان يريد منهم أن يجتمعوا ، ولكنهم تباطئوا وجبنوا فاغتنم ذلك خالد وأوقع بهم على الطريقة المذكورة التي لم تترك لهم بقية تذكر ويُخشى منها في المستقبل .

* * *

١٤ – معركة الفِرَاض –

كانت آخر معركة خاضها خالد في العراق معركة « الفراض» وكان من حديثها أن خالداً لما قفل بجيشه من شمال العراق أقام مع بقية جيشه في الفراض ، وكان قد دخل في حدود الروم ، فغضب الروم واستعدوا للقتال واستعانوا بالفرس وبالعرب الموالين لهم ، ثم اجتمعوا ونهر الفرات بينهم وبين المسلمين فقالوا للمسلمين : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم ؟ قال خالد : لانفعل ولكن اعبروا أسفل منا ، كما جاء في رواية الإمام الطبري ، قال : وذلك في النصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة

وإن هذا الجواب من خالد ليكشف لنا لونًا من مهارة خالد في التخطيط الحربي ، فهو كما مر علينا في رواية سابقة لايصبر عن الحرب إذا رأى الأعداء ، ولكنه لم يكن عجولا ، بل كان سريع التفكير قوي الإدراك لمنافذ الأعداء قوة وضعفا ، فكان يعتمد على الحروب الخاطفة السريعة لأنها تذهل العدو وترهبه وتتركه في حيرة من أمره حتى يقضي مايريد من عدوه ، ولكن ذلك لايعني أن خالداً يتهور في مداخل لايعرف مخارجها .

وفي هذه المعركة لما رأى أن الحكمة والمصلحة في التريث لم يتعجل وقد اختار المكان الذي يرى أنه ملائم للحرب التي يجيدها أصحابه، ولو عبر فربما لايتهيأ له ما يريد ، فألزم عدوه بأن يعبر إليه ومن المكان الذي يريد هو ليستطيع تنفيذ المخطط الذي رسمه للحرب .

وجاء في هذه الرواية : فقالت الروم وفارس بعضهم لبعض :

احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل على دين ، وله عقل وعلم ، والله لَيُنصرَنَّه ولَنُخذَلَنَّ ، ثم لم ينتفعوا بذلك .

وهذا صوت عقلائهم فقد أدركوا أن الذي يفوز في الحرب هو الذي يقاتل باسم الدين دفاعًا عنه وحماية له ، وكانوا على يقين من أن خالدًا سينتصر وسيهزمون ، ومع ذلك استمروا في القتال ولم ينتفعوا بهذا الفهم الصحيح لأن الذين كانوا يسيِّرون أمورهم ليسوا هم العقلاء المدركين وإنما كانوا أصحاب المصالح الدنيوية التي حظُوا بها بسبب قربهم من رؤسائهم وخدمتهم إياهم ، ومن ورائهم الدهماء الذين لا يؤمنون إلا بما ألفوه وتربوا عليه من مبادئ وإن كانت هذه المبادئ تجرهم وتجر دولتهم إلى الهلاك والدمار ، وهكذا يضيع صوت العقل السليم أمام غلبة المصالح الفردية والتربية الجماعية المنحرفة .

قال : فعبَروا أسفل من خالد ، فلما تتاموا قالت الروم : امتازوا حتى نعرف اليوم ماكان من حَسَن أو قبيح من أيّنا يجيء ، ففعلوا ، فاقتتلوا قتالا شديدًا طويلا ، ثم إن الله عز وجل هزمهم ، وقال خالد للمسلمين : ألحُّوا عليهم ولا ترفِّهوا عنهم ، فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزمرة برماح أصحابه فإذا جمعوهم قتلوهم ، فقُتل يوم الفراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف (١) .

وهكذا رأينا أنه بالرغم من تميزهم الذي يرفع الاتّكالية ويدفع الهمم إلى التنافس فإن ذلك لم يغنهم شيئًا أمام الليوث البواسل أصحاب العقيدة الإسلامية ، لأنه مهما بلغ الحافز لهم على التضحية فإنه لا يعدو

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٣ .

كونه أمرًا دنيويًا ، ولن يقف الهدف الدنيوي مهما عظم أمام الهدف الأخروي، ولن يثبت طلاب الدنيا مهما كثر عددهم وقويت عُدَدُهم أمام طلاب الآخرة .

وهكذا واجه المسلمون لأول مرة جيشًا مكونا من الفرس الذين يمثلون دولة المشرق العظمى ، والروم الذين يمثلون دولة المغرب العظمى ، والعرب الموالين لهؤلاء وهؤلاء ، ومع ذلك انتصر المسلمون عليهم انتصاراً ساحقًا .

ولاشك أن هذه المعركة تعتبر من المعارك التاريخية الفاصلة - وإن لم تَنَلْ من الشهرة ما نالته المعارك الكبرى - لأنها حطمت معنويات الكفار على مختلف انتماءاتهم حيث هُزموا جميعًا فكيف إذا انفرد المسلمون بطائفة منهم ؟

وهذه المعركة تعتبر خاتمة المعارك التي خاضها سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه في العراق حيث وجهه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الشام كما سيأتي .



مواقف وعبر
فى
فتوح الشام الأولى

١- عزم أبي بكر ورؤيا شرحبيل -

إن همة أبي بكر الصديق العالية رضي الله عنه لم تقتصر على محاولة إخضاع بلاد الفرس لدولة الإسلام ، وإنما حاول في نفس الوقت إخضاع دولة الروم .

ولقد كان أبو بكر يضمر ذلك في نفسه حتى جاءه شرحبيل بن حسنة أحد قواده في حروب الردة فقال : ياخليفة رسول الله أتُحدث نفسك أنك تبعث إلى الشام جندا ؟ فقال : نعم قد حدثت نفسي بذلك وما أطْلعت عليه أحدا ، وما سألتني عنه إلا لشيء ، قال : أجل ، إني رأيت ياخليفة رسول الله فيما يرى النائم كأنك تمشي في الناس فوق خَرْشفَة من الجبل - يعني مسلكًا وعرًا - ، ثم أقبلت تمشي حتى صعدت قُنَّةً من القنان العالية ، فأشرفت على الناس ومعك أصحابك ، ثم إنك هبطت من تلك القنان إلى أرض سهلة دمثة - يعني لينة - فيها الزرع والقرى والحصون ، فقلت للمسلمين : شنوا الغارة على أعداء الله وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة ، فشد المسلمون وأنا فيهم معي راية ، فتوجهت بها إلى أهل قرية ، فسألوني الأمان فأمَّنتهم ، ثم جئتُ فأجدك قد انتهيت إلي حصن عظيم ، ففتح الله لك وألقوا إليك السَّلَم ، ووضع الله لك مجلسًا فجلست عليه ، ثم قيل لك : يَفتح الله عليك وتُنصر فاشكر ربك ، واعمل بطاعته ، ثم قرأ ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [**النصر** : ١ - ٣] ثم انتبهت .

فقال له أبو بكر : نامت عيناك ، خيرًا رأيت وخيرًا يكون إن شاء

الله، ثم قال : بشَّرت بالفتح ، ونعيت إلي نفسي ، ثم دمعت عينا أبي بكر وقال : أما الخرشفة التي رأيتنا نمشي فيها حتى صعدنا إلى القنة العالية فأشرفنا على الناس ، فإنا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدونه ، ثم نعلو بعدُ ويعلو أمرنا ، وأما نزولنا من القنَّة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزرع والعيون والقرى والحصون ، فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش ، وأما قولي للمسلمين : شنُّوا على أعداء الله الغارة فإني ضامن لكم الفتح والغنيمة فإن ذلك دُنُوُّ المسلمين إلى بلاد المشركين وترغيبي إياهم على الجهاد والأجر والغنيمة التي تُقَسم لهم ، وقبولهم ، وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها فاستأمنوا فأمَّنتهم ، فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك ، وأما الحصن الذي فتح الله لي فهو ذلك الوجه الذي يفتح الله لي ، وأما العرش الذي رأيتني عليه جالسا فإن الله يرفعني ويضع المشركين ، وقال الله تعالى ﴿ورفع أبويْه على الْعَرْشِ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

وأما الذي أمرني بطاعة الله وقرأ عليَّ السورة فإنه نعى إليَّ نفسي ، وذلك أن النبي ﷺ نعى الله إليه نفسه حين نزلت هذه السورة وعلم أن نفسه قد نُعيت إليه ، ثم سالت عيناه ، وقال : لآمرنَّ بالمعروف ولأنهينَّ عن المنكر ، ولأجهَدنَّ فيمن ترك أمر الله ، ولأجَهِّزنَّ الجنود إلى العادلين بالله - يعني المشركين به - في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا : الله أحد أحد لاشريك له ، أو يؤدُّوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، هذا أمر الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا توفاني الله - عز وجل - لايجدني الله عاجزا ولا وانيًا ولا في ثواب المجاهدين زاهدا .

أخرجه ابن عساكر بإسناده عن محمد بن إسحاق .

وأخرجه الأزدي مختصرا مسندا إلى أنس بن مالك رضي الله عنه[1] .

وهكذا رأينا أن الصحابة رضي الله عنهم كما نُصروا بالرعب فقد نصروا بالمبشِّرات وهي الرؤيا الصالحة كما قال ﷺ « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة »[2] .

لقد كان أمر غزو الروم خاطراً في نفس أبي بكر قد أضمره وهمَّ به لكنه لم يعلنه للصحابة بعد ، لأنه أمر عظيم يحتاج إلى كثير من التروِّي والنظر حيث سَتُجَابهُ هذه الأمة الوليدة أمة المغرب العظمى في الوقت الذي لاتزال جيوشها تجابه فيه أمة المشرق العظمى ، فجاءت رؤيا شرحبيل التي تفاءل بها أبو بكر لتدفعه إلى العزم على ما همَّ به وإعلان ما أضمره .

وفي آخر تفسير أبي بكر لهذه الرؤيا الصالحة نجده - وقد أحسَّ بدنوِّ أجله - ينهض مشمِّراً للقيام بأمر هذا الدين ، ونجده ينص على أعمال الخير التي يتعدى نفعها للمسلمين ، فيذكر عزمه على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاجتهاد في ردع من ترك أمر الله ، والجهاد في سبيل الله تعالى حتى تعلو راية التوحيد ، ويذل أهل الشرك في مشارق الأرض ومغاربها .

إنه لم يعتزل في بيته ومسجده ليقضي بقية عمره القصير في الشعائر

---

(١) تاريخ دمشق ٢/ ٦١-٦٢ ، فتوح الشام للأزدي / ١٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، رقم ٦٩٩٠ ، (١٢/ ٣٧٥) .

التعبُّديه التي يقتصر نفعها على فاعلها كالصلاة والصيام ، مع إدراكه لعظمة هذه الشعائر وأثرها البالغ في حياة المؤمن ، لأنه يدرك أن أعمال الخير المتعدِّية أبعد أثرًا وأضخم في ميزان الله تعالى ، مع إمكان الجمع بينها وبين الشعائر التعبدية من غير إفراط فيها يحمل فاعلها على العزلة واجتناب ما يربطه بالناس ، وهذا هو الاعتدال المطلوب من المسلم وهو الذي وجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وحذر من الانقطاع للشعائر التعبدية وحدها ، وأنكر على من اتجه هذا الاتجاه كما هو معروف في كتب السنة .

وقد سار أبو بكر بهذا على خطاه وجدد للمسلمين سنة رسول الله ﷺ . وهو الذي قال عنه وعن عمر « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »[1] فمن خالف سنته في هذا وسنة خليفتيه رضي الله عنهما فقد أبعد النجعة وضل عن الطريق المستقيم .



(١) مسند أحمد ٥/ ٣٨٥ ، سنن الترمذي ، المناقب ، باب٥٢ حديث ٣٧٤٢ .

٢ – مشورة أبي بكر في جهاد الروم –

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري : حدثني الحارث بن كعب عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي ، وكانت له صحبة ، قال :

لما أراد أبو بكر – رحمة الله عليه – أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبا عبيدة الجراح ، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه وأنا فيهم ، فقال :

إن الله تبارك وتعالى لاتحصى نعمه ، ولاتبلغ الأعمال جزاءها ، فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم ، وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ، ونفى عنكم الشيطان ، فليس يطمع في أن تشركوا بالله ، ولا أن تتخذوا إلها غيره ، فالعرب أمة واحدة ، بنو أب وأم ، وقد أردت أن استنفركم إلى الروم بالشام ، فمن هلك هلك شهيدًا ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين ، مستوجبًا على الله عز وجل ثواب المجاهدين ، هذا رأييَ الذي رأيت . فليشر عليَّ كل امريء بمبلغ رأيه .

فقام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

الحمد لله ، الذي يخص بالخير من يشاء من خلقه ، والله ما استَبَقْنا إلى شيء من الخير إلا سبقتنا إليه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي الذي ذكرت ، فما قضى الله أن يكون ذلك

حتى ذكرته الآن، فقد أصبت ، أصاب الله بك سبل الرشاد ، سرّب إليهم الخيل . في إثر الخيل ، وابعث الرجال تتبعها الرجال ، والجنود تتلوها الجنود ، فإن الله عز وجل ناصر دينه ، ومعز الإسلام وأهله ، ومنجز ماوعد رسوله .

ثم إن عبد الرحمن بن عوف قام ، فقال :

ياخليفة رسول الله ، إنها الروم وبنو الأصفر حدّ حديد ، وركن شديد ، ووالله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحامًا ، ولكن تبعث الخيل ، فتغير في أدنى أرضهم ، ثم تبعثها فتغير ، ثم ترجع إليك ، فإذا فعلوا ذلك مرارًا أضروا بعدوّهم ، وغنموا من أرضهم ، فقووا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث إلى أقاصي أهل اليمن ، وإلى ربيعة ومضر ، فتجمعهم إليك ، فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك ، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك .

ثم جلس ، وسكت الناس ، فقال لهم أبو بكر : ماذا ترون ؟ رحمكم الله .

فقام عثمان بن عفان ، رضوان الله عليه ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي ، ﷺ ، ثم قال :

رأيي أنك ناصح لأهل هذا الدين ، عليهم شفيق ، فإذا رأيت رأيا علمته رشدا وصلاحا وخيرًا ، فاعزم على إمضائه غير ظنين ، ولامُتَّهم(١) .

فقال طلحة ، والزبير وسعد ، وأبو عبيدة الجراح ، وسعيد بن

---

(١) يعني لانظن بك التقصير ولانتهمك في إخلاصك .

زيد، وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار : صدق عثمان فيما قال ، ما رأيت من رأي فأمضه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لانخالف أمرك ، ولانتهم رأيك ولانتخلف عن دعوتك .

فذكروا هذا وشبهه ، وعلي بن أبي طالب - رحمة الله عليه - في القوم لايتكلم . فقال له أبو بكر : ماترى يا أبا الحسن ؟

فقال : أرى أنك مبارك الأمر ، ميمون النقيبة [١]، وإنك إن سرت إليهم بنفسك ، أو بعثت إليهم نُصرْت إن شاء الله .

فقال أبو بكر : بشرك الله بخير ، فمن أين علمت هذا ؟

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لايزال هذا الدين ظاهرًا على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون [٢] .

فقال أبو بكر : سبحان الله ، ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتني ، سرّك الله في الدنيا والآخرة .

ثم إن أبا بكر - رحمة الله عليه ورضوانه - قام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه، وذكره بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام ، وأعزّكم بالجهاد و فضلكم بهذا الدين على أهل كل دين ، فتجهزّوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام ، فإني مؤمّر عليكم أمراء، وعاقد لهم عليكم ، فأطيعوا ربكم ، ولا

---

(١) النقيبة هي الرأي والمشورة .

(٢) لفظ الحديث في رواية الشيخين « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » - صحيح البخاري ، الاعتصام ، رقم ٧٣١١ (١٣/ ٢٩٣) ، صحيح مسلم ، الإمارة ، رقم ١٥٣٣ص ١٩٢٠ - ١٩٢٤ .

تخالفوا أمراءكم ، ولْتَحسُن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

قال : فسكت الناس ، فو الله ما أجابه أحد هيبةً لغزو الروم ، لما يعلمون من كثرة عددهم ، وشدة شوكتهم .

فقام عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه ورضوانه - فقال : يامعشر المسلمين ، مالكم لاتجيبون خليفة رسول الله ﷺ إذا دعاكم لما يحييكم ؟

فقام خالد بن سعيد بن العاص ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي - صلى الله عليه وسلم وعلى آله - ثم قال : الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، الذي بعث محمدًا - صلى الله عليه وسلم - بالهدى ، ودين الحق ، ليُظْهرهُ على الدين كله ولو كَرهَ المشركون فإن الله منجز وعده ، ومعزّ دينه ، ومهلك عدوّه .

ثم أقبل على أبي بكر ، فقال : نحن غير مخالفين لك ، ولامتخلفين عنك ، وأنت الوالي الناصح الشفيق ، ننفر إذا استنفرتنا ، ونطيعك إذا أمرتنا ، ونجيبك إذا دعوتنا .

ففرح أبو بكر بمقالته ، وقال له : جزاك الله من أخ وخليل خيرًا ، فقد أسلمت مرتغبًا ، وهاجرت محتسبًا ، وهربت بدينك من الكفار لكي يطاع الله ورسوله ، وتكون كلمة الله هي العليا ، فتيسّره[1] - رحمك الله - .

قال : فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز ، ثم أتى أبا بكر ، وعنده المهاجرون والأنصار أجمع ماكانوا ، فسلم على أبي بكر ، ثم قال :

---

(١) أي تيسر للخروج واستعد له .

والله لأن أخرّ من حالق[1] أو تخطفني الطير في الهواء بين السماء والأرض أحبّ إليّ من أن أبطيء عن دعوتك، أو أخالف أمرك، فو الله ما أنا في الدنيا راغب، ولا على البقاء فيها بحريص، وإني أشهدكم أني وإخوتي وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيس في سبيل الله، نقاتل المشركين أبدًا حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا.

فقال له أبو بكر خيرًا، ودعا له المسلمون بخير، وقال له أبو بكر: إن مانرجو أن تكون من نصحاء الله في عباده، بإقامة كتابه، واتّباع سنة نبيه ﷺ.

فخرج هو وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته، فكان أول من عسكر.

وأمر أبو بكر بلالا، فنادى في الناس: أن انفروا إلى جهاد عدوّكم: الروم بالشام.

وأرسل أبو بكر إلى يزيد بن أبي سفيان، وإلى أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حَسَنَة، فقال:

إني باعثكم في هذا الوجه، ومؤمّركم على هذه الجنود، وأنا موجّه مع كل رجل منكم من الرجال ماقدرتُ عليه، فإذا قدمتم البلد، ولقيتم العدوّ، واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح، وإن لم يلقكم أبو عبيدة وجمعتكم حرب فأميركم يزيد بن أبي سفيان فانطلقوا، فتجهزوا، وخرج القوم يتجهزون.

---

(١) أي من جبل مرتفع.

وكان خالد بن سعيد بن العاص من عمال رسول الله ﷺ ، فكره الإمارة ، واستعفى أبا بكر ، فأعفاه .

ثم إن الناس خرجوا إلى معسكرهم من عشرة وعشرين ، وثلاثين وأربعين وخمسين ، ومائة في كل يوم ، حتى اجتمع الناس وكثروا .

فخرج أبو بكر ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثيرون حتى انتهى إلى عسكرهم ، فرأى عدَّة حسنة ، ولم يرض كثرتها للروم ، فقال لأصحابه : ماذا ترون في هؤلاء ؟ أترون أن نشخصهم إلى الشام في هذه العدَّة؟ .

فقال له عمر : ما أرضى هذه العدّة لجموع بني الأصفر .

فأقبل أبو بكر على أصحابه ، فقال لهم : ماذا ترون ؟ قالوا : نحن نرى أيضًا ما رأى عمر .

فقال أبو بكر : أفلا نكتب كتابا إلى أهل اليمن ، ندعوهم إلى الجهاد ، ونرغبهم في ثوابه ؟ فرأى ذلك جميع الصحابة ، فقالوا : نعْم ما رأيت . فكتب إليهم [(١)] .

من هذه المشورة تبين لنا منهج أبي بكر رضي الله عنه في مواجهة الأمور الكبيرة حيث لم يكن يبتُّ فيها برأي حتى يجمع أهل الحل والعقد فيستشيرهم ثم يَصْدُر بعد ذلك عن رأي ممحص مدروس ، وهذه هي سنة رسول الله ﷺ كما مر معنا في مواقف غزوة بدر و أحد .

ومن هذه المحاورة تبين لنا أيضًا منزلة أبي بكر العالية عند الصحابة ، حيث أرجعوا الأمر له ووضعوا ثقتهم الكاملة به ، وهذا أعلى مثل يمكن

(١) فتوح الشام للأزدي / ١-٨ ، وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٦٣-٦٥ .

أن يكون للانسجام الكامل بين الحاكم والمحكومين بعد رسول الله ﷺ .

كما نستفيد من هذه المحاورة ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الأدب الجمِّ والتواضع الكبير ، فلم يكن الواحد منهم يحب أن يبرز نفسه وأن يقول أي كلام يخطر على باله ليُنظر إليه ويُرَى مكانه ، بل تركوا الكلام لكبارهم فقط ، حتى إن عليّـًا وهو من الكبار في المنزلة لم يتكلم حتى راجعه أبو بكر ، واستخرج منه هذه الفائدة الغالية التي سُرَّ لها أبو بكر لمَاَ يترتب عليها من الثقة بنصر الله تعالى ، والشعور بأن العاقبة للمؤمنين .

ومن هذا الحوار الذي دار في هذه المشورة تبين لنا اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالجهاد ومسارعتهم إلى الخروج في سبيل الله تعالى ، وخاصة ما كان من خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه حيث أبدى استعداده الكامل للخروج هو وأهل بيته وأقاربه بعبارات بليغة مؤثرة ، مما جعل أبا بكر الصديق رضي الله عنه يشكره ويثني عليه .

وإننا حينما نتأمل في تفاصيل هذه المحاورة نجد أن الصحابة رضي الله عنهم قد أجمعوا على موافقة أبي بكر في غزو الروم ، وإنما تنوعت وجهات نظر بعضهم في كيفية هذا الغزو ، فكان رأي عمر إرسال الجيوش تلو الجيوش حتى تتجمع في الشام فتكون قوة كبيرة تستطيع أن تصمد للأعداء ، وكان رأي عبد الرحمن بن عوف أن يبدأ الغزو بقوات صغيرة تغير على أطراف الشام ثم تعود إلى المدينة ، حتى إذا تَمَّ إرهاب العدو وإضعافه تُبعث الجيوش الكبيرة .

ومن المعلوم أن أبا بكر قد أخذ برأي عمر في هذا الأمر ، لكنه أيضًا

قد استفاد من رأي عبد الرحمن بن عوف فيما يتعلق بطلب المدد بالجيوش من قبائل العرب وخاصة أهل اليمن .

وقد كان هناك خياران في كيفية إرسال الجيوش :

الأول : بعث جيش واحد ينطلق من المدينة تحت قيادة واحدة ويكون موكولا إليه مهمة فتح الشام بجميع أقطاره ، وهذا له محاسنه ومساوئه ، فمن محاسنه أنه يدرأ الخطر عن الجيش الإسلامي فلن يغلب من قلة جيش جاوز العشرة آلاف .

ومن مساوئه بطء الحركة وتأخر وصول الجيوش كلما تضاعف عددها وتأخر فتح البلاد إذا كان الجيش منوطًا به فتح جميع الأقاليم ، كما أن من مساوئه إهدار طاقة بعض الجند فيما إذا كان جيش العدو غير مكافيء لهذا الجيش .

أما الخيار الثاني فهو توزيع الجيش إلى عدة قيادات وتوجيهه إلى فتح عدة أقاليم ، ومن محاسن ذلك سرعة السير والحركة ، والسرعة في إنجاز فتح الأقاليم المتعددة والاستفادة من طاقة الجند الكاملة .

ومن مساوئه احتمال الهزيمة فيما إذا وجَّه الأعداء لهذه الجيوش جيوشًا هي أكبر من طاقتها .

والتخطيط الحربي القيادي الذي سلكه أبو بكر يدل على أنه قد لاحظ كل هذه الاحتمالات ، ففرق الجيش الإسلامي إلى أربعة جيوش وعيَّن لكل جيش إقليما من أقاليم الشام ، وجعل على قيادة هذه الجيوش كلاً من أبي عبيدة بن الجراح ووجهه إلى حمص ، ويزيد بن أبي سفيان ووجهه إلى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة ووجهه إلى الأردن ، وعمرو بن

العاص ووجهه إلى فلسطين ، وبهذا يكون قد ضمن بإذن الله فتح أقاليم الشام في وقت متقارب وهذا إنما يتم فيما إذا لم يوجه الروم حشوداً كبيرة لمقاومة الجيوش الإسلامية ، ولقد لاحظ أبو بكر هذا الاحتمال فجعل القيادة العامة لأبي عبيدة فيما إذا اجتمعوا للقتال ، وفي هذا إيحاء لهم جميعًا بأنه إذا اقتضت المصلحة أن يجتمعوا فليجتمعوا في قيادة موحدة .

وقد ذكر الأزدي في روايته السابقة كتاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى أهل اليمن :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى من قُرئ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين ، من أهل اليمن ، سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافًا وثقالا ، وقال : جاهدُوا بأموالكم وأنفُسكم في سبيل الله ، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم ، وقد استنفرْنا مَن قبَلَنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك ، وعسكروا وخرجوا ، وحسنت في ذلك نيتهم ، وعظمت في الخير حسبَتُهم ، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم ، وإلى إحدى الحسنيين ، إما الشهادة ، وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون العمل ، ولايترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ، ويقروا بحكم الكتاب ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، حفظ الله لكم دينكم ، وهدى قلوبكم ، وزكى أعمالكم ، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين ، والسلام عليكم .

وبعث هذا الكتاب مع أنس بن مالك [١] .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٨ ، وانظر تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ .

وقد كان لهذا الكتاب على إيجازه مفعول كبير حيث أقبلت قبائل اليمن في أمداد كثيرة تكوّن منها مع الجيوش التي خرجت من المدينة جيش كبير في الشام ، مما يدل على صلاح القادة وإخلاصهم ، ورغبة أفراد الأمة آنذاك في الخير وتنافسهم عليه .

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه :

أتيت أهل اليمن جناحًا جناحا ، وقبيلةً قبيلة ، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر ، وإذا فرغت من قراءته قلت ، الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإني رسول خليفة رسول الله ﷺ، ورسول المسلمين إليكم، ألا وإني قد تركتهم معسكرين ، ليس يمنعهم من الشخوص إلى عدوّهم إلا انتظاركم، فعجلوا إلى إخوانكم، رحمة الله عليكم أيها المسلمون » .

قال : فكان كل من أقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع مني هذا القول يحسن الردّ علي ، ويقول ، نحن سائرون، وكأنّا قد فعلنا[1] .

* * *

(١) فتوح الشام/ ٩ .

٣ – مسير يزيد بن أبي سفيان ووصية أبي بكر –

كان أول الجيوش التي غادرت المدينة جيش يزيد بن أبي سفيان ولقد أوصاه أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة في مجالي الحرب والسلم ، وممن ذكر هذه الوصية ابن الأثير في « كامله » حيث قال : وأمَّر – يعني أبو بكر – يزيد بن أبي سفيان على جيش عظيم هو جمهور من انتدب إليه ، فيهم سهيل بن عمرو في أمثاله من أهل مكة ، وشيَّعه ماشيا ، وأوصاه وغيره من الأمراء ، فكان مما قال ليزيد : إني قد وليتك لأبلُوك وأجرِّبك وأخَرِّجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدُّهم تولِّيًا له ، وأقرب الناس من الله أشدُّهم تقربا إليه بعمله .

وقد ولَّيتك عمل خالد [١] ، فإياك وعبِّيَّة الجاهلية [٢] ، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وابدأهم بالخير وَعدْهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها .

وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم ، وأقْلل لُبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولاترينَّهم فيروا خَلَلَك [٣] ويعلموا

---

(١) يعني عمل خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر رضي الله عنهما فأعفاه .

(٢) يعني التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية .

(٣) يعني لاتطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك .

علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك [1] وامنع من قِبَلَك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولاتجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولاتَخْزُن عن المشير خبرك فتُؤْتَى من قبَل نفسك.

واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك، وَبدِّدهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولاتَخَفْ من عقوبة المستحق، ولاتلجَّنَّ فيها، ولاتسرع إليها، ولاتتخذ لها مدفعا، ولاتغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولاتجسَّس عليهم فتفضحهم، ولاتكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولاتجالس العبَّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولاتجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وماحبسوا أنفسهم له.

قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر [2]. ويمكن أن نوجز فوائد هذه الوصية في النقاط التالية:

١ - أن الولايات والمناصب ليست حقا ثابتًا لأصحابها وإنما بقاؤهم

---

(١) يعني ليروا قوة المسلمين.

(٢) الكامل ٢/ ٢٧٦.

فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل ، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساؤوا ، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل ، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا ، فيخل بمسئوليته ويعرِّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع .

٢- أن تقوى الله عز وجل هي أهم عوامل النجاح في العمل ، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم ، فإذا اتقوه في باطنهم فَحَرِيٌّ بهم أن يتقوه في ظاهرهم ، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد ، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لاتلتزم بتقوى الله تعالى .

٣ - التحذير من التعصب للآباء والأجداد والأقوام ، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم ، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفا للاستقامة ، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهي الأخوة في الله تعالى .

٤ - الإيجاز في الموعظة فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضا ، فيضيع المقصود ، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغًا عن استيعاب مايقول والاستفادة من مواعظه ، وإن لم يكن بليغا فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم .

٥- إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجًا صالحًا للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سببًا في صلاح من هم تحت رعايته .

٦- الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومَخْبَراً ، مَظْهَراً من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها ، ومَخْبَراً من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى ، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض، وتهذب السلوك، وتقوِّي القلوب ، وتبعث على ارتياح النفوس، وتُعتبر ملاذا للمسلم عند الشدائد .

٧- إكرام رسل العدو إذا قدموا ، مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامي ، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لايصل هذا الإكرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغي إطلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم .

٨ - الاحتفاظ بالأسرار ، وعدم التهاون بإفشائها ، خاصة فيما يتعلق بأمور المسلمين العامة ، فإن الحكيم يستطيع التصرف في الأمور وإن تغيرت وجوهها مادام سرُّه حبيسًا في ضميره ، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها .

٩ - إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي ثاقب الفكر فإنه لايستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح ، فإذا أخفى المستشير بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه ، حيث قد يتضرر بهذه المشورة .

١٠ - أن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطا لمن ولي أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم ، وفي هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها ، أما المسئول الذي

يعيش في عزلة ، ولايختلط إلا بأفراد من كبار رعيته ، فإنه لايصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء ، وقد لايكشفون له الأمور بكامل تفصيلاتها ، وقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح .

١١- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة في مكامن الخطر ، واختيار الحراس الأمناء من ذوي النباهة ، وعدم وضع الثقة الكاملة بهم ، بل لابد من الرقابة عليهم حتى لايُؤتَى المسلمون من قبَلهم .

١٢- أن يسلك المسئول في عقاب المخالف مسلكًا وسطا ، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق ، فإن ذلك يجرِّئه على مزيد من المخالفة ، ويجريء غيره على ارتكاب المخالفات ، فتسود الفوضى وينفلت الأمر ، ولا يشتدُّ في العقوبة فينفِّر الرعية ، ويدفعهم إلى التسخُّط والتحزب ، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان وبَعد النظر والتروي بحيث تؤدي غرضها التربوي بدون إثارة ضجة ، ولادفع إلى النقد والتسخط .

١٣- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجري في حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماما بأمورهم فيزيد المحسن إحسانًا ويقتصر المسيء عن الإساءة ، ولكن بدون تجسس عليهم فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم ، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذي يربط المسئول بأفراد رعيته ، من المودة والإعجاب والشكر على الجميل ، وهذا الخيط مادام قائمًا فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التي تفسد المجتمع وتحدث الفوضى ، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التي تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت ، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلبياتها المعروفة .

١٤ - أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة ، وإن سمع منهم مايكره أحيانًا من النقد والتوجيه ، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع ، وأن لايجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير في الأمور الجادة ، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولي أمورهم .

١٥ - أن يصدُق القائد في لقاء الأعداء وأن لايجبن ، فإن جُبْنَه يسري على جنده ، فيقع بذلك الفشل والهزيمة ، وفي غير الحرب أن يكون المسئول شجاعًا في مواجهة المواقف ، وأن لايضعف فيسري ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين ، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج .

١٦ - أن يتجنب القائد الغلول ، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها هذا في مجال الحرب ، وفي مجالات السلم أن يتجنب المسئول أي استفادة دنيوية من عمله لاتحل له شرعًا ، مثل أخذ الهدايا التي يقصد بها دافعها الاستفادة من المسئول في مجانبة الحق ، فإن ذلك من الغلول ، والغلول كما جاء في هذه الوصية يقرب من الفقر ، ويدفع النصر .

ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة هذه الوصية التي أوصى بها أبو بكر رضي الله عنه أحد قواده ، وهي تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين وأنه كان يتصور ماقد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم في تلافي الوقوع في المشكلات ، وحلها إذا وقعت .

وإن هذه الوصية وأمثالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف أبي بكر

المتعددة الأنواع ، فإذا تأملت إدارته للحكم وجدت رجلا بارعًا في أمور السياسة ، وإذا رأيت توجيهه للقادة العسكريين تجد رجلا بارعًا في شئون الحرب ، وكأنه مع القادة في الميادين ، وإذا رأيت رحمته وتأليفه للقلوب رأيت رجلا بارعًا في الدعوة إلى الله تعالى ، فهو الرجل الرحيم بالمؤمنين ، الرافع لشأن أهل البلاء والصدق منهم ، الخبير بأهل الكفاءة والقدرة ، القوي الحازم على أعداء الله من المنافقين والكافرين .

قدوم مَدَد من خثعم :

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر قدامة بن جابر عن سفيان ، أن ابن ذي السَّهم الخثعمي قدم على أبي بكر - رضي الله عنه - من اليمن في جماعة من قومه ، من خثعم ، وهم دون الألف، وفوق تسعمائة ، فقال ابن ذي السهم لأبي بكر : إنا قد تركنا الديار والأموال والأصول ، وأقبلنا بنسائنا وأبنائنا ، ونحن نريد جهاد المشركين ، فماذا ترى لنا في أولادنا ونسائنا ؟ أنخلِّفهم عندك ونمضي؟ فإذا جاء الله بالفتح بعثنا إليهم ، فأقدمتهم علينا ، أم ترى لنا أن نخرجهم معنا ونتوكل على ربنا ؟

قال أبو بكر رضي الله عنه : سبحان الله ، يامعشر المسلمين ، هل سمعتم ممن سار من المسلمين إلى أرض الروم وأرض الشام ذكر عن الأولاد والنساء مثل ذكر أخي خثعم ؟ أما إني أقسم لك ياأخا خثعم ، أني لو سمعت هذا القول منكم والناس مجتمعون عندي قبل أن يشخصوا لأحْبَبْت أن أحتبس عيالاتهم عندي ، وأسرّحهم وليس معهم من النساء والأولاد ما يشغلهم ويهمُّهم حتى يفتح الله عليهم ، و لكنه قد

مضى عُظم الناس وذراريُّهم ، ولك بجماعة المسلمين أسوة ، وأنا أرجو أن يدفع ا لله بعزَّته عن حرمة الإسلام وأهله ، فسر في حفظ الله وكنفه ، فإن بالشام أمراء ، وجّهناهم إليها ، فأيهَّم أحببت أن تصحب فاصحب .

قال : فسار حتى لحق يزيد بن أبي سفيان ، فصحبه [1] .

* * *

(١) فتوح الشام / ٢٥-٢٦ .

٤ – مسير شرحبيل بن حسنة –

حدد أبو بكر الصديق لمسير شرحبيل ثلاثة أيام بعد مسير يزيد بن أبي سفيان فلما مضى اليوم الثالث ودع أبو بكر شرحبيل وقال له : ياشرحبيل ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان ؟ قال : بلى، قال : فإني أوصيك بمثلها ، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد، أوصيك بالصلاة في وقتها ، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر أو تُقتل، وبعيادة المرضى ، وبحضور الجنائز، وذكر الله كثيراً على كل حال .

فقال شرحبيل : الله المستعان وماشاء الله أن يكون كان [(١)] .

فأما الصلاة على وقتها فهي بالنسبة للقادة والجنود من أعظم مايعين على الانضباط والالتزام بالنظام ، ومن كان حريصًا على أداء الصلوات الخمس في أول أوقاتهن فإنه حريٌّ به أن يكون جادًا منظما في أداء كل ما يُكلَّف به من مهامَّ على الوجه الأكمل .

وعيادة المرضى وحضور الجنائز أداء لحقِّ الجنود ومظهر من مظاهر الوفاء لإخوان لهم أدَّوا ما كُلِّفوا به في حال قوتهم وصحتهم، فعيادة المريض مواساة ، وإشعار له بأنه وإن توقف عطاؤه بعض الوقت فإن عطاءه السابق ليس محل الإهمال ولا النسيان من قادته ولامن زملائه، وأن الأمل كبير في أن تعود إليه صحته فيعود فارس ميدانه في السلم والحرب، ولهذا شُرع للعائد أن يدعو للمريض بقوله : اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدواً أو يمشي لك في صلاة [(٢)] .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٥ .

(٢) جاء هذا الدعاء في حديث عن رسول الله ﷺ أخرجه الإمامان أحمد وأبو داود من حديث=

وحضور الجنائز إشعار للمسلمين بأن حق المسلم لا ينتهي بإنتهاء حياته ، بل إن من حقه أن يشيعه إخوانه إلى قبره وأن يدعوا له .

أما الصبر على حر القتال حتى ينال المجاهدون إحدى الحسنيين : إما الظفر أو الشهادة فذلك من أبرز ما يجب على القائد أن يتحلى به من صفات ليكون بذلك قدوة صالحة لجنوده ، والصبر من أبرز عوامل النصر .

وكذلك الإكثار من ذكر الله تعالى في جميع الأحوال لأنه هو مولى المؤمنين وناصرهم سبحانه .

* * *

= عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، - مسند أحمد ٢/ ١٧٢ ، سنن أبي داود ، الجنائز رقم ٣١٠٧ باب ١٢ .

٥ - مسير أبي عبيدة عامر بن الجراح -

ولما أراد أبو بكر أن يبعث أبا عبيدة بن الجراح دعاه فودعه ثم قال له :

اسمع سماع من يريد أن يفهم ماقيل له ، ثم يعمل بما أمر به ، إنك تخرج في أشراف الناس ، وبيوتات العرب ، وصلحاء المسلمين ، وفرسان الجاهلية ، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية ، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة ، والنية الحسنة ، أحسن صحبة من صحبك ، وليكن الناس عندك في الحق سواء ، واستعن بالله وكفى بالله معينا ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا ، اخرُجْ من غد إن شاء الله [1] .

وهذه وصية غالية وقيمة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه بيَّن فيها لأبي عبيدة رضي الله عنه منزلة جنوده الذين سيخرجون معه وأن فيهم وجوه المسلمين وسادتهم وأوصاه بأن يُحسن صحبتهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأن ينظر إلى الحق فيجعله ميزانا لمعاملة الناس ، مع طلب العون من الله تعالى والتوكل عليه فإن تنفيذ الحق لايتم إلا بذلك .

ثناء وموعظة من معاذ لأبي بكر :

وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة ، فتقدم إلى أبي بكر الصديق فقال : ياخليفة رسول الله ، إني قد كنت أردت أن يكون ما أريد أن أكلمك به بالمدينة قبل شخوصنا عنها ، ثم بدا لي أن أؤخر ما أريد من ذلك حتى يكون عند وداعي ، فيكون آخر ما أفارقك عليه كلامي إياك .

قال : فهات يامعاذ ، فو الله ماعلمتُكَ إلا سديد القول ، موفَّق الرأي ، رشيد الأمر .

(١) فتوح الشام للأزدي / ١٧ .

فأدنى راحلته منه ، ومقود فرسه في يده ، وهو متنكّب القوس ، متقلد السيف ، فقال : إن الله بعث محمداً ﷺ برسالته إلى خلقه ، فبلَّغَ ما أحب الله أن يبلغ ، وكان كما أحبَّ ربه أن يكون ، فقبضه الله إليه ، وهو محمود مبرور ، صلوات الله عليه وبركاته ورضوانه ، إنه حميد مجيد ، وجزاه عن أمته كأحسن ما جُوزي النبيون [عليهم الصلاة والسلام] .

ثم إن الله استخلفك أيها الصدِّيق على ملأ من المسلمين ، ورضي منهم بك ، فارتد مرتدّون ، وأرجَف مرجفون ، ورجعت راجعة عن هذا الدّين ، فأدهش بعضنا ، وحارجُلُنا ، وأحبَّ المداهنة والموادعة طائفة منا ، واجتمع رأي الملأ الأكبر منا أن يتمسكوا بدينهم ، وأن يعبدوا الله حتى يأتيهم اليقين[1] ، وَيَدَعُوا الناس وماذهبوا فيه ، فلم ترض منهم بشيء كان رسول الله ﷺ يردُّه عليهم[2] ، فنهضتَ بالمسلمين وشمَّرتَ للمجرمين ، وشددتَ بالمطيع المقبل على العاصي المدبر ، حتى أجاب إلى الحق من كان عائداً عنه ، ورحل عن الباطل من كان مرتكزاً فيه .

فلما تمت نعم الله عليك وعلى المسلمين بك في ذلك ندبت المسلمين إلى جهاد المشركين ، وإلى الوجه الذي يضاعف الله لهم فيه الأجر ويعظم لهم فيه الفتح والغنم ، فأمرك مبارك ، ورأيك محمود رشيد ، ونحن وصالحو المؤمنين نسأل الله لك المغفرة ، والرحمة الواسعة ، والقوة على العمل بطاعة الله في عافية ، فإن هذا الذي تسمع من دعائي وثنائي

---

(١) أي الموت .

(٢) يعني لم تُقرَّ ما نعي الزكاة التي تُرَدُّ على فقرائهم .

ومقالتي لتزداد في فعل الخير رغبة، ولتحمد الله على النعمة، وأنا معيد القول على المؤمنين ليحمدوا الله على ما أبلاهم، واصطنع عندهم بولايتك عليهم .

ثم أخذ كل واحد منهما بيد صاحبه، فودَّعه، ودعا له، ثم تفرقا، وانصرف أبو بكر - رضي الله عنه -، ومضى ذلك الجيش [1] .

موقف لخالد بن سعيد بن العاص :

أخرج أبو إسماعيل الأزدي من حديث سعيد بن العاص، أن رجلا من المسلمين قال لخالد بن سعيد بن العاص، وقد تهيأ للخروج مع أبي عبيدة بن الجراح، لو خرجت مع ابن عمك يزيد بن أبي سفيان كان أمثل من خروجك مع غيره .

فقال : ابن عمّي أحَب إليَّ من هذا في قرابته، وهذا أحب إليَّ من ابن عمي في دينه، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليّي، وناصري على ابن عمّي قبل اليوم، وأنا أشد استئناسا إليه، وأشد طمأنينة مني بغيره [2] .

وهذا موقف إيماني جليل من خالد بن سعيد بن العاص، حيث قدَّم رابطة الدين على رابطة النسب، ففضل أن يكون تابعًا للرجل الأتقى، والأقدم إسلاما وجهادًا وإن كان بعيدًا عنه في النسب، وهذا يدل على وعيه الديني وقوة إيمانه .

---

(١) فتوح الشام / ١٩ - ٢٠ .

(٢) فتوح الشام / ٢١ - ٢٢ .

قدوم مَدَد من طيئ :

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من حديث المحلّ بن خليفة، أن مَلحان بن زياد الطائي ، أخا عديّ بن حاتم لأمه، أتى أبا بكر رضي الله عنه في جماعة من قومه من طَيْء ، نحو من ألف رجل ، فقال له :

إنا أتيناك رغبة في الجهاد ، وحرصًا على الخير ، ونحن القوم الذين تعرف، الذين قاتلنا معك من ارتدّ منّا ، حتى أقرّوا بمعرفة ماكانوا ينكرون، وقاتلنا معك من ارتدّ منا حتى أسلموا طوعًا وكرها ، فسرِّحنا رحمك الله في آثار الناس ، واخترْ لنا واليًا صالحا نكنْ معه .

وكان قدومهم على أبي بكر رضي الله عنه بعد مسير الأمراء كلهم إلى الشام ، فقال له أبو بكر : قد اخترت لكم أفضل أمرائنا أميرًا، وأقدم المهاجرين هجرة ، الحقْ بأبي عبيدة ، فقد رضيت لكم صحبته، وحمدت لكم إليه[1]، فنعم الرفيق هو في السفر ، ونعم الصاحب في الحضر .

قال : قلت لأبي بكر - رضي الله عنه - قد رضيت بخيرتك التي اخترتَ لي . قال أبو بكر : فاتْبعه حتى تلحق به . فاتبعت حتى لحقته بالشام ، فشهدت معه مواطنه التي شهدها كلها . لم أغبْ عن يوم منها[2] .

وصيتان من أبي بكر لأبي عبيدة وقيس بن هبيرة :

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر يحيى بن

---

(١) هكذا جاءت ولعلها و لايته .

(٢) فتوح الشام / ٢٤-٢٥ .

هانئ بن عروة ، أن أبا بكر رضي الله عنه كان أوصى أبا عبيدة بن الجراح بقيس بن هبيرة بن مكشوح المراديّ ، وقال له :

إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف ، فارس من فرسان العرب ، ليس بالمسلمين غناء عن رأيه ومشورته وبأسه في الحرب ، فأدْنه وألطفه وأره أنك غير مستغن عنه ، ولامستهين بأمره ، فإنك تستخرج بذلك نصيحته لك وجهده وجدّه على عدوّك .

قال : فدعا أبو بكر قيس بن هبيرة ، فقال : إني بعثتك مع أبي عبيدة الأمين ، الذي إذا ظُلم لم يَظلم ، وإذا أسيء إليه غفر ، وإذا قُطع وصَل ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، فلا تعصينَّ له أمرًا ، ولاتخالفن له رأيًا ، فإنه لن يأمرك إلا بخير ، وقد أمرته أن يسمع منك ، فلا تأمره إلا بتقوى الله ، فقد كنا نسمع أنك شريف ذو بأس ، سيّد مجرَّب في زمان الجاهلية الجهلاء ، إذ ليس فيهم إلا الإثم ، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك في الإسلام على المشركين ، وعلى من كفر بالله وعبد معه غيره ، فقد جعل الله في ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل ، والعزّ للمسلمين .

قال : فقال قيس بن هُبيرة : إن بقيتَ وأبقاك الله فسيبلغك عني من حيْطتي على المسلم ، وجهدي على الكافر ماتحب ويسرّك ويرضيك ، فقال له أبو بكر – رضي الله عنه – : افعل ذلك ، رحمك الله .

قال ، فلما بلغ أبا بكر مبارزة قيس بن هبيرة البطريقين بالجابية ، وقتله إيَّاهما قال : صدق قيس ، وبرّ ، ووفى [1] .

---

(١) فتوح الشام / ٢٦-٢٧ .

وهكذا نجد أبا بكر رضي الله عنه يشحذ الهمم ، ويُفَجِّر الطاقات الكامنة في النفوس ، فقيس بن هبيرة المرادي رجل عظيم في قومه في الجاهلية ، وله سمعة عالية في الشجاعة والإقدام ، فأراد أبو بكر - بهذا الثناء عليه - أن يستخرج منه أعلى ما يمكن من طاقة ليصرفها في حماية الإسلام والجهاد في سبيله .

ولاشك أن الثناء على العظماء النبلاء بذكر فضائلهم يرفع من معنويتهم ، ويمنحهم قوة عالية تدفعهم إلى التضحية والفداء حتى لايخيب ظن أهل الفضل فيهم ، خاصة إذا صدر هذا الثناء من أعظم رجل في الإسلام آنذاك، بل أعظم رجل في العالم حيث أصبح ملوك الأرض وسادتها يحسبون لسيد المسلمين وأميرهم ألف حساب .

* * *

٦ – سير الجيوش الإسلامية وموقف هرقل –

سارت من المدينة ثلاثة جيوش إسلامية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهم في العام الثاني عشر للهجرة في أوقات متقاربة .

ولما وصلوا إلى جنوب الشام نزل أبو عبيدة في الجابية جنوب دمشق، ونزل شرحبيل في بصرى جنوب الجابية، ونزل يزيد في البلقاء جنوب بصرى .

وقد تأخر عنهم عمرو بن العاص ، ثم وصل إلى الشام ونزل جنوب فلسطين .

ومازال أبو بكر رضي الله عنه يمدهم بالجنود كلما وفدت عليه وفود من العرب للجهاد حتى بلغت جنود المسلمين بالشام سبعة وعشرين ألفا .

ومن هذه الإمدادات جيش بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ومعه ألف مجاهد ، وجيش آخر بقيادة سعيد بن عامر بن حذْيَم ومعه سبعمائة[1] .

هذا وإن المتأمل ليتملكه العجب حينما يرى جيوش المسلمين موجهة بثقلها إلى حرب مع دولة الفرس العريقة التي تملك مشارق الأرض، ثم الوقت نفسه يوجه الصديق أربعة جيوش لحرب الدولة الثانية العظمى، دولة الروم التي تملك مغارب الأرض ، فيحارب المسلمون الدولتين العظميين في وقت واحد .

وقد يقول قائل : أما كان الأولى أن يوحد المسلمون قوتهم نحو دولة

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٣٠-٣١ .

الفرس حتى يقضوا عليها ، ثم يتوجهون نحو دولة الروم ؟ نعم ، قد يخطر هذا التساؤل لكثيرين ، ولكن حينما نتأمل فيما وقع من هذه الحروب نجد أن نسبة كبيرة من نصر المسلمين كانت بالرعب الذي ملأ الله تعالى به قلوب الأعداء ، فأراح المسلمين من كثير من العناء في قتالهم .

وإنه حينما يرى الفرس أنهم إذا واجهوا بقواتهم الضخمة العريقة بعض قوة المسلمين يصيبهم الهلع ، ويتصورون كيف يكون الموقف لو واجهوا المسلمين وهم بقوتهم الكاملة فيما لو سحبوها من الميدان الآخر ، وكذلك الأمر بالنسبة للروم .

ثم إنه قد تسوّل للروم أنفسهم أن يغزوا دار الإسلام وقد عَرِيَتْ من القوة بسبب توجه الجيوش نحو دولة الفرس ، وما أخبار غزوة تبوك ببعيدة فقد كانت لتأديب أتباع الروم الذين هموا بغزو المدينة فغزاهم النبي ﷺ في عقر دارهم ، ولاشك أن ذلك أبلغ في الرد على أعداء الإسلام من مدافعتهم بعد دخولهم دار المسلمين .

ولما علم هرقل بهذه الجيوش أشار على قومه بمصالحة المسلمين وعدم مقاومتهم ، وألح في ذلك ، ولكن كبراء قومه لم يكونوا في مستواه من الفهم والإدراك ، فاغتروا بقوتهم وكثرة جندهم ، ولجُّوا معه في الجدل حتى وافقهم على ما أرادوا من القتال .

ولقد كان واثقًا من انتصار المسلمين ، وعلى علم بأنهم على الحق وأن نبيهم ﷺ هو النبي المنتظر ، منذ أن بعث إليه كتابا يدعوه إلى الإسلام .

وكان هرقل عالما بكتبهم الدينية فأرسل لما وصله الكتاب يطلب له

جماعة من العرب ليسألهم عن النبي ﷺ فوجدوا أبا سفيان وصحبًا له قدموا الشام للتجارة ، فجاؤوا به إلى هرقل .

وقد أخرج الإمام البخاري خبره في حديث طويل جاء فيه «فقال-يعني هرقل - للترجمان : قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت : أن لا ، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال؟ فذكرت : أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون؟فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حين يتمّ ، وسألتك : أيرتدُّ أحد سُخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت : أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر؟ فذكرت : أن لا ، وكذلك الرسل لاتغدر ، وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقول حقا فسَيَمْلك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

وقد جاء في نهاية الحديث أن هرقل جمع عظماء الروم في حمص

في بيت ملكه وغلّق عليهم الأبواب ثم اطّلع فقال : يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلّقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردُّوهم عليّ ، وقال : إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدَّتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل [1] .

فلما غزت بلاده جيوش المسلمين داخله الرعب منهم وأيقن بزوال ملكه عن الأراضي التي سيطئونها ، فأشار على قومه بمصالحتهم فلم يوافقه كبراؤهم ، لما أراد الله تعالى من نصر دينه على يد أوليائه المجاهدين في سبيله ، حيث تم بسبب جهادهم تحرير بلاد الشام من أيدي النصارى ودخول أكثر أهلها في الإسلام .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر أبي سعيد المُقْري وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص قالا : لما مضت جنود أبي بكر رضي الله عنه إلى الشام بلغ ذلك هرقل ملك الروم وهو بفلسطين ، وقالوا له : قد أتتك العرب ، وجمعت لك جموعًا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيَّهم الذي بُعث إليهم قد أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد ، وقد جاءوك وهم لايشكون أن هذا سيكون ، وجاءوك مع ذلك بنسائهم وأولادهم تصديقًا لمقالة نبيهم ﷺ يقولون : لو دخلناها فتحناها ، ونزلنا بنسائنا وأولادنا .

فقال لهم هرقل : فذلك أشدُّ لشوكتهم إذا قاتل القوم عن تصديق

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب بدء الوحي ، رقم ٧ (١/ ٣١) .

ويقين، وأشد على من يكابدهم أن يزيلهم عن رأيهم ، أو يصدّهم عن أمرهم .

قال : فجمع إليه أهل البلاد وأشراف الروم ، ومن كان على دينه من العرب فقال : يا أهل هذا الدين ، إن الله عز وجل قد كان إليكم محسنا، وكان لدينكم هذا معزّا ، وله ناصرا على الأمم الخالية، وعلى كسرى والمجوس ، وعلى الترك الذين لايعلمون ، وعلى من سواهم من الأمم كلها، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم وسنة نبيكم، الذي كان أمره رشدا وفعله هدى ، فلما بدَّلتم وغيرتم أطمع ذلك فيكم قوما، والله ماكنا نعتدّهم ، ولانخاف أن نُبتلى بهم ، وقد ساروا إلينا حفاة عراة جياعا، أخرجهم إلى بلادكم قحْط المطر وجدوبة الأرض، وسوء الحال، فسيروا إليهم ، فقاتلوهم عن دينكم، وعن بلادكم ، وعن نسائكم وأولادكم ، وأنا شاخص عنكم ، وممدكم بالخيول والرجال حاجتكم، وقد أمرت عليكم أمراء فاسمعوا لهم وأطيعوا .

ثم خرج إلى دمشق فقام فيهم بمثل هذا المقام ، وقال فيهم مثل هذا القول ، ثم أتى حمص ، فقام فيهم بمثل هذا المقام ، وقال فيهم مثل هذا القول، ثم خرج وأتى إلى أنطاكية فأقام بها ، وبعث إلى الروم، فحشرهم إليه ، فجاء منهم ما لايُحصي عددهم إلا الله ، ونفر إليه مقاتلتهم ورجالهم وشبَّانهم وأتباعهم ، وأعظموا دخول العرب عليهم، وخافوا أن يُسلَبوا ملكهم (١) .

* * *

(١) فتوح الشام / ٢٧-٢٩ .

٧ - مكاتبات بين أبي بكر وبعض قادته -

كتب أبو عبيدة إلى أبي بكر رضي الله عنهما يخبره بما بلغه مما جمع هرقل ملك الروم من الجموع .

وقد روى في ذلك محمد بن عبد الله الأزدي قال : حدثني أبو حفص الأزدي عن كتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى أبي بكر رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبي بكر ، خليفة رسول اللهﷺ من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإنا نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله عزّاً متينا ، وأن يفتح لهم فتحًا يسيرًا ، فإنه بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام ، تدعى أنطاكية ، وأنه بعث إلى أهل مملكته ، فحشرهم إليه ، وأنهم نفروا إليه على الصعْب والذلول[1] ، وقد رأيت أن أعلمك ذلك ، فترى فيه رأيك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد بلغني كتابك ، وفهمت ماذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم ، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه ، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين ، وأما ماذكرت من حشره لكم أهل مملكته ، وجمعه لكم الجموع ، فإن ذلك ماقد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال ، وقد علمت والحمد لله ، قد غزاهم رجال كثير من

---

(١) يعني الخيل بأنواعها ، مايصعب قياده منها وما يسهل ، والمراد وصف جيشهم بالكثرة .

المسلمين ، يحبـون الموت حبّ عـدوّهم الحيـاة ، ويرجـون من الله في قتالهم الأجر العظيم ، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم ، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين ، فالقهم بجندك ، ولاتستوحش لمن غاب عنك من المسلمين فإن الله معك ، وأنا مع ذلك مُمدُّك بالرجال حتى تكتفي ولاتريد أن تزداد إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعث بهذا الكتاب مع دارم العبسي .

وهذا كتاب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن ملك الروم هرقل لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب في قلبه ، فتحمَّل فنزل أنطاكية ، وخلّف أمراء من جنده على مدائن الشام وأمرهم بقتالنا ، وقد تيسروا لنا واستعدوا ، وقد أخْبَرَنا مسالمة الشام[1] أن هرقل استنفر أهل مملكته ، وأنهم قد جاءوا يجرّون الشوك والشجر ، فمرْنا بأمرك ، وعجّل علينا في ذلك برأيك نتبعه إن شاء الله ، ونسأل الله النصر والصبر والفتح وعافية المسلمين ، والسلام عليك ورحمة الله .

فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحوُّل ملك الروم إلى أنطاكيـة ، وأن الله ألقى الرعب في قلبه من جموع المسلمين ، فإن الله - وله الحمد - قد نصرنا ونحن مع رسول الله ﷺ بالرُّعب ، وأمدنا بملائكته الكرام ، وإن ذلك الدين الذي نصرنا الله به

---

(١) أي المسالمون من أهل الشام .

بالرعب، هو هذا الدين الذي ندعو الناس إليه اليوم ، فوَربك لايجعل الله المسلمين كالمجرمين ، ولا من يشهد أن لا إله إلا الله كمن يعبد معه آلهة آخرين ، ويدين بعبادة آلهة شتى ، فإذا لقيتموهم فانهدْ إليهم بمن معك، وقاتلهم، فإن الله لن يخذلك ، وقد نبأنا الله تبارك وتعالى أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله ، وأنا مع ذلك مُمِدُّك بالرجال في إثر الرجال ، حتى تكتفوا ولاتحتاجوا إلى زيادة إنسان، إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

وبعث بهذا الكتاب مع عبد الله بن قرْط الثمالي .

وقد كان أبو بكر قال له حين قدم عليه ، أخبرني خبر الناس ، قال له : المسلمون بخير ، قد دخلوا أدنى الشام ، وقد رعب أهلها منهم ، وقد ذُكر لنا أن الروم قد جمعت لنا جموعًا كثيرة جمَّة ، ولم يلقنا عدونا بعد ، ونحن في كل يوم نتوقع لقاء العدو ونتوكَّفه (أي ننتظره) ، وإن نحن لم تأتنا جيوش من قبَل هرقل فليست الشام بشيء .

فقال له أبو بكر رضي الله عنه : اصدقني الخبر .

فقال له : وما لي لا أصدقك الخبر ، ويحلّ لك الكذب : أوَ يصلح لمثلي أن يكذب مثلك ؟ ولو كذبتك في هذا ألَم أخُن أمانتي وأخُنْ ربِّي ، وأخنك وأخن المسلمين ؟

فقال له أبو بكر – رضي الله عنه – : معاذ الله ، لست من أولئك .

وكتب معه أبو بكر رضي الله عنه حينئذ بهذا الكتاب ، ورده إلى يزيد ، وقال له : أخبره ، وأخبر المسلمين بأني مُمدُّ المسلمين مع هاشم ابن عتبة ، وسعيد بن عامر بن حذْيم .

فخرج عبد الله بن قرط بكتاب أبي بكر حتى قدم على يزيد ، فقرأه على المسلمين ، ففرحوا به وسُرُّوا [1] .

* * *

(١) فتوح الشام / ٣٠ - ٣٣ .

٨ - خروج هاشم بن عتبة إلى الشام -

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من حديث أبي عبادة عن جده أن أبا بكر رضي الله عنه دعا هاشم بن عتبة فقال له : ياهاشم ، إن من سعادة جدِّك ، ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوها من المشركين ، وممن يثق الوالي بنصيحته ووفائه وعفافه وبأسه ، وقد بعث إليّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار ، فسر إليهم فيمن تبعك ، فإني نادب الناس معك ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة ، أو يزيد .

قال : لا ، بل على أبي عبيدة .

قال : فاقدم على أبي عبيدة .

قال : وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد فإن إخوانكم من المسلمين معافَون ، مدفوع عنهم ، مصنوع لهم ، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم ، وقد اعتصموا بحصونهم ، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم ، وقد جاءتني رسلهم يخبرونني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام ، وقد بعثوا إليَّ يخبرونني أنه قد وجه إليهم هرقل جندًا من مكانه ذلك ، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم ، يشدد الله بهم ظهورهم ، ويكبت بهم عدوهم ، ويلقي بهم الرعب في قلوبهم ، فانتدبوا - رحمكم الله - مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ،

واحتسبوا في ذلك الأجر والخير ، فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة ، وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة .

ثم انصرف أبو بكر رضي الله عنه إلى منزله ، ومال الناس على هاشم حتى كثروا عليه ، فلما أتموا ألفا أمره أبو بكر أن يسير ، فجاءه فسلم عليه وودّعه ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ياهاشم ، إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومَشورته وحسن تدبيره ، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته ، وإن الله - عز وجل - قد جمع لك تلك الخصال كلها ، وأنت حديث السن ، مستقبل الخير ، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر ، واعلم أنك لاتخطو خطوة ، ولاتنفق نفقة ولا يصيبك ظمأ ولانصب ولامخمصة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملا صالحا ، إن الله لايضيع أجر المحسنين .

فقال هاشم : إن يرد الله بي خيرًا يجعلني كذلك ، وأنا أفعل ، ولاقوة إلا بالله ، وأنا أرجو إن أنا لم أُقْتَل أن أقْتُل ، ثم أُقْتَل إن شاء الله .

فقال له عمه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : يا أبن أخي ، لاتطعن طعنة ، ولاتضربن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله ، واعلم أنك خارج من الدنيا رشيدا ، وراجع إلى الله قريبا ، ولن يصحبك من الدنيا إلى الآخرة إلا قدمُ صدْق قدَّمته ، أو عمل صالح أسلفته .

فقال : أيْ عم ، لاتخافن مني غير هذا ، إني إذا لمن الخاسرين ، إن جعلت حلِّي وارتحالي ، وغدوي ورواحي ، وسيفي وطعني برمحي ، وضربي بسيفي رياء للناس .

ثم خرج من عند أبي بكر رضي الله عنه فلزم طريق أبي عبيدة حتى قدم عليه ، فتباشر بمقدمه المسلمون ، وسُرُّوا به [(١)] .

في هذا الخبر ثلاثة مواقف :

أولا : موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما أثنى على هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص بالجمع بين حكمة الشيوخ وشجاعة الشبان ، حيث إن الثناء من الرجل الكبير القدر له أثره البالغ في شحذ الهمم واستخراج الطاقات العالية ، كما سبق ، وهذا الثناء يعتبر وساما عاليا يتحلى به هاشم بن عتبة ، وقد أثبتت الأيام أنه أهل لهذا الثناء وذلك في مواقفه في حروب الشام والعراق .

ثانيًا : موقف لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث خشي على ابن أخيه هاشم - وهو في سن الشباب - أن يداخله شيء من العُجْب والرياء ، فوعظه تلك الموعظة البليغة في الإخلاص .

ثالثًا : موقف لهاشم بن عتبة في جوابه لأبي بكر حيث تبين فهمه للتوحيد ، وذلك ببيان أن التوفيق للهدى والخير بيد الله عز وجل ، ولم يشغله عن هذا المعنى السامي حب الظهور والثناء على النفس .



---

(١) فتوح الشام / ٣٣ - ٣٥ .

٩ - خروج سعيد بن عامر بن حذْيَم إلى الشام -

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من حديث أبي عبادة عن جده قال: وبلغ سعيد بن عامر بن حذيم أن أبا بكر - رضي الله عنه- يريد أن يبعثه، فلما أبطأ ذلك عليه، ومكث أيامًا لايذكر له أبو بكر شيئًا قال: يا أبا بكر، قد بلغني أنك أردت أن تبعثني في هذا الوجه، ثم رأيتك قد سكت، فما أدري مابدا لك، فإن كنت تريد أن تبعث غيري فابعثني معه، فما أرضاني بذلك، وإن كنت لاتريد أن تبعث أحدًا فإن لي رغبة في الجهاد، فأذن لي - رحمك الله - كيما ألحق بالمسلمين، فقد ذُكر لي أن الروم قد جمعت لإخواننا جمعًا عظيما.

فأمر أبو بكر بلالا، فنادى في الناس ألا انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر بن حذيم إلى الشام فانتدب معه سبعمائة رجل في أيام يسيرة.

فلما أراد سعيد بن عامر الشخوص بالناس أتى بلالٌ أبا بكر. فقال: ياخليفة رسول الله، إن كنت إنما أعتقتني لأقيم معك، وتمنعني مما أرجو لنفسي فيه الخير أقمت معك، وإن كنت إنما أعتقتني لله لأملك نفسي، وأضطرب فيما ينفعني فخلّ سبيلي حتى أجاهد في سبيل ربي، فإن الجهاد أحب إليَّ من المقام.

فقال له أبو بكر رضي الله عنه: وإن الله يشهد أني لم أعتقك إلا له، وأني لا أريد لك جزاء ولاشكورا، وإني لا أحب أن تدع هواك لهواي مادعاك هواك إلى طاعة ربي.

فقال له بلال: إن شئتَ أقمتُ.

فقال له أبو بكر : أما إذا كان هواك في الجهاد فلم أكن لآمرك بالمقام، إنما كنت أريدك للأذان ، وإني لأجد لفراقك وحشة يابلال ، فما بدَّ من التفرق فرقة لالقاء بعدها أبدا حتى يوم البعث ، فاعمل صالحا يابلال يكن زادك من الدنيا ، ويذكرك الله به ما حييت ، ويحسن لك به الثواب إذا توفيت .

فقال له بلال : جزاك الله من وليّ نعمة وأخ في الإسلام خيرا ، فوالله ما أمرك لنا بالصبر على طاعة الله والمداومة على الحق والعمل الصالح ببدْع ، وما أريد أن أؤذّن لأحد بعد رسول الله ﷺ .

ثم خرج بلال مع سعيد بن عامر بن حذيم .

وأقبل سعيد على راحلته حتى وقف على أبي بكر رضي الله عنه وعنده المسلمون ، فقال : إنا نَؤُمُّ هذا الوجه فاجعله اللهم وجه بركة . اللهم فإن قضيتَ لنا التقاء فاجمعنا على طاعتك ، وإن قضيت علينا الفرقة فإلى رحمتك ، والسلام » ، ثم تولى وسار .

فقال أبو بكر – رضي الله عنه : عباد الله ، ادعوا الله لأخيكم كيما يصحبه الله ويسلّمه ، وارفعوا أيديكم – رحمكم الله – فرفعوا أيديهم ، وهم أكثر من خمسين رجلا .

فقال أبو بكر : مارفع عدد من المسلمين أيديهم إلى ربهم يسألونه شيئًا إلا استجاب لهم ، مالم يدعوا بمعصية أو قطيعة رحم .

فبلغه ذلك بعد ما واقع أرض الشام ، وقاتل العدو . فقال : رحم الله إخواني ، لَيْتَهم لم يكونوا دعوا لي ، قد كنت خرجت وأنا على الشهادة حريص وأنا أرجوها ، فماهو إلا أن لقيت العدو فعصمني الله

من الهزيمة والفرار ، وتعرضت للشهادة فذهب من نفسي ماكنت أعرف من حبِّ الشهادة ، فلما بلغني أن إخواني دعوا لي بالسلامة علمت أنه قد استجيب لهم ، وأني سالم .

وكان أبو بكر أمره أن يسير حتى يلحق بيزيد بن أبي سفيان ، فسار حتى لحقه ، فشهد معه وقعة العَرَبَة والداثنة [1] .

وفي هذا الخبر موقف لسعيد بن عامر بن حذيم ، حيث ظهر منه الزهد في القيادة ، وحب الجهاد والشهادة ، فهمُّه الكبير أن يخرج للجهاد على أي وضع كان جنديًا أو قائدًا ، وبمثل هذا الرجل تنجح الأمم ، لأنه يتوجَّه حيث وُجِّه ، ويؤدي المهمة المنوطة به من غير نظر إلى شرف نفسه وحظها الدنيوي .

ولقد بلغ من حبه للشهادة أن تمنى أن أبا بكر وأصحابه لم يدْعوا له بالسلامة ، حيث استجاب الله تعالى دعوتهم فجاهد وسلم ، مع تعرضه لمواطن الشهادة .

وموقف لبلال بن رباح رضي الله عنه حيث عصف به الشوق إلى الجهاد ، فحاور أبا بكر رضي الله عنه تلك المحاورة الشيِّقة التي كانت نهايتها إذنه له بالخروج إلى الجهاد بعد ما بثّه أشواقه التي غلبها حب الإثنين للجهاد في سبيل الله تعالى .

* * *

---

(١) فتوح الشام / ٣٥-٣٨ ، بتصرف .

١٠ - مسير حمزة بن مالك الهمداني إلى الشام -

قال محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي ، عن عمرو بن محصن عن حمزة بن مالك الهمداني ، ثم العذري ، أنه قدم في جمع عظيم من همدان على أبي بكر رضي الله عنه فقدموا ، وهم أكثر من ألفي رجل ، فلما رأى أبو بكر عددهم وجلدَهم فرح بهم وسرّ بذلك ، وقال :

الحمد لله على صنيعه للمسلمين ، مايزال الله يُتيح لهم مدداً من أنفسهم مايشد به ظهورهم ، ويقصم به عدوّهم .

قال : ثم إن أبا بكر - رضي الله عنه - أمرنا أن نعسكر بالمدينة .

قال : وكنت اختلف إلى أبي بكر غُدوة وعشية ، وعنده رجال من المهاجرين والأنصار .

قال : وكان يلطفني ويدني مجلسي منه ، ويقول لي ، تعَلَّم القرآن ، وأسبغ الوضوء ، وأحسن الركوع والسجود ، وصلِّ الصلاة لوقتها ، وأدّ الزكاة المفروضة لحينها ، وانصح المسلم ، وفارق المشرك ، واحضر الناس يوم البأس .

فقلت : والله لأجهدن نفسي ، ألا أدع شيئًا مما أمرتني به إلا عملته ، وإني لأعلم أنك قد اجتهدت لي في النصيحة ، وأبلغت في الموعظة .

قال : ثم إنه خرج إلى عسكرنا ، فأمرنا أن نتيسر ونتجهز ، ونشتري حوائجنا ، ثم نعجّل على أصحابنا .

قال : فتحششنا [1] لذلك ، وعجلنا الجهاز ، فلما فرغنا بعث إليّ ،

(١) أسرعنا .

فقال : يا أخا همدان ، إنك شريف رئيس بئيس[1] ، ذو عشيرة ، فأحضرهم البأس ، ولا تؤذ بهم الناس .

قال : وكان معي رجال من أهل القرى ، من همدان فيهم جهل وجفاء ، فكان أهل المدينة قد تأذوا بأناس منهم ، فشكوا ذلك إلى أبي بكر ، فقال : أبو بكر رضي الله عنه :

نشدتك الله امرءاً مسلمًا ، سمع نشدي لما كفّ عن هؤلاء القوم ، ومن رأى لي عليه حقا فليحتمل ذرب[2] ، ألسنتهم ، وعجلة يكرهها منهم مالم يبلغ ذلك الحد ، فإن الله مهلك بهؤلاء أعداءنا ، جموع هرقل والروم ، وإنما هم إخوانكم ، فإن كانت منهم عجلة على أحد منكم فليحتمل ذلك ، ألم يكن ذلك أصوب في الرأي وخيراً في المعاد من أن يُنتصر منهم ؟

قال المسلمون : بلى .

قال : فإنهم إخوانكم في الدين ، وأنصاركم على الأعداء ، ولهم عليكم حق ، فاحتملوا ذلك لهم ، ثم نزل [3] ، قال : ثم نظر إليَّ فقال : ماتنتظر ؟ ارتحل على بركة الله . قال : فارتحلت .

قال : وقد قلت له قبل أن أرتحل ، أعليَّ أمير دونك .

قال : نعم ، هناك ثلاثة قد أمَّرناهم ، فأيّهم شئت فكن معه .

قال : فسرت حتى دخلت أداني الشام ، فلما لحقت بالمسلمين

---

(١) أي شجاع .

(٢) أي حدتها وشدتها .

(٣) يعني من المنبر .

سألتهم ، أي الأمراء كان أفضل ؟ وأيّهم كان أفضل عند رسول الله ﷺ ؟
فقالوا : أبو عبيدة بن الجراح .

فقلت في نفسي : لا والله لا أعدل بهذا الرجل أحدًا ، فجئت حتى أتيت أبا عبيدة ، فدخلت عليه ، ثم قصصت عليه قصة مخرجي ومقدمي على أبي بكر رضي الله عنه ، وماكان من أمري ، وأمر أصحابي بالمدينة ، وبمقدمي عليه ، واختياري إياه على غيره .

فقال : بارك الله في مقدمك وجهادك ومجيئك إلينا ، وبارك الله لنا فيك وفيمن قدمت به علينا من المسلمين (١) .

في هذا الخبر موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في تأليف زعماء القبائل وملاطفتهم وتوجيههم نحو مافيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

وفي هذا الخبر لون من سمو تربية المجتمع المدني آنذاك من صحابة وتابعين ، حيث كانوا يحتملون أذى بعض الوفود الذين لم يتلقوا تربية إسلامية كافية ، ويرفعون أمر ما يلاقونه منهم إلى خليفة رسول الله ﷺ ، ولم يُذكر أنه حصل نزاع بينهم مع كثرة الوفود التي وفدت على المدينة .

ولقد كان لأبي بكر الصديق موقف جليل في مناشدة الصحابة أن يحتملوا أذى إخوانهم ، وأن ينظروا إلى مصلحة الإسلام و المسلمين قبل أن ينظروا إلى مصلحتهم ، وذلك بتذكُّر الهدف الذي قدم من أجله أولئك العرب وهو الجهاد في سبيل الله تعالى .

* * *

---

(١) فتوح الشام / ٣٩ - ٤١ .

١١ – موقعتا « العربة » و « الداثنة » –

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر أبي أمامة الباهلي قال : كنت ممّن سرّح أبو بكر رضي الله عنه مع أبي عبيدة في نفر من قومي ، فأوصاني به وأوصاه بي قال : فكانت أول وقعة يوم العَرَبَة والداثنة وليسا من الأيام العظام ، فخرجَتْ إلينا ستة قوّاد من الروم ، مع كل قائد خمسمائة رجل فكانوا ثلاثة آلاف رجل .

فأقبلوا حتى انتهوا إلى العربة ، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه ذلك ، فبعثني إليه في خمسمائة رجل ، فلما أتيته بعث معي رجلا في خمسمائة رجل ، وأقبل يزيد في آثارنا في الصف .

فلما رأيْنَا الروم حملنا عليهم فهزمناهم ، وقتلنا قائدا من قوادهم ، ثم مضوا واتبعناهم .

فجمعوا لنا بالداثنة ، فسرنا إليهم ، فقدّمني يزيد وصاحبي في عدّتنا ، فهزمناهم . فعند ذلك فزعوا واجتمعوا ، وأمدَّهم ملكهم [١] .

هاتان المعركتان هما أول لقاء حربي يتم بين المسلمين والروم في فتوح الشام ، وقد ظهر فيهما دقة رصد المسلمين الحربي ، حيث علم يزيد ابن أبي سفيان بخروج أولئك القادة فأعدَّ العُدَّة لهم ، بينما ظهر ضعف التخطيط الحربي عند الروم لأن هذا العدد الذي أخرجوه لايمكن أن يقاوم جيشا واحدا من جيوش المسلمين .

وحيث كانت هاتان المعركتان في فلسطين ولم يرد ذكر لعمرو بن العاص الذي بعثه أبو بكر إلى فلسطين فإن تاريخهما قبل وصول جيشه .

* * *

---

(١) فتوح الشام / ٥٢ .

١٢ - مسير عمرو بن العاص إلى الشام -

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه أحد أمراء الجهاد في الشام، وقد تأخر مسيره عن الأمراء الثلاثة السابقين، وقد أمره أبو بكر رضي الله عنه أن يخرج من المدينة وأن يعسكر حتى يندب معه الناس .

وقد خرج معه عدد من أشراف قريش منهم الحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وعكرمة بن أبي جهل .

فلما أراد المسير خرج معه أبو بكر يشيعه وقال : ياعمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمور وبصر بالحرب ، وقد خرجت مع أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين وأنت قادم على إخوانك فلا تَألُهم نصيحة ولاتدَّخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور .

فقال له عمرو : ما أخْلَقَني أن أصدِّق ظنك ، وأن لا أفَيِّل رأيك[١] .

فسار عمرو نحو الشام ، وكان يستنفر من مرَّ به من الأعراب فينفر معه ناس كثير ، حتى كان جيشه نحواً من ألفي رجل ، فقدموا على أبي عبيدة رضي الله عنه فسرَّ بهم واستأنس بهم ومن معه من المسلمين .

وكان عمرو ذا رأي في الحرب وبصر بالأشياء ، فقال أبو عبيدة لعمرو: ياعمرو لرب يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك، وإنما أنا رجل منكم ولست - وإن كنت الوالي عليكم-

---

(١) أي أن لا أُخَطِّئ رأيك فيَّ .

بقاطع أمرًا دونكم ، فأحْضرني رأيك في كل يوم بما ترى فإنه ليس بي عنك غنى .

قال : أفعل ، والله يوفقك لما يصلح المسلمين [1] .

وهذا مثل من أمثلة تواضع الصحابة رضي الله عنهم وتجردهم من حظ النفوس واهتمامهم بمصالح الإسلام والمسلمين .

* * *

(١) فتوح الشام / ٤٨ - ٥١ باختصار .

١٣ – توجيه خالد بن الوليد إلى الشام –

ظلت جيوش المسلمين في الشام بغير قتال بقية العام الثاني عشر إلا ما كان بين جيش يزيد بن أبي سفيان وجيش للروم في فلسطين كما تقدم في معركتي العربة والداثنة ، وكذلك ما كان بين جيش أبي عبيدة والروم الذي خرجوا من عمَّان ، وكان النصر في كل ذلك حليف المسلمين [(١)] .

ودخل العام الثالث عشر والمسلمون في الشام على حالهم ، والروم جادُّون في تجهيز الجيوش لقتالهم ، ولم يرض أبو بكر عن بقاء الجيوش الإسلامية طوال هذه المدة من غير أن يقوموا بأعمال حربية كبيرة ، وعلم بثاقب بصره أن وضع المسلمين هناك لايحتاج فقط إلى إمدادهم بالجيوش ، وإنما يحتاجون إلى قائد حربي له مهارته القيادية وخبرته الحربية ، ولمع في ذهنه قامع المرتدين وفاتح العراق خالد بن الوليد ، فقال بلُغَة الواثق المستبشر : والله لأُنْسيَنَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، فبعث إليه وهو بالعراق يأمره بالمسير إلى الشام [(٢)] .

لقد طال انتظار أبي بكر للمعارك الحاسمة في الشام ، ولقد كان شديد الاهتمام بأمر الجيوش الإسلامية هناك ، حيث إن الروم يقاتلون وهم بأرضهم ، ولذا فإنهم يستطيعون إحضار المدد في أي وقت ، بينما لا يستطيع المسلمون ذلك بسرعة ، فطول الوقت ليس في صالح المسلمين .

ولقد كانت براعة خالد في اغتنام الفرص ، واقتناص مواطن

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٢٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٨ .

الضعف من الأعداء ، والمقدرة الفائقة على إرباكهم وإرهابهم على الدوام ، والسرعة في حسم المواقع . . كان ذلك كله مثار إعجاب أبي بكر وإكباره ، فلما طال عليه أمر الجيوش الإسلامية في الشام قال كلمته هذه ، وغلب على ظنه أنه هو الذي سيحسم الموقف مع الروم في الشام .

ولاريب في أن أخبار انتصاراته السريعة الفائقة في العراق قد طرقت مسامع الروم ، فأثارت الرعب لديهم وجعلتهم يتريثون كثيراً في مواجهة المسلمين ، فمن المناسب جداً أن يرميهم أبو بكر بمن أدهشهم بأخباره وأطار صوابهم .

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد : أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق ، وخلِّف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخفِّفًا في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة ، وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام ، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليك .

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإني قد ولَّيت خالداً قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره ، فإني ولَّيته عليك وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد ، والسلام عليك ورحمة الله .

وقدَّم خالد أمامه كتابًا إلى أهل الشام في مسيره إليهم ، كما روى محمد بن عبد الله الأزدي عن عبد الله بن قُرْط الثمالي قال : لما خرج

خالد من عين التمر مقبلا إلى الشام كتب إلى المسلمين بالشام مع عمرو ابن الطفيل بن عمرو الأزدي ، وهو ابن ذي النور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن الوليد إلى من بأرض العرب [1] من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله، الذي لا إله إلا هو ، أما بعد، فإني أسأل الله الذي أعزّنا بالإسلام ، وشرفنا بدينه ، وأكرمنا بنبيّه محمد ﷺ ، وفضّلنا بالإيمان ، رحمة من ربنا لنا واسعة ، ونعمة منه علينا سابغة ، أن يتم مابنا وبكم من نعمته ، واحمدوا الله – عباد الله – يزدكم ، وارغبوا إليه في تمام العافية يُدمْها لكم ، وكونوا له على نعمه من الشاكرين .

وإن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم ، وقد شمّرت وانكمشت وكأن خيلي قد أطلّت عليكم في رجال ، فأبشروا بإنجاز موعود الله ، وحسن ثوابه عصمنا الله وإيّاكم بالإيمان ، وثبّتنا وإياكم على الإسلام ، ورزقنا وإياكم حسن ثواب المجاهدين ، والسلام عليكم .

وكتب معه إلى أبي عبيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا .

لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ ، يأمرني بالمسير إلى الشام ،

(١) هكذا جاءت الرواية والظاهر أن الصواب بأرض الشام .

وبالمقام على جندها، والتولّي لأمرها، ووالله ماطلبتُ ذلك ولاأردته، ولاكتبت إليه فيه، وأنت - رحمك الله - على حالك التي كنت بها، لايُعصى أمرك، ولايخالف رأيك، ولايُقطع أمر دونك، فأنت سيد من سادات المسلمين، لاينكر فضلك، ولايستغنى عن رأيك، تَمَّم الله مابنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإيّاك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله.

قال: فلما قدم عليهم عمرو بن الطفيل، وقرأ عليهم كتاب خالد بن الوليد، وهم بالجابية، ودفع إلى أبي عبيدة كتابه، فلما قرأه قال: بارك الله لخليفة رسول الله ﷺ فيما رأى، وحيا الله خالداً بالسلام [1].

ألا وإن هذا التصرف العالي من هذين العملاقين ليكشف لنا عن الأخلاق السامية التي كان يتصف بها صحابة رسول الله ﷺ، فإن خالداً لم يأخذه الأشر والبطر أن كان فاتح العراق وقد أنيطت به مسئولية فتح الشام مع وجود أربعة من القواد قد وزعت عليهم المسئولية قبل ذلك، فمع هذه الثقة البالغة من أمير المؤمنين والشرف الكبير الذي تُوِّج به فإنه يعترف بالفضل لأهله، ويعلن طاعته لأبي عبيدة بن الجراح الذي ولي الأمر من بعده، وفي مقابل ذلك نجد أبا عبيدة يبارك هذا الأمر ويحيِّي خالداً، وهذا يدل على اتصاف هذين الصحابيين الجليلين بنبل المقاصد، والتجرد من حظ النفس، وإيثار مصلحة المسلمين العامة.

* * *

(١) فتوح الشام / ٦٨ - ٧٢.

١٤ - مسير خالد بن الوليد إلى الشام -

ما أن شعر خالد بهذه المسئولية حتى أهمه شأن السفر إلى الشام، فجمع الأدلاء وقال لهم : كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين، فكلهم قالوا : لانعرف إلا طريقًا واحدًا لايحمل الجيوش يأخذه الفذ الراكب فإياك أن تُغَرِّر بالمسلمين (١) ،

وكان هناك طريقان إلى الشام ، أحدهما يأخذ إلى الشمال الغربي، ثم ينحرف غربًا ، ثم يتجه إلى دمشق جنوبًا ، والآخر يذهب إلى الجنوب الغربي، ثم يتجه غربًا إلى دومة الجندل ثم يتجه إلى الشام جهة الشمال الغربي، وكان خالد يهمه أن يصل إلى الشام بسرعة، ومن طريق لايمر على ممالك الروم وجيوشهم حتى لايعوقه الاصطدام بهم عن بلوغ هدفه بسرعة ، والطريقان المذكوران بعيدان ، والأول منهما مع بعده يمر على الجزيرة ، وهي من ممالك الروم .

وهناك طريق ثالث وهو الطريق الصحراوي الذي ذكره الأدلاء وفيه مفازة مهلكة مابين « قرُاقر » إلى « سُوَى » .

وقد جاء في رواية عند الطبري عن ابن إسحاق عن صالح بن كيسان أنه قال في سياق روايته : ثم أراد - يعني خالد - السير مفوِّزا من قراقر وهو ماء لكلب إلى سوى وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال ، فلم يهتد خالد الطريق ، فالتمس دليلا ، فدُلَّ على رافع بن عميرة الطائي فقال له خالد: انطلق بالناس ، فقال له رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٠٨ .

والأثقال ، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها إلا مغررًا ، إنها لخمس ليال جياد لايُصاب فيها ماء مع مضلتها ، فقال له خالد : ويحك إنه والله إنْ لي بُدٌّ من ذلك إنه قد أتتني من الأمير عزمة بذلك فمُرْ بأمرك .

قال : استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا مادفع الله ، ابغني عشرين جزوراً عظامًا سمانًا مسانَّ ، فأتاه بهن خالد ، فعمد إليهن رافع فظمَّأهن حتى إذا أجهدهن عطشًا أوردهن فشربن ، حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن ثم كَعَمَهُنَّ لئلا يَجْتَرِرْن ، ثم أخلى أدبارهن- وذلك ليحفظن الماء في بطونهن - .

وفي رواية أخرى للطبري عن عدد من الشيوخ أن خالدًا أمر صاحب كل خيل بقدر ما يسقيها ، فظمَّأ كل قائد من الإبل الشُّرُف الجلال مايكتفي به ، ثم سقوها العلل بعد النهل ، ثم صرُّوا آذان الإبل وكعموها وخلوا أدبارها ، ثم ركبوا من قراقر مفوِّزين إلى سُوى وهي على جانبها الآخر مما يلي الشام ، فلما ساروا يومًا افتظوا لكل عدة من الخيل عشرا من تلك الإبل فمزجوا مافي كروشها بما كان من الألبان ثم سقوا الخيل[1] .

وهذا هو الظاهر لأن عشرين من الإبل لايكفي ما في بطونها لجميع الخيل ، وتحمل رواية ابن إسحاق على أنَّ العشرين لخيل خالد خاصة .

قال ابن إسحاق في سياق روايته : ثم قال لخالد : سرْ ، فسار خالد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٨ .

معه مُغذًّا بالخيول والأثقال، فكلما نزل منزلا افتظَّ أربعًا من تلك الشوارف[1] فأخذ ما في أكراشها فسقاه الخيل، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء، فلما خشي خالد على أصحابه في آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة - وهو أرمد - : ويحك يارافع ماعندك؟ قال: أدركت الرِّيَّ إن شاء الله، فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعْدة الرجل؟ قالوا: مانراها، قال: إنا لله وإنه إليه راجعون، هلكتم والله إذًا وهلكت، لا أبالكم انظروا، فطلبوا فوجدوها قد قطعت، وبقيت منها بقية، فلما رآها المسلمون كبَّروا، وكبر رافع بن عميرة، ثم قال: احفروا في أصلها، فحفروا فاستخرجوا عينا، فشربوا حتى روي الناس، فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل.

فقال رافع: والله ماوردت هذا الماء قط، إلا مرة واحدة، وردته مع أبي وأنا غلام، فقال شاعر من المسلمين:

لله عينا رافع أنَّى اهتدى ... فوَّز من قُراقر إلى سُوى

خمسا إذا ماسارها الجيش بكى ... ماسارها قبلك إنسيٌّ يُرى [2]

هذا وإننا أمام هذه المغامرة الجريئة التي قام بها خالد لنقف معجبين مندهشين، فإن المتأمل إذا نظر فيما قام به خالد من المخاطرة بجيش لايقل عن تسعة آلاف قد يحكم على عمله هذا بأنه تهوُّر، ودخول في تهلكة، إذ أن هناك احتمال أن لايجدوا الماء فيهلكوا جميعًا، فما الحكم شرعًا في هذا العمل الذي أقدم عليه خالد؟

---

(١) يعني نحر تلك الإبل الكبيرة وعصر ما في بطونها من الماء.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤١٥.

الواقع أن الإقدام على عمل كهذا لايجوز إلا إذا كان وراءه هدف من الأهداف العالية التي تهون من أجلها الحياة .

وخالد قد انتُدب من قبل الخليفة لإغاثة جيش المسلمين بالشام الذي كان مواجها لعدو عظيم البأس كثير العدد ، فهو يريد الوصول لأداء هذه المهمة مهما كلفه ذلك من تضحيات .

واحتمال وقوع الهلاك قد ألغاه خالد من تفكيره بإيمانه الراسخ ويقينه الصادق بنصر الله تعالى وإمداده أولياءه المؤمنين إذا صدقوا في التجائهم إليه .

ومما يدل على استحضار خالد لهذا المعنى السامي قوله لأفراد جيشه : لايختلفنَّ هديكم ولايضعفنَّ يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وإن المسلم لاينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، فطابقوه ونووا واحتسبوا واشتهوا مثل الذي اشتهى خالد[1] .

فدخول خالد في هذه المغامرة لايعتبر تهورًا ولا إلقاء في التهلكة ، وإذا كان هناك احتمال وقوع الهلاك فليس بأقوى من احتمال ذلك في وقوف المسلم أمام الأعداء في الميدان ، ولكن لما كان الهدف من قتال الأعداء هو إعلاء كلمة الله تعالى كان الدخول في سبيل الهلاك مطلبًا شرعيًا .

وكذلك السير في نجدة المسلمين يعتبر من الجهاد في سبيل الله

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٠٩ .

تعالى ، فلو هلك الجند وهم في هذا السبيل كانوا من الشهداء .

أما لو فرضنا أن رجالاً غامروا بحياتهم في سبيل مطلب دنيوي فإنهم يكونون آثمين لو فقدوا حياتهم في هذا السبيل .

ومن هنا نعلم الفرق الواضح بين هدف خالد من هذه المغامرة وبين أهداف أهل الدنيا ، وعلى قدر سمو الهدف تكون التضحيات .

* * *

١٥ - حروب خالد في مسيره إلى الشام -

لم تكن رحلة خالد بن الوليد رضي الله عنه مجرد عبور إلى الشام، بل قد قام بإخضاع القبائل والقرى التي مر بها .

ومن ذلك مارواه أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قُرط قال : ومرّ بتَدْمُر ، فتحصنوا منه ، فأحاط بهم من كل جانب، وأخذهم بكل مأخذ، فلم يقدر عليهم، فارتحل عنهم .

فاجتمع عظماؤهم فقالوا : إنا لانرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم هم الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا ، فافتحوا لهم وصالحوهم. فبعثوا إلى خالد بن الوليد ، ففتحوا له ، وصالحوه .

وكان قد قال لهم حين ارتحل عنهم : والله لو كنتم في السحاب لاستنزلناكم ، ولظهرنا عليكم ، وماجئناكم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها علينا ، وإن أنتم لم تصالحوني هذه المرّة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا ، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مقاتلتكم وأسبى ذراريكم .

ثم ارتحل فمضى فبعثوا إليه فرجع إليهم ففتحوا له وصالحوه [١] .

هذا وإن في هذا النص لمثلا عاليا لحسن الظن بالله تعالى والثقة بنصره، حيث أقسم خالد بالله تعالى على بلوغ الهدف من نصر دين الله تعالى والظفر بالأعداء حتى لو تحصنوا بالسحاب .

ولقد أثَّرت هذه الكلمات القوية المشتملة على الوعيد الصارم، والثقة البالغة في بلوغ الأهداف . . أثرت على الأعداء فتذكروا ماكانوا

---

(١) فتوح الشام / ٧٧ - ٧٨ .

يعلمونه من الكتب السماوية عن القوم الذين يُظهرهم الله عليهم، فجزموا بأنهم هم هؤلاء القوم ففتحوا لهم مدينتهم وصالحوهم .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر سراقة بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي قال : مرّ خالد في طريقه تلك على حَوَارين، فخافوه وهابوه وتحرّز أكثرهم منه، وتحصّنوا فأغار عليهم، فاستاق الأموال وقتل الرجال، وأقام عليهم أيامًا ، فبعثوا إلى من حولهم ليمدوهم ، فأمدّوهم من مكانين اثنين ، جاءهم من بعلبك مدد وهي أرض دمشق ، ومن قبل بصرى وهي مدينة حوران ومن أرض دمشق أيضًا .

فلما رأى خالد المددين قد أقبلا خرج فصف الناس ، ثم تجرّد في مائتي فارس فحمل على أهل بعلبك ، وإنهم لأكثر من ألفي رجل ، فقصف بعضهم على بعض ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وماوقفوا له ساعة حتى انهزموا ودخلوا المدينة .

ثم انطلق يركض في أصحابه وجيفًا [(١)] ، حتى إذا كان بحذاء أهل بُصرى، وإنهم لأكثر من ألفين استعرضهم، ثم حمل عليهم، فماثبتوا له فواقًا [(٢)] حتى هزمهم ، فدخلوا المدينة، وخرج أهل المدينة، فرموا المسلمين بالنشاب[(٣)] ، فحمل عليهم خالد بن الوليد، فأحجزهم في المدينة ، وانهزموا .

---

(١) الوجيف نوع من السير السريع .

(٢) الفواق : الوقت القليل بمقدار حلب الناقة .

(٣) النشاب : النبال .

وانصرف عنهم خالد يومئذ، فلما كان الغد خرج أهل المدينة ليقاتلوه، فشدّ عليهم خالد، فهزمهم، فلما رأوا أنهم قد عجزوا عنه، وأنهم لا طاقة لهم به صالحوه .

قال عمرو بن محْصن ، حدثني علج من أهل حوارين ، وكان من شجعانهم وأشدّائهم، فقال : والله لخرجنا إلى خالد بعد ماجاءنا مدد بعلبك وأهل بصرى بيوم، فخرجنا إليه ، وإنَّا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم [1] ، قال : فماهو إلا أن دنونا منهم ، فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فهزمونا أقبح هزيمة ، وقتلونا أشد القتل، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم .

وقد رأيت منا رجلا كنّا نعدّه بألف رجل ، وكان يقول ، لئن رأيت أميرهم لأقتلنَّه ، فلما رأى خالداً قال له أصحابه ، هذا خالد أمير القوم، قال: فحمل عليه العلج ، وإنا لنرجو لبأسه وشدته أن يقتله، فما هو إلا أن دنا منه ، فضرب خالد فرسه ، فقدّمه عليه .

وكان خالد رضي الله عنه إذا كان عند الحرب فكأنه يربو ويعظم ويهول من ينظر إليه ، فاستقبل العلج ، فاستعرض وجهه بالسيف، فضربه ، فأطار نصف وجهه وقحف رأسه ، فقتله .

قال : وانهزمنا أقبح هزيمة حتى دخلنا مدينتنا ، فما كان لنا همٌّ إلا الصلح، حتى صالحناهم [2] .

---

(١) لعل الذين واجهوهم سرية انتخبها خالد من شجعان جيشه ، إذ يبعد أن يصل عدد أعدائهم إلى تسعين ألفا .

(٢) فتوح الشام / ٧٨ - ٨٠ .

وهذا وصف بليغ لشجاعة فرسان المسلمين في ذلك الزمن ، وتنويه بشجاعة خالد بن الوليد خاصة ، ومقدرته الفائقة على إرهاب الأعداء وملء صدورهم بالرعب .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر قيس بن أبي حازم قال ، كنت مع خالد بن الوليد حين مرّ بالشام ، فأقبل حتى نزل ببُصْرى من أرض حوران ، وهي مدينتها .

فلما اطمأننا ونزلنا خرج إلينا الدرنجار [١] في خمسة آلاف من الروم ، فأقبل إلينا ومايظن هو وأصحابه إلا أنا في أكُفِّهم ، فخرج خالد ، فصفّنا ، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي ، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور ، وعلى الرجال عبد الرحمن بن حنبل الجمحي ، وقسّم خيله فجعل على شطرها المسيّب بن نجية ، وعلى الشطر الآخر رجلا كان من بكر بن وائل - ولم يُسَمّه - فظننت أنه مذعور بن عدي العجلي ، وكان قد توجَّه من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ، ثم صار بعد ذلك إلى مصر ، فداره بها اليوم معروفة .

قال : فأمرهما خالد حين قسّم الخيل بينهما أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وشمال ، ثم ينصبّان على القوم . قال : فانطلقا ، ففعلا ذلك .

قال : ثم أمر خالد من معه أن يرجعوا إلى القلب ، فرجعنا إليهم ، والله مانحن إلا ثمانمائة رجل وخمسون رجلا ، وأربعمائة رجل من مشجعة من قضاعة ، فكنا ألف رجل ومائتي رجل ونّيفا [١] .

---

(١) الدرنجار قائد جيش الروم ، وهو لقب لمن يقود خمسة آلاف .

(٢) يعني الذين في القلب .

وكنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء ، لأنه كان لايملأ صدره منهم بشيء ، ولايبالي من لقي منهم ، لجرأته عليهم ، وشدّته ونجدته .

ثم دنونا منهم فبدؤونا بالحملة علينا ، فشدوا علينا شدتين ، فلم نبرح مواقفنا .

ثم إن خالدا نادى بصوت جَهوريّ شديد عال ، فقال : ياأهل الإسلام ، الشدّةَ ، الشدّة ، احملوا - رحمكم الله - عليهم ، فإنكم إن قاتلتموهم محتسبين تريدون بذلك وجه الله فليس لهم أن يواقفوكم ساعة .

ثم إن خالدا شدّ عليهم ، وشددنا معه ، فو الله الذي لا إله إلا هو ماثبتوا لنا فواقًا حتي انهزموا ، فقتلنا منهم في المعركة مقتلة عظيمة ، ثم اتّبعناهم نكردهم [1] ونقتلهم ، ونصيب الطرف منهم ، ونقطعهم عن أصحابهم ، ثم نقتلهم .

فلم نزل كذلك حتى انتهينا إلى مدينة بُصرى ، وهي مدينة حوران ، فأغلقوا أبوابها ، وتحصّنوا منا ، ثم أخرجوا إلينا الأسواق وصالحونا .

قال : وخرج خالد من فوره ، فأغار على ناس من غسان ، في جانب مرج راهط ، فقتل منهم وسبى وصالَحنا عامّتهم ، وأسلموا [2] .

وهكذا قام خالد بهذه الحروب الخاطفة التي أذهلت الأعداء

---

(١) أي نطردهم .

(٢) فتوح الشام / ٨١ - ٨٢ .

وأرعبتهم ، وأطارت لخالد سمعة حربية مرعبة، مع ماسبق له من سمعة عالية في هذا المجال .

وفي هذا الخبر وصف بليغ لشجاعة خالد الفذة وإقدامه الشديد، حيث كان لا يكترث بمن يواجههم وإن كانوا أضعاف جيشه .

* * *

١٦ - معركة أجنادين -

كان الروم قد بعثوا جيشا كبيراً قوامه سبعون ألفا ورابط في «جلَّق» بأعلى فلسطين بقيادة « تذارق » .

ولما تم فتح بصرى على يد المسلمين أراد الروم أن يصنعوا شيئًا ضدهم، وقد حاولوا اغتنام فرصة تفرق جيوشهم ، حيث إن عمرو بن العاص لايزال جنوب فلسطين في ثلاثة آلاف ، ويزيد بن أبي سفيان في البلقاء في سبعة آلاف ، وشرحبيل في بصرى في سبعة آلاف، أما خالد وأبو عبيدة فقد اتَّحد جيشهما وكان مع أبي عبيدة سبعة آلاف وقدم خالد بتسعة آلاف ، وقد توجها نحو دمشق بعد أن تم فتح بصرى .

هذا التفرق لم يكن في صالح المسلمين ، ولذلك كان تخطيط الروم أن يزحف « تذارق » بجيشه إلى جنوب فلسطين ليسحق جيش عمرو بن العاص، وما ثلاثة آلاف في مقابل سبعين ألفا ، وأن ينطلق «وردان» من حمص بجيشه ليواجه شرحبيل بن حسنة ويستردَّ بصرى .

وبينما كان خالد وأبو عبيدة على مشارف دمشق لحصارها جاءت الأخبار بتحرك جيشي الروم . وكان المسلمون آنذاك على درجة عالية في التيقظ والرصد الحربي .

يقول محمد بن عبد الله الأزدي فيما رواه عن يزيد بن يزيد بن جابر: وجاء أبو عبيدة بن الجراح من قبل الجابية حتى نزل باب الجابية، ثم شن الغارات في الغوطة ، وعلى غير الغوطة، فبينما هما كذلك إذ أتاهما وردان صاحب حمص في جمع عظيم من الروم ، وهو يريد أن يقطع شرحبيل بن حسنة وهو ببُصْرَى .

قال : وأتى خالداً وأبا عبيدة أن جموعا من الروم قد نزلت أجنادين وأن أهل البلد ونصارى العرب قد سارعوا إليهم ، وجاءهما خبر أفظعهما وهما مقيمان على قوم ، وهما يقاتلانهم ، فالتقيا فتشاورا في ذلك فقال أبو عبيدة لخالد : أرى أن نسير حتى نقدم على شرحبيل بن حسنة قبل أن ينتهي إليه العدو ، الذين قد صمدوا صَمْده ، فإذا اجتمعنا سرنا جميعا حتى نلقاه .

فقال له خالد : إن جمع الروم هاهنا بأجنادين ، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل بن حسنة تبعنا عدوّنا هؤلاء من قريب ، ولكني أرى أن نصمد صَمْدَ عُظمهم ، وأن نبعث إلى شرحبيل بن حسنة فنحذره مسير العدو إليه ، ونأمره أن يوافينا بأجنادين ، ونبعث إلى يزيد بن أبي سفيان ، فنحذره مسير العدو إليه ، ونأمره أن يوافينا بأجنادين ، ونبعث إلى عمرو ابن العاص ، فيوافينا بأجنادين ، ثم نناهض عدونا بأجمعنا .

فقال أبو عبيدة : هذا رأي حسن ، فامْضهْ على بركة الله ، ونسأل الله بركته[1] .

وأخرج أبو إسماعيل الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعد قال : وكان خالد مبارك الولاية ، ميمون النقيبة مجربًا بصيراً بالحرب ، مظفراً ، وكان مما صنع الله للمسلمين في ذلك[2] ، فوَلي أمر الناس ، فلما أراد الشخوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين كتب نسخة واحدة إلى الأمراء :

---

(١) فتوح الشام / ٨٣ - ٨٤ .

(٢) أي في مجيء خالد إلى الشام .

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإنه نزل بأجنادين جموع من جموع الروم غير ذوي عدد ولاقوة ، والله قاصمهم وقاطع دابرهم ، وجاعل دائرة السوء عليهم ، وقد شخصت إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم ، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوكم - رحمكم الله - في أحسن عدتكم ، وأصحّ نيتكم ، ضاعف الله لكم أجوركم ، وحطّ أوزاركم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وسرّح بهذه النسخ مع أنباط الشام ، وكانوا مع المسلمين ، يكونون عيونًا لهم وفيوجا [١] ، وكان المسلمون يرضخون لهم ويعطونهم .

قال : ودعا خالد الرسول الذي يبعث به إلى شرحبيل بن حسنة ، فقال : كيف علمك بالطريق ؟ قال : أنا أدلّ الناس بالطريق .

قال : فادفع هذا الكتاب إليه ، وحذّره الجيش الذي ذُكر لنا أنه يريده ، وخُذْ به وبأصحابه طريقًا تعدل به عن طريق العدو الذي قد شخص إليه ، وتعجَّل إليه حتى يقدم علينا بأجنادين ، قال : نعم .

فخرج الرسول إلى شرحبيل بن حسنة ، وخرج رسول آخر إلى عمرو بن العاص ، وآخر إلى يزيد بن أبي سفيان .

وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين ، والمسلمون يومئذ سراع إليهم جرآء عليهم .

فلما شخصوا ومضوا لم يرُعْهم إلا وأهل دمشق في آثارهم يتبعونهم ، فلحقوا أبا عبيدة وهو في أخريات الناس ، فلما رآهم أبو عبيدة أنهم قد لحقوه و أحاطوا به ، وهو في نحو من مائتي رجل من

(١) الفيوج جمع فيج وهو العداء سريع الجري .

أصحابه ، والروم في عدد كثير من أهل دمشق ، فقاتلهم أبو عبيدة قتالا شديدًا .

وأتى خالدًا الخبر وهو أمام الناس ولايشعر بما لقي أبو عبيدة ، فأخبروه وهو في الفرسان والخيل ، فعطف خالد راجعًا ، ورجع الناس معه ، وتعجَّل خالد في الخيل وأهل القوة ، فأقبلوا يركضون حتى انتهوا إلى أبي عبيدة وأصحابه ، وقد أحاط بهم الروم ، وهم يقاتلونهم قتالا خشنًا .

فحمل خالد بخيله على الروم ، فدقّ بعضهم على بعض ، وقاتلهم ثلاثة أميال ، وانهزموا هزيمة شديدة حتى دخلوا دمشق وانصرف خالد ، ومضى بالناس نحو الجابية ، وأخذ يلتفت وينتظر قدوم أصحابه عليه .

ومضى رسول خالد إلى شرحبيل ليأتيه وليس بينه وبين الجيش الذي ساروا إليه من حمص مع وردان إلا مسيرة يوم ، وكان قد قرب منه ، وشرحبيل لايعلم ، ولايشعر بمسيرهم إليه .

فدفع الرسول الكتاب إليه ، وأخبره الخبر ، واستحثه بالشخوص ، فقام في الناس ، فقال : يا أيها الناس ، اشخصوا إلى أميركم ، فإنه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين ، وقد كتب إليّ يأمرني بموافاته هنالك .

ثم خرج بالناس ، ومضى بهم الدليل ، وبلغ ذلك الجيش الذي خرج في طلبهم ، فأقبلوا في آثارهم .

وجاء كتاب الروم الذين بأجنادين إلى صاحبهم : أن اقدم علينا فإنا نؤمرك علينا ، ومقاتلون معك العرب حتى نخرجهم من بلادنا .

فأقبل في آثار المسلمين رجاء أن يستأصلهم ، ويتعوّرهم ، ويصيب منهم طرفا ، ويكون قد نكب طائفة من المسلمين ، فأسرع السير قبَلهم ، فلم يلحقهم .

وقدم شرحبيل ومن معه من المسلمين على خالد، وجاء وردان فيمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين ، فأمّروه عليهم، واشتد أمرهم .

وأقبل يزيد بن أبي سفيان حتى وافى خالدًا وأبا عبيدة ، ثم إنهم ساروا حتى نزلوا بأجنادين ، وجاء عمرو بن العاص فيمن معه من المسلمين، فاجتمع الناس جميعًا بأجنادين .

فخرج خالد بن الوليد ، فأنزل أبا عبيدة في الرجال ، وبعث معاذ بن جبل على الميمنة ، وبعث سعيد بن عامر بن حذيَم القرشي على الميسرة، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على الخيل .

وأقبل خالد يسير في الناس ، وما يقرّ في مكان واحد ، يحرض الناس، وقد أمر نساء المسلمين ، فاحترمن[1] ، وقُمْنَ من وراء الناس، فهنّ يدعون الله ويستغثنه ، فكلما مرّ بهن رجل من المسلمين دفعن أولادهن إليه ، وقلن له ، قاتلوا دون أولادكم ونسائكم .

وأقبل خالد يقف على كل قبيلة وكل جماعة ، ويقول ، اتقوا الله عباد الله ، قاتلوا في الله من كفر بالله ، ولاتنكصوا على أعقابكم، ولاتهنوا من عدوّكم ، ولكن أقدموا كإقدام الأسْد، وأنتم أحرار كرام، فقد أبيتم الدنيا ، واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ، ولايَهُولَنَّكُمْ

---

(١) هكذا جاءت ولعلها فاحْتَرسْن .

ماترون من كثرتهم فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه . وقال للناس : أيها الناس ، إذا أنا حملت فاحملوا .

وقال معاذ بن جبل : يامعشر المسلمين ، اشروا أنفسكم اليوم لله ، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان الله والثواب العظيم من الله .

وكان من رأي خالد مدافعتهم ، وأن يؤخروا القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرواح ، وتلك الساعة التي كان رسول الله ﷺ يستحب القتال فيها ، فأعجله الروم ، فحملوا على المسلمين مرتين من قبَل الميمنة، على معاذ بن جبل ، ومن قبل الميسرة على سعيد بن عامر ، فلم يتحلحل منها أحد ، ورموا المسلمين بالنشاب ، فنادى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان من أشد الناس ، وكان من المهاجرين الأوّلين ، وكان أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة فنادى خالدًا فقال : عَلامَ نُستهدف لهؤلاء الأعلاج ؟ وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست الخيل[1] .

وأقبل خالد إلى خيل المسلمين ، فقال : احملوا رحمكم الله على اسم الله .

فحمل عليهم خالد ، وحمل الناس بأجمعهم ، فما واقفهم فواقًا[2] ، وانهزموا هزيمة شديدة ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، وأصابوا عسكرهم ومافيه .

---

(١) شمست الخيل ، امتنعت ظهورها عن الركوب .

(٢) أي لم يصبروا لهم إلا قليلا .

وأصابت أبان بن سعيد نُشابة ، وقد كان أبلى بلاء حسنا ، وقاتل قتالا شديداً ، عظم فيه غناؤه ، وعُرف فيه مكانه ، وأصابته نشابة فنزعها ، وعصبها بعمامته .

فحمله إخوته ، فقال لإخوته ، لاتنزعوا عمامتي عن جرحي ، فلو قد نزعتموها تبعتها نفسي ، وايم الله ما أحب أنها بحجر من جبل الحمر ، وهو جبل السماق [1] ، فمات ، يرحمه الله منها .

وقَتَل اليَعْبُوب بن عمرو بن ضُرَيس المشجعي سبعة من المشركين بأجنادين ، وكان جليداً شديداً ، وأصابته طعنة ، وكانوا يرجون أن يبرأ منها ، فمكث أربعة أيام أو خمسة أيام ، ثم إنها انتقضت به ، فاستأذن أبا عبيدة أن يأذن له إلى أهله ، فإن يبرأ رجع إليهم ، فأذن له ، فرجع إلى أهله ، يرحمه الله ، فدفن هناك .

وقُتل مسلمة بن هشام المخزومي ، ونعيم بن صخر بن عدي العدوي ، وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص السهمي ، وهبّار بن سفيان ، وعبد الله بن عمرو بن الطفيل ذي النور الأزدي ، ثم الدوسي ، وكانوا من فرسان المسلمين ومن أهل النجدة والشدة ، فَقُتلوا يومئذ يرحمهم الله .

وقَتَل المسلمون منهم في المعركة ثلاثة آلاف واتبعوهم يأسرونهم ، ويقتلونهم .

وخرج أولئك الروم ، فلحقوا بإيلياء ، وقيسارية ، ودمشق ، وحمص ، فتحصنوا في هذه المدائن العظام .

(١) السماق نبات جبلي ، يستطب به العرب في أمراض كثيرة ، وقد عرف به الجبل الذي ينبته .

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر رضي الله عنه بفتح الله عز وجل عليه وعلى المسلمين : لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ من خالد ابن الوليد ، سيف الله المصبوب على المشركين، أما بعد، سلام عليكم، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أخبرك أيها الصِّدِّيق أنّا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعًا جمة كثيرة بأجنادين ، وقد رفعوا صُلُبهم ونشروا كتبهم ، وتقاسموا بالله ، لايفرُّون حتى يُفنونا ، أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله ، متوكلين على الله ، فطاعنَّاهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فج وشعب وغائط ، فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه ، وحسن الصنع لأوليائه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي ، عن ثابت بن سهل بن سعد قال : كانت وقعة أجنادين أول وقعة عظيمة كانت بالشام، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى ، لليلتين بقيتا منه، يوم السبت نصف النهار ، وكانت قبل وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - بأربع وعشرين ليلة .

وبعث خالد بن الوليد بكتابه إلى أبي بكر مع عبد الرحمن بن حنبل الجمحي ، فجاء الكتاب حتى قدم على أبي بكر - رضي الله عنه - فلما قرأه أبو بكر رحمة الله عليه فرح به ، وأعجبه ، وقال : الحمد لله الذي نصر المسلمين ، وأقر عيني بذلك [1] .

---

(١) فتوح الشام للأزدي / ٨٤ - ٩٣ .

في هذه المعركة الكبرى مواقف وعبر منها :

أولا : براعة خالد بن الوليد رضي الله عنه في التخطيط الحربي ، فحينما علم أن الروم قد وجهوا جيشين كبيرين ليقتطعوا بهما جيشي عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما وضع خطة حربية عاجلة لتلافي ذلك والسرعة في مناجزة الروم ، حيث حدد مكان المعركة قرب جيش الروم الجنوبي في أجنادين وأسرع بالاتصال بقادة المسلمين ليوافوه في ذلك المكان ، ليسلم جيش عمرو وشرحبيل وليجتمع للمسلمين قوة تقاوم جيوش الروم ، وقد نجح في خطته نجاحا باهرًا ، حيث إنه لم يكن بين جيش شرحبيل وجيش وردان الرومي الذي قصده إلا يوم واحد .

ثانيًا : موقف ثبات من أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ومن معه ، حيث ثبت مئتان لعدد كبير من الروم لحقوهم حينما غادروا دمشق ، وموقف عال في سرعة النجدة ، حيث عطف خالد بطائفة من الفرسان على جيش الروم فدقوا بعضهم على بعض وهزموهم ، وهكذا يكون الأبطال العظماء ، في الثبات عند الشدائد ، وبذل أقصى مافي الوسع في نجدة المسلمين وإنقاذهم .

ثالثًا : صدرت من بعض قادة المسلمين كلمات مضيئة في حث المسلمين على بذل الجهد في جهاد الأعداء والثبات أمامهم ، ومن هؤلاء القادة خالد بن الوليد ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما .

ولقد كان لهذه الكلمات أثر واضح في تحريض المؤمنين على الثبات ووحدة الكلمة .

رابعًا : كانت لأبطال المسلمين مواقف عالية في الثبات ، ذُكر منها موقف معاذ بن جبل قائد الميمنة ، وسعيد بن عامر بن حذْيَم قائد الميسرة ، حيث ثبتا لهجوم الروم ولم يتزحزحا عن مكانهما .

وكذلك ماذُكر عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان شديدًا في الحرب عظيما في الثبات وصَدِّ هجوم الأعداء .

ومن هؤلاء الصابرين الثابتين الذين اثخنوا في الروم وأبلوا بلاء حسنا أبان بن سعيد بن العاص ، وقد أصابه سهم ، استشهد بعده رحمه الله تعالى ومنهم اليَعْبُوب بن عمرو المشجعي ، وكان شجاعًا شديدًا ، قَتل سبعة من المشركين ، ثم أصيب واستشهد رحمه الله تعالى .

وممن أبلى بلاء حسنا في هذه المعركة عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه وكان موصوفًا بالشجاعة والفروسية ، ومن أخباره في هذه المعركة ماذكر الإمام الذهبي من طريق ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر حدثني هشام بن عمارة عن أبي الحويرث قال : أول من قُتل يوم أجنادين بطْريقٌ ، برز يدعو إلى البراز ، فبرز إليه عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب فاختلفا ضربات ثم قتله عبد الله ، ثم برز آخر فضربه عبد الله على عاتقه وقال : خذها وأنا ابن عبد المطلب ، فأثبته وقطع سيفه الدرع واشرع في منكبه ثم ولى الرومي منهزما .

وعزم عليه عمرو بن العاص أن لايبارز فقال : لا أصبر ، فلما اختلطت السيوف وُجد في ربضة من الروم عشرة مقتولا وهم حوله

وقائم السيف في يده قد غرى - يعني لزق - وإن في وجهه لثلاثين ضربة(1) .

وهكذا أبلى عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه بلاء حسنًا في هذه المعركة ، وهو ابن عم النبي ﷺ وممن ثبتوا معه يوم حنين، وكان عمره يوم أن استشهد نحو من ثلاث وثلاثين سنة (2) .



---

(1) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨٢ .

(2) الإصابة ٢/ ٣٠٠ .

١٧ - حصار دمشق ومعركة مرج الصُّفَّر -

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : ثم إن خالد بن الوليد أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق ، فأقبل بالناس حتى نزلها ، فأقبل إلى مكان ديْره الذي كان ينزله ، فنزله ، وهو دير خالد ، وبه يُدعى إلى اليوم ، وهو من دمشق على بعد ميل ، مما يلي الباب الشرقي .

وجاء أبو عبيدة حتى نزل على باب الجابية ، ونزل يزيد بن أبي سفيان على جانب آخر من دمشق ، وأحاطوا بها ، وكثروا حولها ، وحصروا أهلها حصاراً شديداً .

قال : ثم إن خالد بن الوليد خرج بالمسلمين ذات يوم ، فأحاطوا بمدينة دمشق ، ودنوا من بابها ، فرماهم أهلها بالحجارة ، ورشقوهم من فوق البيوت بالنَّشَّاب .

قال : فإن المسلمين كذلك يقاتلونهم ، ويرجون فتح مدينتهم إذ أتاهم آت فأخبرهم ، وقال : هذا جيش قد أتاكم من قبل ملك الروم ، وقد أظلَّكُم .

فنهض خالد بالناس على تعبيته وهيئته ، فقدم الأثقال والنساء ، وخرج معهم يزيد بن أبي سفيان ، ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس ، ثم أقبل خالد بالناس نحو ذلك الجيش فإذا هو الدُّرنجار [١] قد بعثه ملك الروم في خمسة آلاف رجل من أهل القوة والشدة منهم ليغيث أهل دمشق ، فصمد المسلمون صَمْدهم ، وخرج إليهم أهل القوة والشدة من أهل دمشق ، وصحبهم خلق كثير من أهل حمص ، والقوم أكثر من عشرة آلاف .

(١) يعني قائد خمسة آلاف رجل كما سبق .

فلما نظر إليهم خالد عبّى لهم أصحابه كتعبية يوم أجنادين ، وكان من أبصر الناس بالحرب مع وقار وسكينة وشفقة على المسلمين ، وحسن النظر لهم والتدبير لأمورهم .

فجعل على ميمنته مُعَاذ بن جبل ، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى الخيل زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وأبا عبيدة على الرجالة ، وذهب خالد ، فوقف في أوّل الصفّ ، يريد أن يحرض الناس ، فنظر إلى الصفّ من أوّله إلى آخره .

فحملت خيل الروم على سعيد بن زيد ، وكان واقفًا في جماعة من المسلمين في ميمنة الناس ، يدعون الله ، ويقص عليهم ، فحملت الروم عليهم ، فنازلهم سعيد بن زيد ، على عُظم جمعهم ، بالخيل ، فهزمهم الله ، وقتلهم مقتلة عظيمة ، وأصاب المسلمون عسكرهم .

ورجع الناس وقد ظفروا ، وقد قتلوهم كل مقتلة ، وذهب المشركون على وجوههم ، فمنهم من دخل مدينة دمشق مع أهلها ، ومنهم من رجع إلى حمص ، ومنهم من لحق بقيصر .

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي : وحدثني يزيد بن يزيد ابن جابر عن عمرو بن محصن أن قتلاهم يومئذ ، وهو يوم مرج الصُّفَّر كانوا خمسمائة في المعركة ، وقد قتلوا وأسروا نحواً من خمسمائة أخرى ، ثم إن المسلمين أقبلوا حتى نزلوا على أهل دمشق .

قال أبو إسماعيل الأزدي : وحدثني يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي أمامة قال ، كان بين يوم أجنادين وبين يوم الصفر عشرون يومًا ، فحسبت ذلك ، فوجدته يوم الخميس لاثنتي عشرة بقيت من جمادى

الآخرة قبل وفاة أبي بكر - رضي الله عنه - بأربعة أيام .

ثم إن الناس أقبلوا جميعهم حتى نزلوا على دمشق ، فحاصروا أهلها ، وضيقوا عليهم ، وعجز أهلها عن قتال المسلمين ، ونزل خالد منزله الذي كان ينزل به على باب الشّرقي ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية : ونزل يزيد بْن أبي سفيان على باب آخر ، ونزل عمرو بن العاص على باب آخر .

وكان المسلمون يغيرون على من كان خارجًا منهم من المدينة ، فكل ما أصاب رجل نَفَالا [(١)] جاء بنفله ، فيلقيه في القبض ، ولايستحل أن يأخذ منه قليلا ولاكثيراً حتى إن الرجل ليجيء بالكُبَّة الغَزْل ، أو بالكبَّة الصوف والشعر والمسَلَّة [(٢)] ، فيلقيه في القبض لايستحلّ أن يأخذ منه قليلا ولاكثيراً .

فسأل صاحب دمشق بعض عيونه عن أعمالهم وسيرتهم ، فوصفهم له بهذه الصفة في الأمانة ، ووصفهم بالصلاة في الليل وطول القيام ، فقال :

- هؤلاء رهبان بالليل ، أسْدٌ بالنهار ، لا والله مالي بهؤلاء طاقة ، ومالي في قتالهم من خير .

قال : فراوض المسلمين على الصلح ، فأخذ لا يعطيهم ما يرضيهم ، ولا يتابعونه على ما يسأل ، وهو في ذلك لايمنعه من الصلح

(١) أي غنيمة .

(٢) أي الإبرة الكبيرة .

والفراغ إلا أنّه بلغه أن قيصر يجمع الجموع للمسلمين، وأنه يريد غزوهم، فكان ذلك مما يمنعه من تعجيل الصلح [١] .

وهذه المعركة من الأمثلة الكثيرة الدالة على يقظة المسلمين ودقة رصدهم لتحركات عدوهم ، فقد علموا بهذا الجيش قبل وصوله إلى هدفه وسارعوا إلى منازلته والقضاء عليه قبل تحقيق مقصوده .

وهكذا أثنى الروم على أولئك الصحابة رضي الله عنهم فوصفوهم بالأمانة وشدة الشجاعة وكثرة العبادة ، واستنتج من ذلك زعيمهم أن المسلمين أمة لا تغلب وقوة لاتقهر .

وبهذا كان مظهر المسلمين في عبادتهم وأخلاقهم محط إعجاب الكفار ومبعث انهزامهم النفسي قبل ملاقاتهم في ميادين الحرب، وهذا يبين لنا أهمية الاستقامة وأثرها في النصر على الأعداء .



(١) فتوح الشام/ ٩٤ - ٩٧ .

- وفاة أبي بكر واستخلاف عمر -

في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة النبوية مرض الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ولما شعر بدنو أجله استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم توفي في مساء يوم الاثنين لثمان ليال بقين من شهر جمادى الآخرة من العام المذكور [(١)] .

وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبة النميري عدة روايات في وفاة أبي بكر واستخلاف عمر رضي الله عنهما ، فمن ذلك ما ذكره عن الحسن بن أبي الحسن البصري ، قال : لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه . جمع الناس إليه فقال : إنه قد نزل بي ما قد ترون ولا أظني إلا ميت لما بي . وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم . فأمِّروا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمرتم في حياة منِّي كان أجدرَ أن لا تختلفوا بعدي . فقاموا في ذلك وخلوا عليه فلم تستقم لهم ، فرجعوا إليه فقالوا : رأيُنا ياخليفة رسول الله رأيك . قال : فلعلكم تختلفون . قالوا : لا . قال : فعليكم عهد الله على الرِّضى ، قالوا : نعم . قال : فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده . فأرسل أبو بكر إلى عثمان بن عفان فقال : أشرْ عليَّ برجل ، والله إنك عندي لها لأهْلٌ وموضع . فقال : عمر . فقال اكتب . فكتب حتى انتهى إلى الاسم فغُشيَ عليه . ثم أفاق . فقال : أُكتب عمر .

وعن عاصم بن عدي رضي الله عنه قال : جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر . فكانت آخر خطبة خطبها ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أيها الناس احذروا الدنيا ولاتثقوا بها ، فإنها

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٢٠ ، البداية والنهاية ٧/ ١٨ .

غَـدَّارة . وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبُّوها فبحب كل واحدة منهما تُبْغَضُ الأخرى . وإن هذا الأمر الذي هو أملك بنا لايصلح آخره إلا بما صلح أوله . ولايتحمله إلا أفضلكم مقدرة ، وأملككم لنفسه ، أشدكم في حال الشدة ، وأسلسكم في حال اللين ، وأعملكم برأي ذوي الرأي ، لايتشاغل بما لايعنيه ، ولايحزن لما ينزل به ، ولا يستحي من التّعَلُّم ، ولايَتَحَيَّر عند البَديهَة . قويٌّ على الأمور ، لايخور لشيء منها ضدّه بعدوان ولاتقصير . يَرْصُدُ لما هوَ آت عَتَادَه من الحذر والعلم [١] ، وهو عمر بن الخطاب - ثم نزل فدخل . فحمل السّاخطَ امارته الراضي بها على الدخول معهم توصلاً .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان عثمان يكتب وصية أبي بكر فأُغمي على أبي بكر فجعل عثمان يكتب فكتب عمر ، فلما أفاق قال : ماكتبت ؟ قال : كتبت عمر . قال كتبت ا لذي أردتُ أن آمرك به ولو كتبتَ نفسك لكنتَ لها أهلاً .

وعن الواقدي ، عن أشياخه : أن أبا بكر لما استُعزَّ به دعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال : ماسألتني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني : فقال أبو بكر : وإن . فقال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه . ثم دعا عثمان بن عفان . فقال : أخبرني عن عمر بن الخطاب . فقال : أنت أخبرنا به . فقال : على ذلك يا أبا عبد الله . فقال عثمان : اللهم علمي به أن سريرته خيرٌ من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله . فقال أبو بكر : يرحمك الله والله لو تركته ما

(١) جاءت « والظلم » ولعل الصواب ما أثبته .

عَدَتْك . وشاور بعده سعيد بن زيد وأسيد بن الحضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار .

وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ فدخلوا على أبي بكر فقال له قائل منهم : ما أنت قائل لربِّك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر : أجلسوني ، أبالله تخوفوني ؟ ! خَابَ من تزوَّدَ من أمركم بظلم . أقول اللهم استخلفتُ عليهم خيْرَ أهْلكَ . أبلغ عني ماقلتُ مَنْ ورَاءك . ثم اضطجع - ودعا عثمان بن عفان فقال : اكتب .

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماعهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها ، وعند أوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها . حيث يُؤْمنُ الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم بعدي عمرَ بن الخطاب . فاسمعوا له وأطيعوا . وإني لم آلُ الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم إلا خيرًا ، فإن عدل فذلك ظني به ، وعلمي فيه . وإن بدَّل فلكل امرئ ما اكتسب . والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، ﴿ **إلاَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَات وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ** ﴾ [1] . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ثم أمر بالكتاب فختمه ، وخرج به مختومًا . فقال عثمان للناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟ قالوا : نعم . فبايعوا . ثم دعا أبو بكر عمر خاليًا فأوصاه ، ثم خرج . فرفع أبو بكر يَدَيْه وقال : اللهم إني لم أُردْ بذلك إلا صلاحهم ، وخفتُ عليهم الفتنة ، واجتهدت لهم رأيي ،

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧ .

فولَّيْتُ عليهم خيرَهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم ، وقد حضرني من أمرك ما حضر ، فاخلفني فيهم فهم عبادك [1] .

من هذه الأخبار يتبين لنا أمور مهمة منها :

أولا : أن أبا بكر رضي الله عنه لم يستخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إلا بعد أن عقد مجلسًا للشورى بين أهل الحل والعقد، وبناء على محض اختيارهم فوضوه في اختيار من يخلفه في الحكم ، فاختار عمر بعد أن استشار بعض قادة أهل الحل والعقد فأشاروا به ، وبناء على ذلك فإن خلافة عمر بن الخطاب تمت عن طريق الشورى بين أهل الحل والعقد وليست مجرد استخلاف من أبي بكر .

ثانيًا : تبين لنا من الصفات التي افترضها أبو بكر فيمن يصلح للخلافة دقَّتهُ في اختيار الرجال ومعرفة صفات الكمال في الجانب السياسي ، فهو حينما أدرك أهمية اجتماع تلك الصفات في شخص واحد لم ير من قد اجتمعت فيه من أصحابه إلا عمر بن الخطاب فاستشار كبار أهل الحل والعقد في توليته فأشاروا به واجتمعت كلمتهم عليه .

وهكذا انتقل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الدار الآخرة بعد أن قام بأعمال كبيرة في الدعوة والجهاد في وقت قياسي .

لقد أنجز في سنتين وأشهر ما لايتم إنجازه - عادة - في سنوات ، ولقد تحقق فيه قول الله تعالى في بيان طاقة المسلم الجهادية ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴾ [**الأنفال :** ٦٥] .

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٦٦٥ - ٦٦٩ طبقات ابن سعد ٣/ ١٩٩ .

ولقد بين الله سبحانه في هذه الآية سبب هذا التفاوت بين طاقة المؤمنين والكفار بقوله عن الكفار ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أي بسبب أنهم لايفهمون ولايدركون أسباب النصر المعنوية التي هي أسباب النصر الحقيقية والتي أبرزها شعور المؤمنين دائمًا بمعية الله تعالى لهم بالحفظ والنصر والتأييد ، فكون العبد يشعر شعورًا جازمًا بأن الله جل وعلا معه بحفظه ونصره وتأييده يمنحه قوة عالية لايدانيها أي قوة مادية على وجه الأرض، فهذا الشعور يرفع من معنوية المؤمنين بنسبة عالية، بينما تظل معنوية الكفار مرتبطة بالأسباب المادية وحدها، وربما تنخفض معنويتهم إذا علموا بعقيدة المسلمين الحيوية العالية .

ومن أسباب النصر المعنوية شعور المجاهد بأن مصيره في الآخرة إلى الدرجات العُلَى في الجنة سواء نال الشهادة أو كتب الله تعالى النصر على يديه ، وكونه يشعر بهذا الشعور يجعله يستميت في القتال لأنه سينال الفلاح في كلتا الحالتين، والذي يستميت في القتال لايستطيع البشر العاديون أن يثبتوا أمامه ، لأن طاقته تكون مضاعفة أضعافًا كثيرة .

وهذه الآية وإن كان ظاهرها أن طاقة المسلم في القتال تعادل طاقة عشرة فإنها ليست خاصة في القتال المباشر ، بل تشمل الجهاد بأنواعه ، فطاقة القائد المسلم تعادل طاقة عشرة من غير المسلمين ، سواء في مجال القتال أو التخطيط الحربي والإشراف على الجهاد وتوجيه القادة ومتابعة سيرهم .

فأبو بكر - رضي الله عنه - في السنة الأولى وجه أحد عشر جيشًا لقتال المرتدين في وقت واحد ، وهذا يعني أن طاقته تستوعب الإشراف

على جميع تلك الجيوش ومتابعة سيرها وتحمل نتائج معاركها ، ولو أنه كان متصفًا بشيء من الضعف والخور لتردد في الأمر طويلا ولكان إقدامه في الأخير على جمع تلك الجيوش في قيادة واحدة وتوجيهها إلى أقرب تجمع للكفار ، ولو أنه فعل ذلك وحصل له الانتصار على ذلك التجمع فإنه سيحصل لدى الأعداء البعيدين تنبُّهٌ مبكر إلى قوة المسلمين ، وسيعقدون بينهم تحالفات - حسب المعتاد في الحروب - وستكبر تجمعاتهم بحيث يصعب على المسلمين القضاء عليهم في وقت قياسي ، وستكون النتيجة مرور سنوات من الصراع داخل الجزيرة العربية ، ولربما تنبه الأعداء من الفرس والروم فقاموا بإمداد العرب المتمردين على دولة الإسلام ليضعفوها ثم ليقضوا عليها قبل أن تمتد إليهم ، وربما يكون طلب المدد من العرب أنفسهم ، ولكن أبا بكر رضي الله عنه بما وهبه الله تعالى من طاقة عالية وهمة كبيرة قام بتخطيط حربي أذهل جميع الأعداء ، حيث قضى على جميع تجمعاتهم قبل أن يكون لديهم وقت للتفكير في التحالف والتخطيط الحربي المضاد .

وبينما نجد أبا بكر يوجه قوات المسلمين في العام الثاني عشر إلى العراق للقضاء على إحدى أكبر دولتين في العالم إذا هو يُعدُّ الجيوش لغزو الشام والقضاء على الدولة الأخرى ، فأيٌّ طاقة كان يتمتع بها أبوبكر ! ! وما أضخم ذلك الفكر الذي استوعب الإشراف على تلك الجيوش التي توجهت للقضاء على دولتي العالم العُظْمَيَين ! !



بسم الله الرحمن الرحيم

الخلفاء الراشدون

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف/ فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية

التاريخ الإسلامي

مواقف وعبر

(١٠)

الخلفاء الراشدون

الجزء الثاني

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع
جدة

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

مواقف وعبر

فى خلافة أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

- مكاتبات بين أمير المؤمنين عمر وأبي عبيدة ومعاذ -

كان أول خطاب وصل إلى الشام من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحمل نبأ وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتولية أبي عبيدة على الشام وقد جاء فيه : أما بعد فإن أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ قد توفي فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحمة الله وبركاته على أبي بكر الصديق العامل بالحق ، والآخذ بالعرف ، اللين الستير الوادع ، السهل القريب الحكيم ، ونحتسب مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامة عند الله تعالى ، وأرغب إلى الله في العصمة بالتقى في مرحمته ، والعمل بطاعته ماأحيانا ، والحلول في جنته إذا توفانا ، فإنه على كل شيء قدير ، وقد بلغنا حصاركم لأهل دمشق ، وقد وليتك جماعة المسلمين ، فابثث سراياك في نواحي أهل حمص ودمشق وماسواها من أرض الشام ، وانظر في ذلك برأيك ومن حضرك من المسلمين ، ولايحملنك قولي هذا على أن تعري عسكرك فيطمع فيك عدوك ، ولكن من استغنيت عنه فسيره ، ومن احتجت إليه في حصارك فاحتبسه ، وليكن فيمن تحتبس خالد بن الوليد فإنه لاغنى بك عنه [(١)] .

ففي هذا الكتاب يذكر أمير المؤمنين عمر خبر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ويثني عليه ذلك الثناء العاطر ، ثم يذكر تولية أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه على الشام ، وهذا هو الظاهر أن عمر كتب إلى أبي عبيدة بتوليته وعزل خالد والمسلمون محاصرو أعدائهم في دمشق خلافا لما ذهب إليه سيف بن عمر واعتمده الطبري من أن كتاب عمر

(١) تاريخ دمشق ٢/ ١٢٥ .

وصل والمسلمون يواجهون أعداءهم في اليرموك وذلك بناء على ماذهب إليه من أن اليرموك كانت في الشهور الأولى من العام الثالث عشر[١] .

وما كان عمر وهو الخبير بمصائر الحروب الشفيق بالأمة . . ماكان ليربك المسلمين بعزل خالد وتولية أبي عبيدة وهم يواجهون أضخم معركة خاضوها في حياتهم ، تلك المعركة التي كانت أعصاب المسلمين فيها جيمعًا مشدودة نحو الشام ، وقلوبهم واجفة ، وألسنتهم تلهج بالدعاء للمسلمين بالنصر وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه .

وسيتبين لنا عند استعراض مواقف هذه المعركة كيف أن إنقاذ المسلمين تم بإذن الله تعالى على يد خالد بن الوليد ، حينما طلب من أبي عبيدة لما تأزم الموقف أن يوليه القيادة العامة للجيوش الإسلامية ، فتنازل له أبو عبيدة راضيًا مختاراً مؤملا أن يتم النصر على يد سيف الله المصبوب على الكافرين .

وجاء في رواية الأزدي : قالوا : فلم يُسمَع من أبي عبيدة شيء يَنتفع به مقيم ولاظاعن . فدعا أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأقرأه الكتاب ، فالتفت معاذ إلى الرسول فقال : رحمة الله ورضوانه على أبي بكر ، وَيْحَ غيرك ، ما فعل المسلمون ؟

قال : استخلَف أبو بكر - رضي الله عنه - عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه .

فقال معاذ : الحمد لله ، وُفِّقوا وأصابوا .

وقال أبو عبيدة : مامنعني عن مسألته منذ قرأت الكتاب إلا مخافة

---

(١) انظر تحقيق هذا الموضوع في معركة اليرموك .

أن يستقبلني ، فيخبرني أن الوالي غير عمر .

فقال الرسول : يا أبا عبيدة ، إن عمر يقول لك أخبرني عن حال الناس ، وعن خالد بن الوليد ، أيّ رجل هو ؟ ، وأخبرني عن يزيد بن أبي سفيان ، وعن عمرو بن العاص ، وكيف هما في حالهما وهيئتهما ، ونصحهما للمسلمين .

فقال أبو عبيدة : أما خالد فخير أمير ، أنصحه لأهل الإسلام ، وأشدُّه شفقة عليهم ، وأحسنه نظرًا لهم ، وأشده على عدوّهم من الكفار ، فجزاه الله عنهم خيراً ، ويزيد وعمرو في نصحهما وحَدِّهما ونظرهما للمسلمين وشفقتهما عليهم كما يحب عمر أن يكونا عليه ، وكما أُحبّ .

قال : فأخبرني عن أخويك سعيد بن زيد ، ومعاذ بن جبل .

فقال : هما كما عهدت ، إلا أن يكون السن زادهما في الدنيا زهدًا ، وفي الآخرة رغبة .

قال : ثم إن الرسول وثب لينصرف فقال أبو عبيدة : سبحان الله ، انتظر نكتب معك .

فكتب إليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل كتابًا واحدًا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليكم ، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهمّ ؛ وإنك ياعمر ، أصبحت وقد وُلِّيت أمر أمّة محمد ، أحمرها وأسودها ، يقعد بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولكل

عليك حقّ وحصّة من العدل ، فانظر كيف تكون ياعمر ، وإنا نذكِّرك يومًا تُبلى فيه السرائر ، وتكشف فيه العورات ، وتظهر فيه المُخبَّآت ، وتَعْنُو فيه الوجوه لملك قاهر ، قهرهم بجبروته ، والناس له داخرون ، ينتظرون قضاءه ، ويخافون عقابه ، ويرجون رحمته ، وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجالٌ إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنا نعوذ بالله من ذلك ، فلا ينزلْ كتابنا من قلبك بغير المنزلة التي أنزلناها من أنفسنا ، والسلام عليك ورحمة الله .

فمضى رسوله بالكتابِ إليه ، وقال أبو عبيدة لمعاذ : والله ما أمرنا عمر أن نظهر وفاة أبي بكر رضي الله عنه للناس ، وأن ننعاه إليهم ، وما أريد أن أذكر من ذلك شيئًا دون أن يكون هو يذكره .

قال له معاذ : فإنك نعم ما رأيت .

فمضى رسوله بالكتاب إليه ، وسكتا فلم يذكرا للناس شيئًا ، ولم يلبثا إلا مقدار ما قدم رسول عمر عليه حتى بعث إليهما عمر رضي الله عنه بجواب كتابهما ، وبعهد أبي عبيدة ، وأمر أبا عبيدة أن يعظ الناس .

وجاء بالكتاب شداد بن أوس بن ثابت ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري .

وكان جواب كتابهما إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، سلام الله عليكما ، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أوصيكما بتقوى الله ، فإنه رضاء

ربكما ، وحظ أنفسكما ، وغنيمة الأكياس [١] لأنفسهم عند تفريط العجزة، وقد بلغني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي لي مُهمّ، فما يدريكما ، وهذه تزكية منكما لي ، وتذكران أني ولّيت أمر هذه الأمة ، يقعد بين يديّ الشريف والوضيع، والعدوّ والصديق ، والقوي والضعيف ، ولكلٍّ حصته من العدل، وتسألانني كيف أنا عند ذلك ، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتبتما تخوفاني يومًا هو آت ، وذلك باختلاف الليل والنهار، فإنهما يُبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود، حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، وتُكشف العورات، وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته ، فالناس له داخرون ، يخافون عقابه، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته .

وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوان العلانية، أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، فإن ذلك يكون في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة، رغبة الناس ورهبتهم، بعضهم إلى بعض . والله عز وجل قد ولاني أمركم، وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنه كما حرسني عن غيره ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف، إلا ما أعان الله عز وجل ، ولن يغير الذي وَليت من خلافتكم من خُلُقي شيئًا إن شاء الله ، وإنما العظمة لله عز وجل، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر قد تغير منذ ولي ، وإني أعقلُ الحق من نفسي وأتقدم ، وأُبيِّن لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة، أو ظُلم مظلمة ، أو عتب علينا في خُلق فليؤذّني ، فإنما أنا رجل منكم ،

(١) جمع كيِّس بتشديد الياء وكسرها ، وهو النبيه الفطن .

ليس بيني وبين أحد من المسلمين هوادة ، وأنا حبيب إليّ صلاحكم ، عزيز عليّ عتبكم ، وأنا مسئول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما يضيرني بنفسي إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا استطيع مابعد ذلك إلا بالأمناء ، وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم ، إن شاء الله .

وما سلطان الدنيا وإمارتها ! فإن كل ما تريان يصير إلى زوال ، وإنما نحن إخوان ، فأينا أمَّ أخاه ، أو كان عليه أميرا لم يَضرْهُ ذلك في دينه ولا في دنياه ، بل لعل الوالي أن يكون أقربهما إلى الفتنة وأوقعهما بالخطيئة إلا من عصم الله ، وقليل ماهم [1] .

هذا وقد تباطأ أبو عبيدة في ابلاغ خالد والمسلمين بنبأ وفاة أبي بكر وتولية أبي عبيدة على إمرة الشام كله رجاء أن يتم فتح دمشق على يد خالد بناء على الخطة الحربية التي كان وضعها لذلك .

وعلم عمر رضي الله عنه بذلك وهو يعلم أخلاق أبي عبيدة المجبولة على الزهد في الدنيا والبعد عن الجاه ، فكتب له كتابا آخر يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي على نبيه محمد ﷺ .

وبعد : فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحيي فإن الله لايستحيي من الحق ، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى ، وقد استعملتك على جند خالد ، فاقبض جنده

---

(١) فتوح الشام / ٩٩ - ١٠٢ .

واعزله عن إمارته ، ولاتُنفذ المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولاتنفذ سرية إلى جيش كبير ، وغض عن الدنيا عينيك ، وأله عنها قلبك ، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ، وخبرت سرائرهم ، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار ، وكأني بك منتظر سفراً من دار قد مضت نضارتها ، وذهبت زهرتها ، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى .

أخرجه الأزدي قال : حدثني يزيد بن أبي يزيد بن جابر عن أبي أمامة رضي الله عنه [١] .

وهكذا أمر عمر أبا عبيدة أمرًا مؤكدًا بالبَتِّ في هذا الأمر وإعلانه ، ومع اهتمامه البالغ بأمور الحكم والجهاد ، لم يُغفل الموعظة بالتذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا ، مما يدل على أن هذا الأمر الكبير كان ماثلا أمام أعين هؤلاء الصحابة ، وأنه لايشغلهم عنه أي شاغل ، لأن بتذكره دائمًا تستقيم أمور الحياة الدنيا .

وفي هذه الأخبار مواقف منها :

أولا : ما قام به أبو عبيدة من كتمان خبر وفاة أبي بكر أول الأمر كي لايؤثر ذلك على المسلمين في جهادهم ، ولقد كان تعبير الراوي عن ذلك بليغًا حينما قال : فلم يُسمع من أبي عبيدة شيء ينتفع به مقيم ولاظاعن .

وهذه السِّرِّية المبنية على الحكمة والتفكير المتأمِّل كان لها دور مؤثر في تماسك مجتمع المسلمين آنذاك .

ثانيًا : كان في حسِّ أبي عبيدة ومعاذ أن أصلح المسلمين للخلافة بعد

---

(١) فتوح الشام / ١٠٢ .

أبي بكر عمر ، وكان من شدة إشفاق أبي عبيدة من أن يتولى غيره أنه لم يسأل رسول عمر عن الخليفة بعد أبي بكر ، وحينما سأله معاذ حَمدًا الله على ذلك .

وهكذا التَقَتْ أفكار هؤلاء العظماء أبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ والذين وافقوا أبا بكر على أقدمية عمر في ذلك حينما استشارهم . . إلتقت أفكار هؤلاء العظماء على أن أصلح الأمة للخلافة بعد أبي بكر عمر .

ولقد أثبت الواقع أنه لم يأت بعد عمر مثله في إقرار العدل ، ودعم الجهاد ، وإعزاز الدين ، وتوسيع الدولة الإسلامية وتقويتها ، وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية الوثابة التي اتسعت وعظمت حتى هيمنت على حضارات الأمم والتهمتها ، وصاغتها بالصياغة الإسلامية .

ثالثًا : ثناء أبي عبيدة البليغ على خالد – مع أنه قد خلَفه في الإمارة ، ومع أن الذي طلب تقييمه أمير المؤمنين عمر – يدل على عظمة أبي عبيدة وعمق يقينه ورجاحة عقله ، فلم يُغَطِّ على محاسن خالد مداراةً لعمر الذي ولاه وعزل خالدا ، ولا خضوعًا لهوى منحرف .

رابعًا : في الموعظة البليغة التي وجهها أبو عبيدة ومعاذ إلى أمير المؤمنين عمر دلالة على اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بأمر الآخرة ، وتمحيص النفوس من كل ما قد يعلق فيها من شوائب حتى تصبح صفحة بيضاء ، فلم يَدُرْ بخلَد أبي عبيدة ومعاذ أن عمر القوي الإيمان الراسخ العلم ليس بحاجة إلى مواعظ ، بل فضلًا النظر في نجاته من عواقب المسئولية على النظر في عظمته وتفوقه في مجالات الورع والتقوى وكبح

جماح النفس ، فوجَّها له تلك الموعظة .

خامسًا : في جواب عمر لأبي عبيدة ومعاذ حكَمٌ بالغة وفوائد جَمَّة ، فقد بدأ بتذكيرهما بتقوى الله تعالى ، والتقوى حماية للنفس وحارس أمين لها يحميها من بُنَيَّات الطريق ومنعطفاته الخطيرة ، وقد وصف المتقين بالفطنة ووصف المقصرين بالعجز ، وإنه لوصف صادق ، فما أعظم فطنة من نظر إلى نجاته وسعادته في حياة الخلود وما أرجح عقله ! ! وما أعجز من ضيَّع ذلك وأضعف عقله ! !

وذكَّرهما بما ذكَّراه به من يوم الحساب وتَلَقِّي الكتاب الذي لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ، يوم يتمنى الإنسان أن يكون قدَّم من العمل الصالح أفضل مما قدم وأن يكون برئ من كل عمل سيء ، وإنَّ تبادل هذه الموعظة بين الصحابة دليل على عظمة تذكُّرهم للآخرة وشدة فزعهم من هولها وشوقهم إلى نعيمها .

ويُذَكِّر عمر أبا عبيدة ومعاذًا وغيرهما بأن الولاية لن تغير من خُلقه المعروف شيئًا ، وأنه قد نصب نفسه للعدالة بين الناس من غير محاباة لقوي ولا هضم لضعيف .

حوار بين خالد وأبي عبيدة :

علم خالد بأمر عزله فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة فقال : يغفر الله لك ، أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تعلمني وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك ؟ ، فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ماكنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيري ، وماكنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك إن شاء الله ،

وماسلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وإن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن إخوان وقُوَّام بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه، في دينه ولادنياه ، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض له من الهلكة، إلا من عصم الله عز وجل وقليل ماهم .

ودفع أبو عبيدة كتاب عمر إلى خالد [1] .

وهكذا نعود مرة أخرى إلى هذين العملاقين لنتعلم منهما دروسًا بالغة الأهمية في حياتنا العملية .

فهذا أبو عبيدة يؤثره عمر بالولاية العامة في الشام فيزهد بها ويتأخر في إبلاغ خالد بذلك إيثاراً للمصلحة العامة حتى تنقضي المهمة التي خطط لها خالد ، ثم يعرض الأمر وهو يفهم حقيقة الولاية فهمًا تامًا ، فهي مَغْرم وليست بمغنم ، والسعيد من لم يُبْتَلَ بها، لكن من ابتلي بها فعدل ونصح فهي خير في الدنيا وثواب جزيل في الآخرة .

وخالد يلوم أخاه أبا عبيدة أن أسرَّ في نفسه هذا التكليف ولم يبلغه إياه في حينه ، وهو لايريد أن يتقدم أبا عبيدة بشيء إلا أن يكون ذلك تكليفًا من قبَل الخليفة فالطاعة إذًا واجبة على الجميع .

وهنا تبدو لنا روح الطاعة والتجرد من حظ النفس لدى هؤلاء الأماجد الكرام ، فقد وجَّه أبو بكر خالداً لأعنف حروب الردة، فتوجه لها طائعًا مختاراً ، وكان كذلك في حروب العراق، حتى إذا كان من فتح المدائن قاب قوسين أو أدنى صدر التوجيه له إلى الشام فسلم طائعًا مختاراً .

(١) تاريخ دمشق / ٢/ ١٢٦ .

وأبو عبيدة بعد أن كان أمير الشام وقائد جيوشها يصبح قائد جيش واحد فيُسَلِّم الأمر لخالد طائعًا مختاراً ، ثم يرجع بعد ذلك أميراً عاما فلايزيد شيئًا أمام نفسه ، بل يتقبل التكليف ببطء ويعلن زهده في الدنيا ومناصبها ، ويشير إلى خطورة المسئولية إلا على من عصمه الله ، ثم يعود خالد جنديًا مطيعًا لأبي عبيدة يتوجه حينما وجهه .

وأمر آخر في غاية الأهمية وهو أن خالداً بقي عند أبي عبيدة في أعلى مكانة فكان لايتقدم خطوة إلا بمشورة خالد ، حتى كأن خالداً لم يفقد شيئًا من سلطته الأولى ، وخالد لم يبخل بخالص الرأي والمشورة على أبي عبيدة ، فكان وضعهما الإداري طيلة عملهما في أعلى وضع يمكن أن يتصوره الإنسان من مكارم الأخلاق .

وماهذه إلا لمحات موجزة عن تشخيص السمو الأخلاقي الذي بلغه هذان العملاقان ، ولو تعمق الدارس في طريقة العمل بينهما لخرج بنتائج باهرة ، تعتبر مُثُلاً عالية للأسوة الحسنة .

ولو أن هذه التصرفات من تثبيت أمير ثم عزله وتثبيت آخر ثم تكليف الأول بالمسئولية . . لو أن ذلك تم بين أبناء الدنيا وطلاب الجاه لوجدنا الغيرة تبرز قرونها والحسد يرسل لهيبه فيحرق الأخضر واليابس ، ولسادت الفوضى وعم الفساد ، لأن القائد الأخير سيتكبر عن استشارة القائد الأول ، والقائد الأول سيكتم خبرته ومواهبه حتى لاتكون سببا في نجاح القائد الثاني ، والنتيجة تكون في انحدار مستوى العمل وخسارة الأمة .

وقد وقعت الأمة الإسلامية في كثير من أطوار تاريخها ضحيةً لمثل

هذه الأمراض الخلقية ، منذ أن ذهب ذلك الرعيل الأول الذي تغذى بغذاء الإيمان ، وآثر الآخرة على الدنيا .

لقد حمى الإسلام سياج الأخوة الإسلامية بتوجيهات سامية نحو الأخلاق النبيلة ، فإيثار المصلحة العامة للمسلمين ، والتجرد من حظ النفس، من أعظم الأخلاق الكريمة أثراً في حفظ الأخوة ورعايتها فالمجتمع الذي يسود فيه الإيثار ، وحب المصلحة العامة ، ونسيان الذات في سبيل مصلحة الأمة ، هو المجتمع الذي تترعرع فيه الأخوة الإسلامية وتزدهر ، لأنه مجتمع تُبذل فيه النصيحة وتعقد المشورة بين أفراده ، حتى في الأمور الصغيرة ، فيستفيد الفرد من عقول الآخرين وتجاربهم في الحياة ، فإذا تبدل المسئول بمسئول آخر مثلا استفاد هذا الأخير من تجارب الأول ولم يبخل الأول بإسداء نصيحته ومشورته للأخير ، لأنهما أخوان في الله ، وهدفهما واحد هو إعزاز الإسلام والمسلمين .

وإذا استحكمت الأخوة الإسلامية في النفوس ظهرت آثارها الحميدة في بناء المجتمع الصالح ، وحمايته من أسباب الانهيار ، وماهذه المواقف الإسلامية التي نشيد بها إلا أثر من آثار تمكن الأخوة الإسلامية في قلوب الصحابة رضي الله عنهم .



مواقف وعبر
فى فتوح الشام الثانية
(ما قبل اليرموك)

١ - معركة فِحْل [1] -

ظل أبو عبيدة عامر بن الجراح محاصراً دمشق ومعه من القادة خالد ابن الوليد ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم ، وكان في جنوب الشام جيش بقيادة عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما . وقد جاءت الأنباء إلى أبي عبيدة أن جيشًا كبيراً للروم قادم نحو المسلمين، وعلم أنهم اتجهوا نحو فلسطين ، ولعلهم أرادوا أن يكرروا محاولتهم الأولى يوم أجنادين حيث وجهوا قوتين كبيرتين لجيشين منفصلين عن الجيش الإسلامي الرئيس ، وقد علمنا سابقًا أن خالد بن الوليد قضى على محاولتهم تلك بجمع الجيوش الإسلامية والاتجاه بها إلى أجنادين وكانت النتيجة نصراً مؤزراً للمسلمين .

وفي هذه المرة بعد مشاورة بين أبي عبيدة وخالد قرر أبو عبيدة إبقاء جيش حول دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان ثم التوجه ببقية الجيش جنوبًا لمواجهة جيش الروم . وخوفًا من أن يدرك جيش الروم جيش المسلمين في فلسطين فقد قدم أبو عبيدة خالداً في خمسمائة وألف من الفرسان .

ومعروف أن خالداً وحده يكفي مع مئات من الفرسان لإرهاب جيش كبير ، وقد سار يسابق الريح حتى أدرك مؤخرة جيش الروم وقد دخل أوائلهم عسكرهم ، فهجم عليهم وقتل منهم كثيرين، وغنم من أموالهم ، وأفلت من أفلت منهم منهزمين حتى دخلوا معسكرهم [2] .

---

(١) كانت هذه المعركة في ٢٨ ذي القعدة عام ثلاثة عشر للهجرة - انظر « الطريق إلى دمشق» لأحمد عادل كمال / ٣١٤ .

(٢) فتوح الشام للأزدي / ١١٠ .

وواصل خالد سيره حتى لقي عمرو بن العاص فعسكر قريبًا منهم .

وفي هجوم خالد هذا على مؤخرة جيش مكون من عشرين ألفا ما يكشف لنا عن قوة المسلمين واستهانتهم بأرواحهم إلى جانب خوَر الروم وجبنهم ، وضياع المسئولية فيهم .

فلو أن فرقة من جيش الكفار هجمت على جيش المسلمين لكانت النتيجة أن يطوقها الجيش ويبيد جميع أفرادها .

ولقد كانت فرصة للروم أن يتخلصوا من أبرز قواد جيش المسلمين الذي دوخهم وشتت أفكارهم ، ولكن الشيء الذي كان يهيمن عليهم عند اللقاء أن يخلصوا أنفسهم من هجوم المسلمين الصاعق ، فكان أقرب تفكير يراودهم أن يفروا عند اللقاء .

بين يدي المعركة :

قال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي في سياق هذه المعركة : وكان المسلمون حيث نزلوا بهم ليس شيء أحب إليهم من معاجلتهم ، وكانت الروم ليس شيء أحب إليهم من مطاولة المسلمين رجاء المدد من صاحبهم ، ولأن المسلمين لم يكونوا في مثل مافيه الروم من الخصب والكفاية .

وأقبل المشركون يُفجِّرون المياه بينهم وبين المسلمين ليطاولوهم لما وجدوا من صبر المسلمين وجدِّهم ، ونَصْر الله إياهم ، فهم يخافون إن هم عاجلوهم أن يقعوا منهم في شدة شديدة ، أو ينهزموا هزيمة قبيحة ، فهم يدافعون ويطاولون ما استطاعوا .

وأقبل المسلمون يخوضون إليهم مافجَّروا عليهم ، ويمشون في

الوحل، فلما رأى ذلك الروم منهم ، وأنهم لايمنعهم منهم [الماء] خرجوا، فعسكروا ووطنوا نفوسهم على القتال ، وكانوا في كل يوم يزدادون ، ويأتيهم المدد من الرساتيق والقرى، ومن كان على دينهم .

وأمر أبو عبيدة حين بلغه ذلك فقال للمسلمين : أغيروا عليهم، وأغيروا على أهل القرى والسواد والرّساتيق، ففعلوا ذلك ، فقطعوا عنهم المدد والميرة [1] .

وهكذا نجد أولئك الصحابة رضي الله عنهم عزائمهم قوية ، فالذي يعتبره الأعداء عوائق دون الزحف والتقدم لايكون كذلك عند أولئك المجاهدين ، لأنهم قد ألفوا حياة الخشونة والصبر على الشدائد .

وإذا كان الأعداء قد عزموا على المطاولة والتأخير لتصل إليهم الأمداد فإنهم أمام أناس قد تدثروا بالحزم الشديد ، وتلبسوا بالعزم الأكيد على المناجزة واغتنام الفرص ، فقد حالوا بين أعدائهم ووصول أي مدد بالغارات السريعة المفاجئة التي شكلت طوقا حول الأعداء .

ومن أمثلة هذه الغارات ماذكره الأزدي في سياق روايته قال : فخرج صفوان بن المعطّل الخزاعي ، ومعن بن يزيد بن الأخنس السلمي يومًا في خيل لهم ، فأغارا ، فغنما غنائم كثيرة ، فلما انصرفا عرضت لهما الروم ، فقاتلوهم قتالا شديدًا .

وإنما كانا جميعًا في نحو من مائة فارس ، وخرج الدَّرْنَجار [2] في

---

(١) فتوح الشام / ١١٢ .

(٢) يعني قائد الروم .

خمسة آلاف خيل ، فطاردوهم ، وصبروا لهم ، واحتسبوا في قتالهم ، ثم إن الروم غلبوهم على غنيمتهم .

ثم إن حابس بن سعيد الطائي جاء في نحو من مائة رجل من طيء ، فحمل عليهم ، فزالوا غير بعيد ، ثم حملوا عليه ، فردّوه وأصحابه حتى ألحقوهم بالمسلمين ، ثم انصرفوا ، وقد بغوا ، وهم يظنون أن هذا ظفر منهم، ولم يقتلوا أحدًا ، ولم يهزموا جَمْعًا (١) .

وهذا مثل من شدة جلد المسلمين آنذاك وقوة صبرهم وشجاعتهم ، حيث صبر مائة لخمسة آلاف وقاوموهم ولم يستطع الأعداء رغم كثرتهم أن يقتلوا مسلما واحدًا ، ثم لما جاء المائة الآخرون كشفوا الأعداء وأزالوهم، وقد رضي الأعداء من الغنيمة أن يعودوا سالمين قد أحرزوا أموالهم ، وكأنهم قد يئسوا من قتال المسلمين .

قال الأزدي في سياق روايته : فلما انصرفوا إلى رحالهم وعسكرهم أرسلوا إلى أبي عبيدة أن أخرج أنت ومن معك من أصحابك، وأهل دينك من بلادنا التي تُنْبت الحنطة والشعير، والفواكه والأعناب والثمار فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم، بلاد البؤس والشقاء ، وإلا أتيناكم فيما لاقبل لكم به، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف .

فردّ عليه أبو عبيدة فقال : أما قولكم ، اخرجوا من بلادنا ، فلستم لها ولمّا تُنْبت بأهل ، فلعمري ماكنا لنخرج منها ، وقد أذلّكم الله بنا فيها، وأورثّناها ، ونزعها من أيديكم ، وصيّرها لنا ، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله ، والله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، ويعزّ من

(١) فتوح الشام/ ١١٣ .

يشاء ، ويذل من يشاء ، وأما قولكم في بلادنا أنها بلاد البؤس والشقاء فصدقتم ، وما نجهل ماقلتم ، إنها لكذلك ، وقد أبدلنا الله بها بلاد العيش الرفيع ، والسعر الرخيص ، والأنهار الجارية ، والثمار الكثيرة فلا تحسبونا تاركيها ، ولامنصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها ، فأقيموا ، فو الله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم ، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم ، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله[1] .

وهكذا كان رد أبي عبيدة رد العالم الموقن ، فالأرض ليست ملكًا للبشر وإنما هي ملك لرب البشر جل جلاله ، فهو يورثها من يشاء من عباده ، وقد علم الصحابة رضي الله عنهم بمقتضى بشارات النبي ﷺ أن الله تعالى سيورث المسلمين ديار الفرس والروم ، فحروب المسلمين ليست كحروب سائر الأمم التي تحارب لتأكل الضعفاء وتوسع ملكها ، بل هي حروب ذات هدف أعلى ومقصد أسمى ، هو إعلاء كلمة الله تعالى وإقامة دولة الإسلام التي هي أحق بوراثة الأرض من جميع الأمم التي لاتدين بالإسلام .

محاورة معاذ مع زعماء الروم :

قال محمد بن عبد الله الأزدي في سياق روايته : فأرسلوا إلى أبي عبيدة أن أرسل إلينا رجلا من صلحائكم نسأله عما تريدون ، وما تسألون وماتدعون إليه ، ونخبره بذات أنفسنا ، وندعوكم إلى حظّكم إن قبلتم .

فأرسل إليهم أبو عبيدة معاذ بن جبل ، فأتاهم على فرس له ، فلما دنا منهم نزل عن فرسه ، وأخذ بلجامه ثم أقبل إليهم يقود فرسه ، فقالوا لبعض غلمانهم : انطلق إليه فأمسك له فرسه .

---

(١) فتوح الشام / ١١٣ - ١١٤ .

فجاء الغلام ليمسك له دابته ، فقال معاذ : أنا أمسك فرسي ، لا أريد أن يمسكه أحد غيري ، فأقبل يمشي إليهم ، فإذا هم على فُرش وبُسط ونمارق [1] تكاد الأبصار أن تغشى منها .

فلما دنا من تلك الثياب قام قائمًا [2] ، فقال له رجل : أعطني دابتك ، أمسكها لك ، وادْنُ أنت فاجلس مع هؤلاء الملوك في مجالسهم ، فإنه ليس كل أحد يقدر أن يجلس معهم ، وقد بلغهم صلاح وفضل عند من أنت منهم ، فهم يكرهون أن يكلموك جلوسًا ، وأنت قائم ، فاجلس معهم .

فقال معاذ للترجمان : إن نبينا ﷺ أمرنا أن لانقوم لأحد من خلق الله ، ولايكون قيامنا إلا لله في الصلاة والعبادة ، والرغبة إليه ، فليس قيامي هذا لكم ، ولكني قمت إعظامًا للمشي على هذا البسط والجلوس على هذه النمارق التي استأثرتم بها على ضعفائكم وأهل ملَّتكم ، وإنما هي من زينة الدنيا وغرورها ، وقد زهد الله في الدنيا وذمها ، ونهى عن البغي والسرف فيها ، فأنا أجلس ها هنا على الأرض ، وكلّموني أنتم بحاجتكم منْ ثَمَّ ، وأقيموا الترجمان بيني وبينكم ، فليفْهمني ماتقولون ، وليفهمكم ما أقول .

ثم أمسك برأس فرسه ، وجلس على الأرض عند طرف البساط ، فقالوا له : لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك ، إن جلوسك مع هذه الملوك على هذه المجالس مكرمة لك ، وإن جلوسك على الأرض متنحيا صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك .

(١) جمع نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .

(٢) أي وقف ولم يجلس ، والمراد بالثياب الفرش .

فأخبره الترجمان بمقالهم : فجثا معاذ على ركبتيه ، واستقبل القوم بوجهه ، وقال للترجمان : قل لهم إن كانت هذه المكرمة التي يدعونني إليها استأثرتم بها على من هو مثلكم ، إنما هي للدنيا التي زهد الله فيها ، فهي عندكم مكرمة في الدنيا ، فهذه المكرمة لكم ، ولاحاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها ، ولا في شيء يباعدنا من ربنا ، وإن زعمتم أن هذه المجالس والدنيا التي في أيدي عظمائكم- فأنتم بها مستأثرون على ضعفائكم- مكرمة لمن كانت في يديه منكم عند الله ، فهذا خطأ من قولكم ، وجور من فعلكم ، وإنه لايدرك ماعند الله بالخطأ ، ولابخلاف ماجاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم عن الله من الزهادة في الدنيا ، وأما قولكم ، إن جلوسي على الأرض متنحيا صنيع العبد بنفسه ، ألا فصنيع العبد بنفسه صنعتُ ، وأنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله ، ولا استأثر لشيء من مال الله على إخواني من أولياء الله ، وأما قولكم أني أزريت بنفسي ، فإن كان ذلك فإنما هو عندكم وليس ذلك عند الله كذلك ، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك ، وإن قلتم إنما دخل على ذلك عباد الله فقد أخطأتم خطأ بينا لأن أحبَّ عباد الله إليه المتواضعون لله ، القريبون من عباد الله الذين لايشغلون أنفسهم بالدنيا ، ولايدَعون التماس نصيبهم من الآخرة .

قال ، فلما فسر هذا الترجمان لهم نظر بعضهم إلى بعض ، وتعجبوا مما سمعوا منه ، وقالوا لترجمانهم : قل له ، أنت أفضل أصحابك؟

فقال معاذ : عند الله معاذ الله أن أقول ذلك ، وليتني لا أكون شرهم .

قال : فسكتوا عنه ساعة ، لايكلمونه ، وهم يتكلمون فيما بينهم ، فلما احتبسوا عنه لايكلمونه قال لترجمانهم : قل لهم إن كانت لهم حاجة في كلامي ، وإلا انصرفت عنهم .

فقال لهم الترجمان ذلك ، فأقبلوا عليه ، فقالوا للترجمان : قل له ، أخبرونا ما تطلبون ، وإلى ما تدعون إليه ، وما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة ، وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس ، وقد هلك ملك فارس ، وهلك ابنه ، وإنما تملكهم اليوم النساء ، ونحن ملكنا حيّ ، وجنودنا عظيمة كثيرة ، وإن افتتحتم من مدائننا مدينة أو من قرانا قرية ، أو من حصوننا حصنا ، أو هزمتم لنا عسكرا ، أظننتم أنكم قد ظفرتم بجماعتنا ، وأنكم قد قطعتم حربنا عنكم ، أو فرغتم مما وراءنا منّا ونحن عدد السماء وحصى الأرض ؟ ، وأخبرونا لم تستحلّون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبيّنا وكتابنا ؟

فلما قالوا هذا القول ، وفسّره الترجمان لمعاذ سكتوا ، فقال معاذ للترجمان : قد فرغوا ؟ قال له : نعم .

قال : فأفهمهم عني أن أول ما أنا ذاكر حمد الله الذي لا إله إلا هو ، والصلاة على محمد نبيه ﷺ وأن أول ما أدعوكم إلى الله أن تؤمنوا بالله وحده ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن تصلّوا صلاتنا ، وتستقبلوا قبلتنا ، وأن تستنّوا بسنّة نبيّنا ﷺ وتكسروا الصليب ، وتجتنبوا شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، ثم أنتم منا ونحن منكم ، وأنتم إخواننا في ديننا ، لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدّوا الجزية إلينا في كل عام وأنتم صاغرون ، ونكفّ عنكم ، وإن أنتم أبيتم هاتين الخصلتين

فليس شيء ممّا خلق الله عز وجل نحن قابلوه منكم ، فابرزوا إلينا حَتى يَحكم الله بيْننا وهو خير الحاكمين ، فهذا ما نأمركم به ، ومالندعوكم إليه .

وأما قولكم ما أدخلكم بلادنا وتركتم أرض الحبشة وليسوا منكم ببعيد ، وتركتم أرض فارس وقد هلك ملكهم ، فإني أخبركم عن ذلك ، ما بدأنا بقتالكم إلا أنكم أقرب إلينا منهم ، وأنكم عندنا جميعًا بالسواء ، وماجاءنا كتابنا بالكفّ عنهم ، ولكن الله عز وجل أنزل في كتابه على نبينا ﷺ ، فقال﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (١) وكنتم أقرب إلينا منهم ، فبدأنا بكم لذلك ، وقد أتاهم طائفة منا وهو يقاتلونهم ، وأرجو أن يظفرهم الله ويفتح عليهم وينصرهم .

وأما قولكم إن ملكنا حيّ وأن جنودنا عظيمة ، وأنا عدد نجوم السماء وحصى الأرض وتؤيسوننا من الظهور عليكم فإن الأمر في ذلك ليس إليكم ، وإنما الأمور كلها إلى الله ، وكل شيء في قبضته ، فإذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا ، وأميرنا رجل منّا ، إن عمل فينا بكتاب ديننا وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا ، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا ، وإن هو سرق قطعنا يده ، وإن زنا جلدناه ، وإن شتم رجلا منا شتمه كما شتمه ، وإن جرحه أقاده من نفسه ، ولايحتجب منا ، ولايتكبّر علينا ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاء الله علينا ، وهو كرجل منّا .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

وأما قولكم جنودنا كثيرة ، فإنها وإن عظمت وكثرت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض فإنا لانثق بها ولانتّكل عليها ولانرجو النصر على عدوّنا بها [1] ، ولكنا نتبرأ من الحوْل والقوة ، ونتوكل على الله عزّ وجل ، ونثق بربنا ، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكم من فئة كثيرة قد أذلّها الله وأهانها وقال تبارك وتعالى ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [2] .

وأما قولكم ، كيف تستحلون قتالنا وأنتم تؤمنون بنبينا وكتابنا ، فأنا أخبركم عن ذلك ، نحن نؤمن بنبيّكم ، ونشهد أنه عبد من عبيد الله ، وأنه رسول من رسل الله ، وأن مَثَله عند الله كمثل آدم ، خَلَقَهُ من تراب ثم قال له : كُنْ ، فيكون ، ولانقول إنه الله ، ولانقول إنه ثاني اثنين ولا ثالث ثلاثة ، ولا أن له صاحبة ولا ولدا ، ولا أن معه آلهة أخرى ، لا إله إلا هو ، تعالى عما تقولون علوا كبيرًا ، وأنتم تقولون في عيسى قولا عظيما ، فلو أنكم قلتم في عيسى كما نقول ، وآمنتم بنبوة نبينا ﷺ كما تجدونه في كتابكم ، وكما نؤمن نحن بنبيكم ، وأقررتم بما جاء به من عند الله ، ووحدتم الله ما قاتلناكم ، بل كنا نسالمكم ونواليكم ونقاتل معكم عدوَّكم .

قال : فلما فرغ معاذ من خطابه قالوا له : مانرى مابيننا وبينك إلا متباعدا وقد بقيت خصلة نحن نعرضها عليكم ، فإن قبلتموها منا فهو خير لكم وإن أبيتم فهو شر لكم ، نعطيكم البلقاء وما الى أرضكم من سواد الأرض وتنحَّوا عن بقية أرضنا وعن مدائننا ، ونكتب عليكم كتابًا

---

(١) يعني إن كنتم تعتمدون على كثرة الجنود فلسنا كذلك .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

نسمِّي فيه خياركم وصلحاءكم، ونأخذ عهودكم ومواثيقكم على ألا تطلبوا من أرضنا غير ما صالحناكم عليه ، وعليكم بأهل فارس فقاتلوهم ونحن معكم نعينكم عليهم حتى تقتلوهم وتظهروا عليهم .

فقال معاذ : هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا ، ولو أعطيتمونا جميع مافي أيديكم مما لم نظهر عليه ، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاث التي وصفت لكم مافعلنا .

فغضبوا عند ذلك ، وقالوا نتقرب إليك وتتباعد عنا ؟ اذهب إلى أصحابك ، فو الله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً .

فقال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن والله لتقتلُنَّا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون .

وانصرف معاذ إلى أبي عبيدة ، فأخبره بما قالوا وبما رد عليهم [١] .

فهذه المحاورة فيها مواقف عالية منها : وقوف معاذ رضي الله عنه من مظاهر الترف والخيلاء موقف العزة والإباء حيث أبى أن يجلس معهم في مجالسهم الوثيرة التي تكاد تخلب الأبصار بمنظرها الباهر ، واعتبر تلك الفرش من الإسراف والخيلاء اللذين جاء النهي عنهما في الإسلام، إضافة إلى أن تلك المظاهر الغالية الثمن مما استأثر به كبراء الروم على ضعفائهم ، فاختص بهذه المظاهر طبقات معينة على حساب الضعفاء الذين أرهقتهم الضرائب من أجل رفاهية تلك الطبقات ، ولقد كانت هذه الإشارة من معاذ كافية لإثارة العامة الذين سُلبت حقوقهم من أجل تحقيق مستوى أعلى من الرفاهية لفئة معينة من الناس .

---

(١) فتوح الشام / ١١٥ - ١٢١ .

وحينما وصفوه بأنه قد احتقر نفسه لمَّا جلس على الأرض أبان لهم بأن رفعة الإنسان إنما تكون بارتفاع منزلته عند الله تعالى ، وليس عند البشر المنحرفين عن منهج الله جل وعلا .

لقد قالوا هذا الكلام وعقلاؤهم يفهمون سر عظمة المسلمين ، وأن سبب جرأتهم على الأمم الكبرى وتفوقهم عليهم في القتال راجع إلى تحليهم جميعًا بمكارم الأخلاق ونظرهم إلى معالي الأمور ، من الزهد بمتاع الدنيا ، والتواضع والعفة ، والكرم والعدل في الحكم والورع عن حقوق الناس ، وفوق ذلك صلتهم القوية بالله تعالى وقربهم منه واعتصامهم به ، ولقد سبق بيان اعتراف بعض كبارهم بذلك للمسلمين ويأسهم من الانتصار عليهم لتفوقهم عليهم في مجال الأخلاق .

ومن أفضل مابين معاذ لزعماء الروم أنهم إذا كانوا يعتزون بمَلكهم وبما لَهُ من القوة والرفعة فإن مَلك المسلمين هو الله عز وجل الذي يملك السموات والأرضين ومن فيهن ، فهو جل وعلا الذي يعظمه المسلمون ويقدسونه وحده ، فأما أميرهم فإنه كرجل منهم له ما للمسلمين وعليه ماعليهم ، وهو مثلهم محكوم بشريعة الإسلام لايمكن أن يتجاوزها .

وكذلك رده على اعتزازهم بكثرة جنودهم حيث أبان لهم أن العبرة ليست بكثرة العَدَد ولا بقوة العُدَد وإنما العبرة بمقدار ما تُحظَى به الأمة من الصلة بالله تعالى والتوكل عليه .

ومن أروع ما أجابهم به بيان أن المؤمنين لاَيفرُّون أبدًا من المعركة ، فإما أن يقتلوا عن آخرهم أو ينتصروا على أعدائهم ويُذلُّوهم ، وفي هذا تهديد بليغ لهم يجعلهم ينهزمون نفسيًا قبل دخول المعركة .

وهنا انتهت هذه المحاورة الشَّيِّقة التي أظهر بها معاذ رضي الله عنه عـزة الإسـلام والمسلمين ، وبين أنهم ليسـوا طلاب دنيا حتى يقبلوا بأنصاف الحلول، وإنما قَدمُوا لهدف واضح بيَّنه لهم نبيهم ﷺ وبين لهم المنهج الذي يسيرون عليه للوصول إلى هذا الهدف ، فهم ملتزمون به لايحيدون عنه في أي مكان وزمان ، في حال القوة أو في حال الضعف، وأنهم مستعدون لأن يموتوا جميعًا في سبيله .

محاورة أبي عبيدة مع رسول الروم :

قال أبو إسماعيل محمد الأزدي في سياق روايته : فإنهم لكذلك إذ بعثوا إلى أبي عبيدة رجلا يخبره عنهم ، قالوا : إنك بعثت إلينا رجلا لايقبل النَّصَف ، ولايريد الصلح ولاندري أعن رأيك ذلك أم لا ، وإنا نريد أن نبعث إليك رجلا منا يعرض عليك النصف ، ويدعوك إلى الصلح ، فإن قبلت ذلك منه فلعل ذلك يكون خيراً لك ولنا ، وإن أبيت فلا نراه إلا شراً لك .

فقال أبو عبيدة : فابعثوا من شئتم .

فبعثوا إليه رجلا طويلا أحمر ، أزرق (العينين) فأقبل حتى أتى أبا عبيدة ، فلما دنا من المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من أصحابه ، ولم يدر أفيهم هو أم لا ، ولم يُرْهبه مكان أمير[1] ، فقال لهم : يامعشر العرب، أين أميركم ؟

فقالوا : ها هو ذا ، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض وهو مُتنكِّب القوس ، وفي يده أسهم ، وهو يقلبها .

---

(١) أي لم ير مظاهر الإمارة التي تبعث على الرهبة .

فقال له الرسول : أنت أمير هؤلاء القوم ؟ قال : نعم .

قال : فما يجلسك على الأرض ؟ أرأيت لو كنت جالسًا على وسادة أو كان تحتك بساط ، أوَكان ذلك واضعك عند الله أو مانعك من الإحسان ؟

قال أبو عبيدة : إن الله لايستحي من الحق ، ولأصْدُقَنَّك عما قلت ، ما أصبحت أملك دينارًا ولادرهمًا وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي ، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فلم يكن عندي حتى استقرضت من أخي هذا نفقة كانت عنده - يعني معاذًا - فأقرضنيها ، ولو كان عندي أيضًا بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي ، وأُجلس أخي المسلم الذي لا أدري لعله عند الله خير مني على الأرض ، ونحن عباد الله نمشي على الأرض ، ونجلس على الأرض ، ونأكل على الأرض ، ونضطجع على الأرض ، وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئًا ، بل يعظّم الله به أجورنا ، ويرفع درجاتنا ، ونتواضع بذلك لربِّنا ، هات حاجتك التي جئت بها .

فقال له الرومي : إنه ليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولاشيء أبغض إليه من البغي والفساد ، وإنكم قد دخلتم بلادنا فظهر منكم فيها الفساد والبغي ، ويقال ، مابغى قوم وأفسدوا في الأرض إلا أهَمَّهم الله بهلاك ، وأنا أعرض عليكم أمرًا لكم فيه حظٌّ إن قبلتموه ، نحن نعطيكم دينارين ، وثوبًا ثوبا ، ونعطيك أنت ألف دينار ، ونعطي الأمير الذي فوقك يعنون عمر ألفي دينار ، وتنصرفون عنا ، وإن شئتم أعطيناكم أرض البلقاء ، وما والى أرضكم من سواد الأردن ، وخرجتم من مدائننا وأرضنا وبلادنا ، وكتبنا فيما بيننا وبينكم كتابًا يستوثق فيه بعضنا من بعض بالأيمان المغلَّظة ، ليقومنّ به وليفينَّ بما عاهد الله عليه .

قال : فحمد الله أبو عبيدة ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي ﷺ ثم قال : إن الله بعث فينا رسولا نبيًّا ، وأنزل عليه كتابًا حكيمًا ، ، وأمره أن يدعو الناس إلى عبادة ربهم ، رحمة منه للعالمين ، وقال لهم : فإن الله إله واحد ، عزيز حكيم ، عليّ مجيد، وهو خالق كل شيء ، وليس كمثله شيء ، وأمرهم أن يوحّدوا الله الذي لا إله إلا هو ، ولا يتخذوا له صاحبة ولا ولدا ، ولا يتخذوا معه آلهة أخرى ، وأن كل شيء يعبده الناس دونه فهو خلقه ، وأمرنا ﷺ ، فقال : إذا أتيتم المشركين فادعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبالإقرار بما جاء من عند الله عز وجل ، فمن آمن وصدّق فهو أخوكم في دينكم ، له مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية حتى يؤدوها عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا أن يؤمنوا أو يؤدوا الجزية فاقتلوهم وقاتلوهم فإن قتيلكم المحتسب بنفسه شهيد عند الله ، وهو في جنات النعيم ، وقتيل عدوكم في النار .

فإن قبلتم ماسمعتم مني فهو لكم ، وإن أبيتم ذلك فابرزوا إلينا حتى يحكم اللهُ بيننا وهو خير الحاكمين .

فقال الرومي : قد أبيتم إلا هذا ؟ فقال له أبو عبيدة : نعم ، فقال له الرومي : أما والله على ذلك ، إني لأراكم تتمنّون أنكم قبلتم منا دون ماعرضنا عليكم .

فانصرف الرومي وهو رافع يديه إلى السماء ، وهو يقول : اللهم إنّا قد أنصفناهم ، فأبوا علينا ، اللهم فانصرنا عليهم (١) .

---

(١) فتوح الشام / ١٢٢ - ١٢٤ .

وبعد : فإن في هذه المحاورة البليغة مواقف عالية : منها ماقام به أبو عبيدة عامر بن الجراح من بيان جملة من مكارم الأخلاق لذلك الرومي الموفد إليهم ، وذلك حينما اعترض على جلوسه على الأرض وهو أمير ، فأبان له أبو عبيدة أن من مظاهر السمو الأخلاقي عند الإنسان أن يتصف بالتواضع والعفة والمواساة ، وأن هذه الأخلاق لاتتنافى مع الإمارة ، بل هي من دعائم قوتها وثباتها ، ومن الدلائل على رجاحة عقل المتصف بها وسداد رأيه .

ومنها جوابه على عروض المساومة التي تقدم بها مندوب الروم ، حيث بين له الهدف الأعلى الذي بعث الله تعالى به نبيه محمداً ﷺ وهو أن يعبد الناس ربهم جلا وعلا وحده لاشريك له فإن وحدوا الله تعالى ودخلوا في الإسلام فهم إخوة للمسلمين وإن أبوا فليدفعوا الجزية التي تعني خضوعهم للمسلمين مقابل تمتُّعهم بحماية دولة الإسلام ، فإن أبوا فلابد من قتالهم ، على أن مما يقوي المسلم ويسلِّيه أنه من قُتل فهو إلى جنات النعيم ، ومما يضعف الكافر ويحسِّره أنه إن قُتل فإلى الجحيم ، فكيف يرضي عاقل لنفسه بالحرمان من الجنة والخلود في النار .

ومع هذا الوضوح الذي بينه أبو عبيدة فإن ذلك الرومي لم يستخدم شيئًا من عقله وفكره ليَزنَ به كلام أبي عبيدة فيعرف هل هو حق أم باطل ، وإنما الذي كان مهيمنًا عليه هو بيان المهمة التي جاء من أجلها وهي الدعوة إلى الصلح أوَّلاً ثم التهديد بقوة الروم ثانيًا إن لم ينجح الصلح .

وهكذا تكون عبودية البشر للبشر حيث يلغي الأتباع عقولهم ، ويحصرون تفكيرهم على النجاح في أداء المهمة التي كلفهم بها سادتهم .

وصف المعركة :

لما انتهت مفاوضات الروم قال أبو عبيدة : أصبحوا أيها المسلمون وأنتم تحت راياتكم وعلى مصافكم .

وزحف المسلمون إليهم ، وتعرض فرسان المسلمين للروم ولكن الروم ظلوا في معسكرهم ذلك اليوم ، ولا يستطيع المسلمون الوصول إليهم من أجل الوحل الذي صنعوه بينهم وبين المسلمين .

ثم خرج إليهم فرسان المسلمين بقيادة خالد وبقي المشاة مع أبي عبيدة في فحل وقد أخرج الروم فرسانهم فأمر خالد قيس بن هبيرة في مجموعة من فرسان المسلمين بأن يهاجموهم فهاجمهم قيس فهزمهم وفرقهم . ثم أخرج الروم طائفة أخرى من الفرسان فأمر خالد ميسرة بن مسروق بالخروج إليهم فخرج في مجموعة أخرى فهزمهم .

ولما رأى الروم ذلك أخرجوا لهم عدداً كبيراً من الفرسان بقيادة قائد من عظمائهم ، فقسم فرسانه قسمين ، وأرسل قسما نحو خالد بن الوليد فصمد لهم بفرسانه ولم يتزحزح ، ثم أرسل قائدهم القسم الآخر نحو خالد أيضًا فصمد لهم .

ولما رأى خالد قوة معنوية المسلمين وتضعضع فرسان الروم قال لفرسانه : إنه لم يبق من جدِّ القوم ولا حَدِّهم ولاقوتهم إلا ماقد رأيتم فاحملوا معي بأهل الإسلام حملة واحدة واتبعوهم ولاتغفلوا عنهم رحمكم الله .

وحمل خالد بمن معه فاكتسح من أمامه منهم ، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم فكشفهم ، وحمل ميسرة بن مسروق

العبسي على الذين أمامه فهزمهم ، واتبعهم المسلمون يقتلون منهم وقد اختل نظامهم حتى اضطروهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم .

وأراد خالد أن يغتنم فرصة ارتفاع معنوية المسلمين وانحطاط معنوية الروم فقال لأبي عبيدة : إن هزيمتنا خيل المشركين قد دخل رعبها قلوب جماعتهم ، فكلهم قلبه مرعوب متخوف لمثلها منا مرة أخرى فناهض هؤلاء القوم غداً بالغداة مادام رعب الهزيمة في قلوبهم ، فإنك إن أخرت قتالهم أياما ذهب رعب هذه الهزيمة من قلوبهم ونسوها واجترؤوا علينا .

قال أبو عبيدة : فانهضوا على بركة الله غداً بالغداة .

وقام أبو عبيدة بتعبية جيشه في الثلث الأخير من الليل ، وجعل على ميمنته معاذ بن جبل وعلى ميسرته هاشم بن عتبة ، وعلى المشاة سعيد بن زيد ، وعلى الفرسان خالد بن الوليد .

ثم وعظ أبو عبيدة المسلمين مواعظ بليغة منها قوله : كونوا عباد الله أولياء الله ، وارغبوا فيما عند الله أشد من رغبتكم في الدنيا ، ولاتواكلوا فتخاذلوا ، ولْيُغْن كل رجل منكم قِرْنَه ، وأقدموا إقدام من يريد بإقدامه ثواب الله ، ولايكن من لقيكم من عدوكم أصبر على باطلهم منكم على حقكم .

وهكذا أمر أبو عبيدة المسلمين بأن يتولوا الله تعالى وذلك بنصرة دينه ، وأن تكون قلوبهم حاضرة مع مستقبلهم الأخروي ، ونهاهم عن التواكل لأن المتواكل قد أهدر جزءاً من طاقته اعتماداً على وقوف إخوانه ، وأوصى كل رجل معه زميل أن يغني زميله ببذل كل طاقته بدلاً من أن يعتمد على زميله ، كما حثهم على الإخلاص لله تعالى في جهادهم

حتى يحصلوا على ثواب المخلصين ويكون عطاؤهم في القتال أقوى وأبلغ ، ثم يبين أن من النقص المُشين والخسارة الفادحة أن يكون أهل الباطل أصبر على حماية باطلهم من أهل الحق على حقهم .

ثم نهض أبو عبيدة بالمسلمين إلى الروم يمشي ونهض المسلمون معه تحت راياتهم بسكينة وبصيرة ودعة وحسن رعة[1] .

وصنع الله للمسلمين مالم يكن في حسبانهم وأخرج الرومَ لهم من مكانهم الحصين ، وذلك أن « سقلار » قائد الروم أراد أن يغتنم الفرص كما يصنع قواد المسلمين ، فبادر إلى تعبية جيشه ليهجم على معسكر المسلمين ظنًا منه أنهم نيام وأنهم لايفكرون في عبور النهر إليهم ، فلما تجاوز بجيشه منطقة الأوحال وأشرف على النهر لم يفاجأ إلا بجيش المسلمين يعبر النهر وكان النهر ضحلا لايعوق السير ، فكان لابد للروم من اللقاء والمواجهة .

ولما رأى الروم ضعف مستوى الأداء لفرسانهم وخيولهم أمام فرسان وخيول المسلمين ابتكروا حيلة لرفع مستوى فرسانهم فجعلوا في صحبة كل فارس رجلا راميًا وآخر يحمل رمحًا ، وهذا يعني أنه إذا واجه فارسهم فارسًا من المسلمين تصدى له الرامي فإذا أفلت منه قد لايفلت من حامل الرمح .

وكان خالد قد تقدم بالفرسان ومعه مساعداه قيس بن هبيرة وميسرة ابن مسروق ، فلما رأى مكيدة الروم تراجع بفرسانه قليلا حتى لصق بجيش المسلمين من المشاة ، وهو يفكر بحيلة يُخرج بها فرسان المسلمين من هذا المأزق .

---

(١) فتوح الشام / ١٢٨ - ١٣٥ .

وهداه الله لذلك ، فقد رأى أن فرسان الروم مُتَركِّزون في قلب جيشهم ، وميمنتهم وميسرتُهم من المشاة . ولم يكونوا بحاجة إلى صف خيولهم على طول جيشهم لأن جيشهم أضخم بكثير من جيش المسلمين .

وكان فرسان المسلمين مُقَسَّمين إلى ثلاثة أقسام : قسم بقيادة خالد نفسه ، وقسم جعل عليهم خالدٌ قيس بن هبيرة ، وقسم جعل عليهم ميسرة بن مسروق ، فلما رأى خالد مافعل الروم بفرسانهم أمر قيس بن هبيرة أن يذهب بفرسانه إلى ميسرة الروم فيغير على مشاتهم ، وأمر ميسرة بأن يبقى في قلب جيش المسلمين ، وذهب هو إلى ميمنة الروم ليغير علي مشاتهم ، وهدفه من ذلك أن يستدرج فرسان الروم للدفاع عن مشاتهم فيتجردوا بذلك من حماتهم من الرماة وحاملي الرماح ، وفعلا انطلقت طائفة من فرسان الروم إلى ميمنتهم وطائفة أخرى إلى ميسرتهم متجردين من حماتهم ، فقال خالد : الله أكبر أخرجهم الله لكم من رجَّالتهم شدُّوا عليهم .

ونجحت مكيدة خالد ، وباءت مكيدتهم بالفشل ، وشد عليهم خالد من جهة وقيس من الجهة الأخرى ، حتى صرعوا عدداً كبيراً من فرسانهم وقد انتقضت صفوف الروم من قبَل خالد وقيس وبقي قلب الروم ، وقد هجم عليهم جيش المسلمين بفرسانهم ومشاتهم وثبت لهم الروم مدة ثم انهزموا أمامهم .

وقد ذكر الرواة أن هذه المعركة من أعنف المعارك التي خاضها المسلمون ، وقد كان عدد المسلمين في حدود ستة وعشرين ألفا إلى ثلاثين ألفا وعدد الروم مابين خمسين ألف وثمانين ألف على اختلاف الرويات ،

والفرق ليس كبيراً جداً بالنسبة لما ألفَه المسلمون من كثرة عدد أعدائهم ، وإنما كان مرجع ثبات الروم بعض الوقت وشدة قتالهم لكونهم منتخبين من أشداء الروم وذوي البأس فيهم ، ومع ذلك لم يستطيعوا الوقوف للمسلمين إلا ساعات من نهار ثم انهزموا .

وقد أسلمتهم هزيمتهم مع الليل إلى الأوحال التي صنعوها لتحول بينهم وبين هجوم المسلمين فشاء الله أن تكون سببًا في هلاكهم فقد تورطوا فيها وهم ينسحبون فتصيَّدهم المسلمون فيها بالرماح ولم ينج منهم إلا قليل [(١)] .

ومما يصور شدة هذه المعركة وضراوتها ما أخرجه الأزدي من خبر سالم بن ربيعة قال : حمل ميسرة بن مسروق [(٢)] يومئذ ونحن معه في الخيل ، فحملنا على القلب ، وقد أخذ صف الروم ينتقض من قبَل ميسرتهم وميمنتهم ، ولم ينته الانتقاض إلى القلب ، فثبتوا لنا وقاتلونا قتالاً شديداً ، فصُرِع ميسرة عن فرسه ، وصُرِعْتُ معه ، وخرج فرسي فعاد ، ويعتنق ميسرة رجلا من الروم فاعتركا ساعة فصرعه ميسرة فقتله ، ثم شد آخر على ميسرة فعانقه واعتركا ساعة فصَرَع ميسرة وجلس على صدره وشدَّ عليه ، فضربت وجه الرومي بالسيف فأطرت قحف رأسه ووقع ميتًا ، ووثب ميسرة .

وأقبل إليَّ رجل منهم فضربني ضربة أدارني منها ، وبَصُرَ به ميسرة

(١) انظر فتوح الشام للأزدي / ١٢٨ - ١٣٣ ، تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٢-٤٤٣ .

(٢) هو ميسرة بن مسروق العبسي رضي الله عنه أسلم قديمًا ورسول الله ﷺ بمكة .

فضربه فقتله ، وركبَنَا منهم عدد كثير فأحاطوا بنا وظننا والله أنه الهلاك ، إذ نظرنا فإذا نحن نسمع نداء المسلمين وتكبيرهم ، وإذا صفوفهم قد قربت منا ، وإذا الرايات قد غشيَتْنَا ، فشدَّ الله ظهورنا بإخواننا فانقشعوا عنا .

وحمل عليهم خالد بن الوليد على ميمنتهم فدقَّ بعضهم على بعض حتى دخلوا عسكرهم [1] .

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر ثابت بن سهل بن سعد قال : كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصًا ، وأمضاهم في رقاب الروم سيفًا ، فبينما هو يحارب في ميمنة المسلمين إذا أقبلت جنود الروم تحوط عسكر المسلمين ، فبرز إليهم معاذ بن جبل في رجاله ونادى فقال : أيها الناس اعلموا - رحمكم الله - أن الله قد وعدنا بالنصر ، وأيدكم بالإيمان ، فانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، واعلموا أن الله معكم ، وناصركم على عبدة الأوثان [2] .

مواقف جهادية :

هذا وقد كان لبعض قادة المسلمين وأبطالهم مواقف عالية في هذه المعركة الضاربة ، فمن ذلك ما رواه محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الملك بن نوفل بن مساحق عن أبيه : أن خالدا قاتل يومئذ قتالا شديداً ، ماقاتل مثله أحد من المسلمين ، وما كان إلا حديثًا ومثلاً لمن

---

(١) فتوح الشام / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) فتوح الشام / ١٣٧ .

حضره، ولقد كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم فيحمل عليهم حتى يخالطهم، ثم يجالدهم حتى يفرِّقهم ويهزمهم ويكثر القتل فيهم.

قال: وسمعت من يزعم أنه قتل في ذلك اليوم أحد عشر رجلا من بطارقتهم و أشدائهم وأهل الشجاعة منهم، وكان يقاتلهم ويقول:

أضربهم بصارم مُهنَّد   ضرب صليب الدين هاد مُهتد

لا واهن القول ولا مُفَنَّد [1]

وسيأتي زيادة تنويه بجهاده في خبر هاشم بن عتبة.

ومن ذلك ماأخرجه الأزدي من خبر ربيعة العنزي عن هاشم بن عتبة قال: والله لقد كنا يومئذ أشفقنا على خيلنا أول النهار، ثم إن الله نصرنا عليهم، فما هو إلا أن رأيْنَا خيلنا قد نصرها الله على خيلهم فدعوت الناس إليّ وأمرتهم بتقوى الله وهززت رايتي، ثم قلت: والله لا أردها حتى أركزها في صفهم فمن شاء فليتبعني ومن شاء فليتخلف عني.

قال: فو الله الذي لا إله إلا هو ما أعلم أن أحدًا من أصحاب رايتي تخلف عني حتى انتهيت إلى صفهم، فنضحونا بالنشاب فجثونا على الركب واتقيناهم بالدَّرَق [2]، ثم دنوت بلوائي وقلت لأصحابي: شدُّوا عليهم أنا فداؤكم، فإنها غنيمة الدنيا والآخرة، فشددت وشدوا معي، فاستقبلت عظيمًا منهم وقد أقبل نحوي فأوجزته الرمح [3] فخر ميتا، وضاربناهم بالسيوف ساعة في صفهم.

---

(١) فتوح الشام / ١٣٦.

(٢) أي التروس التي يَتَّقى بها المحارب.

(٣) أي أسرعتُ إليه بالرمح.

قال : وحمل عليهم خالد بن الوليد من قبَل ميسرتهم ، فقاتلهم قتالا شديدًا سريعًا ذريعًا ، وانتقضت صفوف الروم من قبَل خالد ومن قبَلي ، ونهد إليهم أبو عبيدة بالرجَّالة والناس [1] .

ومن ذلك ما رواه الأزدي من خبر يحى بن هانئ بن عروة المرادي : أن قيس بن هبيرة قطع يومئذ ثلاثة أسياف ، وكسر بضعة عشر رمحًا وكان يقاتل ويقول :

لايَبْعُدَنْ كـــل فتى كـرَّار ماضي الجَـنَان خشـن صبار

حبَوْتهم بالخـــيل والأدبار [2] تُقدم إقدام الشجاع الضَّاري

ومن ذلك ما أخرجه الأزدي من خبر عبد الله بن قُرْط الثِّمالي قال : وكان واثلة بن الأسقع في خيل ابن هبيرة ، فعرض له بطْريقٌ من كبارهم فبرز له واثلة وهو يقول في حملته :

لَيْثٌ وليث في مجال ضَـنْك كــلاهما ذو أَنَـف ومَـعْـك [3]

أجول جَوْلَ صارم في العرْك أو يكـشف الله قـناع الـشَّك

مَـعْ ظَفَـري بحاجتي وتَرْكي

ثم حمل على البطريق فضربه ضربة فقتله [4] .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المؤرخين لم يسجلوا جميع المواقف التي

---

(١) فتوح الشام / ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) لعله أراد الموت .

(٣) الأنَف الإباء ، والمَعْك لَيُّ الخصم وغلَبَته .

(٤) فتوح الشام / ١٣٣ .

جرت من المسلمين آنذاك ، وإنما كانوا يكتفون بذكر بعض المواقف البارزة، وينبغي أن نعلم بأن جميع الذين شهدوا هذه المعارك من المسلمين قد بذلوا جهوداً كبيرة من طاقتهم ، ولم يكونوا ينتظرون ثناءاً من أحد لأنهم إنما يريدون وجه الله تعالى .

وإنما نقل الرواة ماحدَّث به بعض من شاهدوا هذه المعارك . وعلى سبيل المثال نجد أن القعقاع بن عمرو الذي كان من البارزين في حرب العراق وكان الرواة هناك ينقلون أخباره قد شارك في كثير من حروب الشام حيث قدم مع خالد ، ولكن لم يُذكر إلا مواقف قليله ، وقد شهد هذه المعركة وكان له فيها أشعار سُجِّلت ومنها قوله :

وغداة فحل قد رأوني مُعْلَما	والخيل تَنْحَطُ والبلا أطوار
مازالت الخيل العراب تدوسهم	في حوم فحل والهبا موار
حتى رمين سراتهم عن أسرهم	في ردغة مابعدها استمرار
يوم الرِّداغ بُعَيْد فحل ساعة	وخز الرماح عليهم مدرار
ولقد أبَرْنا في الرِّداغ جموعهم	طُرّاً ونحوي تشخص الأبصار(١)

كتاب من أبي عبيدة لعمر :

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين نصره ، وعلى الكافرين

(١) تاريخ دمشق ١/ ٤٨٧ ، الطبعة الأولى .

رجزه ، أُخبر أمير المؤمنين - أصلحه الله - أنا التقينا نحن والروم وقد جمعوا لنا الجموع العظام ، فجاءونا من رءوس الجبال وأطراف البحار ، وظنوا أنه لاغالب لهم من الناس ، فبرزوا لنا وبغوا علينا ، وتوكلنا على الله ورفعنا رغبتنا إليه ، وقلنا حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجَّالتنا ، وكان القتال بين الفريقين مَليًّان [١] النهار ، أهدى الله فيه الشهادة لرجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد بن العاص ، وضرب الله وجوه المشركين ، واتبعهم ا لمسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، حتى اعتصموا بحصونهم ، فأصاب المسلمون عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم ، وأنزلهم الله من صياصيهم [٢] ، وقد قذف في قلوبهم الرعب .

فاحمد الله يا أمير المؤمنين أنت ومن قبَلك من المسلمين على إعزاز دينه ، وإظهار الفَلْج [٣] على المشركين ، فادعوا الله لنا بتمام النعمة ، والسلام عليك [٤] .

وهذا الكتاب مثل من أمثلة كثيرة تدل على اتصاف الصحابة رضي الله عنهمْ بالتوحيد الخالص ، وذلك بإرجاعهم كل الأمور إلى حول الله تعالى وقوته ، وشكره التام على نعمته جل وعلا .

وعلى هذا المنوال جاء كتاب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي يقول فيه :

---

(١) الملي الساعة الطويلة من النهار ، والمراد جزء منه .

(٢) الصياصي جمع صيصة وهي الحصن وكل ما امتنع به .

(٣) الفلج هو الظفر .

(٤) فتوح الشام / ١٣٩ - ١٤٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى أبي عبيدة ابن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد فإنه بلغني كتابك تذكر إعزاز الله لأهل دينه ، وخذلان أهل عداوته ، وكفايته إيانا مئونة من عادانا ، فالحمد لله على إحسانه إلينا فيما مضى ، وحسن صنيعه لنا فيما غبَّر ، الذي عافى جماعة المسلمين وأكرم بالشهادة فريقًا من المؤمنين ، فهنيئًا لهم برضاء ربهم وكرامته إياهم ، ونسأله ألا يحرمنا أجرهم ولا يفتنَّا بعدهم ، فقد نصحوا الله وقضوا ما عليهم ، ولربهم كانوا يعملون ولأنفسهم كانوا يهتدون (١) .

* * *

(١) فتوح الشام / ١٤١ .

٢ - حصار دمشق وفتحها -

لقد تم حصار دمشق ثلاث مرات : الأولى بعد وصول خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق ، حيث أصبح أميرًا على الشام وانضم إليه أبو عبيدة بن الجراح بجيشه ، وقد قطع هذا الحصارَ تجمُّعُ الروم في أجنادين حيث ذهب خالد وأبو عبيدة وبقية القادة بجيوشهم وقاتلوا الروم في أجنادين في شهر جمادى الأولى من العام الثالث عشر ، ثم في مرج الصُّفَّر في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر كما سبق .

والثانية : بعد معركتي أجنادين ومرج الصفر ، وفيها كانت وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في شهر جمادى الثانية من العام الثالث عشر ، وفيها كان عزل خالد وتولية أبي عبيدة على الشام رضي الله عنهما .

والثالثة : بعد معركة فحْل وهي الأخيرة ، وفيها تم فتح دمشق في شهر رجب من العام الرابع عشر للهجرة النبوية[١] .

وبعد هذه المعركة الكبيرة غلب المسلمون على جميع بلاد الأردن ، وكانت نهاية هذه المعركة في آخر شهر ذي القعدة من العام الثالث عشر ، وبعد أن قام الجيش الإسلامي بإخضاع مابقي من القرى والأرياف توجهوا إلى دمشق وعادوا مرة أخرى إلى حصارها .

وظل أبو عبيدة مرابطًا بجيشه عند باب الجابية غربي دمشق ، وخالد ابن الوليد عند الباب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير إلى باب كيسان جنوبي دمشق ، وعمرو بن العاص على باب توما شمالي

---

(١) انظر تحقيق ذلك في « الطريق إلى دمشق » لأحمد عادل كمال / ٣٥٧ .

دمشق ، وكذلك شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس شمالي دمشق .

وقد طال حصار المسلمين لها لأنها كانت محصنة بسور عظيم مبني بالحجارة الضخمة ، وكان ارتفاعه ستة أمتار تقريبًا ، وسماكته خمسة أمتار ، فكان من الصعب جدًا اقتحامه بأي وسيلة آنذاك كما أن حول السور من خارجه خندقا فيه ماء غزير ، فكان لابد لمن أراد الوصول أن يسبح في الماء .

وقد أغار المسلمون على ما حول دمشق ، وقطعوا جميع الإمدادات التي تصل إليها خاصة من طريق حمص حيث وجَّه أبو عبيدة جيشًا بقيادة ذي الكلاع الحميري ليصد أي إمداد يرسله الروم إلى دمشق وقد تصدى لجيش رومي جاء لهذا الغرض .

ولقد يئس الروم من الإمدادات ، ولكنهم كانوا ينتظرون بالمسلمين حلول فصل الشتاء لظنهم أنهم لن يستطيعوا البقاء في العراء مع شدة البرد .

ولقد كان حاكم دمشق الرومي يائسًا من الانتصار على المسلمين من قَبْل حصارهم .

ومما جاء في هذا المعنى ماذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله من حديث الوليد بن مسلم قال : أخبرني من سمع يحى بن يحى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا : لما نزل ا لمسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر ، فذهبنا نتسوَّق منها قبل ذلك ، فبينما نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه ، فقال : أنتما من العرب؟ قلنا : نعم ، قال : وعلى النصرانية : قلنا : نعم ، فقال : ليذهب أحدكما فليتجسس لنا عن

هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه، ففعل ذلك أحدنا، فلبث مليًّا ثم جاءه فقال : جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولاً عتاقا ، أما الليل فرهبان ، وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر ، قال : فالتفت إلى أصحابه وقال : أتاكم منهم ما لا طاقة لكم به [1] .

وفي رواية أخرى لهذا الخبر ذكرها الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى ابن يحيى الغساني عن هذين الرجلين قالا : فبينا نحن على برج بابها الشرقي إذ نشَّب أصحاب خالد بن الوليد القتال، ودنا رجل منهم في يده اليمنى السيف، وفي يده اليسرى الدَّرَقة فنادى بالبراز، فقال لنا : مايقول: قلنا : نقول إنه يدعو إلى المبارزة ، فأنزلوا جبشيا كالبعير مستائما عليه سلاحه، فتدانى فضربه المسلم فقتله، ثم نادى بالبراز فأنزلوا إليه صاحب بندهم، أجلسوه على باب دَلَّوه، فتدانى فضربه المسلم فقتله، ثم نادى بالبراز ، فقال : قل للشيطان يبارزك [2] .

فهذا المجاهد البطل الذي لم يذكر اسمه قتل اثنين من أبطال الروم مبارزة ، ثم لما يئسوا من مبارزته قالوا تلك الكلمة التي تدل على اعترافهم بقوة المسلمين وعجزهم عن مقاومتهم مقاومة الند للند، ومن المعروف أن المبارزة ترفع من معنوية الجيش الذي ينتصر مبارزوه، بينما تهبط من معنوية الجيش الذي ينهزم مبارزوه، ولذلك يُقدم عليها المسلمون كثيراً لثقتهم بأبطالهم .

---

(١) البداية ٧/ ١٥ ، تاريخ دمشق ٢/ ٩٦ .

(٢) تاريخ دمشق ٢/ ١١٨ .

وفي رواية أخرى لابن عساكر : فلما طال عليهم الحصار دسَّ بطريقهم عيونا فجسُّوا عساكرهم وأمراءهم، ثم عادوا إلى عظيمهم فسألهم بما جسُّوا و رأوا فقالوا : أما الليل فطول القيام وأما النهار فالخير الظاهر والحرص على الجهاد ، وإن وجد أحدهم نعلا أو كبَّة شعر أو غزل دفعها إلى صاحب المَقْسم ، فإذا قال صاحب المقسم ، ماهذا ؟ قالوا : هذا مالا نستحله إلا بحلِّه ، فلما سمع عظيم دمشق هذه القصة قال : مالنا بهؤلاء طاقة ولا لنا في قتالهم خير[1] .

وفي هذه الرواية إضافة ، وهي وصف المسلمين بالأمانة حيث يسلِّمون لصاحب الغنائم كل ماوجدوه وإن كان شيئًا حقيرا لايُؤْبَه له .

وقد جاءت عدة روايات في بيان هذا الحصار وكيف تم الفتح بعد ذلك وإن من أمثل هذه الروايات وأوضحها ما أخرجه ابن جرير الطبري من رواية سيف بن عمر .

وقد جاء في هذه الرواية : فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق ، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ، وهرقل منهم قريب ، وقد استمدوا ، وذو الكلاع بين المسلمين وحمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص- وكان أبو عبيدة بعثه في جيش ليصد أمداد الروم - .

قال : وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق ، فأشْجَتْها الخيول التي مع ذي الكلاع ، وشغلتها عن الناس ، فأرَزوا ونزلوا بإزائه ، وأهل دمشق على حالهم .

---

(١) تاريخ دمشق ٢/١٢٣ - ١٢٤ .

فلمـا أيقن أهل دمـشق أن الأمـداد لاتصل إليـهم فـشلوا ووهنوا وأبلسوا- يعني تحيروا - وازداد المسلمون طمعا فيـهم ، وقد كانوا يرون أنهـا كـالغـارات قبل ذلك ، إذا هجم البرد قـفل الناس ، فسـقط النجم والقـوم مقيـمـون ، فـعند ذلك انقطع رجـاؤهـم ، ونـدمـوا على دخـول دمشق ، وولد للبطريق - يعني قـائد الروم - الذي دخل على أهل دمشق مولود فـصنع عليـه - يعني طعـامـا - فأكل القـوم وشربوا ، وغـفلوا عن مواقفهم ، ولايشعر بذلك أحد من المسلمين إلا ماكان من خالد فإنه كان لاينام ولايُنيم ، ولايخفى عليـه شيء من أمـورهـم ، عـيونه ذاكـيـة وهو مَعنيٌّ بما يليه ، قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم ، وأوهـاقـا - يعني حلقًا تكون بأطراف الحبال لتمسك بشرف السور - .

فلما أمسى من ذلك اليوم نهـد - يعني مضى - ومن معـه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله من أصحابه في أول يومه - يعني الذين لازموه من أيامه الأولى - وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارْقَوا إلينا ، وانهدوا للباب .

فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف ، وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم - وقد كان الماء فيه عميقًا كما تقدم - فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيهما القعقاع ومذعور ثم لم يدعا أحبولة إلا اثبتاها - والأوهاق بالشرف - وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق ، أكثره ماء وأشده مدخلا ، وتوافوا لذلك ، فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أودنا من الباب ، حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه ، وانحدر معهم ، وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي ، وأمَرهم بالتكبير فكبَّر الذين على رأس

السور ، فنهد المسلمون إلى الباب ، ومال إلى الجبال بشر كثير فوثبوا فيها .

وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم ، وانحدر إلى الباب فقتل البوابين ، وثار أهل المدينة ، وفزع سائر الناس ، فأخذوا مواقفهم ولايدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم ، وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين .

فأقبلوا - يعني الروم - عليهم من داخل ، حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أُنيم ، ولما شد خالد على من يليه ، وبلغ منهم الذي أراد عنوة أرز من أفلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره ، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة - يعني على نصف الأملاك - فأبوا وأبعدوا ، فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح ، فأجابوهم وقبلوا منهم ، وفتحوا لهم الأبواب ، وقالوا : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها ، هذا استعراضًا وانتهابًا ، وهذا صلحا وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد مُجْرَى الصلح فصار صلحا [1] .

هذا وإننا من هذا الموقف العظيم لخالد رضي الله عنه نكتشف مقدرته الخارقه في شئون الحرب ، لا في مجال ميدان المعارك فحسب وما يتطلب ذلك من شجاعة وحسن تدبير ، بل في التخطيط العالي في جميع شئون الحرب .

وإننا لنستفيد من هذا الموقف عبرًا عظيمة ، فلابد أن يكون القائد متيقظًا دائمًا ، وأن لايعتمد في الأمور المهمة على غيره إلا إذا كانوا في

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٣٨ .

مستواه ، وأن يُكثر من بَثِّ العيون المخلصين الذين يكشفون له عن تحركات العدو وأعماله في كل الأوقات .

كما نستفيد من بلادة الأعداء وتهاونهم أن إهمال ساعة قد يضيِّع مفعول سنة من الصبر والمصابرة ، وأن الاشتغال بالأدنى يحول دون بلوغ معالي الأمور .

هذا وإن خوض خالد بنفسه هذه المغامرة ليدلنا على عظمته القيادية فهو لا يعيش في أبراج محصنة ويتقي بجنده المخاطر ، بل يقودهم في هذه المخاطر ، وإن الجندي حينما يرى قائده يدخل معه في المخاطرة يحاول أن يبذل كل ما يملكه من طاقة من أجل بلوغ الأهداف .

إن الذي يتصور خالدًا وهو يحمل القربة المنفوخة فوق ظهره ، ويسبح في الماء ، ثم يصعد إلى السور على الحبال ، ثم يهبط إلى ميدان الأعداء . . إن من يتصور قيام خالد بهذه العملية وهو الذي ملأ الدنيا شرقها وغربها شهرة ومجدا يدرك كيف كانت عظمة المسلمين الأوائل ، ويعرف سببًا مهمًا من أسباب انتصاراتهم الباهرة ، التي خلدها التاريخ ، وأصبحت مضرب الأمثال .

هذا وإن تصرف أبي عبيدة رضي الله عنه في إجراء فتح دمشق مجرى الصلح كلها ليعتبر مثالاً لكمال العدل والوفاء ، حتى مع الأعداء الذين لو ظفروا بالمسلمين لمزقوهم ، وظاهر من العرض السابق أن الروم لم يرضوا بالصلح إلا بعد أن فُتح جزء من مدينتهم عنوة ، والجيش الإسلامي واحد وإن تقسم إلى أقسام ، فكان بإمكان أبي عبيدة أن يرفض الصلح بعد ماتبين له ما قام به خالد ، لكنه قد أعطاهم موافقة على

الصلح ، فمن تمام الوفاء أن يُتم لهم ماوافقهم عليه ، وإن كانوا قد اغتنموا فرصة عدم علمه بما قام به خالد ، فالمسلمون قدموا ليفتحوا القلوب قبل فتح البلدان ، فكانت أخلاقهم العالية هي الجاذب الأول لأبناء البلاد المفتوحة نحو الدخول في الإسلام .

وقبل مغادرة أحداث هذا الحصار نشير إلى عمل فدائي قام به أحد الصحابة بمفرده وهو واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، فقد ذكر الإمام الذهبي من حديث بسر بن عبيد الله عن واثلة . قال : فأسمع صرير باب الجابية - وهو أحد أبواب دمشق - فمكثت فإذا بخيل عظيمة فأمهلتها ، ثم حَمَلت عليهم وكبَّرت فظنوا أنهم أحيط بهم ، فانهزموا إلى البلد ، وأسلموا عظيمهم - يعني قائدهم - فدعسته بالرمح وألقيته عن برذونه ، وضربت يدي على عنان البرذون وركضت ، والتفتوا فلما رأوني وحدي تبعوني فدعست فارسًا بالرمح فقتلته ، ثم دنا آخر فقتلته ، ثم جئت خالد ابن الوليد فأخبرته وإذا عنده عظيم من الروم يلتمس الأمان لأهل دمشق[1] .



---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٨٦ - ٣٨٧ .

٣ - فتح مدينة حمص -

أخرج محمد بن عبد الله الأزدي من خبر محرز الباهلي قال : ثم خرج أبو عبيدة نحو حمص ، فخرج إليه أهل حمص جمعًا عظيمًا ، ثم استقبلوا بجوسية [١] ، فرماهم أبو عبيدة بخالد بن الوليد ، فأقبل خالد فلما نظر إليهم خالد قال : يا أهل الإسلام الشَّدَّةَ الشَّدَّة ، ثم حمل خالد عليهم وحمل المسلمون معه ، فولَّوا منهزمين حتى دخلوا مدينتهم .

وبعث خالد بن الوليد ميسرة بن مسروق العبسي فاستقبل خيلاً لهم عظيمة عند نهير قريب من حمص، فطاردهم قليلا ثم حمل عليهم فهزمهم .

وهكذا كان النصر حليف المسلمين إلا في الشاذ النادر مهما قلوا وكثر أعداؤهم ، وإن يكن ذلك عجيبًا فأعجب منه أن فارسًا من المسلمين يُدْعَى شرحبيل بن حمْيَر انفرد عن بقية الجيش ، فعرض له بعض فرسان الروم ، فحمل عليهم فقتل منهم سبعة ، ثم جاء إلى نهر قبَل حمص عند دير مسْحَل فنزل عن فرسه وسقاه ، وجاءه نحو من ثلاثين فارسًا من أهل حمص ، فلما رأوه واحدًا أقبلوا نحوه وراء النهر ، فأقحم فرسه الماء وعبر إليهم ، ثم ضرب فرسه وحمل عليهم في كل حملة يقتل رجلا حتى قتل أحد عشر رجلا ، وانتهوا إلى دير مسحل ، فاقتحموا جوف الدير ، واقتحم شرحبيل معهم ، فرماه أهل الدير بالحجارة حتى قتلوه[٢] .

---

(١) قرية قرب حمص .

(٢) فتوح الشام/ ١٤٥ .

وإن مثار العجب أن يتصدى فارس واحد لمجموعة من الفرسان فيقتل منهم ويهزم بقيتهم ، ثم تأتي مجموعة أخرى يحول بينه وبينهم النهر فيطمعون فيه فلا ينتظر حتى يعبروا إليه ، بل يُقحم فرسه ويعبر إليهم ، ولاشك إن إقدامه هذا قد أوقع الرعب في قلوبهم فصار يقتل منهم حتى فروا منه ولجئوا إلى ذلك الدير ، وأخيراً غدروا به كفعل الجبناء الذين لايواجهون في الميدان وإنما يدافعون من الأبراج المحصنة .

وإذا كان هذا خبر فارس مغمور ليس له ذكر في التاريخ فكيف بالفرسان المسلمين الذين ملئوا صفحات التاريخ بطولة وفداءًا ؟

وإن جيشًا يكون هذا أحد أفراده العاديين لايمكن أن يُغلب بإذن الله تعالى .

ثم ذكر الأزدي في سياق الخبر السابق أن المسلمين نزلوا على باب الرَّسْتَن أحد أبواب مدينة حمص ، وأنهم حاصروا أهل هذه المدينة حصارًا شديدًا ، وأن أهل حمص أخذوا يقولون للمسلمين، اذهبوا نحو الملك فإن ظفرتم به فنحن كلنا لكم عبيد ، قال : فأقام أبو عبيدة على باب الرستن بالناس ، وبث المسلمون الخيل في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة ، وقطعوا عنهم المدد والميرة ، واشتد عليهم الحصار وخشوا السبي فأرسلوا إلى المسلمين فطلبوا إليهم الصلح ، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتابًا بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وعلى أن يُضيفوا المسلمين يومًا وليلة ، وعلى ألاَّ يعمروا بيعَهم ، وصالحوا على أرض حمص كلها ، على أن عليهم مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار .

فقبل ذلك منهم المسلمون ، وفرغوا من الصلح ، وفتحوا باب المدينة ، ودخل المسلمون ، وآمن بعضهم بعضًا [1] .

* * *

(١) فتوح الشام / ١٤٥ - ١٤٦ .

٤ - خبر قيصر حين بلغه فتح الشام -

أخرج أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي من خبر عبد الله بن قرْط الثمالي ، قال : عسكر أبو عبيدة بن الجراح ونحن معه حول حمص نحوا من ثماني عشرة ليلة ، وقد وجّه عماله في نواحي من أرض حمص ، واطمأن في عسكره ، وذهبت منهزمة الروم من فحْل حتى قدموا على ملك الروم بأنطاكية ، وخرجت فرسان من فرسان الروم ورجال من عظمائهم وذوي الأموال والغنى والقوة ممن كان واطن الشام ، فدخلوا قيسارية ، وتحصن أهل فلسطين بإيلياء .

فلما قدمت الهزيمة على هرقل بأنطاكية دعا رجلا من عظمائهم ، وعددًا من فرسانهم وأشدائهم ، فدخلوا عليه ، فقال : أخبروني ويلكم من هؤلاء القوم الذين تلقونهم ، أليسوا بشرًا مثلكم ؟

قالوا : بلى ، قال : فأنتم أكثر أم هم ؟

قالوا : نحن أكثر منهم أضعافًا ، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم .

قال : ويلكم ، فما بالكم منهزمون إذا لقيتموهم ؟ فسكتوا ، فقام شيخ منهم ، فقال : أنا أخبرك أيها الملك من أين يُؤتَون ، قال : فأخبرني .

قال : إنا إذا حملنا عليهم صبروا ، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا ، ومن حيث إنا نحمل عليهم فنكذب ، ويحملون علينا فلا نصبر .

قال : ويلكم ، فما بالكم كما تصنعون ، وهم كما تزعمون ؟

قال الشيخ : ما أراه إلا وقد علمت من أين هذا ، قال له : ومن أين هذا ؟

قال : من أجل أن القوم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولايظلمون أحدًا ، ويتناصفون فيما بينهم ، ومن أجل أنا نشرب الخمور ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغضب ، ونظلم ، ونأمر بسخط الله ، وننهى عن ما يرضي الله ، ونفسد في الأرض .

قال : صدقتني والله ، والله لأخرُجنَّ من هذه القرية ، ولأدعنَّ هذه البلدة ، ومالي في صحبتكم من خير وأنتم هكذا .

قال له الشيخ ، أنشدك الله أيها الملك أن تترك سورية وهي جنة الدنيا للعرب ، ونخرج منها ولَمْ نقاتل ونجهد .

قال : قد قاتلتموهم غير مرَّة بأجنادين ، وفحل ، ودمشق ، والأردن ، وفلسطين ، وحمص ، وفي غير موطن من المواطن ، كل ذلك تنهزمون وتفرّون وتُغلَبون .

قال له الشيخ : أنشدك الله أيها الملك أن تخرج وحولك من الروم عدد الحصا والتراب والذرِّ ، لم يلقهم منهم إنسان ، ثم تريد أن تخرج منها ، وترجع بهؤلاء جميعًا من قبل أن تقاتلوا ؟

قال : فإن هذا الشيخ ليكلمه بذلك إذ قدم عليه وفد أهل قيسارية ووفد إيلياء [1] .

---

(١) فتوح الشام / ١٤٩ - ١٥١ ، البداية والنهاية ٧/ ١٥ .

وهكذا ظهر واضحًا أن عقلاء الروم كانوا يعلمون مَكَامن القوة عند المسلمين ، وأسباب انتصاراتهم ، كما كانوا يعلمون من أين تُؤْتَى جيوشهم، ومع ذلك فإنهم يُصرُّون على حرب المسلمين من غير أن يحاولوا تغيير ما بأنفسهم ، فيُهْزَمون في كل مرة .

* * *

مواقف وعبر
فى فتوح العراق الثانية
(ما قبل القادسية)

كانت فتوح العراق الأولى على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه كما سبق ، إلى أن رحل إلى الشام مددا للمسلمين هناك، وقد تولى أمر جيش المسلمين في العراق بعد رحيل خالد المثنى بن حارثة الشيباني، وقد قام بتنظيم جيشه ، وولّى عددًا من أهل البسالة والإقدام بدلا من الذين أخذهم خالد معه .

ولما علم أهل فارس بغيبة خالد أرادوا اغتنام الفرصة للقضاء على بقية جيش المسلمين فوجهوا جيشًا نحو عشرة آلاف بقيادة هرمز بن جاذويه، وقد كتب شَهْر بَراز [1] ملك الفرس إلى المثنى : إني قد بعثت إليك جنداً من وَخش أهل فارس[2] ، إنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم ، فكتب إليه المثنى : من المثنى إلى شهْر بَراز إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله في الناس الملوك، وأما الذي يدلنا على الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير قال : فجزع أهل فارس من هذا الكتاب ، ولاموا شهر براز على كتابه إليهم واستهجنوا رأيه[3].

هذا وقد وُفِّق المثنى بهذا الرد المحكم فقد حصر أمر كسرى بأحد مقصدين : الأول البغي ، والمراد بالبغي هنا الكبرياء والاستهانة

---

(١) جاء في « البداية والنهاية » شهريار وصوابه شهر براز وهو ابن أردشير بن شهريار كما في تاريخ الطبري .

(٢) يعني من رذائلهم وسقطهم .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١٧ .

بالآخرين حيث إن إرسال هذا النوع من الجنود يعني عدم إقامة وزن يذكر للعدو المحارب ، وهذا نوع من الغرور الذي يسلم صاحبه إلى الفشل، ولذلك قال المثنى : إنما أنت أحد رجلين : إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، والمقصد الآخر الكذب ، فالكذب ضعف وخور ولايصدر إلا ممن ضعف عن المقاومة وعجز عن المواجهة فتدرع بالكذب ليستر نقصه وعُواره ، ولذلك قال المثنى : وإما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله الملوك ، ثم بكّتهم وبين عجزهم ونَفَاد قوتهم بقوله: فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير .

وقد سار المثنى من « الحيرة » إلى « بابل » فتوغل في أرض الفرس من أجل أن لايترك لهم مجالا لاستعادة القرى التي سيطر عليها المسلمون، وقد التقوا عند عُدوة نهر الصراط الأولى ببابل ، فاقتتلوا قتالا شديدًا جدًا ، وأرسل الفرس فيلا بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين فحمل عليه المثنى بن حارثة فقتله ، وأمر المسلمين فحملوا . فلم تكن إلا هزيمة الفرس ، فقتلوهم قتلا ذريعًا ، وغنموا منهم مالاً عظيمًا، وفَرَّت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة .

وقد أشاد الفرزدق بعد ذلك بالمثنى لقتله الفيل حيث يقول :

وبَيْت المثنى قاتل الفيل عنوة ... ببابل إذ في فارس ملك بابل[1]

وبعد هزيمة الفرس في هذه المعركة ظل المثنى ينتظر أخبار أبي بكر الصديق وأوامره رضي الله عنه ، وقد انشغل الصديق بحروب الشام، وانشغل أهل فارس عن المسلمين بالشقاق والخلاف بينهم على

---

(١) البداية ٧/ ١٧.

الملك، فاغتنم ذلك المثنى ووفد على الصديق في المدينة فوافاه في مرض الموت، وقد أوصى أبو بكر عمر رضي الله عنهما بقوله : إذا أنا مت فلاتمسين حتى تندب الناس لحرب أهل العراق مع المثنى ، فكان أول عمل قام به عمر أن ندب الناس مع المثنى لحرب أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي توفي فيها أبو بكر ، ثم كرر ذلك ثلاثة أيام حتى انتدب الناس لهذا الوجه ، وكان أول من بادر إلى الجهاد أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم تتابع الناس، وقد ولاه عمر على هذا الجيش وعلى حرب العراق ، ثم كُلِّم في أن يولي رجلا من المهاجرين أو الأنصار فقال : لا والله لا أفعل ، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم إلا أوّلَهم انتدابًا (١) .

وإنما فعل ذلك عمر مع معرفته بفضائل الصحابة رضي الله عنهم على غيرهم ليدفع الناس إلى الإسراع في الاستجابة حيث لم يستجيبوا إلا في اليوم الثالث ، ولم يكن ذلك من عادتهم فلعل موت الصديق رضي الله عنه كان له أثر في ترددهم وتأخرهم .

على أن عمر رضي الله عنه لم يكن ليولي القيادة رجلا يفقد الكفاءة لمجرد أنه أول من استجاب ، بل هو متصف بذلك مع وجود من يتصف بالكفاءة من الصحابة ولكن عمر رجح في هذه المرة جانب المبادرة إلى الاستجابة لناحية تربوية قصد بها دفع المسلمين إلى الاهتمام بالجهاد في سبيلِ الله تعالى ، وقد اثبتت الأيام أن أبا عبيد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٤ ، البداية ٧/ ١٨ .

رحمه الله كان يتصف بالشجاعة والفداء والشهامة والسخاء كما سيأتي في المواقف التالية إن شاء الله تعالى .

وإنما كان يخشى عليه عمر رضي الله عنه من التسرع وزج المسلمين في المهالك نظراً لأنه شجاع وليس لديه خبرة بحرب فارس، كما كان يخشى عليه أن يدفعه إقدامه وحماسه إلى التفرد بالرأي وعدم الأخذ بالشورى فلذلك زوده بنصائح نافعة في هذا المجال . فكان مما قال له: اسمع من أصحاب النبي ﷺ ، وأشركهم في الأمر، ولاتجتهد مسرعا حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لايصلحها إلا الرجل المكيث ، الذي يعرف الفرصة والكف .

وقال له أيضًا : إنك تَقدُم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية - يعني التسلط والجبروت- تَقدُم على قوم قد جرؤوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ولاتفشينَّ سرك، فإن صاحب السر ماضبطه متحصِّن لايؤتَى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة .

ونراه يركز مرة أخرى في نصيحته على التريث والتروي فيقول لأبي عبيد : إنه لم يمنعني أن أؤمر « سليطا » إلا سرعته في الحرب، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ولكن الحرب لايصلح لها إلا المكيث (١).

وقد كان سليط بن قيس الأنصاري ممن بادر بعد أبي عبيد إلى الجهاد.

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٤٥ - ٤٥٤ .

١ – معركة النمارق –
٢ – معركة كسكر –
٣ – معركة باقسياثا –

تبين لنا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جهز جيشًا إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود وقد سبقه المثنى بن حارثة ليلحق بجيشه المهدد من الفرس ، ثم لحق به أبو عبيد بعد شهر .

وكان الفرس قد انشغلوا عن المسلمين طوال غيبة المثنى بموت ملكهم شهر براز ، فقد حدث تنازع بين آل كسرى، حتى اجتمع الفرس على بوران بنت كسرى عند قدوم المثنى ، واسندت بوران أمور الحرب والملك إلى رستم ، وكان من أعظم قادة الفرس ، وكان أول ماقام به أن أرسل بعض قادة الفرس ليقوموا بثورات من داخل أقاليم العراق ، ولما علم أهل العراق بتماسك دولة الفرس بدأ كثير منهم بالانتقاض على المسلمين، وقد تصرف المثنى إزاء ذلك بحكمة حيث جمع قواته من المناطق المختلفة وانحاز بهم إلى «خَفَّان» قريبا من الصحراء حتى لايُؤتَى من خلفه وانتظر قدوم أبي عبيد .

وكان أول من ثار وجمع الجيوش من الفرس « جابان » وقد نزل بجيوشه في«النمارق» ، وقدم أبو عبيد وأقام بخفان أيامًا ليستريح أصحابه ، ثم سار بجيشه بعد تعبئته نحو النمارق وعلى خيله المثنى ، وعلى ميمنته والق بن جيداره وعلى ميسرته عمرو بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمي فنزلوا على جابان في النمارق واقتتلوا قتالا شديدًا فهزم الله أهل فارس ، وأُسرَ جابان ، أسره مطر بن فضة التميمي وهو لايعرفه، فخدعه جابان حتى تفلّت منه بشيء فخلّى عنه، فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه قائد الفرس

وأشاروا عليه بقتله فقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد أمَّنه رجل مسلم ، والمسلمون في التَّواد والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقد لزمهم كلهم فقالوا : إنه الملك - يعني القائد - قال : وإن كان ، لا أغدر ، فتركه (1) .

وهذا الموقف من أبي عبيد يعتبر مثالا على سماحة المسلمين ، ووفائهم بالعهود وإن أبرمها بعض أفرادهم ، ولاشك أن هذه الأخلاق العالية كان لها أثر كبير في اجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام، فحينما يتسامع الناس أن المسلمين أطلقوا أحد قادة الفرس الذين كانوا أسرع الناس في عدائهم لمجرد أنه اتفق مع أحد المسلمين على الفداء فإنهم ينجذبون إلى هذا الدين الذي أخرج هؤلاء الرجال .

ولاننسى قبل أن نعرض الأحداث موقف المثنى بن حارثة الرائع حيث استسلم لإمارة أبي عبيد مع أنه يَقْدُم العراق لأول مرة ، لأن أمير المؤمنين أمَّره عليه ، فكان نِعْمَ القائد ونعم الجندي ، ولعلنا على ذكر لموقفه المشابه مع خالد بن الوليد لما ولاه أبو بكر على العراق وكان المثنى أسبق منه في حرب الفرس ، فلم يختلف غناؤه وجهده في حالي القيادة والجندية ، وهكذا يكون عظماء الرجال .

هذا وقد انهزمت فلول الفرس نحو « كَسْكَر » وكانت هذه القرية إقطاعا خاصا لنَرْسى ابن خالة كسرى وكان فيها فواكه لايأكلها إلا ملوك الفرس ، فأمر أبو عبيد فرسان المسلمين بمطاردة الفرس فقال: اتبعوهم حتى تُدخلوهم عسكر نَرْسى أو تبيدوهم فيما بين النمارق إلى بارق إلى دُرْتا .

ولحق بهم أبو عبيد ببقية الجيش ، وعلم رستم بهزيمة جابان فبعث

(1) تاريخ الطبري ٣/٤٤٨ .

الجالنوس لنجـدة نَرْسى ومن انضم إليه في كـسكر ، ولكن أبا عبـيد عاجلهم والتقى بهم في مكان أسفل كسكر يقـال له السَّقاطين فاقتتلوا قتـالا شديدًا ، ثم إن الله هزم فارس وهرب نرسـى وغلب المسلمون على عسكره وأرضــه ، ووجدوا في خزائنه شـيئًا عظيـما ولم يكونوا بشيء أفرح منهم بشـجر النَّرسيـان لأن « نَرْسى » كان يحميـه ويمالئه عليهم ملوكهم فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخُمسه إلى عمر، وكـتبوا إليه: إن الله اطعـمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحـمونها وأحببنا أن تروها ولتذكروا إنعام الله وإفضاله[1] .

وفي هذا الخبر إشارة إلى نوع من الأخـلاق الرفيعة لدى المسلمين حيث رفعوا من شأن الفلاحين المحرومين فأطعموهم من طعام ملوكهم الذي كان محرما عليـهم ، فكأنهم بهذا يقولون لهم : تعالوا إلى هذا الدين العظيم الذي يرفع من شأنكم ويرد عليكم كرامتكم الإنسانية .

وأقام أبو عـبيد بكسكر وبعث قـوات لمطاردة الفرس وتأديب أهل القرى المجاورة الذين نقضوا العهد ومالئوا الفرس .

ورجحت كفة المسلمين في المنطقـة بعد هذا الانتصار وجاء بعض الولاة يطلبون الصلح، وقدَّم واليان منهم طعامـا خاصا لأبي عبيد من فاخر أطعمتهم فقـالوا : هذه كرامة أكرمناك بها ، وقِرًى لك، قال : أأكرمتـم الجند وقريتموهم مـثله ؟ قالوا : لم يتيسـر ونحن فاعلون ، فقال أبو عبيد : فلا حاجة لنا فيما لايسع الجند ، فَرَدَّه .

وأتاه أولئك الدّهاقين المتربِّصـون جميـعًا بما وسع الجند ، وهابوا وخافوا على أنفـسهم . فقال أبو عبـيد : ألم أعلمكم أني لستُ آكلا إلا مايسع من معي ممّن أُصِبـتم بهم ! قالوا: لم يبق أحدٌ إلا وقد أُتِيَ

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٠ -٤٥١ .

بشبَعه من هذا في رحالهم وأفضل . فلما علم قَبِلَ منهم ، وأكل وأرسل إلى قوم كانوا يأكلون معه أضيافًا عليه يدعوهم إلى الطعام ، وقد أصابوا من نُزُلِ فارس ولم يروْا أنهم أتوا أبا عبيد بشيء فظنّوا أنهم يُدعون إلى مثلِ ما كانوا يُدعون إليه من غليظ عيش أبي عبيد ، وكرهوا ترك ما أُتُوا به من ذلك، فقالوا له : قل للأمير ، إنَّا لانشتهي شيئًا مع شيء أتتنا به الدهاقين، فأرسل إليهم : إنَّه طعام كثير من أطعمة الأعاجم ، لتنظروا أين هو مما أُتِيتم به(1) .

وهكذا أكل هذا الأمير الكريم المتواضع بعد ماردَّ طعام الأعاجم مرتين لما علم في الثالثة أنهم أطعموا جميع الجند مثلما أطعموه وأفضل، ومع هذا لم يرض أن يأكل وحده حتى دعا أضيافه وألح عليهم حتى بعد أن علم أنهم أصابوا من طعام الفرس وعدّد لهم أصناف هذا الطعام ليرغبهم في مشاركته ، وهذا لون من الكرم الرفيع، والكرم من أهم عناصر السيادة .

وإن هذه الأمثلة لتدلنا على مقدار مابلغ إليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان من الرقي الأخلاقي والتقدم الحضاري .

ولما علم أبو عبيد بتقدم جالنوس نهد إليه بالمسلمين فالتقوا عند «باقسياثا » فهزمهم المسلمون وهرب الجالنوس ، وغلب المسلمون على بلادهم (2) .

وهكذا تم القضاء على ثلاثة جيوش للفرس في مدة وجيزه، وكان بإمكان الفرس أن يوحدوا هذه الجيوش وأن يأتوا المسلمين من أمامهم وخلفهم وعن يمينهم وشمالهم ، لكثرة عددهم ، ولكن الله

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥١ - ٤٥٣ .

(2) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٢ - ٤٥٣ .

أعمى بصائرهم وكـانوا لشدة خوفهم من المسلمين يـتمنى كل قائد أن يكفيه الآخر مهمة المواجهة وإضعاف المسلمين ليظفر بالنصر عليهم بعد ذلك، وقد أفاد المسلمين سرعةُ تحركهم وبطء حركة جيوش الأعداء .

*　　*　　*

٤ – موقعة الجسر الأولى –

تبين لنا أن قائد الفرس « الجالنوس » قد انهزم أمام المسلمين في معركة« باقسياثا » وأنه هرب إلى بلاده .

ولما رجع الجالنوس إلى رستم قال رستم : أيُّ العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ قالوا : بَهْمَن جَاذويه ، فوجهه ومعه الفيلة، وقال له: قدّم الجالنوس فإن عاد لمثلها فاضرب عنقه ، فأقبل بهمن ومعه راية كسرى، وكانت لاتُخرج إلا في الحروب الكبيرة، وعلم أبو عبيد فأقبل بجيشه فنزل في مكان يسمى « المروحه » والنهر بينهم ، فبعث إليه بهمن: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، فقال الناس: لاتعبر يا أبا عبيد ، ننهاك عن العبور، قل لهم فليعبروا ، وكان من أشد الناس عليه في ذلك سَليط بن قيس الأنصاري، فلجَّ أبو عبيد في رأيه وترك رأي الناس ، وقال : لايكونون أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم ، واغتنم ذلك مردانشاه رسول قائد الفرس فأخبرهم أن أهل فارس قد عيروهم بالجبن ، فازداد أبو عبيد تمسكا برأيه، واتهم سليط بن قيس بالجبن ، فقال سليط : أنا والله اجرأ منك نفسا وقد أشرنا عليك بالرأي وستعلم .

وكانت « دومة » امرأة أبي عبيد قد رأت رؤيا أن رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد وابنه جبر في ناس من أهله فأخبرت بها أبا عبيد فقال : هذه الشهادة ، وعهد أبو عبيد إلى الناس فقال: إن قُتلت فعلى الناس فلان حتى عد سبعة من ثقيف من أقاربه الذين ذكرتهم امرأته في الرؤيا ، فإن قتل آخرهم فالقيادة للمثنى بن حارثة.

ثم عـبـر أبو عبـيـد وعـبر الناس مـعـه إلى مكان ضـيق المطَّرد والمذهب، وكان الفرس قد قـدموا بعدد من الفيلة يتقدمـها فيل عظيم أبيض، وعليهـا سعف النخل فلما رأتهـا خيول المسلمين جـفلت منها ومن أصوات الأجـراس المعلقة بهـا ، فصاروا لايسـتطيعـون الوصول إليهم والفيلة تجوس خلالهم ، فتـرجل أبو عبيد وترجل الناس معه ، وتصافحـوا معهم بالسيوف، وفقـد المسلمون خيلهم فأصبـحوا رجَّالة يقاومون سلاح الفيلة والفرسان والمشاة من الفرس ، إلى جانب الرماة الذين أضرُّوا بالمسلمين وهم يدفـعون بخيولهم نحـوهم فلا تندفع . فكان موقفا صعبا أظهر المسلمون فـيه من البسالة والتضحية ماينذر أن يوجد له مثيل في التاريخ ، وصمـدوا للفرس رغم تفوقهم عليهم في كل وسائل القتال .

وكانت الـفيلة أشد سـلاح واجهـه المسلمون ، فـقد كانـت تهدُّ صفوفهم، فناداهم أبو عبيد بأن يجتمعوا على الفيلة ويقطعوا أحزمتها ويقلبوا عـنها أهلها، وبدأ هو بالـفيل الأبيض فتـعلق بحزامـه وقطعه ووقع الذين عليـه، وفعل المسلمـون مثل ذلك ، فمـا تركوا فـيلا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحـابه، ولكن الفيلة استمرت في الهـجوم لأنها كانت مدربة ، فرأى أبو عبيد أن يتـخلص منها ،فسأل عن مقاتلها ، فقيل له إنها إذا قطعت مشـافرها تموت ، فهجم على الفيل الأبيض ، ونفح خرطومه بالسيف فاتقاه الـفيل بيده وأطاح به ثم داسه بأقدامه ، وأخذ الراية أخوه الحكم بن مـسعود فقاتل الفـيل حتى أزاحه عن أبي عبيد ولكن وقع له ماوقع لأبي عبيد،فقد أراد الحكم قتله فاتقاه بيده، ثم داسه بأقدامه،وانتقلت راية المسلمين إلى الذيـن سماهم أبو عبيد ،

ومنهم أبناؤه الثـلاثة، وهب ومالك وجـبر ، إلى أن قـتلوا جـميـعًا فانتقلت القيادة للمثنى مع آخر النهار.

وكـان بعض المسلمين قـد عبـروا الجسـر منسـحبين ، واسـتمـر الانسحاب من الميدان ، فلما رأى ذلك عـبد الله بن مرثد الثقفي بادر وقطع الجسر ، وقال : موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا ، وحـاول منع الناس من العـبور فـأتوا به إلى المثنى فـضربه من شـدة غضبه من صنيعه وقال: ماحملك على الذي صنعت ؟ قال : ليقاتلوا، وقد كان اجتهاده في غير موضعه لأن قطع الجسر أدَّى إلى وقوع بعض المسلمين في النهـر وغرقـوا بسبب شـدة الضغط من الفـرس، فكانت الفكرة المناسـبـة أن يحافظ المـسلمون على بقـيـتهـم بالانسحـاب إن استطاعوا ذلك ، وهذا هو ماقام به المثنى حيث أمر بعقد الجسر ووقف هو ومن معـه من أبطال المسلمين فحمـوا ظهور المسلمين حتى عـبروا وقال المثـنى : يا أيها الناس إنا دونكم فـاعبـروا على هينتكم - يعني على مهلكم - ولاتدهشوا فـإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ولاتغرقوا أنفسكم .

وكـان المثنى ومن معـه من الأبطال من أمـثال عـاصم بن عمـرو والكلَج الضبِّي هم آخـر من عبر ، وقد كان بَهْـمَن جاذويه حاول أن يجهـز على بقية المسلمين ولكنه لم يسـتطع وفَوَّتَ عليه هذه الفـرصة المثنى حـينما تولى قيـادة هذا الانسحـاب المنظم ، ولاشك أن هؤلاء الأبطال الذين حمـوا ظهور المسلمين حتى انسـحبوا قد بذلوا جـهودا جبارة في الصمود أمام الأعداء .

لقد انسحب خمسة آلاف من المسلمين وخلفوا وراءهم أربعة آلاف

من الشهداء منهم عـدد كبير من الصحـابة رضي الله عنهم خاصة من الأنصار الذين رافقوا أبا عبيد من المدينة ، وقد عاد ألفان ممن انسحبوا إلى المدينة وغيرها ولـم يبق مع المثنى غير ثلاثة آلاف .

أما الفـرس فقد قُـتل منهم سـتـة آلاف بالرغم من الوضع السيء الذي كان فيه المسلمون مما يدل على بسالتهم وقوة احتمالهم [1] .

وهكذا تبين لـنا أن من أهم أسـبـاب انتكاسـة المسـلمين في هذه الموقعة مواجـهتهم سلاح الفيلة لأول مرة ، إلى جـانب عدم إصابتهم في اختـيار المكان الذي جـرت فيـه المعركـة ، فالمسلمون تـعودوا في حـروبهم على اختـيار مكـان واسع المُطَّرد حيث إن سـلاح الفرسـان عندهم هو المقدَّم، فلما انحصروا ضاعت منهم فرصة مطاردة الأعداء، حيث كان العدو أمامهم والنهر من خلفهم .

أما المواقف التي جرت في هذه المعركـة فهي تتلخص إجمالا في مـقدرة المسلمـين الفائقـة على التكيف مع الأوضـاع غـير الملائمـة ، والخروج من المآزق المـفاجئـة ، والصبـر والمصابرة على القـتال ، إن كانت المعـركة غـير مـتكافئة ، وتـتضح هذه المواقف بعـرض الصور التالية :

١ - حينما رأى قائد المسلمين أبو عبـيد أن خيول المسلمين لاتُقْدم على جيش الـعدو وفيـه الفيلة قـرر حالاً الترجل وترك فـرسه فـفعل المسلمون كـما فـعل ، وهو حَلّ جيد لأنه لابد مـن مواجهـة الأعداء والاختلاط بهم حيث إنهم أرهقوهم بالسهام .

٢ - حينما رأى أبو عبيد ما تفعله الفيلة وراكِبوها بجيش المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٩ ، البداية والنهاية ٧/ ٢٨ ، بتصرف .

قرر قطع أحزمة الفيلة حتى تُلقي راكبيها ، وبدأ بذلك مع كبير الفيلة وتأسى به المسلمون ، فألقوا جميع راكبي الفيلة ، وهي خطوة جيدة في سبيل التخلص من هذا السلاح الفتاك ، ثم لمّا استمرت الفيلة في مهاجمة المسلمين قرر التخلص منها بالقتل ، وهي خطوة أخرى تشتمل على المخاطرة والمغامرة ، وقد بدأ بتنفيذ هذه الخطة أيضًا بنفسه رحمه الله ولكنه قضى نحبه قبل إتمام هذا ا لعمل ، ولم يرو لنا التاريخ أي محاولة أخرى للقضاء على الفيلة في هذه المعركة غير ماجرى من الحكم بن مسعود أخي أبي عبيد وخَلَفه في القيادة وقد واجه نفس المصير الذي واجهه أبو عبيد ، ولعل هذه النتيجة السيئة جعلت المسلمين يتحاشون التعرض لها .

ومن المعلوم أن سلاح الفيلة كان جديدًا على المسلمين ، وإلا فإنه كان بإمكانهم أن يخترعوا أسلحة بعيدة المدى تستطيع القضاء على الفيلة من غير ضرورة الاقتراب منها .

وإن إقدام أبي عبيد وهو القائد على هذه المغامرة الخطيرة دليل على زهده في الدنيا وحرصه على نيل الشهادة ، وهو مطلب عزيز يبعث في روح الجند الحيوية والإقدام ، ولكنه في الحقيقة ليس المطلوب الأول من القائد ، بل هو مكلف بالدرجة الأولى بإدارة المعركة حتى يحصل على أكبر النتائج بأقل التضحيات ، ولذلك أحجم عدد من جلة الصحابة رضي الله عنهم عن قبول القيادة لأنهم عزموا على التعرض للشهادة ، كما سبق أمثلة لذلك في معركة اليمامة .

٣ - بالرغم من الوضع السيء الذي كان فيه المسلمون في هذه

المعركة فإنهم لما ترجّلوا عن خيولهم وخالطوا الفرس فتكوا بهم حتى قتلوا منهم ستة آلاف ، وهذا شاهد حي على بسالة المسلمين الأوائل وإقدامهم على المخاطرة بالنفوس في سبيل الله تعالى ، فإنه كان عليهم وهم مشاة أن يواجهوا فرسان العدو ومشاتهم ، وماتزودوا به من الفيلة ، وهي مهمة شاقة لايطيقها إلا أقوياء الرجال ، ومع ذلك قام بها هؤلاء الأبطال، ولولا تسلح الأعداء بالفيلة التي هتكت صفوف المسلمين لكان نصرهم قريب المنال .

٤ - وآخر المواقف التي رأينا التنويه عنها موقف المثنى بن حارثة ومن ثبت معه من أبطال المسلمين ، حينما رأى أفراد الجيش قد بدؤوا بالانسحاب وعبور الجسر ، وقد سبق وصف ماقام به هؤلاء الأبطال من حماية ظهور المسلمين حتى تم انسحابهم ، وهذا لون رفيع من ألوان التضحية والفداء ، فإن قادة الدنيا يخُصِّصُون عددًا من الجنود لحمايتهم، أما المثنى فقد تولى مع مساعديه من الأبطال حماية الجيش الإسلامي ، فكان آخر من عبر الجسر .

والآن وبعد أن تكشفت لنا معالم هذه المعركة وبعض المواقف الإسلامية التي جرت فيها فلنتأمل بعض آثارها .

لقد كان عدد المسلمين في أول النهار تسعة آلاف ، وفقدوا في ذلك اليوم أربعة آلاف ، ولولا أن الله ألهم المثنى إلى خطة الانسحاب المنظم لزاد هذا العدد ، فهل أثرت هذه الاصابة البالغة على المسلمين بالنسبة لمستوى حماسهم للجهاد وإقدامهم عليه ؟

الواقع أنهم عادوا سريعًا إلى تنظيم صفوفهم ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى ،وذلك أنهم يفهمون جيدًا معنى قول الله

تعالى ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩ – ١٤١] .

فإصابة المسلمين إنما تتم بقدر الله تعالى ليتبين المؤمنون على درجاتهم في الإيمان قوة وضعفا ، بناء على مقدار صبرهم وثباتهم ، وليُقدِّم المسلمون شهداء في سبيل الله جل وعلا ، حتى يظهر للعالَم عظمة هذا الدين الذي من أجله يُقَدِّم المسلمون هؤلاء الشهداء وهم لايدافعون فقط عن أرضهم وأموالهم ، وإنما يقاتلون من أجل نشر دعوة الإسلام والدفاع عنه .

فالمعارك الإسلامية لاخسارة فيها مطلقا ، سواء كان النصر والفتح للمسلمين ، أو كانت الهزيمة والإصابة ، لأنه في حال النصر يتم التمكين للمسلمين في الأرض ، وتقوى دولتهم مع ما يحصل عليه المجاهدون من الثواب الأخروي ، وفي حال الإصابة فإن ما يقدمه المسلمون من الشهداء يعطي الدعوة الإسلامية دفعات إلى الأمام مع ما يحصل عليه المجاهدون من الأجر الأخروي ، سواء استشهدوا أو بقوا على قيد الحياة .

وهكذا تبينت لنا نماذج من قوة الإيمان لدى المسلمين في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وأن ما أصابهم في معركة الجسر الأولى لم يكن دافعًا لهم إلى الإحجام عن القتال .

ومن الأدلة على أن المصائب لاتزيد المسلمين الصادقين إلا قوة

واندفاعًا نحو جهاد الأعـداء أن المثنى بن حارثة لما علم بانفراد قائدين من قادة الفرس بعـد المعركة مع أصحاب لهما اسـتخلف على الجيش عاصم بن عمـرو ، وخرج في كتيبة من الفـرسان يريدهما ، فظنا أنه هارب لأنهـما لم يتـوقـعا أي إقـدام على الهجـوم من المسلمين بعـد انهزامهـم ، فاعترضاه فـأخذهما أسيـرين وخرج أهل « ألَّيس » على أصحابهما فـأتوه بهم أسراء ، فقدَّمهما ، وقال : أنتـما غرَّرتما أميرنا وكذبتمـاه واستفززتماه فـضرب أعناقهما وضـرب أعناق الأسَراء ، ثم رجع إلى عسكره .

وهكذا نجد أن المثنى قد قتل هذين القـائدين وأصحابهما وهو في قلة من جيشه ممن بقي معه ولم يحسب حـسابا لاحتمال انتقام الفرس وحلفائهم منه وهم أكثر من جيشه أضعافًا مضاعفة ، وهذا دليل على الجسارة والجرأة الفائقة .

هذا وقـد بقي المثـنى في العـراق في عـدد قليل لايـكفي حـتى للاحتفاظ بـالممالك التي استولى عليها المسلمـون ، ولقد كان بإمكان الفرس أن يلاحقوا بقية الجيش الإسلامي حتى يخرجوهم من العراق، وسيـجدون ممن بقي على الولاء لهم من العرب مـن يتولى مطاردتهم في الصحراء ، ولكن الله تعالى مع هذه الفئة المؤمنة ومع المؤمنين في كل مكان ، فكلما وقع المسلمون الصادقون في مأزق حرج قيض لهم الأسباب التي تخرجهم من هذا الحرج ، فحينما اضطر خالد بن الوليد إلى مغـادرة العراق بنصف الجيش أوقـع الله الخلاف والاضطراب في دولة فارس فشُغِـلوا بأنفسهم عن المسلمين ، وحينما استـقرت دولتهم كان المثنى قد تقوى ونظم أموره فتصدى لجيشهم في بابل وهزمهم .

ولما انتظم أمرهم على رستم الذي هو من أعظم قوادهم وحصل ماحصل على المسلمين من الهزيمة في الجسر كانت الفرصة سانحة أمام الفرس ليحاولوا القضاء على المسلمين ، ولكن الله سبحانه قيض أمرًا صدَّهم عن المسلمين حيث انقسموا إلى قسمين قسم مع رستم وقسم مع فيرزان ، وأتى الخبر إلى قائد الفرس بهمن جاذويه فأسرع بالعودة إلى المدائن وكان ممن يُنظر إليهم في أمور سياستهم .

وهكذا كفى الله المؤمنين القتال وأنقذهم من هذا المأزق الحرج وأخذوا فرصة كافية لتلقِّي الجيوش القادمة من دار الخلافة حتى تقوَّوا وتكوَّن لديهم جيش كبير .

هذا ماكان من أمر المسلمين في العراق ، فماذا كان من أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وهو يتلقَّى هذا النبأ المؤسف الذي يحمل استشهاد آربعة آلاف من المسلمين ، وفيهم عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم ؟

لقد تأثر عمر ومن حوله من الصحابة لمصاب الجيش الإسلامي في هذه المعركة وقال : اللهم كل مسلم في حلّ مني ، أنا فئة كل مسلم، من لقي العدو فَفُظِعَ بشيء من أمره فأنا له فئة ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إليَّ لكنت له فئة (١) .

وهو موقف إسلامي كريم من عمر رضي الله عنه حيث إن هؤلاء المنهزمين لم ينسحبوا من المعركة من حين أن رأوا مؤشرات التفوق لدى الأعداء والوضع السيء لدى المسلمين ويتركوا إخوانهم يواجهون وحدهم حر المعركة ، وإنما انسحبوا حينما رأوا أن مصلحة الجيش في

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٥٨ .

الانسحاب ووافقهم على ذلك أميرهم ، وقد دخلوا المعركة وهم مخلصون صادقون وخرجوا منها وهم كذلك ، فكانوا جديرين بموقف الرحمة والمواساة من عمر ، وهذا الموقف يدل على أن عمر وهو الرجل القوي الحازم يلين ويواسي في مقام الرحمة والعطف .

ولما حدث ماحدث من قلة الجيش في العراق مع المثنى اهتم أمير المؤمنين بإمداده فكتب إلى عماله لجمع الجيوش ، وكان جرير بن عبد الله البجلي قد رغب في جمع بجيلة من القبائل فاجتمع له منهم ألفان وبعث بهم أمير المؤمنين إلى المثنى ، وسمح عمر رضي الله عنه لأهل الردة بالجهاد وكتب إليهم ليوافوه فبعث بهم إلى العراق ، واجتمع عند المثنى جيش كبير .

* * *

٥ - معركة البويب -

لما علم قادة الفرس باجتماع جيش كبير عند المثنى بعثوا مهران الهمذاني بجيش من الفرسان لمواجهة جيش المثنى ، ولما علم المثنى بذلك كتب إلى من لم يصل إليه من الأمداد أن يوافوه بالبويب وعلى رأس هؤلاء جرير بن عبد الله حيث كتب إليه المثنى يقول : إنا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللَّحاق بنا وموعدكم البويب، فاجتمعوا بالبويب وليس بينهم وبين جيش الفرس إلا النهر، فأقام المثنى حتى كتب له مهران : إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم، فقال المثنى : اعبروا ، فعبر مهران بجيشه ، وكان ذلك في شهر رمضان من العام الثالث عشر للهجرة ، فقام المثنى خطيبا وقال للمسلمين، إنكم صوام والصوم مَرَقَّة ومضعفة وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تقوَّوا بالطعام على قتال عدوكم ، قالوا : نعم ، فأفطروا .

وكان المثنى قد عبأ جيشه وسار فيهم يحثهم على القتال ، ويقول لأهل كل راية : إني لأرجو أن لاتُؤتَى العرب اليوم من قِبَلكم، والله مايسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم .

قال الرواة : وأنصفهم المثنى في القول والفعل ، وخلط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولاعملا .

وهذا دليل على حسن قيادته وسعة حكمته ، حتى أصبح أفراد الجيش مطيعين له عن حب وقناعة .

ولما رضى المثنى عن استعداد جيشه قال : إني مكبِّر ثلاثا فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة ، فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس

وعاجلوهم فخالطوهم مع أول تكبيرة ، وليس من عادة الفرس هذا الاندفاع ولكن لعل ماحصلوا عليه في معركة الجسر من إصابة المسلمين خفف مما وقر في نفوسهم من هيبة المسلمين والرعب منهم .

وهكذا بدأ الفرس بالهجوم وقد صمد لهم المسلمون واستمروا معهم في صراع شديد ، والمثنى إلى جانب اشتراكه في القتال يراقب جيشه بدقة حتى إنه رأى خللا في بعض صفوفه فأرسل إليهم رجلا وقال : إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول : لاتفضحوا المسلمين اليوم : فقالوا: نعم، واعتدلوا .

ولما رأى المثنى ركود الحرب وعدم تفوق المسلمين بشكل بارز دعا بعض فرسانه الأبطال فحمل بهم على قلب ا لمشركين حتى ضَعْضَعَهم وأزال قائدهم نحو الميمنة ، وقد ارتفع الغبار والمجنَّبات في الميمنة والميسرة تقتتل ، ولايستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم، لاالمسلمون ولا المشركون .

ووقف المثنى عند ارتفاع الغبار حتى أسفر الغبار ، وقد فنى قلب المشركين وقُتل قائدهم مهران والمجنَّبات قد هز بعضها بعضا ، فلما رآه المسلمون وقد أزال القلب وأفنى أهله قويت مجنباتهم على المشركين، وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم ، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ، وأرسل إليهم من يقول لهم : عاداتكم في أمثالهم ، انصروا الله ينصركم ، حتى هزموا القوم ، فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم وقطعه، وأخذ الأعاجم ، فافترقوا بشاطيء الفرات، واعتورتْهم خيول المسلمين حتى قتلوهم، ثم جعلوا جثثهم أكوامًا من كثرتها ، حتي ذكر بعض الرواة أن قتلاهم بلغوا مائة ألف.

وندم المثنى على مسابقة الفرس وقطع الجسر فقال: لقد عجزت عجزة وقى الله شرها ، بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه ، حتى أحرجتهم ، فإني غير عائد فلا تعودوا ، ولا تقتدوا بي أيها الناس، فإنها كانت مني زلة ، لاينبغي إحراج أحد إلا من لايقوى على امتناع .

ولقد أبان المثنى في آخر هذا الكلام وجه الخطأ في هذه الخطة حيث قد لاحظ ببصيرته الحربية النافذة أن في منع العدو من الفرار إلجاءً لهم إلى الاستماتة في القتال دفاعا عن أنفسهم ، فإنه حينما يشعر الإنسان بأنه مقتول يبذل كل طاقته في الدفاع عن نفسه ، وهذا يكلف الجيش المقابل جهوداً ضخمة في محاولة القضاء عليه ، ولكن الله تعالى وقى المسلمين شر هذه الخطة كما ذكر المثنى حيث ثبّت المسلمين فكانت قوتهم أعلى بكثير من احتمال الأعداء وطاقتهم ، وألقى الرعب في قلوب الأعداء حتى فقدوا الطاقة والمقدرة على الدفاع عن النفس .

ولربما رأى بعض أفراد الجيش في خطة المثنى هذه براعة وعظمة لكونها بلغت في النكاية بالكفار وإرهابهم مبلغا عظيمًا ، ولربما تأسى به بعض القادة في أمثال هذه المعركة،فأراد المثنى باعترافه بهذا الخطأ أن يزيل هذا الفهم من النفوس،وماقد يتبعه من التأسي به في التنفيذ.

وإن في اعتراف المثنى بهذا الخطأ ، وهو الرجل الذي بلغ في هذه المعركة أوج النصر والشهرة لدليلا على قوة إيمانه ، وتجرده من حظ النفس، وإيثاره مصلحة الجماعة ، وهكذا يكون العظماء .

ولقد أعاد هذا النصر المؤزر الذي حازه المسلمون هيبتهم العظيمة

في قلوب الأعداء، وعفّوا به على كل آثار إصابتهم في معركة الجسر، فلله در هؤلاء الأبطال، وما أعظم غناءهم عن الإسلام والمسلمين!

وإن مما يؤيد ما قاله المثنى في نقد هذه الخطة وأن الله وقى شرها ماذكره عرفجة بن هرثمة حينما طلب ا لمثنى من قادة الجيش أن يتحدثوا عن المعركة حيث قال : حُزْنَا كتيبة منهم إلى الفرات، ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقهم وسلّى عنا بها مصيبة الجسر ، فلما دخلوا في حدّ الإحراج كروا علينا فقاتلناهم قتالا شديدًا، حتى قال بعض قومي : لو أخرت رايتك فقلت : عليَّ إقدامها، وحملت بها على حاميتهم فقتلته ، فولوا نحو الفرات، فما بلغه منهم أحد فيه الروح .

وإن من المواقف المذكورة في هذه المعركة ماكان من مسعود بن حارثة أخي المثنى حيث قال لقومه قبل بدء المعركة : إن رأيتمونا أُصبنا فلا تدَعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف ، الزموا مصافكم، وأغنوا غناء من يليكم ، ولما صُرع قال رحمه الله : يامعشر بكر بن وائل ارفعوا رايتكم رفعكم الله ،لايهُولنَّكم مصرعي .

وإن من الأقوال الرائعة التي قيلت بعد المعركة قول المثنى : قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والإسلام ، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم ، إن الله أذهب مصدوقتهم ، ووهَّن كيدهم ، فلايروعنكم زُهاءٌ ترونه - يعني هيئتهم - ولاسوادٌ - يعني كثرتهم- ولاقسيٌّ فُجّ - يعني قد بانت أوتارها - ولانِبَالٌ طوال،

فإنهم إذا أُعْجِلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت .

وإن هذا القول في ذلك الوقت مناسب تماما حيث عرض المثنى خبرته الجيدة في حربه مع الفرس في الوقت الذي دخل في حروب العراق أعداد كبيرة من المسلمين يشاركون في حرب الفرس لأول مرة، فجمع المثنى لهم بذلك بين المشاهدة في معركة من المعارك وبين وصف تجاربه في كل المعارك التي خاضها معهم قبل ذلك .

وإن من المواقف التي ينبغي الإشارة إليها ماكان من نساء المسلمين لما أرسل إليهم قادة المسلمين بعض ما أصابوا من الطعام ، وقد أرسلوه مع أحد زعماء النصارى من العرب وهو عمرو بن عبد المسيح بن بُقَيلة في رجال معه ، فلما رأتهم النساء تصايحن وحَسِبْنها غارة فقمْن دون الصبيان بالحجارة والعُمد ، فقال : عمرو بن عبد المسيح: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش ، وبشّروهن بالفتح[1] .

وإن هذا الموقف ليدل على حسن التربية الإسلامية وإبراز شخصية المسلم حتى لدى النساء ، فإنهن قد تدربن على حماية الموقف فيما إذا خلا من الرجال .

هذا وقد أطلق هذا النصر الحاسم يد المسلمين في العراق فيما بين النهرين وأرسل المثنى قواده يُخضعون البلاد لسلطان المسلمين، ويتقوَّون بما يفيء الله عليهم من الغنائم على جهاد عدوهم .

* * *

---

(١) يراجع تاريخ الطبري ٣/ ٤٦٠ - ٤٧٦ .

مواقف وعبر
فى
معركة القادسية

تبين ما آل إليه أمر المسلمين في جهاد الفرس حيث أحرز المسلمون نصرًا كبيرًا في معركة البويب بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد أزالوا به آثار هزيمتهم في معركة الجسر الأولى .

وفي أثناء ذلك اجتمع أهل فارس على تمليك شاب من أبناء ملوكهم وهو « يَزْدَجرْد » فاجتمعوا عليه بعد تفرق ، ولما علم بذلك المثنى كتب إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمرهم فأجابه بقوله «أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ، ولاتدَعوا في ربيعة أحدا ولا مضر ولاحلفائهم أحدًا من أهل النجدات ولا فارسا إلا اجتلبتموه ، فإن جاء طائعًا وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجدّ إذا جَدَّ العجم فلتلقوا جِدَّهم بِجِدِّكم .

فانحاز المثنى بمن معه ونزلوا بأطراف العراق مما يلي بلاد العرب على معسكرات متقاربة ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة .

الاستعداد للمعركة :

كتب عمر إلى عماله في شهر ذي الحجة وهو خارج للحج أن لاتدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ ، والعَجَلَ العجل . ذكره ابن جرير رحمه الله[1] .

وما أن اجتمع أوائل الناس في المدينة حتى خرج بهم عمر رضي الله عنه .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٧٧ - ٤٧٨ .

قال ابن جرير رحـمه الله فيمـا يرويه عن شيوخه : خـرج عمر حتى نزل على ماء يُدْعَى صراراً ، فعسكر به ولايدري الناس مايريد ، أيسير أم يقـيم، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعـثمان أو بعبد الرحمـن ابن عوف ، وكان عثمان يُدْعى في إمـارة عمر رديفا - قـالوا: والرديف بلسـان العرب الرجل الذي بـعد الرجل ، والعـرب تقول ذلك للرجـل الذي يرجونه بعد رئيـسهم - وكـانوا إذا لـم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثّوا بالعباس .

أقـول : وإن في هذا لدلالـة على عظم مكانة عــمـر في قلوب الصحابة رضي الله عنهم ، وهذه الهيبـة الغظيمة التي عمرت قلوبهم منه مبعثها أمران:

أولا : قوة إيمانه بالله تعالى وقيامُه بتوحيده تعظيما له وخوفا منه وتجريد قلبـه تمامًا من أن يتـسرب إليه أي اعـتبار لأي قـوة غلى وجه الأرض، فـالصحـابة يرون أن قلبـه قد امـتلأ مـن خوف الله تعـالى وتعظيمه ورجائه والخضوع له حتى لـم يعد لأي قوة أخرى في الأرض أن تزاحم وجود الإيمان بالله تـعالى في قلبه ، ومن كـانت هذه حاله فحريٌّ بالقلوب أن تسـتكين له وأن تهاب منه وأن تحسب حسابًا كـبيرًا لمنطقه وسلوكه .

ثانيًا : أن عمر كان يحـمل الناس على الحق الذي يطمئن إليه إما طوعا أو كرها ، فكان الناس يفكرون كثيرًا ويزنون كلامهم طويلا قبل أن يكلموه خـشيـة أن يزلُّوا بكلمة لايحـسبون لهـا حسـابا وهو لقوة اتصاله بالله تعـالى وعِظَم منزلة الآخرة عنده وهوان الدنيـا عليه يدرك من سَقَط الكلام وعوارِه ما لايدركه الآخرون .

وإلى جانب هذه الهيبة العظيمة فإنهم كانوا يحبونه من قلوبهم ويفدونه بأنفسهم لأن قوته عليهم كانت من أجل تعظيم الله تعالى وتقديره حق قدره وتنفيذ شرعه لا من أجل أن يبني لنفسه أو لأسرته مجدًا يخلِّد ذكرَه في هذه الحياة الفانية ، فهي هيبة مشوبة بالحب، وتعظيم مشوب بالإجلال .

وفي هذا الخبر أيضًا دلالة على عظمة هؤلا ء الثلاثة الذين كان الصحابة يقدمونهم في مخاطبة عمر وهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم أجمعين، مما يدل على تمتع هؤلاء بالصفات التي يرضى عنها عمر والتي مبعثها قوة الإيمان بالله تعالى والتجرد من حظ النفوس ومن ضغوط الناس .

قال ابن جرير في سياق روايته : فقال عثمان لعمر : مابلغك ؟ ما الذي تريد ؟ فنادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه فأخبرهم الخبر - يعني خبر عزمه على غزو الفرس - ثم نظر ما يقول الناس ، فقال العامة: سرْ وسرْ بنا معك ، فدخل معهم في رأيهم ، وكره أن يَدَعهم حتى يخرجهم منه برفق ، فقال : استعدُّوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك .

ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب فقال : أحضِروني الرأيّ فإني سائر ، فاجتمعوا جميعًا وأجمعِ ملؤهم على أن يبعث رجلا من أصحاب النبي ﷺ ويقيم ، ويرميه بالجنود ، فإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون، وإلا أعاد رجلا وندب جندًا آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو، ويرعوي المسلمون ، ويجيء نصر الله بإنجاز موعود الله .

قال : فنادى عمر : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إليه ، وأرسل إلى علي وقد استخلفه على المدينة فأتاه ، وإلى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع إليه ، وجعل على المجنّبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف فقام الناس فقال : إن الله عز وجل قد جمع على الإسلام أهله ، فألّف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس ، وكانوا فيه تبعا لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأُولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعا لهم ، يا أيها الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدّمت ومن خلّفت [1] . يعني بذلك عليا وطلحة رضي الله عنهما ، وكان قد خلف عليا على المدينة وقدّم طلحة على مقدمة الجيش .

هذا وإن لي تعليقات على هذا الخبر أوجزها فيما يلي : مما يلاحظ أن عمر رضي الله عنه لم يكن عازمًا على الخروج بنفسه إلى العراق بدليل أنه لما استشار الناس فأشار عليه العامة بذلك وافقهم ظاهرًا وكره أن يخالفهم حتى يخرجهم من رأيهم برفق كما جاء في الرواية ، والسؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المجال ، لماذا لم يستشر الناس وهو في المدينة، ثم إما أن يخرج إن قبل رأيهم أو

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٠ .

يجلس إن قبل الرأي الآخر ؟ والجواب أن يقال : لعل عمر رضي الله عنه آنس من المسلمين بعض الركـود وعدم تقدير الأمـر بكل ما يجب أن يقـدروه به وأنهم لم يصلوا من الإقـدام على الجهـاد إلى المستـوى الذي يريد منهم أن يبلغوه ، ولاشك أن طاقات عمـر الفذة لم يبلغها أحد ممن عـاصره آنذاك ولاممن جاؤوا بعـده، فأراد بخروجـه أن يقدِّم للجهاد دَفعةً قوية نحو الأمام حيث إن رغبة الأمة في صحبته لايدانيها أي رغبة أخرى بعد إرادة وجـه الله تعالى والدار الآخرة ، وقد حصل له مـا أراد من ذلك رضي الله عنه وعن أصـحـاب رسـول الله ﷺ أجمعين .

وإن من أبرز ما يلاحظ في هذا الخبر أن الصحابة رضي الله عنهم نفذوا أمر أمير المؤمنين عمر فـخرجوا بدون مراجعة مع أنهم لايدرون عن خطة سـيـرهم ولا لماذا خـرجـوا ، وهذا من دلالاته المهـمـة أنه يكشف عن كمال الانسجام بين الحاكم والمحكومين في ذلك العصر ، وماكان عليه الصحابة من الطاعة لولي الأمر الذي يعلمون يقينا أنه لن يأمـرهم إلا بطاعـة الله تعـالى ، وهذا الخلق النبـيل يعتـبـر من أبرز العوامل التي حقـقت لهم الانتصار السريع والنجـاح الباهر سواء في مجال توحيد الجزيرة العربية وإقامة الدولة الإسلامية أو في مجال غزو الأعداء وإخضاع الممالك لدولة الإسلام .

ومما يلاحظ في هذا الخبر أن عمـر رضي الله عنه ترك رأي العامة وأخـذ برأي أهل الحل والعقـد الذين أطلق عليـهم أهل الرأي ، وفي هذا دلالة على أن أمور الأمة تُدار بالمشورة بين أهل الحل والعقد الذين هم أهل الرأي والتدبيـر والخبرة في سيـاسة الأمور ، ولم يذكر عـمر

رضي الله عنه موضوع فهم الدين وتطبيقه في وصف أهل الحل والعقد فلم يقل أهل العلم والعمل لأن هذا الأمر كان معلوما توفره لدى الصحابة رضي الله عنهم وإن كانوا يتفاضلون في ذلك ، لكن كان أصحاب العقول الراجحة فيهم هم المتميزون في فهم الإسلام وتطبيقه .

ومن هذا نستفيد أن العبرة شرعًا ليست في كثرة الآراء وإنما العبرة بسداد الآراء وصوابها وإن قلَّت .

وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يفيد أن نجاح الأمة في أمورها مترتب علي إحكام العلاقات بين الحاكمين والمحكومين حيث يقول: «وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعًا لهم ، ومن قام بهذا الأمر تبع لأولي رأيهم » .

فالذي يفهم من هذا النص أن أمور المسلمين تكون شورى بينهم، ومايقرر أهل الحل والعقد يأخذ به أولياء الأمور ، ثم يكون ملزما لعامة الأمة في حدود طاعة الله تعالى .

هذا وقد رُوي من الكلمات البليغة التي قيلت في هذه المشورة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال في سياق خبر هذه المشورة : فقال عبد الرحمن - يعني ابن عوف رضي الله عنه : فما فديت أحدًا بأبي وأمي بعد النبي ﷺ قبل يومئذ ولابعده فقلت: يا بأبي وأمي اجعل عجْزَها بي [1] وأقم وابعث جندًا،

---

(١) يعني إذا كان هناك ملامة في عدم ذهابك ياعمر فاجعلني أنا المسئول عن ذلك .

فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبلُ وبعد ، فإنه إن يُهزم جيشك ليس كـهزيمتك، وإنك إن تُقـتَل أو تُهزم في أُنُف الأمـر خشـيتُ أن لايكبِّر المسلمون وأن لايشهدوا أن لا إله إلا الله أبدًا[1] .

ألا مـا أعظمك يابن عـوف ومـا أصـوب رأيك ، ومـا أجـمل عرضك، فقد قلت رأيًا صوابا وعرضته بقوة فوفِّقت في رأيك ووفقت في طريقة عرضه.

إن الحق قد يشوهه في أسماع الناس طريقـة عرضه عليهم ، وقد يُحْـسن الإنسـان العـرض ولكن لايوفق للـنطق بالحق والصـواب في الرأي، فأما حين تجتمع الحسنيان للإنسـان فإنه يبلغ مقصوده مع توفيق الله تعالى بسهولة ويسر .

وبهذا اقتنع أمير المؤمنين برأي عـبد الرحمن بن عوف ومن وافقه الرأي وقـرر أن يبعث قـائدًا من الصـحـابة يكون ممثلا لـه في تنفيـذ مايريد.

واستـشار أميـر المؤمنين أصحاب الـرأي في اختيـار هذا القائد، وبينما هم في هذه المشورة إذ ورد كتاب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان مرسلا لجباية بعض صدقات أهل نجد ، فقال عمر : أشيروا عليَّ برجل، فقال عبد الرحمن بن عوف : وجدته ، قال : من هو؟ قال : الأسـد في براثنه سعد بن مـالك ، ووافقـه عليه أهل الرأي ، فانتهى عمر إلى قولهم وأرسل إليه [2] .

وإن في تقديم ابن عـوف لسعـد بقوله « الأسد في بـراثنه » مثل آخر لحسن العرض ، والثناء على أهل الفضل بما هم أهل له .

---

(١) (٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨١ - ٤٨٣ .

وصية من عمر لسعد :

لما قدم سعد إلى المدينة أمَّره عمر رضي الله عنهما على حرب العراق وقال له : ياسعد سعد بني وُهَيب لايغرنَّك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ فإن الله عز وجل لايمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فإن الله تعالى ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافيه ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزَمْه فإنه الأمر ، هذه عظَتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين[١] .

وإنها لموعظة بليغة من عالم رباني وقائد سياسي خبير ، فلقد أدرك عمر جانب الضعف الذي يمكن أن يؤتَى سعد من قبَله وهو أن يُدلي بقرابته من النبي ﷺ فيحمله ذلك على شيء من الترفع على المسلمين، ثم ذكره بالمبدإ الإسلامي العام الذي يعتبر مقياسا لكرامة المسلم في هذه الحياة حيث قال « الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ماعنده بالطاعة » فقوله « يتفاضلون بالعافية » يعني بالشفاء من أمراض النفوس فكأنه يقول يتفاضلون بالبعد عن المعاصي والإقبال على طاعة الله تعالى وهذه هي التقوى التي جعلها الله سبحانه ميزانًا للكرامة بقوله ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [٢] وهو ميزان عادل رحيم بإمكان كل مسلم بلوغه إذا جدَّ في طلب رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٣ .

(٢) الحجرات / ١٣ .

ثم ذكَّره عمر في آخر الموعظة بـلزوم الأمر الذي كان عليه رسول الله ﷺ وهذا يشمل الالتزام بالدين كله وتطبيقه على الناس .

وصية أخرى :

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوصى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما مرة أخرى لما أراد أن يبعثه بقوله : إني قد ولَّيتك حرب العراق فاحفظ وصيتي ، فإنك تُقدم على أمر شديد كريه لايُخلِّص منه إلا الحق ، فعوِّد نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادًا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبرَ على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين : في طاعته واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامُّه في الحق سواء ، وأما السر فيُعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، وبمحبة الناس ، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبدًا حبَّبه ، وإذا أبغض عبدًا بغَّضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ، ممن يشرع معك في أمرك[1] .

هذا وإن لنا مع هذا النص وقفةً سريعة نستلهم منه بعض المواقف والعبر النافعة ، فقد ذكر عمر رضي الله عنه أولاً أن لزوم الحق يخلِّص المسلم من الشدائد ، وذلك أن من لزم الحق كان مع الله تعالى

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٣ .

ومن كـان مع الله كان الـله معـه جل وعلا بـنصره وتأييـده وإن هذا الشعـور ليعطي المسلم دفعـات قوية نحو مـضاعفـة العمل ومواجـهة الصعاب والمآزق ، إضافة إلى الطمأنينة النفسية التي يتمتع بها من لزم الحق قولا وعملا ، بخلاف من حاد عن طريق الحق فإنه يشعر بالقلق والآلام المتعددة التي منهـا تأنيب الضمير والخوف من محـاسبة الناس والدخول في مجاهيل المستقبل التي تترتب على الانحراف .

وذكر عمر رضي الله عنه أن عُـدة الخير الصبر ، وذلك أن طريق الخيـر ليس مفروشًـا بالخمائل ، بل هو طريق شـاق شائك ، يتطلب عبوره جهادًا طويلاً ، فلابد لسالكه من الاعتداد بالصبر ، وإلا انقطع في أثناء الطريق.

وذكر أن خشيـة الله تعالى تكون في طاعته واجتناب معـصيته ثم بيَّن الدافع الأكبـر الذي يدفع إلى طاعتـه ألا وهو بغض الدنيا وحب الآخرة، والدافع الأكـبر الذي يدفع إلى معـصيتـه ، وهو حب الدنيا وبغض الآخرة.

ثم ذكر أن للقـلوب حقائق منهـا العلانيـة ومثَّل لها بالمـعاملة مع الناس بالحق في حـالَي الغضب والرضى ، وأن لايحمـل الإنسانَ ثناءُ الناس عليه علـى مداراتهم في النكول عن تطبيـق الحق ، ولا يحمله ذمهم إياه على ظلمهم ومجانبة الحق معهم .

وذكر من حقائق القلوب السرّ ، وجعل علامته ظهور الحكمة من قلب المسلم على لسانه ، وأن يـكون محبوبا بين إخـوانه المسلمين فإن محبة الله تعالى لعبده مـترتبة على محبة المسلمين له ، لأن الله تعالى إذا أحب عبدًا حببه لعباده .

وإذا كان سعـد بن أبي وقاص المشهود له بالجنة بـحاجة إلى هذه الوصـية فكيف بنا وأمـثـالنا ونحن ينقصنـا الكثيـر من فهم الإسـلام وتطبيقه؟

* * *

خطبة لعمر :

وسار سعد إلى العراق ومعه أربعة آلاف مجاهد ، وشيَّعهم عمر من مكانه في « صرار » إلى « الأعوص» ثم قام في الناس خطيبًا فقال: إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرَّف لكم القول ليحيي به القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئًا فلينتفع به، وإن للعدل أمارات وتباشير ، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهَيْن واللَّيْن وأما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر بابا ، ويسَّر لكل باب مفتاحا ، فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَلَه حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق، ولاتصانع في ذلك أحَدًا ، واكتف بما يكفيك من الكفاف، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء ، إني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه ، فأنْهُوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يُبلِّغناها نأخذْ له الحق غير مُتَعتَّع [1] .

وفي هذه الخطبة البليغة نجد عمر رضي الله عنه يقرر بعض أمور العدل في الحكم بين الناس ، فيذكر من أمارات العدل أن يتصف الحاكم بخلق الحياء والسخاء والسماحة ، وذلك أنَّ خلق الحياء يحمل صاحبه على احترام شعور الآخرين ويمنعه من فظاظة القول وغِلَظ الطباع، وإذا كان المسئول بهذه الصفات فإنه يعطي أصحاب القضايا فرصة التعبير عما يريدون ، وقد يمنعهم الفظ الغليظ من ذكر تفاصيل

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٥ .

القضية فيتم الحكم على غير تَبيُّن ، وذلك يؤثر في تحقق العدل .

أما خلق السخاء فإنه يورث في نفس المسئول قناعة تحميه من التطلع لما في أيدي الآخرين ، وبالتالي فإن نفسه تنقمع عن الظلم ويصبح دَيْدَنُهُ في تنفيذ مسئوليته أن يحمي المستضعفين من شَرَهِ المتجبرين الظالمين .

أما السماحة فإنها تعبير صادق عن امتلاء النفس بحب الخير للمسلمين، ومن مظاهرها طلاقه الوجه وبشاشته ، وقد تكون مظهراً من مظاهر الحياء ، لكنها مع الزمن تكون خلقًا مألوفا ، والسماحة بهذا المعنى إذا اتصف بها المسئول فإنها تفتح الطريق أمام ذوي الحاجات وتكون عاملا من عوامل إقرار العدل بين الناس .

وذكر أن تباشير العدل الرحمة ، فحيثما وُجدت الرحمة وُجد العدل، وذلك أن المستحقين للرحمة هم بحاجة للعدل ، وهم غالبًا أوساط الناس وضعفاؤهم ، فإذا وُجد الرحيم العطوف الذي يهتم بقضايا المستضعفين فإنه جدير إذا تولى أن يعدل .

ومما ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أن باب العدل الاعتبار، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات، والاستعداد له بتقديم الأعمال. يعني أن الدافع الأكبر الذي يدفع المسئول إلى إقرار العدل والباب الذي يدخل منه لتحقيق ذلك هو أن يأخذ العبرة من خاتمة من سبقوه إلى التمكين في الأرض وتولِّي المناصب المهمة . وذلك بالتفكير الدائم في تقديم الأعمال ا لتي تخدمه وتنفعه في مستقبله بعد الموت من خلال مسئوليته التي تحملها ، فإذا كان دَيْدَنه التفكير في ذلك فإن هذا الأمر يدفعه إلى تلمُّس أسباب العدل وتطبيقه بين الناس .

وذكر عمر رضي الله عنه أن الزهد مـفتاح العدل ، وعرَّف الزهد بأنه أخـذ الحق من كل أحد قـبَله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحـد له حق ، قال «ولاتصانع في ذلك أحدا ، واكتف بما يكفيك من الكفاف فـإن مَنْ لم يكفه الكفـاف لم يغنه شيء » وفي هذا البـيان نجـد أنه اعتبـر الزهد في أمرين : الجاه والمال ، فأما الزهد في الجـاه فأن يقبل الحق من كل من صدر منه الحـق كائنا من كان ، وأن لايحـمله جاهه ومنزلتـه على رفض الحق إذا صدر ممن هم دونه في المنزلة الدنـيوية ، وأن يؤدي الحق إلى مستحقه كائنًا من كان ، وأن لايحمله منصبه على استضعاف من هم دونه ومنعـهم حقوقهم ، وأن يكون في أخذه الحق وأدائه قاصدًا ذات الحق لا مُصانعة الناس ومداراتهم.

وأما الزهد في المال فأن يكتفي بمعيـشة الكفاف وذلك بأن يقتصر في الإنفاق على ما لابد منه لمثل مجتمعه .

وأما كون الزهد بنوعـيه مفتاح العـدل فلأن من أهم الدوافع نحو الظلم الجنوح نحو العلو في الأرض والاستكثار من متاعها فإذا رَوَّض المسئول نفسه على الزهد في الجـاه والمال كان جديرًا بأن يُفتح له باب العدل ، وأن يكون مصدر خير وسعادة للمسلمين .

ثم نجد عمر رضي الله عنه يختـتم خطبته ببيان ضخامـة المسئولية التي تحـمَّلهـا حيث يقـول : « إني بينكم وبين الله ولـيس بيني وبينه أحد، وإن اللـه قد ألزمني دفع الدعـاء عنه ، فأَنْهُـوا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلِّغناها نأخذ له الحق غير متعتع » .

فالمسئول الأول في الأمة هو أثقلهم حـملا لأنه مسئول عن الأمة أمام الله تعالى ، ثم تتدرج المسئوليات من بعده على حسب منزلتها .

وقوله «وإن اللـه قد ألزمني دفع الدعـاء عنه » الظاهر أنه يريد أن الله ألزمـه برفع الظلم عن المظلومين وإقـرار العـدل في الأرض ، وإذا تم ذلك لم يَعُدْ هناك دعاء يُرفع من المظلومين ،ويدل على ذلك قوله بعد هذه الجملة « فأنهُوا شِكاتكم إلينا ،فـمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غـير متعـتع» يعني نأخذ له الحق بقوة وهو يشعـر بعزته وكرامته ولايتعرض في سبيل حصوله على حقه للمذلة والمهانة.

وبهذه الخطبة وأمثالها يقـرر عمر رضي الله عنه قواعد العدل في الإسلام ، وبما قام به من إلزام نفسـه بالعدل ، وأخذ الناس به أصبح مضرب المثل في هذا المجال .

مسير سعد إلى زَرُود :

وسار سعد بجيـشه حتى نزل بمكان يقال له « زَرُود »[1] من بلاد نجد، وأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف ، واستطاع سعد أن يحشد سبعة آلاف آخرين من بلاد نجد ، وكان المثنى بن حـارثة الشيباني ينتظره في العراق ومعه اثنا عشر ألفا .

وأقام سعـد بزرود بجمع القوات استـعداداً للمعركـة الفاصلة مع الفرس وانتظاراً لأمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد كان عمر عظيم الاهتـمام بهذه المعركة كمـا ذكر الإمام الطبري بإسناده عن مـاهان أنه قال قـال عـمر : والله لأضـربنَّ ملوك العـجم بملوك العرب فلم يدع رئيـسا ولا ذا رأي ولاذا شرف ولا ذا سطَة ولاخطيـبا ولاشاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرهم[2] .

---

(١) زرود رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من العراق سميت بذلك لأنها تزدرد يعني تبتلع المياه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٤٨٦ - ٤٨٧ .

وبينما كان سعد مقيما بجيشه في زرود مرض المثنى مرضًا شديدًا وكان مع جيشه في أطراف العراق ولما أحس بدنو أجله كتب وصيةً إلى سعد بن أبي وقاص وولّى على من معه من الجيش بشير بن الخصاصية ، وأرسل بوصيته أخاه المُعنَّى بن حارثة وقد جاء في وصيته لسعد : أن لايقاتل عدوه وعدوهم - يعني المسلمين - إذا استجمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يُظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة ، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم ، وأجرأ على أرضهم ، إلى أن يردَّ الله الكرة عليهم .

فلما انتهى إلى سعد رأيُ المثنى ووصيته ترحَّم عليه وأمَّر المعنَّى على عمله، وأوصى بأهل بيته خيرًا[1] .

وهذه وصية ثمينة من رجل عظيم الخبرة بحرب فارس ، وهو أول من تجرأ على حربهم في الإسلام .

ومما يلفت النظر في هذا الخبر أن المثنى قد أوصى بزوجته سلمى بنت خصفة التيمية إلى سعد بن أبي وقاص ، وحملها معه المعنَّى ، ثم خطبها سعد بعد انتهاء عدتها وتزوجها . فهل أراد المثنى أن يَبرَّ زوجته بعد رحيله بضمها إلى بطل عظيم من أبطال الإسلام شهد له رسول الله بالجنة ؟ إنه نوع من الوفاء نادر المثال ، أم أنها كانت ذكية وعاقلة وقد تكون لديها خبرة من حروب زوجها فأراد أن ينتفع

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٦ - ٤٩٠ .

المسلمون بها ؟ كل ذلك محتمل، وهو غيض من فيض مما تحلى به ذلك الجيل الراشد من الفضائل وعظائم الأمور .

موقف جهادي للمُعنَّى بن حارثة :

تقدم لنا عرض وصية المثنى بن حارثة الشيباني لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، وقد حمل هذه الوصية أخوه المعَنَّى بن حارثة، ومما ينبغي الإشادة به الإشارة إلى موقف قام به المعنى قبل إبلاغ هذه الوصية، وذلك أنه علم بأن أحد أمراء الفرس وهو الآزاذمرد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر إلى القادسية وقال له : ادع العرب فأنت على من أجابك وكن كما كان آباؤك - يعني المناذرة الذين كانوا ولاة الفرس - فنزل «القادسية» ، وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به مقاربة ووعيدًا، فلما انتهى إلى المعنَّى خبره ، أسْرَى المعنَّى من « ذي قار» حتى بيَّته ، فأَنَامَهُ ومن معه ، ثم رجع إلى ذي قار [1] .

وهكذا نجد أن ذلكم الجيل الزاهر قد أنجب رجالا أكفاء وسادةً فضلاء، فلا تكاد الساحة تخلو من رجل المواقف حتى يبرز فيها من يملؤها بطولة وفداء ، فحينما غاب المثنى قام أخوه المعنى بعد موته وسدَّ ثلمة خطيرة تفتقر إلى الأبطال أمثاله ، وإن غارته الليلية هذه لتشبه إلى حد كبير غارات خالد بن الوليد القاصمة التي تترك الأعداء في ذهول وحيرة فلا يكادون يحاولون لَمَّ الشمل واستعادة المواقف حتى يفاجئهم بقاصمة تشل تفكيرهم وتفرق جمعهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠ .

مسير سعد إلى العراق ووصية من عمر :

وجاء الأمر من عمر أمير المؤمنين إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما بالرحيل من « زرود » إلى العراق استعدادًا لخوض المعركة الفاصلة مع الفرس وأوصاه با لوصية التالية :

أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشَدَّ احتراسًا من المعاصي منكم من عدوِّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولاذلك لم تكن لَنَا بهم قوة لأن عدَدَنا ليس كعددهم، ولاعُدَّتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإنْ لانُنْصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم في سيركم حفظةً من الله يعلمون ماتفعلون، فاستحيوا منهم، ولاتعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منا ولن يسلط علينا وإن أسأنا، فرُبَّ قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم كما سُلِّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرةُ المجوس، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدًا مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وتَرفَّقْ بالمسلمين في مسيرهم ، ولاتجشِّمهم مسيرًا يتعبهم ولاتقصِّر بهم عن منزل يرفُق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، جامِّ الأنفس والكراع[1]

---

(١) يعني الخيول .

وأقم بمن معك كل جمعة يوما وليلـة حتى تكون لهم راحة ، يجمعون فيها أنفسهم، ويَرُمُّون أسلحتهم وأمتعتهم .

ونَحِّ منازلهم عـن قرى أهـل الصلح والذمـة ، فـلايدخلهـا من أصحـابك إلا من تثق بدينه ، ولاتَرْزَأ أحدا من أهلهـا شيئًـا فإن لهم حرمةً وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابـتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فَفُوا لهم ، ولاتنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

وإذا وطئت أدنى أرض العـــدو فـأذْكِ العـيـون بينـك وبينهم ، ولايخْفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمـئن إلى نصحه وصـدقه ، فـإن الكذوب لاينفعك خـبره وإن صدق في بعض، والغاش عين عليك وليس عينا لك .

وليكن منك عند دنوك من أرض العـدو أن تكثر الطلائع، وتبثَّ السـرايا بينك وبينهم ، فتـقطع السرايا أمـدادهم ومرافـقهم ، وتتـبع الطلائع عوراتهم ، وانتَق الطلائع أهل الرأي والبـأس من أصحابك ، وتخيَّر لهم سـوابق الخيل ، فإن لقوا عدوا كـان أول من تلقَّاهم القوة من رأيك ، واجـعل أمـر السـرايا إلى أهل الجـهاد ، والصـبـر على الجلاد، ولاتخص أحدًا بهوى فيضـيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابَيْتَ به أهل خاصـتك، ولاتبعث طلـيعة ولاسـرية في وجه تتـخوف فـيه صنيعة ونكاية .

فإذا عـاينت العدو فاضـمم إليك أقاصـيك وطلائعك وسراياك، واجـمع إليك مكيـدتك وقـوتك ، ثـم لاتعـاجلهم المناجـزة مـا لم يستكرهك قتـال، حتى تبصر عورة عدوك ومَـقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتـصنع بعدوك كصنيعته بك ، ثم أَذْكِ حراسك

على عسكرك ، وتحفَّظ من البيات جهدك ، ولاتُؤتَى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله ، والله ولي أمرك ومن معك ، وولي النصر لكم على عدوكم والله المستعان[1] .

وبعد قراءة هذا الخطاب العظيم المشتمل على هذه الوصايا النافعة، يتبين لنا جانب مهم من جوانب عظمة عمر رضي الله عنه وهو خبرته العالية في التخطيط الحربي ، مع أنه لم يسبق له أن تولى قيادة جيوش من هذا النوع ، ولكن الإلهام الإلهي كان واضحًا في كل توجيهاته ووصاياه.

ومما يدل على بصيرته النافذة في التوجيه الحربي ماارواه الإمام الطبري بإسناده عن الإمام الشعبي قال : كان عمر قد كتب إلى سعد مُرْتحله من " زرود " : أن ابعث إلى " فرج الهند " - يعني جنوب العراق- رجلا ترضاه يكون بحياله ويكون ردءًا لك من شيء إن أتاك من تلك التخوم ، فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة ، فكان بحيال«الأبُلَّة» من أرض العرب ، فأتى « غُضَيّا » ونزل على جرير - يعني البجلي وقبيلته - وهو فيما هنالك يومئذ ، فلما نزل سعد بشَراف كتب إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس فيما بين غُضَيّ إلى الجَبَّانه، فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فعشِّر الناس وعرِّف عليهم ، وأمِّر على أجنادهم وعبِّهم، ومُرْ رؤساء المسلمين فليشهدوا ، وقدِّرهم وهم شهود ، ثم وجِّههم إلى أصحابهم ، وواعِدْهم القادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب إليَّ بالذي يستقر عليه أمركم .

---

(١) الفاروق القائد ، لمحمود شيت خطاب / ١٥٥ .

وقد نفّذ سعد هذه الخطة فـأمَّر أمراء الأجناد ، وعرَّف على كل عشرة رجلا كـما كانت العرافات على عهـد رسول الله ﷺ ، وعشَّر الناس فجعلهم عـشرة أعشار وجعل على كل عُشـر رجلا له ذكر في الإسلام[1] .

الاستعانة بالتائبين :

ذكر الإمام الطبري في رواية له أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يستـعن في حروب الردة ولا عـلى الأعاجم بمرتـد ، وأن عمـر استنفرهم ولـم يولِّ منهم أحدًا [2] وفي رواية أخرى أنِ عمر قال لسعد ابن أبي وقاص في شأن طليحة بن خـويلد الأسدي وعمرو بن مَعْدي كَرب الزبيدي : استعن بهما ولاتُولِّيَنَّهما على مائة .

وإننا لنستفيد من سنة هذين الخليفتين الراشدين اللذين قال عنهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذيـن من بعدي أبي بكر وعمر »[3] . إننا لنستفـيد من سنتهما هذه أن من ارتـد عن الإسلام ثم تاب ورجع إليه فإن توبته مقبولة ويكون معصوم الدم والمال ، وله ما للمسلمين وعليه ماعليهم غير أنه لايُولَّى شيئًا من أمور المسلمين المهمة وخاصة الأعمال القيـادية ، وذلك لاحتمال أن تكون تـوبته نفاقًا ، وإذا كـانت كذلك وتولَّى قـيادة المسلمين فـإنه يفـسد في الأرض ويقلب مـوازين الحيـاة فيقرب أمـثاله من المنافقين ويبعد المؤمنين الصـادقين ، ويحوِّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع تسوده مظاهر الجاهلية .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٩ .

(٣) مسند أحمد ٥/ ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، سنن التـرمذي المناقب باب ٥٢ ، حديث ٣٧٤٢، سنن ابن ماجه ، المقدمة رقم ٩٧ .

فكانت هذه السنة الراشدة من الخليفتين الراشـدين لحماية المجتمع الإسلامي من تسلل المفسدين إلى قيادته وتوجيـهه ، ولعل من حكَم هذه السنة أيضًا ملاحظة عقوبة المرتدين بنقيض قصدهم ، فالذين يرتدون من أجل الحصول على الزعامات والقيادات ، إذا أظهروا التوبة وعادوا إلى الإسلام يُحرمون من هذه القيادات عقوبة لهم ، وردعًا لكل من تسوِّل له نفسه أن يخرج عن الخط الإسلامي ، ويبحث عن الزعامة في معاداة الإسلام وموالاة أعدائه .

كتاب من أمير المؤمنين عمر :

وصل إلى قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو نازل في شَراف على حدود العراق كتاب أمير المؤمنين بالمسير نحو فارس ، وقد جاء في هذا الكتاب : أما بعد فَسرْ من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تَقْدُم على أمة عددهم كثير وعُدَّتهم فاضلة ، وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع-وإن كان سهلا - كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه [1]، إلا أن توافقوا غيضا من فيض .

وإذا لقيتم القوم أو أحدًا منهم فابدؤوهم الشَّدَّ والضرب ، وإياكم والمناظرة لجموعهم - يعني الانتظار بعد المواجهة - ولايخدعُنَّكم فإنهم خَدَعة مكَره ، أمرهم غير أمركم ، إلا أن تجادُّوهم - يعني تأخذوهم بالجد- وإذا انتهيت إلى القادسية - والقادسية باب فارس في الجاهلية- فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر - يعني بين الصحراء والقرى العامرة - على حافات الحجر وحافات المدر ،

(١) الدأداء الفضاء وما اتسع من الأودية .

والجراع بينهما - يعني الأراضي السهلة - ثم الزم مكانك فلا تبرحه فإنهم إن أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم ، الذي يأتي على خيلهم ورجْلهم وحَدّهم وجدِّهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لايجتمع لكم مثلهم أبدا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم، فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم ، وكانوا عنها أجبن، وبها أجهل، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة [1].

ولعلنا على ذكر من وصية المثنى لسعد في اختيار المكان الذي يستقر فيه الجيش ، فهي تشبه هذه الوصية حيث اتفق رأي عمر ورأي المثنى في اختيار المكان، وكانت تلك الوصية من المثنى نتيجة خبرة أكثر من ثلاث سنوات في حرب الفرس ، و هذا دليل آخر على براعة عمر في التخطيط الحربي مع أنه لم تطأ قدماه أرض العراق رضي الله عنهم أجمعين .

وتتضمن هذه الوصية إبقاء الجيش بعيدًا عن متناول الأعداء، ثم رميهم بالسرايا التي تُنَغِّص عليهم حياتهم وتثير عليهم أتباعهم حتى يضطرهم المسلمون إلى منازلتهم في المكان الذي تم اختياره .

وكتب إليه عمر أيضًا يُذكِّره بأسباب النصر المعنوية وهي التي تأتي في المقام الأول والأكبر ، وقد جاء في كتابه : أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ، ومن غفل فليحدثهما، والصبرَ الصبرَ ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية، والأجر على

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٠ .

قدر الحسبة، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثروا من قول « لا حول ولاقوة إلا بالله » واكتب إليَّ أين بلغ جمعكم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ؟ فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بماهجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الجليَّة ، وخَف الله وارجُه ، ولاتُدلَّ بشيء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكلَ لهَذا الأمر بمالا خُلَفَ لهَ ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم(١).

هذا وإننا لنجد عمر رضي الله عنه في هذا النص وفي نصوص كثيرة داعيًا إلى الله تعالى مؤثرًا بدعوته حيث يلامس كلامه القلوب فيحيْيها، فهو أولا يوصي بتعاهد القلوب ، فإن القلب هو المحرك لجميع أعضاء الجسم والحاكم عليها فإذا صلح صلح الجسم كله ، ثم يوصيه بموعظة جنده وتذكيرهم بالإخلاص لله تعالى واحتساب الأجر عنده، ويبين أن نصر الله تعالى مترتب على ذلك ، ويحذِّره من التفريط في المسئولية التي تحمَّلها وما يستقبله من الفتوح ، ويذكِّرهم بوجوب ارتباطهم بالله تعالى وأن قوتهم من قوته ، ويوصي قا ئد المسلمين بأن يكون بين مقام الخوف من الله تعالى والرجاء لماعنده ، وهو مقام عظيم من مقامات التوحيد، وينهاه عن الإدلال على الله بشيء من العمل أو من ثناء الناس، ويذكره بما سبق من وعد الله تعالى بانتصار الإسلام وزوال ممالك الكفر ، ويحذره من التهاون في

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩١ .

تحقيق شيء من أسباب النصر فيتخلف النصر عنهم ليتم على يد غيرهم ممن يختارهم الله تعالى .

كتاب من سعد إلى عمر :

فكتب سعد لأمير المؤمنين بصفة البلدان التي يتوقع أن تكون ميدانًا للمعركة الفاصلة ، إلى أن قال : وأنَّ جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قَبْلي إِلْبٌ لأهل فارس قد خفُّوا لهم واستعدوا لنا ، وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم ، فهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا، ونحن نحاول إنغاضهم وإبرازهم ، وأمر الله بعدُ ماض، وقضاؤه مسلَّم إلى ماقدر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدَر في عافية .

فكتب إليه عمر : قد جاءني كتابك وفهمته ، فأقم بمكانك حتى يُنغض الله لك عدوك ، واعلم أن لها مابعدها ، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع حتى تقتحم عليهم المدائن فإنه خرابها إن شاء الله .

وصار عمر ومن معه يدعون لسعد وللمسلمين معه [1].

وهكذا كانوا يجمعون بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى، فبعد أن أتقن عمر رضي الله عنه وأكمل كل الأسباب الممكنة ظل ملازمًا للدعاء الذي يستنزل به نصر الله جل وعلا وتأييده لعباده المؤمنين .

كتاب من عمر إلى سعد :

وبينما كان سعد وجيشه متوجهين نحو القادسية ينتظرون بروز الأعداء لهم ورد إلى سعد كتاب من أمير المؤمنين فيه تثبيت لهم ،

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٢ .

وتقوية لعزائمهم وقد جاء فيه : إني قد أُلْقِيَ في رُوعي أنكم إذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطَّرحوا الشك ، وآثروا اليقين عليه ، فإن لاعب أحد منكم أحدًا من العجم بأمان ، أو قرفه - يعني رماه - بإشارة أو بلسان ، فكان لايدري الأعجمي ماكلمه به ، وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، والوفاءَ الوفاءَ فإن الخطأ بالوفاء بقيَّة ، وإن الخطأ بالغدر الهلكة ، وفيها وهُنكم وقوة عدوكم، وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم ، واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شينًا على المسلمين وسببًا لتوهينهم [1] .

وهكذا أتحف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الجيش الإسلامي هناك برائعة من روائعه في التوجيه والإرشاد ، ولَكَمْ يتمنى المهتمون بهذه الروائع أن لو اتصل البريد بينه وبين قادته في كل المعارك كما هو الحال في القادسية ، إذًا لأتحف الأمة بالكثير من هذه الروائع .

هذه الموعظة فيها تثبيت للمؤمنين لأن عمر قد أخبر عنه النبي ﷺ بأنه من المُلهمين فقال : « إنه كان فيمن قبلكم أناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » [2] وقال ﷺ « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » [3].

فإذا جاء المسلمين خبر عمر بأن الله ألقى في قلبه بأنهم سيهزمون عدوهم، فإن ذلك يجعلهم يندفعون في قتال عدوهم وهم واثقون بالنصر.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٢

(٢) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، باب ٦ ، صحيح مسلم ، فضائل الصحابة رقم ٢٣ .

(٣) سنن الترمذي ، المناقب ، باب ٦٥ ، سنن أبي داود ، الإمارة ، رقم ٢٩٦١ .

لقد كان عمر رضي الله عنه يعيش مع الجيش الإسلامي بكل مشاعره وأحاسيسه ، ولقد تكاثفت عليه الهموم حتى أصبح لايهنأ بعيش ولايَقرُّ له قرار حتى يسمع أخبارهم ، وإن في مثل هذا الإلهام من الله تعالى تخفيفًا من هذا العبء الكبير الذي تحمله عمر وتثبيتًا للمسلمين وتقوية لقلوبهم .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يذكِّر المسلمين بشيء من عوامل النصر المعنوية حيث يحثهم على الالتزام بشرف الكلمة والصدق في القول والوفاء بالعهود ، ولو كان من الْتزم بذلك أحد أفراد المسلمين، أو كان هناك خطأ في الفهم فلم يقصد المسلم الأمان وفهمه العدو أمانا .

إن الانتصار على الأعداء ليس في الانتصار الحربي وحده، وإنما هو بالدرجة الأولى في انتصار المبدأ الذي يمثله المنتصر ومدى قناعة الناس به، وإنما يتم ذلك بكون المبدإ حقا وكون من يمثله متخلقًا بمكارم الأخلاق، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم وهم يعرضون على الناس دين الله الحق، ويمهدون لعرضه بإزالة قوى الباطل التي تحول دون بلوغ دعوة الحق .

موقف جهادي لزُهرة ابن الحوية :

من الأمور التي كان يتميز بها قادة الصحابة رضي الله عنهم إسناد المهمات إلى الأكفاء من الرجال ، ومن هؤلاء الذين ولاهم سعد بن أبي وقاص زُهرة بن عبد الله بنُ الحَويَّة ، وقد ولاه على مقدمة الجيش، وقد جرى له موقف يدل على أهليته لذلك ، فقد أخرج ابن جرير بإسناده عن كَرب بن أبي كرب العُكْلي - وكان في المقدمات أيام

القادسية - قال: قدَّمنا سعد من « شَراف » فنزلنا بعذيب الهجَّانات ، ثم ارتحل، فلما نزل علينا بعذيب الهجانات وذلك في وجه الصبح ، خرج زهرة بن الحوية في المقدمات ، فلما رُفع لنا العذيب - وكان من مسالحهم - استبنَّا على بروجه ناسًا ، فما نشاء أن نرى على برج من بروجه رجلا أو بين شرفتين إلا رأيناه ، وكنا في سَرَعان الخيل - يعني أوائلها - فأمسكنا حتى تلاحق بنا كَثْف - يعني جماعة - ونحن نرى أن فيها خيلا ، ثم أقدمنا على العذيب ، فلما دنونا منه خرج رجل يركض نحو القادسية فانتهينا إليه فدخلنا فإذا ليس فيه أحد ، وإذا ذلك الرجل هو الذي كان يتراءى لنا على البروج وهو بين الشُّرف مكيدة ، ثم انطلق بخبرنا ، فطلبناه فأعجزنا، وسمع بذلك زهرة فاتَّبعنا فلحق بنا وخلَّفنا واتَّبعه ، وقال : إن أفلت الرَّبيُّ أتاهم الخبر ، فلحقه بالخندق فطعنه فجدَّله فيه .

وكان أهل القادسية يتعجبون من شجاعة ذلك الرجل ومن علمه بالحرب، لم يُرَ عَيْنُ قوم قط أثبت ولا أربط جأشًا من ذلك الفارسي، لولا بعد غايته - يعني زهرة - لم يلحق به ولم يصبه زهرة (١) .

أقول : إن في هذا دلالة على حسن اختيار أمراء المسلمين للقادة، حيث يضعون الرجل المناسب في المكان المناسب، فإن القوم الذين طلبوا ذلك الرجل فأعجزهم لديهم وسائل من نفس النوع الذي لدى زهرة، فكلهم كانوا يركبون الخيل ،ولكن زهرة كان يتفوق عليهم بأنه كان يحمل الهمَّ الكبير الذي يحمله سعد وعمر، وإن الذي أوصل زهرة إلى مقصوده ليس الفرس التي كان يمتطيها وإنما أوصله همُّه الكبير وشعوره بالمسئوليه.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٣ .

إن الذي كان يسيطر على تفكير زهرة وهو يطارد ذلك الرجل أن يحول دون وصول عين العدو إليهم فيعلموا بقدوم المسلمين وقد تجاوز في سبيل ذلك كل الاحتمالات الأخرى . . من ثبات ذلك الرجل وقتاله وهو - كما جاء في آخر الرواية - موصوف بالشجاعة والخبرة بالحرب- إلى احتمال ظهور كمائن في الطريق تقضي عليه وقد انفرد عن أصحابه. وهكذا فليكن الرجال .

وفي هذا النص ما يؤيد وصف عمر لأهل فارس بأنهم خَدَعة مَكَرَة فإن ذلك الرجل الفارسي أوهم المسلمين بأن في القصر رجالا كثيرين بوقوفه أمام كل شرف القصر حتى استطاع أن يفلت لولا أن تداركه زهرة بتوفيق الله ثم بحزم هذا القائد وجدِّه في الأمر .

حروب خاطفة ومكاتبات بين سعد وعمر :

تبين لنا أن جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نزل في القادسية ، وأن الخطة الحربية التي رسمها لهم عمر رضي الله عنه أن يبقوا هناك حتى يأتي إليهم الأعداء ، وقد أدرك الفرس خطورة منازلة المسلمين وهم على طرف الصحراء ، فتباطئوا في الإقدام عليهم لعلهم يتقدمون في بلادهم ، ولكن سعدا بقي هو وجيشه في القادسية ، وبثّ السرايا للإغارة على قرى العراق لمحاولة الضغط على حكومة فارس واستخراجها من بلادها وحصونها المنيعة .

ويكفي أن نورد مثالا واحدًا لهذه الغارات التي قام بها المسلمون بنجاح، وأمَّنوا بسببها الحصول على الزاد الذي يكفيهم لعدة شهور إلى جانب الهدف الأول وهو إلجاء الفرس إلى التقدم إليهم .

فمن ذلك أن سعدا رضي الله عنه بعث عاصم بن عمرو التميمي إلى أسفل الفرات ، فسار حتى أتى « ميسان » فطلب غنما أو بقرا فلم يقدر عليها، وتحصَّن منه من في الأفدان ، ووغلوا في الآجام ووغل حتى أصاب رجلا على طَفِّ أَجَمة - يعني إلى جانب شجر مُلتفّ - فسأله واستدلَّه على البقر والغنم ، فحلف له وقال : لا أعلم ، وإذا هو راعي مافي تلك الأجمة ، فصاح منها ثور : كذب والله ، وها نحن أولاء، فدخل فاستاق الثيران ، وأتى بها العسكر ، فقسم ذلك سعد على الناس فأخصبوا أياما .

هذا وإن أول مايلفت النظر في هذا الخبر حصول هذه الكرامة العظيمة لذلك الجيش الذي ضم عددًا من الصحابة رضي الله عنهم، والكرامات منَّةٌ من الله تعالى يمنُّ بها على أوليائه الصالحين إما لإنقاذهم من الهلاك والضرر ، أو لتقوية إيمانهم ، أو لإرهاب عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكَم العظيمة ، وقد تجتمع هذه الحكَم في كرامة واحدة. فالناس لم يشهدوا أن الثيران تتكلم بكلام البشر ولكنها خاطبت هؤلاء المسلمين وكذبت راعيها ودلَّت على نفسها .

وكم كان أثر مثل هذه الكرامة عظيمًا ، والمسلمون مقبلون على معركة مرعبة ، لايعلمون ماينتظرهم فيها من مفاجآت وأهوال، كما أن أثرها عظيم على أهل تلك البلاد حيث ستعلو في أعينهم مكانة المسلمين. ولن يتحمسوا لمؤازرة أعدائهم .

وقد جاء في آخر هذه الرواية أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه هذا الخبر في زمانه فأرسل إلى نفر ممن شهدها أحدهم نذير بن عمرو والوليد ابن عبد شمس وزاهر ، فسألهم فقالوا : نعم ، نحن سمعنا

ذلك ، ورأيناه واستقناها [1] ، فقال : كذبتم ، فقالوا : كذلك إن كنت شهدتها وغبنا عنها ، فقال : صدقتم ، فما كان الناس يقولون في ذلك ؟ قالوا: آية تبشير يُستدلُّ بها على رِضَى الله سبحانه ، وفَتْحِ عدونا ، فقال: والله ما يكون هذا إلا والجمع أبرار أتقياء ، قالوا : والله ماندري ما أجنَّت قلوبهم ، فأما ما رأينا فإنا لم نر قوما قط أزهد في دنيا منهم ، ولا أشد لها بغضا ، ما اعْتُدَّ على رجل منهم في ذلك اليوم بواحدة من ثلاث : لابجبن ولابغدر ولابغلول[2] .

وإن في هذا الثناء البالغ على أفراد ذلك الجيش مايدلنا على الصفات التي أهَّلتهم لبلوغ رضوان الله تعالى أولاً ، وحصولهم على النصر المؤزر ثانيًا ، حيث وصفوهم بالشجاعة والوفاء بالعهود ، والأمانة ، وإن قوما يتصفون كلهم بهذه الصفات العالية لجديرون بالنصر والتأييد .

هذا وإن في ثنايا هذا الخبر مايدلنا على المعاناة الصعبة التي واجهها الجيش الإسلامي في طبيعة تلك البلاد حيث يطول فيها شجر القصب ويلتفّ بحيث يستر من كان بداخله تمامًا ، فآجام القصب تُشكِّل مكامن جيدة للمحاربين وحصونا ساترة لأهل تلك البلاد ، ولكنها عوائق وبلاء على الغزاة ، ومع ذلك نجح المسلمون في اختراق أرض العراق ، واستخدموا هذه المكامن أحيانًا لصالحهم ، وهذا يدل على فرط شجاعتهم وجسارتهم .

وذكر ابن جرير في سياق هذه الرواية التي أخرجها عن كَرِب بن

---

(١) يعني البقر .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٤ - ٤٩٥ .

أبي كرب العكلي أنه قال : وبثَّ - أي سعد - الغارات بين كسكر والأنبار، فحوَوا من الأطعمة ماكانوا يستكفون به زمانا وبعث سعد عيونا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر أهل فارس فرجعوا إليه بالخبر بأن الملك قد ولّى « رستم بن الفرُّخزاذ الأرمني »حربه، وأمره بالعسكرة ، فكتب بذلك إلى عمر ،فكتب إليه عمر: لايكرُبنَّك ما يأتيك عنهم ، ولا ما يأتونك به ،واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل المنظرة والرأي والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلْجًا عليهم ،واكتب إليَّ في كل يوم[1] .

وسيأتي إن شاء الله عند عرض كلام الوفود تصديق قول أمير المؤمنين هذا حيث كانت وفادة الوفود على كسرى ورستم من أقوى العوامل لهزيمتهم النفسية قبل أن يدخلوا المعركة مع المسلمين .

ونجد عمر رضي الله عنه في هذا الخطاب يركز على اختيارالوفود بأن يكونوا من أهل المنظر والهيئة الحسنة،وأن يكونوا من أهل الرأي السديد وأن يكونوا من أهل الشجاعة،وإن هذه الأمور الثلاثة إذا اجتمعت في شخص فإنه جدير بأن يصل إلى مقصوده ومقصود من أرسله فإن أصحاب المنظر والهيئة الحسنة يورثون في قلوب من يلقونهم مهابة قبل أن يتكلموا،فإذا تكلموا وكانوا على حصافة في الرأي فإنهم يأخذون بمسامع من أسمعوه كما اخذوا ببصره،فتكتمل لهم صورة الكمال اللائق بهم،ولابد مع ذلك من الأمر الثالث وهو الشجاعة لأن من فقد الشجاعة لايستطيع أن يعبر عما يريد وإن كان من أهل الرأي والنباهة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٥ .

بعث وفد المسلمين إلى كسرى :

وقد نفذ سعد هذا الأمر فأحسن الاختيار فبعث أربعة عشر رجلا من وجوه المسلمين كما جاء في رواية الإمام الطبري وهم النعمان بن مقرن المزني ، وبسر بن أبي رهم الجهني ، وحَمَلَة بن جُويَّة الكناني ، وحنظلة ابن الربيع التميمي ، وفرات بن حبان العجلي ، وعدي بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة بن النباش الأُسَيِّدي ، وعطارد بن حاجب التميمي ، والأشعث بن قيس الكندي ، والحارث بن حسان الذهلي ، وعاصم بن عمرو التميمي ، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي ، والمغيرة ابن شعبة الثقفي والمعنَّى بن حارثة الشيباني وكان أميرهم النعمان بن مقرن (١).

وسنختار إحدى الروايات التي ذكرها الإمام ابن جرير في بيان المحاورة التي جرت بين هؤلاء وكسرى وهي الرواية التي أخرجها بإسناده عن بنت كيسان الضبِّية عن بعض سَبْي القادسية ممن حسن إسلامه وحضر هذا اليوم الذي قدم فيه وفود العرب قال : وثاب إليهم الناس ينظرون إليهم، فلم أر عشرة قط يعدلون في الهيئة بألف غيرهم- يعني على التقدير وإلا فهم أربعة عشر - قال : وخيلهم تخبط ويوعد بعضها بعضا، وجعل أهل فارس يسوءهم مايرون من حالهم وحال خيلهم، فلما دخلوا على « يَزْدَجرد» أمرهم بالجلوس وكان سيء الأدب، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أن أمر الترجمان بينه وبينهم فقال: سلهم مايسمُّون هذه الأردية ؟ فسأل النعمان، وكان على الوفد : ماتسمِّي رداءك ؟ قال: البُرْد ، فتطيَّر وقال: « بردجهان»

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٦ .

وتغـيـرت ألوان فـارس وشق ذلك عليـهـم ، ثم قـال : سلهم عن أحذيتهم ، فـقال : ماتسمـون هذه الأحذية ؟ فقال : النعـال ، فعاد لمثلها ،وقال :« ناله ناله في أرضنا، ثم سأله عن الذي في يده فقال : سوط - والسـوط بالفارسيـة الحريق- فقال: أحـْرَقوا فارس أحـرقهم الله، وكان تطيُّره على أهل فارس ، وكانوا يجدون من كلامه .

وهكذا وجـدنا أن الله تعالى قـدَّر أن تكون أسمـاء هذه الأشيـاء بالعربية مطابقة لأسماء منكرة عندهم تثيـر تشاؤمهم ، وكانوا قوما قد غلب عليـهم التشـاؤم والرجوع إلى تخـرصات الكهان ، فـأثر ذلك عليهم وهزَّ من عـزتهم وكبريائهم ، وهكذا نجد كل أمـة تنحرف عن التوحـيد الخـالص لله عز وجل تكون عـرضة لشيـاطين الجن والإنس يلعبون بها ويوغلون بها في أوحال الشرك والوثنية .

واستـبشر أعـضاء الوفد الإسـلامي بذلك فكان هذا أول تباشـير انتـصـارهم علـى أعـدائهم ، وبين لهم هوان هذه الأمـة الـتي تُعلِّق مستقبلها على كلمات لا أثر لها في الحقيقة والواقع .

قال :ثم قـال الملك : سلهم ماجاء بكم ؟ ومادعـاكم إلى غزونا والولوع ببـلادنا ؟ أَمِنْ أجل أنا أجْمَـمناكم وتشـاغلنا عنكم اجتـرأتم علينا؟

فقـال لهم النعمان بن مقـرِّن : إن شئتم أجـبت عنكم ومن شاء آثرته، فقالوا : بل تكلَّم ، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا ، فتكلم النعـمان فقـال : إن الله رحمنا فأرسل إليـنا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويعرِّفنا الشر وينهـانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدْعُ إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ،فرقة تقاربه

وفرقة تباعده، ولايدخل معه في دينه إلا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أُمِرَ أن ينبذ إلى من خالفه من العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعًا على وجهين ، مُكْره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فارداد ، فعرفنا جميعًا فضل ماجاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخرَ شرّ منه الجزاء، - يعني الجزية - فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم .

وهذا كلام قوي رصين تمثَّل به ما أراده عمر رضي الله عنه من حصافة الرأي وشجاعة اللسان ،وقد بين به النعمان رضي الله عنه الهدف الواضح الذي من أجله غزا المسلمون بلاد الفرس وغيرها ، وهو الدعوة إلى الإسلام ، فلو أسلم الفرس وطبقوا أحكام الإسلام لرجع المسلمون عن بلادهم وتركوهم وشأنهم ، ولو خضعوا لحكم دولة الإسلام إذا لم يدخلوا فيه ودفعوا الجزية لتركهم المسلمون ورجعوا عنهم وكان لهم حق الحماية من قِبَل المسلمين مقابل مايأخذون منهم من الجزية.

قال : فتكلم يزدجرد ، فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددًا ، ولا أسوء ذات بَيْن منكم ، قد كنا نوكِّل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم، لاتغزون فارس ، ولاتطمعون أن تقوموا

لهم، فإن كان عددٌ لَحِقَ (١) فلا يغرنكم منا ، وإن كـان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتًا إلى خِصبكم ، وأكـرمنا وجوهكم وكسوناكم وملَّكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

هذا وإن كـلام ملك الفرس هذا يدل على أنه لم يفـهم الأهداف العالية التي جمعت العرب ومن أسلم معهم ووحدت قلوبهم وحوَّلتهم من قبـائل متفـرقة متناحـرة إلى دولة واحدة ، وقوة عظمى ، فـهو لايزال يذكـر واقعهم الأول قـبل الإسلام ، ثم يـحاول أن يساومـهم بإغرائهم بالمال ليندفعوا عن بلاده .

وهكذا شأن زعماء الجاهلية دائمًا في معاملتهم مع المسلمين ، إن أحسُّوا ضعفـا فيهم هـجموا عليـهم بشراسة وعنـف واتخذوهم لهم عبيدا، وإن آنسوا منهم قوة وتماسكا حاولوا مساومتهم وإغراءهم حتى يتمكنوا منهم بعد ذلك بالمكر والخديعة .

وحينمـا يستطيع المسلمون عـرض أهدافهم بتجرد وحكمـة وقوة فإنهم يتـمكنون من نشر دعـوة الإسلام في الأرض ، وتتـحول الأمم القويـة التي كانت تحـارب الإسلام إلى الانضـمام مع أمـة الإسلام ، فتكون قوتها قوة للمسلمين .

قـال : فـأُسكت القـوم ، فـقـام المغـيـرة بن زرارة بن النبـاش الأُسيِّدي، فقال : أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشرافَ الأشرافُ ، ويعظم حـقوق الأشـراف الأشراف ، ويفـخِّم الأشرافَ الأشـرافُ ، وليس كلُّ ما أُرسِلوا به جـمعوه لك ، ولا كلُّ مـاتكلمتَ به أجابوك

---

(١) أي كثر عددكم .

عليه، وقد أحسنوا ولايَحسُن بمثلهم إلا ذلك ، فجاوبني لأكون الذي أبلغك ، ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما ، فأما ماذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوء حالا منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ماغزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا .

فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا ، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل تِرْبٍ كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئًا إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لاشريك لي ، كنت إذ لم يكنِ شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء وإليَّ يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأُحلَّكم داري دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ماعليكم ، ومن أبى فاعرضوا

عليه الجزية ، ثم امنعوه مما تمنعــون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنـا الحكم بينكم ، فمن قُـتل منكم أدخلتــه جنتي ، ومن بقي منكم أعقـبته النصر على من نـاوأه ، فاختر إن شـئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تُسلم فتنجي نفسك.

وهذه الإجابة من المغيرة بن زرارة الأسيدي تدل على سرعة بديهته ومقــدرته الفــائقة على الإحــاطة بأطراف القضـــية ، والوعي الشــامل لمتطلبات الدعوة الإسلامية .

وإن صدور هذا الكلام البليغ من رجل لم تكن له شـــهرة تاريخية لَيدلنا على تعدد الكفاءات عند المسلمين .

وفي هذه الإجابــة بيان مفــيد لمعــالم الجاهليــة من رجل عاشـــها وخَبَرها قــبل الإسلام ، ثم خَبَر الإسلام بعد ذلك ، ولهــذا كان بيانه كاشفا لظلمات الجاهلية ، ومُبْرِزًا لأنوار الإسلام .

وفي بيان منهج الدعــوة بالنسبة لغير المسلمين أفــاد بأن الله تعالى أمر المسلمين بدعــوة الكفار أوَّلاً إلى الدخول في الإسلام فــإن أجابوا أصبــحوا إخــوة للمسلمين لهم مــالهم وعليهم ما عــليهم ، وإن أبوا وأصــروا على البقــاء على دينهم فلهم أن يمارســوا دينهم في حيــاتهم الشخصية، ومن حقهم أن تحــميهم دولة الإسلام كما تحمي أبناءها في مقابل دفع الجــزية ، مع ضرورة الاستســلام والشعور بالتبــعية ، وأن يكون الحكم في الأرض للإسلام ، فإن أبوا وأصروا على بقاء دولتهم وحكمهم ولم يستسلموا للمسلـمين فلابد من قتالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ، فمن قُتِل من المسلمين فهو شـهيد مصيره إلى الجنة ، ومن بقي أعقبه الله النصر على من عاداه .

وإن هذا البيـان لايترك مجالا للتـفكير في مسـاومة المسلمين في التخلي عن مطالبهم ، كما أنه يَـهُزّ من موقف العدو ويجعله في قلق دائم، ويقين راسخ بأن المسلمين إمـا أن يصلوا إلى أهدافـهم أو يموتوا دونها، وإن قـوما قـد وصلوا إلى هذا المستـوى من الإيمان لايمكن أن يقف أمامهم شيء .

ولقد أدرك كسرى من هذه المحاورة أن موقف الفرس مع المسلمين عصيب ، وأن لهم أهدافًا لابد أن يبلغوها كـما سيتبين في حواره مع رستم، ولكنه أراد أن يستعمل مع المسلمين أنواعًـا من الحروب النفسية التي تعتـمد على الكذب والتهويل والكبـرياء فقال للمغـيرة بن زرارة الذي تولى محاورته « أتستقبلني بمثل هذا ؟

فقـال : ما استـقـبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غـيرك ، لم أستقبلك به .

فـقال : لولا أن الرسل لاتقـتل لقـتلتكم ، لاشيء لكم عندي، وقال: ائتوني بوقر من تراب ، فقال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حـتى يخرج من باب المدائن ، ارجعوا إلى صاحـبكم فأعلموه أني مرسل إليـكم رستم حتى يدفنـكم ويدفنه في خندق القادسـية ، وينكِّل بكم وبه من بعد ، ثم أُورده بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور » .

ولئن كان هذا التـهديد يجدي ويغني من ساسـة العالم آنذاك فلن يزيد المسلمين إلا ثقة بنصـر الله تعالى وقوة على أعدائهـم ، كما لم يزدهم الترغيب السابق إلا رسوخا في التمسك بأهدافهم النبيلة .

ثم قال كسرى : من أشرفكم ؟ فـسكت القوم ، فقال عاصم بن

عـمرو: أنا أشـرفهم أنا سـيد هـؤلاء فحـمِّلنيه ، فـقال : أكـذاك ؟ قالوا: نعم.

وإنما كان سكوت القوم من باب الورع وكـراهية الترفع ، ولكن عاصـما غلَّب جانـب افتداء الإخـوة بالنفس ليحمـل التراب عنهم ، وكـونه ينسب الشرف لنـفسـه ليس مقـصودًا لـذاته كمـا يعلم بذلك أصحـابه، وبهذا يكون قـد سبق أصـحابه في الخروج مـن التردد بين كراهية نسبة الشرف إلى النفس ومحبة خدمة الإخوة .

فحَمل التراب على عنقه حتى أتى راحلته فحمله عليها ولما وصل القادسية قال : بشروا الأميـر بالظفر ، وتفاءل بأن المسلمين سيملكون أرض الفرس ، ولما دخل على سـعد فأخبـره الخبر قال: أبشـروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

وهكذا نجد أن الله سبـحانه مع أوليائه المؤمنين فَيُـقَدِّر لهم مايزيد في قـوتهم ويوهن أعـداءهم ، فقـد فـرح المسلمـون بهـذه البشـرى وجعلوها علامة على الفتح .

أما الـفرس فـقد جـاء في هذه الرواية أنه اشتـد عليهم مـاصنع المسلمون، وصنع الملك من قبول التراب ، وراح رستم من ساباط إلى الملك يسأله عما كان من أمـره وأمرهم ، وكيف رآهم ، فقال الملك: ماكنت أرى أن في العـرب مثل رجال رأيتـهم دخلوا علي ، وما أنتم بأعـقل منهم ، ولا أحسن جـوابا منهم ،وأخبـره بكلام متكلمـهم ، وقال: لقـد صدقني القوم ، لقد وُعـد القوم أمرًا ليدركنَّه أو ليـموتُنَّ دونه ، على أني وجدت أفضلهم أحمقـهم، لما ذكروا الجزية أعطيتهم ترابا فـحمله على رأسـه وخرج به ، ولو شـاء اتقى بغيـره . وأنا لا

أعلم. قال : أيها الملك إنه لأعـقلهم، وتطيَّر إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه .

وخرج رستم من عنده كئيبًا غضبان - وكان منجما كاهنا - فبعث في أثر الوفد ، وقـال لثقته : إن أدركهم الرسـول تلافينا أرضنا، وإن اعـجزوه سلبكم الله أرضكـم وأبناءكم ، فرجع الرسـول من الحيـرة بفواتهم، فقال: ذهب القوم بأرضكم غـير ذي شك ، ماكان من شأن ابن الحجامة الملك، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا ، فكان ذلك ممًّا زاد الله به فارس غيظًا (١).

ومن هذا الحوار بين كـسرى ورستم يتبين لنا أن كـسرى قد أدرك عظمة المـسلمين، ولكنه غلب عليه الكبـر والاعتـزاز بالملك فتـصرف بحـماقـة حيـث حمَّلهم التـراب ، وتشـاءم من ذلك رستم، وكـان سلوكهم في السلم والحرب يقوم على الطِّيَرة كما كان يفعل ذلك أهل الجاهلية في بلاد العرب .

أما المسلمون فإنهم تفاءلوا بذلك خيرًا وفهموا منه البشارة بامتلاك أرض الفـرس ، وهكذا علَّمـهم النبي ﷺ فقـد كـان يتفـاءل بالاسم الحسن ونحو ذلك ممـا يبعث الفرحة والسرور ، ويبـشر المسلمين على إثر ذلك ، لكنه لم يكن يتشـاءم . ولم يَبْنِ أي سلوك في حيـاته أو حياة أصحابه على الطِّيرة ، بل اعتـبر ذلك شركا كما جاء في قوله « من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك » (٢).

وهكذا رأينا أن التـوحيـد أعطى المسلمين الثقـة واليقـين والإقدام

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٨ - ٥٠٢ .

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٢٠ .

بحكمة من غير نظر إلى العوائق المتخيلة في الأذهان، بينما أوقع الشرك أصحابه بالحيرة والتردد ، وتصوُّر العوائق التي لاوجود لها في الواقع .

ومن هنا نعلم الأثر العظيم للتوحيد في نصر المسلمين ، والأثر البالغ للشرك في خذلان المشركين.

حوار بين ملك الفرس وقائده :

ولقد كان مما صنع الله تعالى للمسلمين ووهن به كيد اعدائهم أن خلافًا حادًّا نشأ بين ملك الفرس « يزدجرد» وكبير قادتهم«رستم» حول التخطيط للحرب ، حيث أصرَّ ملك الفرس على أن يتولى رستم قيادة الجيش ، وحاول رستم بكل وسيلة أن يقنع الملك برأيه في إرسال قائد آخر، وكان مما قال له رستم : أيها الملك دعني فإن العرب لاتزال تهاب العجم مالم تُضَرِّهم بي ، ولعل الدولة أن تثبت بي فيكون الله قد كفى، ونكون قد أصبنا المكيدة ورأي الحرب ، فإن الرأي فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر ، فأبى عليه ، وقال : أي شيء بقي ؟ فقال رستم : إن الأناة في الحرب خير من العجلة ، وللأناة اليوم موضع ، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة ، وأشد على عدونا ، فلجَّ وأبى ، فخرج [رستم] حتى عسكر بساباط(1) .

وإن هذه المحاورة في محاورات أخرى تدل على أن رستم كان كارها لهذه الحرب متشائمًا منها ، وكان يتوقع أن تكون نتيجتها لصالح المسلمين ومما قال رستم في ذلك : أيها الملك لقد اضطرني تضييع الرأي إلى إعظام نفسي وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بُدًّا لم

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٤ .

أتكلم به ، فأنشدك الله في نفسك وأهلك وملكك ، دعني أُقِمْ بعسكري وأسرِّح الجالنوس، فإن تكن لنا فذلك ، وإلا فأنا على رِجْلٍ وأبعث غيره ، حتى إذا لم نجد بُدًّا ولاحيلة صبرنا لهم وقد وهَّنَّاهم وحسَّرناهم ونحن جامُّون، فأبى إلا أن يسير .

وقال له أيضًا : إن غناء الجالنوس كغنائي وإن كان اسمي أشد عليهم من اسمه فإن ظفر فهو الذي نريد ، وإن تكن الأخرى وجهت مثله ودفعنا هؤلاء القوم إلى يوم ما ، فإني لا أزال مرجوًّا في أهل فارس ، مالم أُهزَم ينشطون ، ولاأزال مهيبًا في صدور العرب ، ولايزالون يهابون الإقدام ما لم أباشرهم ، فإن باشرتهم اجترؤوا آخر دهرهم ، وانكسر أهل فارس آخر دهرهم (١) .

رُؤَى مزعجة لرستم :

ومن هذا الحوار يتبين لنا أن رستم كان كارها لهذه الحرب متشائمًا منها، وكان يتوقع أن تكون نتيجتها لصالح المسلمين ضد الفرس، ولقد خرج إليها مكرها ضعيف النفس ، وزاده وهنا على وهن الرُّؤَى المفزعة التي يراها ، ويراها له منجمه ، وكان كلما رأى شيئًا من ذلك طلب الإعفاء من القيادة ، ولكن كسرى يصر على توليته ذلك .

فمن هذه الرؤى ماذكره الإمام الطبري عن سعيد بن المرزبان قال: فلما أصبحوا من ليلتهم بشاطئ العتيق غدا منجم رستم على رستم برؤيا أُرِيها من الليل ، قال : رأيت الدلو في السماء دلوًا أُفرغ ماؤه ، ورأيت السمكة سمكة في ضحضاح من الماء تضطرب ، ورأيت

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٤ – ٥٠٥ .

النعائم والزهرة تزدهر ، قال : ويحك هل أخبرت بها أحدا ؟ قال : لا ، قال : فاكتمها[1].

وقد تطير رستم من هذه الرؤيا ، وكانوا كما أسلفنا من قبل يتشاءمون ويبنون سلوكهم في الإقدام والإحجام على هذا التشاؤم .

وذكر الطبري أيضًا عن الشعبي قال : كان رستم منجِّما فكان يبكي مما يرى ويُقدم عليه ، فلما كان بظهر الكوفة رأى أن عمر دخل عسكر فارس ، ومعه مَلَك فختم على سلاحهم ثم حزمه ودفعه إلى عمر[2].

وهكذا تظافرت الرُّؤَى الصادقة كهذه الرؤيا مع الخرافات التي لاأثر لها في الواقع ولكنهم كانوا يعتقدون بها . تظافرت كلها على التهويل من شأن المسلمين وترسيخ عظمتهم في نفس رستم حتى غدا متحيرًا مضطربًا يود أن لو خرج من هذه المهمة بأي ثمن ، فكان الإصرار على بعثه قائدًا خطأ حربي فادح من ملك الفرس .

ومن أثر هذه الرُّؤَى والاعتماد على التنجيم فإن رستم كان موقنا بأن نتيجة الحرب القادمة ستكون لصالح المسلمين ، ومما يدل على ذلك أنه كتب إلى أخيه وإلى رؤوس أهل بلادهم : من رستم إلى البندوان مرزبان الباب وسهم أهل فارس الذي كان لكل كَوْن يكون فيفضُّ الله به كل جند عظيم شديد ويفتح به كل حصن حصين ومن يليه ، فَرُمُّوا حصونكم وأعدوا واستعدوا ، فكأنكم بالعرب قد وردوا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٦ .

بلادكم وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم ، وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوسًا ، فأبى الملك [1] .

وهذا يعتبر نوعا من الحرب النفسية قدرها الله تعالى لتكون لصالح المسلمين .

حوار بين رستم وأحد المجاهدين :

ولقد نهض رستم بعد أن أعيته الحيل في دفع القيادة عنه فسار بجيشه نحو القادسية .

أخرج الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن ابن الرُّفَيل الفارسي قال: لما فصل رستم وأمر الجالنوس بالتقدم إلى الحيرة أمره أن يصيب رجلا من العرب ، فخرج هو والآزادمرد سَرِيَّةً في مائة حتى انتهيا إلى القادسية ، فأصابا رجلا دون قنطرة القادسية فاختطفاه ، فنفر الناس فأعجزوهم إلا ما أصاب المسلمون في أخرياتهم، فلما انتهيا إلى النجف سرَّحا به إلى رستم وهو بِكُوثَى ،فقال له رستم : ماجاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال : نطلب موعود الله ، قال : وماهو؟ قال : أرضكم وابناؤكم ودماؤكم إن أبيتم أن تسلموا ، قال رستم : فإن قُتلتم قبل ذلك ؟

قال : في موعود الله أن من قُتل منا قبل ذلك أدخله الجنة ، وأنجز لمن بقي منا ماقلت لك ، فنحن على يقين ، فقال رستم: قد وُضعنا إذًا في أيديكم ، قال : ويحك يارستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ماترى حولك فإنك لست تجاول

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٥ - ٥٠٦ .

الإنس، إنما تجاول القضاء والقدر ، فاستشاط غضبا فأمر به فضُرِبَتْ عنقه[1] .

وهكذا استطاع هذا المجاهد المسلم أن يرمي بقنبلة بعيدة المدى في وسط جيش الفرس ، فلقد حطم أعصاب أكبر قادتهم حتى أخرجه عن طوره، وأغضبه غضبًا شديدًا حتى أمر بقتله وهو الذي اشتهر بالحلم والحكمة.

لقد وُفِّق هذا المجاهد في بيانه الرائع إلى أن يضع جيش الفرس - وخاصة قائدهم - في حيرة مطبقة ، وشعور ضاغط بأن المسلمين سيقضون عليهم لامحالة ، وذلك بإشعارهم أولاً بأن المسلمين مقدمون على قتالهم حتى الموت ليقينهم بأن من مات فمآله إلى الجنة ولابد أن يتحقق النصر على يد من بقي لأن الله تعالى قد وعدهم بذلك ، ثم بإشعارهم ثانيًا بأنهم لا يقاتلون المسلمين في واقع الأمر ، وإنما يقاتلون الله تعالى ، لأن المسلمين ليسوا إلا جنود الله سبحانه ينفذون أوامره، ومن دخل مع الله جل وعلا في صراع فإنه مغلوب لامحالة، ولذلك اعترف له رستم بحتْميَّة كون نتيجة المعركة لصالح المسلمين ماداموا بهذا الإيمان القوي حيث قال : قد وُضعنا إذًا في أيديكم .

وإن هذا المجاهد الذي لم يُعرف اسمه ليعتبر مثالا عاليًا للشجاعة النادرة والفدائية العالية ، فهو يخاطب رستم بهذا المنطق القوي ويتهجم على تقاليد الفرس البالية ويُظهر عزة الإسلام ، مع أنه كان عاريًا من الحصانة التي يتمتع بها الوفود المبعوثون من قادتهم حيث قد تعارفت الدول على أن الرسل لاتقتل ، وهذا المجاهد قد أُخِذ أسيرًا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٧ .

بالقوة فهو تحت تصرف أعدائه ، كما أن هذا المجاهد يعتبر مثالا لقوة الإيمان والثقة العالية بنصر الله تعالى لأوليائه .

وإن جيلاً هذا الرجل أحد أفراده العاديين الذين لم يرتفع لهم ذكر ولاشهرة لهو جيل فريد في الفضائل والسمو نحو المعالي .

لقد قتله رستم وهو يعترف بأنه قد مثَّل أمة بلغت الكمال في مجال الأخلاق، ولقد ظل رنين كلام ذلك المجاهد في سمعه ووقر في قلبه حتى استشهَد بكلامه وضرب المثل بأمة الإسلام وهو يلوم قومه على الظلم والفجور .

قال الرُّفَيل في رواية ابن جرير السابقة « وخرج رستم من كُوثَي حتى ينزل ببُرس فغصب أصحابه الناس أموالهم ووقعوا في النساء وشربوا الخَمور ، فضج العلوج إلى رستم وشكوا إليه مايلقون في أموالهم وأبنائهم ، فقام فيهم فقال: يامعشر أهل فارس والله لقد صدق العربي، والله ما أسلمنا إلا أعمالُنا ، والله للعرب في هؤلاء - وهم لهم ولنا حرب - أحسن سيرة منكم ، إن الله كان ينصركم على العدو ويمكِّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيِّرًا مابكم ، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم . وبعث الرجال فلقطوا له بعض من يُشكى فأُتِيَ بنفر فضرب أعناقهم [1] .

وهكذا تنبه رستم لبعض أسباب النَصر المعنوية القائمة على مكارم الأخلاق لما أحيط به وأدرك الخطر ، وكان لقاؤه ببعض المسلمين

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٠٨ .

وسماعه أخبارهم مما أيقظ مشاعره نحو ذلك ، حيث أدرك أن السبب الرئيس لانتصار المسلمين مع قلة عددهم وضعف عدتهم أنهم اتصفوا بالعدل والعفة والوفاء حتى مع أعدائهم ، فلقد شهد لهم أنهم خير لشعوب دولة الفرس من الفرس أنفسهم مع أنهم أعداء لهم محاربون، والحق ماشهدت به الأعداء ، ولايستطيع هو ولاغيره أن يقول غير ذلك لأن التاريخ لم يسجل على المسلمين في فتوحهم الأولى أي مخالفة في انتهاك الأعراض أو نهب أموال الآمنين .

تقارب بين الجيشين :

سار رستم ببطء شديد نحو القادسية ، جاء في رواية ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا : ولما اطمأن رستم أمر الجالنوس أن يسير من النجف ، فسار في المقدمات فنزل فيما بين النجف والسَّيلحَيْن ، وارتحل رستم فنزل النجف ،وكان بين خروج رستم من المدائن وعَسْكَرته بساباط وزحفه منها إلى أن لقي سعدا أربعة أشهر، لايُقْدم ولايقاتل رجاء أن يضجروا بمكانهم ، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقي من قبله ، وطاولهم لولا ماجعل الملك يستعجله وينهضه ويقدمه حتى أقحمه .

ولقد كان عمر رضي الله عنه مدركا لسياسة الفرس الحربية ولما يَصلح من الخطط لحسم القتال معهم فرسم لسعد خطة بعيدة المدى، تعتمد على الصبر والمطاولة .

جاء في الرواية السابقة : وعرف عمر أن القوم سيطاولونهم فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم ، وأن يطاولوهم أبدًا

حتي ينغضوهم ، فنزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة ، وأبى الله إلا أن يتم نوره ، فأقاموا واطمأنوا وكانوا يغيرون على السواد فانتسفوا ماحولهم فحووه وأعدّوا للمطاولة ، وعلى ذلك جاؤوا ، أو يفتح الله عليهم ، وكان عمر يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون - يعني من اعدائهم - فلما رأى ذلك الملك ورستم وعرفوا حالهم، وبلغهم عنهم فعلهم علم أن القوم غير منتهين ، وأنه إن أقام لم يتركوه فرأى أن يشخص رستم ، ورأى رستم أن ينزل بين العتيق والنجف ثم يطاولهم مع المنازلة، ورأى أن ذلك أمثل ماهم فاعلون حتى يصيبوا من الإحجام حاجتهم أو تدور لهم سعود [١] .

ولقد كان سعد رضي الله عنه رجل الموقف في رزانته واتزانه وصبره وبُعْد سياسته وصونه سره عمن لايفقه أمور الحرب ، جاء في رواية للإمام الطبري بإسناده عن موسى بن طريف قال : قال الناس لسعد : لقد ضاق بنا المكان فأقْدم ، فزَبر من كلمه بذلك وقال: إذا كُفيتم الرأي فلا تكلّفوا فإنا لن نقدم إلا على رأي ذوي الرأي : فاسكتوا ماسكتنا عنكم[٢] .

وهذا موقف يدل على فقه بأمور الحرب حيث إن منها ما لاينبغي أن يطلع عليه إلا الخاصة من ذوي الرأي ، إذ أنه لو أعطاه كل ماعنده لربما فشى ذلك في الجند ، وقد يستطيع العدو بعد ذلك الاطلاع على أسرار الجيش الإسلامي لأن قدرات الناس على صون الأسرار تختلف .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥١٠ .

مغامرة من طليحة :

هذا وقد أرسل سعـد الطلائع لمعرفة تحركـات العدو وهو يظن أن رستم لايزال في النجف فأرسل عـمرو بن مـعد يكرب فـي خمـسة وطليحـة ابن خويلد الأسـدي في خمـسة ، فلم يسيـروا إلا فرسـخا وبعض آخر حتى رأوا مقدمات جيش رستم فاتفقوا على العودة وإبلاغ سعد بذلك ماعدا طليحـة فإنه أصر على أن يذهب إلى جيش الفرس وحده .

جاء في رواية أبي عـثمان النهـدي عند الطبري قال بعـد أن ساق الخبر: فأتوا سعدا فأخبروه بقرب القوم ، ومضى طليحة وعارض المياه على الطفـوف - يعني الأراضي المشـرفـة على الريف - حـتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم ، فلما أدبر الليل خرج وقد أتى أفـضل من توسم في ناحيـة العسكر ، فـإذا فرس لم ير في خيل القـوم مثله، وفسطاط أبيض لم ير مثله ، فـانتضى سيفـه فقطع مقود الفرس ، ثم ضمه إلى مقود فرسه ، ثم حرك فرسه فخرج يعدو به ، ونذر به الناس والرَّجْل - يعني المشاة - فـتنادوا وركبوا الصـعبة والذلول وعجل بعضهم أن يسرج، فخرجوا في طلبه ولقد لحقه فارس من الجند ، فلما غشيه وبَوَّأ له الرمح ليطعنه عـدل طليحة فرسه فندر الفارسي بين يديه فكرَّ عليه طليحـة فقصم ظهره بالرمح ، ثم لحق به آخر ففعل به مثل ذلك ، ثم لحق به آخر وقـد رأى مصرع صاحبيه - وهما ابنا عمه - فازداد حنقًـا ، فلما لحق بطليحة وبوَّأ له الرمح عدل طليـحة فرسـه فندر الفـارسي أمامه، وكـرَّ عليه طـليحة ودعـاه إلى الإسار، فعرف الفـارسي أنه قاتله فاستأسر، وأمـره طليحة أن يركض

بين يديه ، ففعل ، ولحق الناس فرأوا فارسي الجند قد قتلا وقد أسر الثالث وقد شارف طليحة عسكرهم فأحجموا عنه ونكسوا .

وأقبل طليحة حتى غشيَ العسكر وهم على تعبية ، فأفزِع الناس، وجوزوه إلى سعد ، فلما انتهى إليه قال: ويحك ماوراءك؟ قال: دخلت عساكرهم وجُسْتها منذ الليلة ، وقد أخذت أفضلهم توسُّمًا ، وما أدري أصبت أم أخطأت ، وهاهو ذا فاستخبره ، فأقيم الترجمان بين سعد وبين الفارسي ، فقال له الفارسي : أتؤمِّنني على دمي إن صدقتك؟ قال: نَعَمْ الصدق في الحرب أحب إلينا من الكذب ، قال: أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمَّن قِبَلي ، باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالأبطال ولقيتها منذ أنا غلام إلى أن بلغت ماترى ، ولم أَرَ ولم أسمع بمثل هذا ، أن رجلا قطع عسكرين لايجتريء عليهما الأبطال إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ماهو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته ، فأنذره وأنذرنا به فطلبناه فأدركه الأول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله ، فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله ، ثم ادركته ولا أظن أنني خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمي فرأيت الموت فاستأسرت .

ثم أخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف وأن الأتباع مثلهم خُدَّام لهم ، وأسلم الرجل وسماه سعد مسلما ، وعاد إلى طليحة، وقال : لا والله لاتُهزَمون مادمتم على ما أرى من الوفاء والصدق والإصلاح والمواساة ، لاحاجة لي في صحبة فارس فكان من أهل البلاء يومئذ [١] .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٣ - ٥١٤ .

وبعد : فقد رأينا نموذجًا لما كان عليه أبطال المسلمين من البسالة والإقدام ، وتقديم مصلحة المسلمين العامة على المصالح الخاصة، فقد كان طليحة بن خويلد الأسدي نموذجًا للشجاعة الفائقة والجسارة العظيمة، وقد وصف ذلك الأسير الفارسي شجاعته بما لامزيد عليه، ولا أعظم من اعتراف أهل الاختصاص بتفوق أقرانهم ، وإذا كان أولئك الفرسان الذين تغلَّب عليهم طليحة كلٌّ واحد منهم يعدل ألفًا فكم يعدل طليحة من الفرسان !!

وبالرغم من أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة كان خلاف ما أُمِرَ به فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لم يحاسبه على ذلك التجاوز، نظرًا للنتيجة الكبيرة التي أفادها لصالح جيش المسلمين من أسْر ذلك الفارسي والإفادة منه عن جيش الفرس ، إلى جانب ماتم من إسلام ذلك الفارسي وهو مطلب كبير عند المسلمين ، مع اعتبار أن طليحة قد تصرف في أمر سعد باجتهاده لتحقيق مصلحة الجيش الإسلامي ولم يتصرف اتباعًا لهواه ومصلحته .

وكون سعد لم يحاسب طليحة على تجاوزه دليل على مرونة قادة المسلمين في تطبيق الأنظمة الحربية ، فالعبرة عندهم ليست في كون الجندي يخالف أمر القائد فحسب ، وإنما هي بالدرجة الأولى في تحقيق مصلحة الجيش الإسلامي أو الإخلال بذلك ، وكون طليحة حقق هذه المصلحة أعظم من أن يحاسَب على مخالفته .

ولاشك في أن ما قام به طليحة من تلك المغامرة العالية والبطولة النادرة كان مُقدِّمةً لإسلام ذلك الرجل الفارسي، إذ أن هذا العمل لايمكن أن يصدر من غير المسلمين مهما بلغوا من الشجاعة والإقدام

فإن الاحتمال الغالب في مثل تلك الحال أن يُرَوِّي ذلك البطل المغامر ثَرَى تلك البطاح التي غامر فيها بدمه ، ولن يُقدم على ذلك من كان في قلبه شيء من إرادة الدنيا .

بقي أن يقال إن هناك احتمال أن يؤسر ذلك المغامر فيضطر إلى الإدلاء بمعلومات عن جيشه فيضر جيشه بذلك ، ولكن هذا الاحتمال غير متوقع ، لأن أسر أبطال المسلمين بعيد المنال ، فإن البطل المسلم سيظل يقاوم ما بقيت روحه بين جنبيه ، ولن يُسْلِم نفسه لأعدائه ، وإنما المحتمل هو أحد أمرين : أن يتمكن الأعداء من قتله وهذا نجاح كبير له لأنه قد فاز بالشهادة في سبيل الله تعالى ، أو أن ينجو فيظفر بمعلومات جديدة يتحف بها قادة جيشه ، وهذا التردد بين الاحتمالين لايوجد عند غير المسلمين ، فلذلك لاتوجد عندهم مثل هذه المغامرة المذهلة .

أقول : إن ما قام به طليحة من ذلك العمل البطولي المدهش كان مقدمة لإسلام ذلك الرجل الفارسي ، لأنه وهو فارس قوي يُعدل ألف فارس سيكون أعلى شيء عنده في الحياة أن يرى مظاهر البطولة النادرة، وسيكون فكره مركزًا حول هذا المجال ، فلما رأى من ذلك ما أذهله وجعله يحتقر نفسه وأبطال قومه عند بطولة طليحة زال ما في فكره من نخوة الجاهلية المتركزة بعظمة الفرس وبطولتهم ، ورأى أنه قد تحوَّل إلى تلميذ في مدرسة البطولة الحقة ، فهيمن عليه الإعجاب ببطولة المسلمين، وقاده ذلك إلى التعرف على أخلاقهم العالية ، من الصدق والأمانة والوفاء والتواضع والتسامح . . فأعلن إسلامه .

لقد انتقل ذلك المسلم الفارسي من عالم الأنانية والتفاخر بالجاه

والمال والطبقيـة القاتلة إلى عالم الإيثار والتواضع والمواسـاة والرحمة، فأحسَّ بالفارق الكبير بين العالَـمَين ، وآثر تبعية عالَم مكارم الأخلاق لأنه وجد فيه نفسه الحقيقية التي فقدها طول عمره بخضوعه لضلالات قومه.

حوار رستم مع زُهرة :

كان رسـتم حريصا على معـرفة المزيد من أخبـار المسلمين ومدى قوتهم، فرغب في اللقاء مع أحد قادتهم ، فكان لقاؤه الأول مع قائد مقدمة جيش المسلمين زهرة بن الحَوِيَّة.

يقول الإمام ابن جرير فيـما يرويه بإسناده عن ابن الرُّفَيل عن أبيه قال: لما نزل رسـتم على العتيق وبـات به أصبح غاديا على التـصفح والحزْر[1] فـساير العـتيق نـحو خَـفَّان حـتى أتى على منقطع عـسكر المسلمين، ثم صعـد حتى انتهى إلى القنطرة ، فتـأمل القوم حتى أتى على شيء يشرف منه عليهم .

فلما وقف على القنطرة راسل زهـرة ، فخرج إليه حتـى واقفه ، فأراده أن يصالحـهم ويجعل له جُعْلاً على أن ينصـرفوا عنه ، وجعل يقول فيما يقول : أنتم جـيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ولا نمنعـهم مـن التـجـارة في شيء من أرضنا وقـد كـان لهم في ذلك معاش-يعـرض لهم بالصلح ، وإنما يخبره بصنيـعهم ، والصلحَ يريد ولايصرح- .

---

(١) يعني أراد تأمل جيش المسلمين وتقدير عددهم .

فقـال له زهرة : صدقت ، قـد كان مـاتذكر ، وليس أمـرنا أمر أولئك ولاطَلَبَـتنا ، إنا لم نأتـكم لطلب الدنيـا ، إنما طَلبـتنا وهمـتنا الآخـرة ، كنا كمـا ذكـرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضـرع إليكم يطلب مـافي أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعـالى إلينا رسولاً فدعانا إلى ربه فـأجبناه ، فقال لنبيه صـلى الله عليه وسلم ، إني قد سلطت هذه الطائفـة على من لم يَدِنْ بديني فأنا منتـقم بهم منهم ، وأجْعلُ لهم الغلبة مادامو مُقرِّين به، وهو دين الحق لايرغب عنه أحد إلا ذل ، ولايعتصم به أحد إلا عز .

فقـال له رستم : وماهو ؟ قـال : أما عمـوده الذي لايصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن مـحمدًا رسول الله والإقرار بماجاء من عند الله تعالى ، قال : ما أحسن هذا ! وأي شيء أيضًا ؟ قال : وإخراج العـباد من عبادة العـباد إلى عبادة الله تـعالى ، قال : حسن ، وأي شيء أيضًـا ؟ قال : والناس بنو آدم وحـواء إخوة لأب وأم ، قال : ما أحسن هذا !

ثم قال له رستم : أرأيت لو أن رضيت بهـذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قـومي كيف يكون أمـركم ؟ أترجعـون ؟ قال : إي والله ثم لانقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجـة ، قال : صدقتني والله ، أُما إن أهل فارس منـذ وَلِي أردشير لم يَدَعُوا أحدًا يخـرج من عمله من السّفلة ، كانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدَّوا طورهم ، وعادَوا أشرافهم، فقال له زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كمـا تقولون، نطيع الله في السفلة ولايضـرنا من عصى الله فينا .

فانصرف عنه ، ودعا رجال فارس فـذاكرهم هذا فحَمُوا من ذلك وأنفوا ، فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ، أخزى الله أخرعنا وأجبننا .

يقول الرُّفَـيل راوي هذا الخبر وهو رجل فارسي : فلمـا انصرف رسـتم ملْتُ إلى زهرة فكان إسـلامي ، وكنت له عديداً وفـرض لي فرائض أهل القادسية (١) .

وهكذا رأينا في هذه المحاورة المثيـرة كيف علا نجم المسلمين وأفل نجم المجوس ، وسـاد منطق العدالة والعـقل السليم والتواضـع والقيم العليا، وخفَتَ منطق الجور والعقل المريض والكبرياء والقيم الهابطة .

ولقد كان رستم مُهيَّأً نفسـيا لقبول نداء العقل السليم والسمو نحو القيم العليـا، فلما سمع كـلام زهرة بن الحوية المُشرق وقر في نفـسه حب الإسلام الذي سيـحفظ له كرامته وكـرامة أمته ،والذي سيـسمو بعقول المستضعفين وهم أغلبية الأمـة فيحيلهم إلى عناصر فعالة مؤثرة وسيهذِّب من نفـوس عِلْيَة القوم فينزلهم من علياء الجـبروت والطغيان ليكونوا في مسـتوى بشريتهم ، وهنا يكون البـروز لأصحاب المواهب العالية الذين ستضع بهم أمتهم ثقتها وستسند إليهم أمورها .

لقد بين زُهرة لرستم أن أهداف العرب قـد تغيرت بعد الإسلام ، فيجب أن ينـظر إليهم العالم على أنهم مسلمـون لا على أنهم العرب الذين كـانوا يعاملـونهم قبل ذلك ، وقـد لخص الدوافع إلى تغـييـر الأهداف والمناهج ببيان أن مـقصد العرب قبل الإسـلام الحصول على الدنيا وأن مقصدهم بعد الإسلام الظـفر بنعيم الآخرة ، وحَسْبهم هذا التحول الكبير في مقاصدهم لتتـحول حياتهم بأكملها من حياة الخنوع

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٧ - ٥١٨ .

والذل والتفرق والأهداف القريبه والتـخلق بمساويء الأخلاق إلى حياة العز والجماعة والأهداف السامية والتخلق بمكارم الأخلاق .

وكان زهرة في غاية البـراعة والتوفيق حينمـا ذكر لرستم أن الله تعالى قـد سلط المؤمنين بهذا الدين على من كفر به ، وأن الـعزَّ قرين من آمن به وأن الذل قرين من كفر بـه ، فقد رسخ في نفس رستم أن من سيقاتلهم ليسوا كمن اعتـاد مقابلتهم بل هم موجَّهون من قِبَل الله تعالى ، ومن كانت هذه صفتهم فلا قِبَلَ لأحد بقتالهم .

لقد فـهم رستم هذه المعاني السامـية ، وأدرك أن المسلمين لاطمع عندهم في الاستيلاء على بلادهم لمنافع شخصية ، وإنما همُّهم الوحيد أن يحولوها إلى بلاد إسلامية ، ثم تبـقى بعد ذلك بيد أهلها ، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولقد أثر هذا المنطق العادل في نفس رستم، وهمَّ بالدخول في الإسلام وإدخال أمـته فيه لولا أن حال دون ذلك إجماع مستشاريه على عداء الإسلام وقتال المسلمين ، ويبدو أنهم قد اتهموه بالجبن حيث قال لهم : أخزى الله أخرعنا وأجبننا .

وقد استفاد من هذه المحاورة راوي هذه القصة الرُّفيل حيث دخل في الإســلام وكان له دور مـهم في نقل أخـبـار الفـرس والتعـريف بأحوالهم. أما ما في الخبر من إبراز دعوة التوحيد فسيأتي التعليق على ذلك عند عرض كلام وفود المسلمين إلى رستم إن شاء الله .

حوار رستم مع رِبْعيٍّ بن عامر :

أخرج الإمـام ابن جرير من طريق سـيف بن عمـر عن شيـوخه قالوا: وأرسل سعد إلـى المغيرة بن شعبة وبسر بـن أبي رهم وعرفجة ابن هرثمة وحذيفة بن محصن وربْعيّ بن عامـر وقرفة بن عامر التيمي

ثم الوائلي، ومذعور بن عدي العـجلي والمضارب بن يزيد العجلي ، ومـعبـد بن مـرة العـجلي - وكـان من دهاة العرب - فـقـال : إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم ؟ قالوا جـميعًا : نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعـه للناس فكلمناهم به، فقـال سعد : هـذا فعل الحَزَمَـة اذهبوا فتهيئوا .

وهكذا حدَّد أعضاء هذا الوفـد مهمتهم بتنفيـذ أوامر أميرهم أوَّلاً ثم النظر فيما يجدُّ من أمور لم يسبـق فيها أمر من قائد المسلمين بفعل الأفضل والأنفع للمسلـمين وهذا يدل على فقههم في تحمل المسـئولية وأدائها، وذلك انطلاقا من قاعـدة : يرى الشاهد ما لايرى الغائب ، فلابد مـن التصرف فـي الأمور التي تجدُّ بـالحكمة والمشـورة لأن عدم التـصرف في الوقت المناسب يـؤدي إلى فشل المهـمة ، ولذلك قـال سعد : هذا فعل الحزَمة .

« فقـال ربْعيُّ بن عامـر : إن الأعاجم لهـم آراء وآداب ، ومتى نأتهم جميعًا يروا أنا قد احتفلنا بهم ، فلا تَزِدْهم على رجل ، فمالَئوه جميعًا على ذلك ، فقال سرِّحوني ، فسرَّحه - يعني أرسله سعد إلى رستم - .

وأمام هذا المـقطع من الخبـر نجد صورة عـالية من الشـورى التي خلَت من حظ النفس وتجردت لمصلحة الإسلام والمسلمين ، فقد تنازل سعد عن رأيه حـالاً وأخذ برأي ربعي بن عامر ، ووافق الجـميع على ذلك لَمَّا رأوا وجاهة هذا الرأي مع أنه يقـصُر شرف المهـمة على رجل واحد، ثم لمـا آنس ربعي من نفسـه المقدرة على تمثـيل المسلمين طلب

ذلك لنفسه ، ولما كـان سعد يدرك تماما مايتـحلى به ربعي من التجرد والإخلاص وافـقه على ذلك ، وكـانت هذه الموافقـة أولى من إرسال غيره لأنه لم يُبْد استعداده للقيام بالمهمة إلا وهو قد أعـدَّ نفسه لها ، وإن الذي يعيش القضية بفكره وأحاسيسه أولى بالنجاح فيها من الذي يفاجأ بها وهو على غير استعداد.

ومن هنا نعلم أن من آنس من نفسه المقـدرة والكفاءة فلا بأس أن يطلب القـيام بالمهـمة مـادام قد تجـرد من حظ النفس وأراد مصلـحة الأمة، فـقد يرى من نفـسه أنه أقـدر ممن حوله على أدائهـا ،ويَحْسُن بالمسـئول أن يلبي طلـبه كـما فـعل سعـد لأن ذلك أنجح للعـمل في الغالب.

ثم ذكر ابن جرير في روايته خبر خروج ربعي وقدومه على رستم وأن الفـرس قـابلوه بمظاهرهم الدنيـوية من فـرش الحـرير والوسـائد المنسوجة بالذهب ، وأنه قـابلهم بمظهره المتواضع في لباسـه وسلاحه ودابَّته ومـاقام به من شـق وسادتين لهم وربط فـرسه بهـما ، إلى أن قال: « فقالوا : ضع سلاحك ، فـقال : إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم ،أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت ، فأخبروا رستم ، فقال : ائذنوا له هل هو إلا رجل واحـد ! فأقبل يتوكأ على رمحه ، وزُجُّه نصل[1]، يقارب الخطو ويزجُّ النمارق والبُـسُط ، فما ترك لهم نمرقة ولابساطا إلا أفسده وتركه متهتكا مخرقا».

أقول : وإن في هذا السلوك الـعالي مثـلاً بديعًا لاحتـقار مظاهر الجاهليـة وإظهار عزة الإسـلام ، وذلك بالقول والعمل ، فـقد رفض

(١) الزج الحديدة في طرف الرمح ، وهو النَّصل ولكن لعله أراد أنه بدون غلاف .

أوَّلاً أن ينصاع لمطلبهم في وضع السلاح ، فـما دام أنه لم يقتنع ذاتيًّا بهذا المطلب فإن إظهار الشخصية يقتضي عدم الخضوع لإرادتهم ، ثم لما رأى أنهم يتباهون بفـرشهم ووسائدهم أراد إهانتهم بإفسـادها ليبيِّن لهم أن هذه المظاهر الخلاَّبة لم توثر في نفسه ، وأنها ليست من الأمور التي يهتم بها المسلمون أو يقيمون وزنا لأصحابها ، فلله دره ما أعظم مُرامَه وما أسدَّ سهامه . لقد رماهم في أعظم شيء يعتزون به وهو ما يملكونه من مظاهر الدنيا فحطم معنوياتهم قبل أن يبدأ معهم الحوار .

قـال : « فلمـا دنا من رسـتم تعلـق به الحـرس ، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فـقالوا : ماحملك على هذا ؟ قال: إنا لا نستـحب القعود على زينتكم هذه ، فكلَّـمه فقال : مـاجاءبكم ؟ قال: الله ابتـعثنا والله جـاء بنا لنخرج من شـاء من عبادة العـباد إلى عبادة الله ومن ضـيق الدنيا إلى سعتهـا ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعـوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضـه يليها دوننا ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفْضِيَ إلى موعود الله ، قـال وماموعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي .

فقال رستم : قد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حـتى ننظر فـيـه وتنظروا ؟ قـال : نعـم كم أَحَبُّ إليكم ؟ أيومًـا أو يومين؟ قال: لا بل حـتى نكاتب أهل رأينا ورؤسـاء قومنا ، - وأراد مقاربـته ومدافعتـه- فقال : إن مما سنَّ لنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم وعمـل به أئمتنا أن لانُمكِّن الأعـداء من آذاننا ولانؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مـترددون عنكم ثلاثا ، فانظر في أمرك

وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل ، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجِزاء فَنَقْبَلُ ونكفُّ عنك ، وإن كنت عن نصرنا غنيا تركناك منه ، وإن كنت إليه محتاجًا منعناك ، أو المنابذة في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى ، قال: أسيِّدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم » .

هذا وبعد الاطلاع على هذا البيان الواضح يدرك المتأمل مبلغ ماوصل إليه المسلمون الأوائل من النجاح الباهر في التفاوض مع الأعداء وأن سرَّ نجاحهم يكمُن في أمرين : أولهما حسن اختيار الوفود، وثانيهما أن أمور الجهاد قد بينها النبي صلى الله عليه وسلم وطبّقها في عهده وطبقها خلفاؤه حتى أصبحت من المعلومات الواضحة عندهم ، وإنما يتفاوتون في المقدرة على التعبير عنها والنكاية بالأعداء في الحرب النفسية.

قالوا : « فخلص رستم برؤساء أهل فارس فقال: ماترون هل رأيتم كلامًا قط أوضح ولا أعزَّ من كلام هذا الرجل ؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب ، أما ترى إلى ثيابه! فقال: ويحكم لاتنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة ، إن العرب تَستَخِفُّ باللباس والمأكل ويصونون الأحساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ولايرون فيه ماترون » .

وهذا الكلام دليل على تفوق رستم على بني قومه في العقل والإدراك ولو كان معه من يؤيده لربَّما دخل في الإسلام ، فقد كان

معجبا بأخلاق المسلمين ، وإطلاقُ العرب عليهم نظرًا لأن المسلمين آنذاك كانوا كلهم من العرب إلا القليل النادر .

وجاء في هذه الرواية أن الفرس أقبلوا إلى ربعي يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم إلى أن تُرُوني فَأُرِيكم ؟ فأخرج سيفه من خِرَقِه كأنه شعلة نار ، فقال القوم : اغمده ، فغمده ، ثم رمي ترسًا ورموا حَجَفته - وكانت من الجلد المتين - فخُرِق ترسهم وسلمت حجفته، فقال : يا أهل فارس إنكم عظَّمتم الطعام واللباس والشراب، وإنا صغرناهن .

وهكذا تفوق عليهم ربعي بن عامر حتى في السلاح وهم الأمة القوية المحاربة ، وماذاك إلا من عناية المسلمين آنذاك بشئون الحرب على قدر طاقتهم ، فقد جلا ربعي سيفه وحدَّه قبل أن يذهب إليهم حتى أصبح كأنه شعلة نار ، وأخاف الفرسَ منظره فطلبوا منه أن يغمده ، واختار ترسه من النوع القوي ، وهو وإن كان من الجلد فإن إتقان الصناعة قد أحاله إلى مادة قوية .

فلينظر المسلمون إلى واقعهم المعاصر كيف تفوق عليهم الأعداء بجميع أنواع الأسلحة وأصبحوا لايستطيعون المباهاة بأي نوع منها لتأخرهم الشديد في مجال الصناعة مع أنهم المأمورون من الله تعالى بالإعداد الحربي﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾[**الأنفال** : ٦٠] (١) .

حوار رستم مع حذيفة بن محصن :

وجاء في آخر هذ الخبر أن الفرس طلبوا في اليوم الثاني من قائد المسلمين بَعْث ربعي بن عامر فبعث إليهم حذيفة بن محصن وأنه قدم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥١٨ - ٥٢١ .

عليهم في مثل هيئة ربعي وأنهم قالوا له: مابالك جئت ولم يجئ صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدةوالرخاء.

وهذا جواب سديد أظهر فيه حذيفة عدالة المسلمين وحسن قيادتهم، وفي تغيير الرسل الموفدين فائدة مهمة وهي أن يتبين للأعداء أن لدى المسلمين كفاءات متعددة .

ثم جاء في هذه الرواية أن حذيفة عرض لهم الأمور الثلاثة التي عرضها عليهم ربعي وهي الإسلام أو الجزية أو القتال ، فقال رستم: أو الموادعة إلى يوما ما . فقال حذيفة : نعم ثلاثا من أمس[1] .

وهذه نباهة من حذيفة تدل على حسن اختيار سعد للوفود ، فقد كان رستم حريصًا على أن يأخذ من المسلمين موافقة على الموادعة وإطالة أمر الحرب ، فلما واجه ربعي بن عامر أُسقِطَ في يده حينما عرف أن من سنة الإسلام أن لا يهادنوا الأعداء إذا لقوهم أكثر من ثلاثة أيام ، فأراد أن يجرَّ حذيفة للموافقة على الموادعة إلى أجل غير مسمى ، ولكن حذيفة كان واعيًا لأحكام الجهاد ، فوافق على ذلك لمدة ثلاثة أيام بما فيها اليوم الماضي الذي كان بداية مواجهة العدو .

حوار رستم مع المغيرة بن شعبة :

وجاء في آخر هذه الرواية أن الفرس طلبوا في اليوم الثالث من قائد المسلمين أن يبعث إليهم رجلا فبعث إليهم المغيرة بن شعبة. وقد أخرج الإمام الطبري خبره من طريق سيف بن عمر عن أبي عثمان النَّهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس حبسوه

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢١ .

واستـأذنوا رستـم في إجازته ، ولـم يغيروا شـيئًا من شـارتهم تقوية لتهاونهم [1] فـأقبل المغيـرة ابن شعبة والقوم في زيِّهم عليهم الـتيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبُسُطهم على غَلْوة [2] لايصل إلى صاحبهم حتى يمشـيَ عليهم غلوة، وأقـبل المغيرة ولـه أربع ضفائر يمشـي حتى جلس مـعـه على سريره ووسـادته، فـوثبـوا عليه فـتـرتروه وانزلوه ومغثوه[3] فـقال :كـانت تبلغنا عنكم الأحـلام ولا أرى قومـا أسفـه منكم، إنا معشـر العرب سواء ، لايستعبد بعـضنا بعضًا إلا أن يكون محاربا لصـاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كمـا نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعـتم أن تخبروني أن بـعضكم أرباب بعض ، وإن هذا الأمر لايستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون، وإن مُلكًا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقـالت السَّفلة : صدق والله العـربي ، وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكـلام لايزال عبيـدنا ينزعون إليـه ، قاتل الله أوَّلينا مـاكان أحمقهم حين كانوا يصغِّرون أمر هذه الأمة .

وهكذا استطاع هذا العـبقري الملهم أن يرمي دولتهم بقنبـلة بعيدة الأثر في مجتمعهم حيث فرقت جمـعهم ، ونبَّهت العامة المستضعفين إلى حقـوقهم المسلوبة ، فرأوا في كـلام المغيرة مـايعبر عن شـعورهم الدفين الذي أماته الطغيان والجبروت ،فنطقوا بما يعبر عن استيائهم من

---

(١) يعني أنهم استـمروا على ما اتفـقوا عليه أول يوم من إظهـار التهاون بالمسلمين وذلك بالمبـالغة في المظاهر الدنيوية .

(٢) يعني قدر رمية السهم .

(٣) يعني ضربوه ضربًا خفيفًا .

أوضاعهم السيئة حيث قالوا : صدق والله العربي ، وكأنهم كانوا في سُبات عميق وهم يسبِّحون بحمد آلهتهم من البشر من غير أن يشعروا بأنهم كان مستعبدين لهم حتى طرق أسماعهم كلام المغيرة بن شعبة وهو يُصَنِّف مجتمعهم الذي رآه إلى آلهة معبودين وعبيد مُستعبدين .

وشعر كبراؤهم بخطر هذا الكلام فلم يستطيعوا كتمان مشاعرهم بل صرحوا بما سيكون لهذا الكلام من أثر في استقلالية عبيدهم وشعورهم بإنسانيتهم وكرامتهم فقالوا : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون إليه .

ولقد توصل المغيرة بهذا إلى نتيجة مهمة وهي تفاؤله بأن دولتهم ستضمحل لأن المُلك لايمكن أن يستمر على الظلم والطغيان .

لقد بين لهم بلسان الحال أن أهم علامات قابلية الدولة للاستمرار أن لايكون هدف الأمة هو تعظيم أمرائهم ورؤسائهم ، والتفنن في مظاهر الأبهة من الملابس والفرش والمراكب والقصور ، وتشكيل المجتمع إلى طبقات يخدم بعضها بعضا ويتذلل بعضها لبعض ، بحيث تكون الطبقة العليا معبودة من مختلف الطبقات ، ومن هم دون ذلك عابدون لمن هم فوقهم ، معبودون ممن هم دونهم ، لأن دولةً هذه أوصافها تحمل أسباب فنائها من داخلها ، وهي وإن عُمِّرت مدة من الزمن لايمكن أن يُكتب لها الاستمرار ، لأنه لابد أن يأتي الوقت الذي يتنبه فيه العامة المستَعْبَدُون ، ويدركون أنهم يعبدون بشراً مثلهم، ليس لهم من المؤهلات إلا أنهم اتفقوا على الظلم والطغيان .

بل إن أهم علامات قابلية الدولة للبقاء والاستمرار أن يكون هناك شعور مشترك من الحاكمين والمحكومين بأنهم جميعًا يخدمون مبدأ

سامِيًا، يعيشون جميعًا من أجله ، ويتفانون جميعًا في خدمته ، ومن كان أشدَّ بلاءً وأعظم تفانيًا في خدمة هذا المبدإ كان أولى بالتقديم والرفعة.

وإن المبدأ السامي الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يعيشون له، ويتنافسون في خدمته هو الإسلام ، ومن أجل سلامتهم من عبادة البشر، وكونهم جميعًا حاكمين ومحكومين يعبدون رب البشر ، ومن أجل خدمتهم لدين الله عز وجل ، الذي أنزله لتنظيم حيا ة البشر ، نصرهم الله تعالى على ممالك ضخمة لم يكونوا في يوم من الأيام يحلمون بحيازة رقعة صغيرة من أراضيها .

وإنه مهما اتفق المفكرون على مبادئ من صنع البشر ومهما حاولوا إتقانها وعظموها ، وجعلوها وسيلة لإخضاع عامة الناس ، فإن هذه المبادئ لم تخرج من عبودية البشر للبشر ، لأنها من صنع البشر أنفسهم.

ولأجل فهم المسلمين الأوائل لعوامل انهيار الأمم وعوامل قيامها حكم المغيرة بن شعبة على دولة الفرس بالفناء ، لمَّا عرف المبدأ الذي يتنافس فيه عامتهم ، وهو خدمة كبرائهم ، وتعظيمهم والخضوع لهم، لأنه من السهولة بمكان أن يتنبه العامة ، وأن يقولوا : لسنا عبيدًا للبشر، ولكن مما يشبه المستحيل أن يقول العامة في دولة الإسلام : لسنا عبيدًا لرب البشر ، لأن العبودية لرب البشر جل جلاله هي منتهى العز والكرامة ، وغاية الفخر والجلال .

ولقد تنبه عقلاء الفرس إلى هذا الخطأ الكبير الذي بنوا عليه سياستهم ، كما سبق في محاورة رستم مع زهرة بن الحوية حيث قال رستم: صدقتني والله ، أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يَدَعوا

أحدا يخرج من عمله من السَّفلة ، كانوا يقولون: إذا خرجوا من أعمالهم تعدَّوا طورهم وعادَوا أشرافهم .

قال أبو عثمان النهدي في سياق رواية الحوار بَيْن المغيرة بن شعبة ورستم : فمازحه رستم ليمحو ماصنع ، وقال له : ياعربي إن الحاشية قد تصنع ما لايوافق الملك ، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك ، فالأمر على ماتحب من الوفاء وقبول الحق ، ثم قال : ماهذه المغازل التي معك ؟[1] قال : ماضرَّ الجمرة أن لاتكون طويلة ، ثم راماهمْ، وقال : مابال سيفك رَثًّا ؟ قال : رثُّ الكسوة ، حَديدُ المضْرَبَة . ثم عاطاه سيفه .

لقد أدرك رستم خطورة هذا الكلام الذي ألقى به المغيرة وفي سط يضم كبراء الفرس إلى جانب خَدَمهم وتابعيهم ، فلم يراجعه في هذا الكلام حتى يقطع الحوار حول هذا الموضوع خوفًا من أن يواصل المغيرة بيان هذا الموضوع ، فذكر أنه لايوافق حاشيته على ما صنعوا من تعظيمه، وهو مجرد اعتذار أراد به الخروج من هذا المأزق ، ثم لم يمهل المغيرة ليرد على ذلك بل عاجله بالسؤال عن سلاحه بأسلوب التهوين والاحتقار فكان جواب المغيرة على البديهة مُسكتًا ، ومعليًا من شأن المَخْبَر مهوِّنا من شأن المظهر .

ثم قال له رستم : تكلمُ أم اتكلم ؟ فقال المغيرة : أنت الذي بعثت إلينا فتكلم ، فتكلم رستم فعظَّم من شأن قومه وذكر محامدهم، وصغَّر من شأن العرب وذكر معايبهم، ثم عرض مساومة المسلمين بالمال ليرجعوا عنهم .

فتكلم المغيرة بن شعبة وحمد الله وأثنى عليه وقال : إن الله

---

(١) يعني بذلك السهام .

خالق كل شيء ورازقه ، فمن صنع شيئًا فإنما هو يصنعه والذي له [1] وأمـا الذي ذكـرت نفـسك وأهل بلادك من الظهـور على الأعـداء ، والتمـكن في البلاد، وعظم السلطان في الدنيـا ، فنحن نعرفـه ولسنا ننكره ، فالله صنعه لكم ووضـعه فيكم ، وهُوَله دونكم ، وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال ، وضيق المعيشة واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك وصيَّرنا إليه ، والدنيا دول ولم يزل أهل شدائدها يتوقـعون الرخاء حتى يصـيروا إليه ، ولـم يزل أهل رخائها يتوقعون الشـدائد حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فـيمـا آتاكم الله ذوي شكر ، كـان شكركم يقـصـر عمـا أوتيـتم ، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغـير الحال ،ولو كنا فيـما ابتُلينا به أهل كفر ، كـان عظيم ماتتابع علينا مسـتجلبا من الله رحمـة يُرَفِّه بها عنا ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه ،أو كنتم تعرِّفوننا به ، إن الله تعالى بعث إلينا رسولا . . ثم ذكر مثل كلام من سبقه من الوفود إلى أن ذكر الجزية ، فـاستشـاط رستم غـضبا ،ثم حلف بالشـمس لايرتفع لكم الصبح غدًا حتى أقتلكم أجمعين.

وإن هذا الكلام الواضح الرصين من المغيرة لم يترك لرستم مجالا للرد خاصة وأن الأيام الثلاثة التي فرضها عليه المسلمون قد انتهت فلم يعد هناك مجال لمحاولاته السياسية في الصلح أو تأخير موعد اللقاء .

قال : فانصرف المغيرة ، وخلص رستم تألفًا بأهل فارس وقال : أين هؤلاء منـكم ؟ مـابعـد هذا ؟ ألـم يأتكم الأوَّلان فـحـسَّـراكم واستحرجاكم، ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا ، وسلكوا طريقا واحدا ،

(١) يعني فإن الله تعالى هو الذي يخلقه وما صنع .

ولزموا أمـراً واحداً، هؤلاء والله الرجال صادقين كـانوا أم كاذبين ، والله لئن بلغ من إربهم وصونهم لسرِّهم أن لايختلفوا ، فما قوم أبلغ فيمـا أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين مايقـوم لهؤلاء شيء ، فلجّوا وتجلَّدوا ، وقال : والله إني لأعلم أنكم تُصْغُـون إلى ما أقول لكم ، وأن هذا منكم رئاء ، فازدادوا لجاجة [1] .

وهذا اعـتراف آخـر من رستم بما علـيه المسلمـون من سُمُـوّ في الأخلاق وعُلُوّ في السياسـة،وكان مثار دهشة رستم وعـجبه من كون وفود المسلمين يقـولون كلاما واحـداً لايختلفون فـيه في المطالب التي يعرضونهـا عليه،فاستنتج من ذلك إحدى نتيـجتين :أن يكونوا كاذبين في دعواهم الدينيـة فهم عظماء في صـونهم الأسرار واتفاق كلمـتهم وتخلقـهم بمكارم الأخـلاق ،أو أن يكونوا صـادقين في دعـوتهم إلى دينهم فـإن هذا الدين السمـاوي هو الذي جبلهم علـى هذه السيـاسة العظيمـة ومكارم الأخلاق،وقد ترجحت لديه النتـيجة الأخيـرة حيث ختم كلامه عن المسلمين بقوله:لئن كانوا صادقين مايقوم لهؤلاء شيء.

ومن هذا تتبين لنا منزلة اجتمـاع الكلمة واتفاق الرأي في الدعوة إلى الإسلام ، وإظهـار عظمة المسلمين ، وإيقـاع الرعب والهيـبة في قلوب الأعداء .

فمتى يتنبه المسلمـون للزوم هذا المبدأ الكريم الذي أنتج للمسلمين الأوائل هذه النتائج البـاهرة ، حتى يكونوا جسـداً واحداً كمـا أمرهم نبيهم صلى الله عليه وسلم ويداً واحدة على أعدائهم .

وقول رستـم لكبار قادته « والله إني لأعلم أنكم تصغـون إلى ما

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢١ - ٥٢٤ .

أقول لكم وأن هذا منكم رئاء » يعني أنهم في قرارة أنفسهم مقتنعون برأي رستم في تفادي الحرب مع المسلمين بأي ثمن ولكنهم يُصرُّون على الحرب مراءاةً لملك الفرس حيث إنه يصر على ذلك .

ورستم يشير بهذا إلى خطورة نتائج كتمان الرأي السديد من أهل الشورى مداراة لمن هم أعلى منهم في المسئولية ، وهو محق فيما ذهب إليه من ذلك ولكن قومه لم يسمعوا منه .

هذا ويبدو أن رستم كان معجبا بذكاء المغيرة بن شعبة الحاد وسرعة بديهته وإن كان قد استاء كثيراً من جرأته عليه وعلى قومه ، فلما ذهب المغيرة أراد رستم أن يرمي بآخر ما في جعبته ليغيظ المغيرة، فقد جاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الرُّفيل الفارسي قال: فأرسل - يعني رستم - مع المغيرة رجلا ، وقال له : إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فَنَاد : إن الملك كان منجما قد حسّب لك،ونظر في أمرك فقال : إنك غدا تفقأ عينك ، ففعل الرسول : فقال المغيرة : بَشَّرتني بخير وأجر ، ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضًا ، فرآهم يضحكون ويتعجبون من بصيرته .

وهكذا فليكن الرجال ، ورضي الله عن عمر حينما أوصى سعداً بحسن اختيار الوفود وذكر له الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم ، ورضي الله عن سعد حينما أحسن الاختيار ، فاختار من مَثَّلوا إسلامهم وأمتهم أصدق تمثيل ، وأدخلوا الحيرة والرعب في قلوب أعدائهم .

ولقد بلغ هذا الكلام رستم فزاده رعبا وقلقا ، وتمثَّل ذلك في

قوله لقومه ناصحًا لهم كما جاء في هذه الرواية : أطيعوني يا أهل فارس ، وإني لأرى لله فيكم نقمة لاتستطيعون ردَّها عن أنفسكم [1].

حوار رستم مع بقية وفد المسلمين :

هذا ولما رجع المغيرة وكان آخر الوفود أراد سعد أن يُعذر من أعدائه فأرسل لهم بقية من اختارهم للوفادة، كما جاء في رواية أخرى للطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنهم قالوا : أرسل إليهم سعد بقية ذوي الرأي جميعًا وحبس الثلاثة [2] فخرجوا حتى أتوه ليعظموا عليه استقباحًا [3] فقالوا له : إن أميرنا يقول لك :إن الجوار يحفظ الولاة، وإني أدعوك إلى ماهو خير لنا ولك، العافية أن تقبل مادعاك الله إليه، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك، وبعضنا من بعض إلا أن داركم لكم، وأمركم فيكم، وماأصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا، وكنا لكم عونا على أحد إن أرادكم أو قوي عليكم، واتق الله يارستم، ولايكونن هلاك قومك على يديك، فإنه ليس بينك وبين أن تُغْبَط به إلا أن تدخل فيه، وتطرد به الشيطان عنك.

وهذا كلام عظيم في غاية التنزل مع الأعداء ، ومحاولة تأليف قلوبهم، وإنما يدل هذا الكلام على تجرد المسلمين من إرادة الدنيا ، حيث أبدوا استعدادهم الكامل بالرجوع إلى بلادهم إذا دخل الفرس في الإسلام وأن يتركوا لهم حكم بلادهم وماوراءها مما يتم على يدهم فتحه، ثم يكونون عونا لهم على أعدائهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٤ .

(٢) يعني أبقى الثلاثة الأولين فلم يرسلهم .

(٣) يعني ليعظموا عليه صدوده عن الإسلام استقباحا لرأيه ورأي قومه .

وإنْ في هذا التجرد عبرة لهم لو كان لهم عقول يبصرون بها .

ولقد كـان رستم مقتنعًـا بالإسلام كما تقـدم ، ولكنه لم يستطع إقناع قومه، ففضل البقاء معهم على عداء المسلمين ، وظهر أمام الوفد الإسلامي بما يجب أن يكون عليه في عرف دولته من تـفخيم أمر أمته والتهـوين من شأن العرب ، وقـد تكلم بكلام طويل ضرب فيـه عدة أمثال تدور حول بيان اغتـرار المسلمين بما حصلوا عليه من نصر سابق فشـبهـهم بحيـوانات أحسنت الدخـول وطاب لها المقام ولـم تُحسن الخروج ، فأُصيبت لسـوء تقديرها النتائج ، وبين لهم ما ينتظرهم من مصير سيء على يد جيشه .

ولاشك أنه كـان يتظاهر بغيـر ما يعـتقـد خضـوعًا لما تُلزمـه به الأعراف الحـربية حيث قـد صرح قبل ذلك مرارًا بتـشاؤمه من قـتال المسلمين وتخوفه من سوء العاقبة على قومه .

وقد رد عليه أعضاء الوفد الإسلامي بكلام بليغ شرحوا فيه دعوة الإسلام وواقع الفرس في كفرهم نعمة ربهم فقالوا : أما ماذكرتم من سوء حالنا فـيما مضى ، وانتشار أمـرنا فلمَّا تَبلغْ كنهه ، يموت الميت منا إلى النار، ويبقى الـباقي منا في بؤس ، فبـينا نحن في أسوإ ذلك بعث الله فينا رسـولا من أنفسنا إلى الإنس والجن ، رحـمة رحم الله بها من أراد رحمـته، ونقمة ينتقم بهـا ممن ردَّ كرامته ، فبـدأ بنا قبيلة قبـيلة فلم يكن أحد أشد عليـه ، ولاأشد انكارا لما جاء ، ولا أجـهد على قـتله ورد الذي جـاء به من قـومـه ، ثم الذين يلونهم ، حـتى طابقناه على ذلك كلنا ، فنصبْنَا له جميعًا وهو وحده فردٌ ليس معه إلا

الله تعالى ، فأُعطِيَ الظفر علينا فدخل بعضنا طوعًا وبعضنا كرهًا ، ثم عرفنا جميعًا الحَق والصدق، لَما أتانا به من الآيات المعجزة ، وكان مما أتانا به من عند ربنا جهاد الأدنى فالأدنى ، فسرنا بذلك فيما بيننا، نرى أن الذي قال لنا ووعدنا لايُخْرم عنه ولايُنقض ، حتى اجتمعت العرب على هذا ، وكانوا من اختلاف الرأي فيما لايطيق الخلائق تأليفهم ، ثم أتيناكم بأمر ربنا نجاهد في سبيله وننفذ أمره وننجز موعوده ، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا ، وخلَّفنا فيكم كتاب الله ، وإن أبيتم لم يحلَّ لنا إلا أن نعاطيكم القتال ، أو تفتدوا بالجِزَى فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم ، فاقبلوا نصيحتنا ، فو الله لإسلامكم أحبُّ إلينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعدُ أحب إلينا من صلحكم .

وأما ماذكرت من رَثاثتنا وقلَّتنا فإن أداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر، وأما ماضربتم لنا من الأمثال فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل ، ولكنا سنضرب مثلكم إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضا، واختار لها الشجر والحبَّ وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاَّحين يسكنون قصورها ، ويقومون على جناتها ، فخلا الفلاحون في القصور على ما لايُحبّ ، وفي الجنان بمثل ذلك ، فأطال نَظْرتهم[1] . فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم ، استعتبهم فكابروه ، فدعا إليها غيرهم، وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطَّفهم الناس، وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء يملكونهم ، ولايملكون عليهم ، فيسومونهم الخسف أبدا ، وو الله لو لم يكن

---

(١) يعني أمهلهم طويلا .

مانقـول لك حقا ، ولـم يكن إلا الدنيـا لما كان لنا عمـا ضَرِينا به من لذيذ عيـشكم ورأينا من زِبْرِجكم من صبر، ولقَـارَعْناكم حتى نغلبكم عليه [1] .

وبهذا البيان الرفيع خـتم وفود جيش المسلمين لقاءاتهم وحوارهم مع قائد الفرس ، وقد اشتمل هذا البيان على أمور مهمة ، فإن هؤلاء ومن سبقهم من الوفـود قد اتفقوا على موافقـة رستم في التهوين من شأن العرب قبل الإسلام بل إنهم ذكـروا من سوء حالهم ما لم يذكره رستم ، وكذلك ذكـر جميع الوفود في فـتوح المسلمين الأولى، وهذا يدل على سـلامتـهم من لوثة القـوميـة العـربية ، وتجـردهم للدين الإسلامي ، وبذلك فوَّتوا على اعدائهم ثغرات واسعة للطعن فيهم .

فقد قالوا لرستم وغيره : إنا لسنا أولئك الذين حملتم عنهم هذه الصورة ، فإننا نتبرأ منهم ومن مناهجهم في الحياة ، ولكن الله تعالى بدَّلنا أناسا آخرين ، لما اعتنقنا هذا الـدين ، فاحكموا علينا من واقعنا الذي تُشاهدونه والذي يشرِّف كل صاحب عقل سليم ولاتحكموا علينا من تاريخنا الماضي قبل التحول بالإسلام .

ثم ذكروا أن تحوَّلهم إلى الإسلام لم يتم لأن النبي صلى الله عليه وسلم عربي مثلهم ، بل إنهم قاوموه أشد المقاومة ، ولم ينصره حتى قومـه وإنما حصل هذا التـحول لما أُشـرِبَتْ قلوبهم حب هذا الدين لما يشتـمل عليه من مـعجزات وآيات بينات ، لاتتـرك مجـالا لصاحب العقل السليم إلا أن يُذعن له ويتـرك هواه ، وفي هذا تحريض للفرس وغيرهم كي يذعنوا للإسلام إذا فهـموا سمو هذا الدين عن أن يكون دين قوم أو جنس.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٥ - ٥٢٩ .

ثم بينوا لرستم أن خروج المسلمين من بلادهم لقتالهم ليس استجابة لهوى أنفسهم ، وإنما هو تكليف من تكاليف هذا الدين الذي آمنوا به ، ولذلك كان دخول أعدائهم في الإسلام أحب إليهم من الصلح الذي يستفيدون منه جباية الجزية كل عام ، لما يترتب على إسلامهم من الأجر العظيم لمن دعوهم إليه ، ودخولهم مع أعدائهم في القتال أحب إليهم من مصالحتهم بالجزية لما يترتب على الجهاد من أجر عظيم في مباشرة القتال وفي الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وكون الدخول في القتال ، وهو لاتؤمن عاقبته أحب إليهم من الصلح الذي تُضمن عاقبته دليل واضح على أنهم لايريدون الدنيا وإنما يريدون الآخرة ، وهذا يكفي في إقناع صاحب العقل السليم بالدخول في الإسلام ، ومؤاخاة هؤلاء الكرام الذين تجردوا من حظوظ أنفسهم وعاشوا لدينهم الذي ارتضاه لهم خالقهم جل وعلا .

وردُّوا على ماذكره من قلة عددهم ، ورثاثة مظهرهم بأن عدتهم الطاعة وقتالهم الصبر ، فالطاعة لله تعالى أولاً ثم للقائد في حدود طاعة الله تعالى ، وإن جيشًا يتصف بالطاعة الكاملة لقائده وذوي الرأي فيه ليعدل أضعافه من جيش ينقصه التفاهم والولاء للقيادة .

أما الصبر فإنه أهم عناصر النصر لأن أفراد الجيش قد يبذلون طاقة في القتال أول الأمر لكن قلَّ من يصبر على هذا المستوى من الطاقة إلى نهاية المعركة .

ثم بينوا لرستم على سبيل التوبيخ أن ماضرب لهم من الأمثال حيث شبَّههم بالحيوانات لايليق لأن الرجال والأمور الجسام لايُمثَّل لها بالهزل من القول .

ثم ضربوا له مثلا عاليًا نبَّهوا قومه فيه إلى أنهم قد ركبوا أهواءهم، وعطلوا عقولهم التي منَّ الله بها عليهم في أهم أمر يجب أن يفكروا فيه وهو شكر الخالق جل وعلا وإخلاص العبادة له . وإن لم يفعلوا ذلك فإن الله تعالى يسلط عليهم أولياءه فينتقم بهم منهم .

وهكذا أرسل سعد بن أبي وقاص عدة وفود إلى رستم ليدعوه وقومه إلى الإسلام ويقيم عليهم الحجة .

ولقد بين هؤلاء الوفود في حوارهم مع رستم أن الإسلام يقوم على إخلاص العبادة لله تعالى وحده ، وذلك يتضمن الكفر بجميع الطواغيت التي تُعبد من دون الله تعالى ، وأن المسلمين سواسية عنده جل وعلا، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وأن المسلمين مأمورون بالدعوة إلى الله تعالى لإخراج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى وحده .

وهل كان العرب في جاهليتهم يعبدون العباد ؟ أم كانوا يعبدون الأشجار والأحجار ؟

في الظاهر كانوا يعبدون الأشجار والأصنام المنحوتة ونحو ذلك من الجمادات ولكن العبادة الحقيقية للأصنام الكبيرة كاللات والعزى ومناة لم تكن لذواتها وإنما كانت لمن كانوا وراءها من شياطين الإنس الذين كانوا يروِّجون لها ، ومن شياطين الجن الذين كانوا يخاطبون عابديها .

فأما كون شياطين الإنس يروّجون لها ويدافعون عنها فهذا معروف، ومن أبرز مايتعلق بعبادة الإنس المتعلقة بعبادة الأصنام أنهم كانوا يشرِّعون للناس ما يُنظمِّون به حياتهم باسم الأصنام وبموجب

ولائهم وخدمتهم لها ، وهذا نوع من أنواع العبادة فلا يجوز صرفه لغير الخالق جل وعلا .

وأما كون شياطين الجن يخاطبون عابديها ويلبُّون لهم ما يستطيعون من حوائجهم فهذا أيضًا مشهور وقد مر علينا في فتح مكة بعض ماكان من ظهور الجن عند هدم الأصنام .

أما في غير بلاد العرب فقد كانت عبادة العباد للعباد ظاهرة مكشوفة وقد لاحظ جنود الإسلام أمثلة منها في بلاط قادة الفرس والروم ، وماكان في بلاط كسرى وهرقل أعظم من ذلك ، فلذلك ركَّز وفود المسلمين على محاربة هذه الطبقية التي تجعل الناس عابدين ومعبودين .

ولقد وُفِّق الوفود إلى النطق بالصواب حينما بينوا لرستم حقيقة الواقع الذي آل إليه أمر العرب في جاهليتهم حيث بينوا له أنهم من السوء والانحطاط على حال هي أشد مما وصفهم به رستم ، ثم وُفِّقوا حينما عَزَوا ذلك إلى ماكانوا عليه من الشرك بالله ، حيث كانوا يعبدون العباد معه ، ثم وفقوا في بيان أن هذا التحول الكبير المفاجيء الذي لايحتاج إلى بيان إنما كان بسبب دين التوحيد ، حيث أصبحوا بهداية النبي ﷺ يخلصون العبادة لله تعالى وحده .

وكان هذا التوحيد الخالص هو العامل المهم في انتصار المسلمين بما يشبه الخوارق .

إن العامل الرئيس في انهزام الأمة أن يتَّخذ بعضها بعضا أربابًا من دون الله تعالى ، لأنه مادام الأرباب مساوين للمربوبين في الخلق فما

الذي يدفع المربوبين إلى الإخلاص في عبادة الأرباب والاستعداد للفناء من أجلهم ؟ !

وإذا كانوا يطيعونهم خوفا من بطشهم فما الذي يكفل لهم دوام الرقابة عليهم في كل أحوالهم ؟

إن كل إنسان يملك طاقة عظيمة مدخرة ، وهو ليس على استعداد لأن يبذلها إلا لمن يستحقها ، وهل يبذلها إلى حد الفناء ليستبقي بها حياة مخلوق مثله ؟ !

هذا ما لايمكن أن يقع في حياة الناس ، إن كل جندي ممن لايحملون عقيدة التوحيد الخالص يقاتل بجزء يسير من طاقته ، ويستبقي الجزء الكبير منها للدفاع عن نفسه لأنها أغلى شيء يملكه ، وليس على استعداد لأن يفدي بها غيره .

أما جنود التوحيد الذين لايتخذون أربابًا من البشر فإنهم يبذلون كل طاقتهم من أجل نصرة كلمة التوحيد ، ولن يقف أحد لمثل هؤلاء مهما بلغ عددهم وقويت عُدَّتهم .

ولعل هذا من أسرار تكليف المسلم بالثبات أمام عشرة من الكفار ﴿ **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴾(1) .

وإن من عدم فقههم كونهم يصرفون أعمالهم لغير الله تعالى . ولقد خفف الله تعالى عن المؤمنين لضعف بعضهم ، فجعل الحد الأدنى للثبات الواجب أن يواجه المسلمون ضعفهم ﴿ **الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ**

---

(1) سورة الأنفال / ٦٥ .

عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

والظاهر أن رستم وهو الخبير بمصائر الأمم وعوامل الانتصار والانهيار في الحروب قد أدرك سرَّ عظمة المسلمين ، حيث إنهم جميعًا بقادتهم وجنودهم يخدمون مبدأً واحدًا ساميًا يموتون جميعًا من أجله، وفي سبيل إعزازه يحيون .

لقد أدرك ذلك ، وأدرك في مقابله أسباب انهيار دولتهم وأن السبب الرئيس في ذلك هو انقسام الناس فيها إلى عابد ومعبود ، وعدم توفر الأسباب المؤثرة التي تجعل الجندي يضحي بنفسه في سبيل أمته، بينما رأى ذلك متمثلا بوضوح في كلام الوفود من المسلمين ، وفي واقع حياة المسلمين وانتصاراتهم السريعة الباهرة .

لقد أدرك ذلك كله فداخله الرعب من المسلمين ، وهمَّ بمصالحتهم ومهادنتهم لو وافقه ملك الفرس على ذلك .

عبور الفرس إلى المسلمين :

وفي نهاية الحوار مع رستم قال لوفد المسلمين : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ فقالوا : بل اعبروا إلينا .

ولما علم سعد بذلك أمر الجيش بالاستعداد ، وأرسل إلى الفرس: شأنكم والعبور ، فأرادوا العبور من القنطرة فأرسل إليهم : لا ولاكرامة. أما شيء قد غلبناكم عليه فلن نرده عليكم ، تكلَّفوا معبرًا غير القناطر فباتوا يردمون نهر العتيق حتى الصباح .

---

(١) سورة الأنفال / ٦٦ .

عودة إلى الرؤَى المزعجة :

ورأى رستم من الليل أن ملكًا نزل من السماء فأخذ قسيّ أصحابه فختم عليها ، ثم صعد بها إلى السماء ،فاستيقظ مهموما محزونًا، فدعا خاصته فقصها عليهم،وقال : إن الله ليعظنا لو أن فارس تركوني أتَّعظ، أما ترون النصر قد رُفع عنا ، وترون الريح مع عدونا، وأنَّا لانقوم لهم في فعل ولامنطق ، ثم هم يريدون مغالبةً بالجبريه(1).

وهكذا عادت لرستم أحلامه المزعجة وهي نوع من الرعب الذي يُلقيه الله في قلوب أعداء المسلمين .

استعداد المسلمين :

وقد أمر سعد رضي الله عنه بتعبئة الجيش استعدادًا لبدء المعركة ، وكان مريضًا بعرق النسا ، وبه دمامل لا يستطيع الركوب ولا الجلوس فكان مُكبًّا على صدره وتحته وسادة ويشرف على الميدان من قصر قُدَيس الذي كان فيَ القادسية وقد أناب عنه في تبليغ أوامره خالد بن عرفطة . وقد أمر بأن ينادَى في الجيش : ألا إن الحسد لايحل إلا على الجهاد في أمر الله ، أيها الناس فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد(2).

وقبل بدء القتال حصل اختلاف على خالد بن عرفطة نائب سعد فقال سعد: احملوني وأشرفوا بي على الناس،فارتقوا به فأكبَّ مطَّلعا عليهم والصف في أسفل حائط قصر قُدَيْس يأمر خالدًا فيأمر

---

(1) تاريخ الطبري ٣/٥٢٩ .

(2) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٠ .

خـــالــد الناس، وكان ممن شـغَب عليه وجوه من وجـوه الناس فهمَّ بهم سعـد وشتـمهم ، وقال : أمـا والله لولا أن عدوكم بحـضرتكم لجعلتكم نكـالا لغيركم ، فـحبسهـم ، ومنهم أبو محجن الثـقفي ، وقيَّدهم في القصر .

وقال جرير بن عبد الله البجلي - مؤيدًا طاعة الأمير - : أما إني بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر وإن كان عبدًا حبشيًا .

وقال سعد : والله لايعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سَنَنْتُ فيه سنة يُؤخذ بها من بعدي [1] .

لقد كان سـعد رضي الله عنه رجل الموقف حقا فـقد حسم الداء في أول مراحله ، وقضى على الفـتنة وهي في مهدها ، وهو نوع من القوة والحـزم لايتوفـر إلا في القليل من الناس ، وإذا صَاحَـبَ القوة حلم وحكمة وكرم اكـتملت عناصر السيادة ، وهي متـوفرة في سعد رضي الله عنه، فلذلك استطاع أن يقود هذا الجـيش الكبير المنتزع من قبائـل عديدة بينها إِحَنٌ وأحقـاد في الجاهلية ، وقد كـانوا يأنفون من سيادة بعضهم على بعض .

وقد قام فيهم سعد خطيبًا بعد هذه الحادثة فقال بعد أن حمد الله تعالـى وأثنى عليه : إن الله هو الحق لاشـريك له في الملك ، وليس لقوله خُلْف ، قال الله جل ثناؤه ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [2] إن هذا ميراثـكم وموعود

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣١ .

(٢) سورة الأنبياء / ١٠٥ .

ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج فأنتم تطعمون منها وتأكلون منها، وتقتلون أهلها وتجْبُونهم وتسبُونهم إلى هذا اليوم بما نال منهم أصحاب الأيام منكم وقد جاءكم منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم وخيار كل قبيلة ، عزّ من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولايقرِّب ذلك أحدا إلى أجله، وإن تفشلوا وتهِنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتُوبقوا آخرتكم [1] .

وقام عاصم بن عمرو التميمي فقال : إن هذه البلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لاينالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلكم أموالهم ونساوهم وأبناؤهم وبلادهم ، وإن خِرْتُم وفشلتم - والله لكم من ذلك جار وحافظ - لم يُبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك ، اللّه اللّه اذكروا الأيام ومامنحكم الله فيها ، أوَلا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس لها خَمَر ولاوزر يعقل إليه[2] ولايُمتنع به ! اجعلوا همكم الآخرة[3] .

وهذا كلام يدل على عمق في فهم التوحيد ورسوخ في الإيمان ، وإن صدور مثل هذا الكلام من عاصم بن عمرو الذي لم يدخل في الإسلام إلا في أواخر العهد النبوي لدليل على عمق الأثر الذي تركه الإسلام في نفوس العرب .

هذا وقد كتب سعد إلى أصحاب الرايات :إني قد استخلفت

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣١ .

(٢) أي ليس لكم غطاء ، ولاحصن تلجؤون إليه .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢ .

فيكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني ومابي من الحبوب - يعني الدمامل - فإني مُكبٌّ على وجهي وشخصي لكم بَاد فاسمعوا له وأطيعوا فإنه إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي، فقُرئ علَى الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه وقبلوا منه وتحاثُّوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذر سعد والرِّضَى بما صنع .

ولقد كان في إصابة سعد بالمرض حكمة بالغة فقد ألزمه المرض البقاء في القصر وكان مشرفا على ساحة المعركة ، فكان يرى تفاصيل سير المعركة فيوجِّه توجيهاته عن طريق نائبه ، ولو أنه كان سليما واشترك بنفسه في القتال كالمعتاد لانغمس داخل الجيش. ولم يستطع الإشراف على كل مايجري في الساحة ، وستأتي أمثلة تبين أنه أنقذ باطلاعه الدقيق على مايجري فئات من الجيش كاد العدو أن يفنيهم ، وقد ساعده على ذلك أنه كان حديد البصر .

وإن المعارك الكبيرة كهذه المعركة تحتاج إلى تفرغ القائد لإدارتها ولكن المسلمين الأوائل ألِفُوا أن يكون القائد بينهم وفي مقدمتهم .

ولايمكن أن يُظَنَّ بسعد رضي الله عنه أنه ترك المشاركة في القتال جبنا ولارعاية لحَظِّ النفس، فإن بقاءه فوق قصر غير محصَّن وبدون حراسة يعتبر غاَية الثبات والتضحية ،وفي ذلك يقول عثمان بن رجاء السعدي: كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم، إنه نزل قصرًا غير حصين بين الصفين، فأشرف منه على الناس ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذ بِرُمَّته [1]، فو الله ما أكرثه هول تلك الأيام ولا أقلقه [2].

---

(١) يعني لو انحسر عنه صف المسلمين وانكشف للعدو مقدار حلب ناقة لأخذه الأعداء .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٠ .

رستم يفزع من الأذان :

بعدما ردم الفرس نهر العتيق وعملوا لهم منه جسرا ظلوا يعبرون منه طوال الليل حتى وصلوا إلى ميدان المعركة .

ومن أخبارهم بعد العبور مارواه الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن ابن الرُّفَيل [١] قال : لما نزل رستم النجف بعث منها عينا إلى عسكر المسلمين ، فانغمس فيهم بالقادسية كبعض من ندَّ منهم، فرآهم يستاكون عند كل صلاة ثم يصلون ، فيفترقون إلى مواقفهم ، فرجع إليه فأخبره بخبرهم وسيرتهم ، حتى سأله : ماطعامهم ؟ فقال: مكثت فيهم ليلة ، لا والله مارأيت أحدًا منهم يأكل شيئًا إلا أن يمصوا عيدانا لهم حين يُمسون وحين ينامون وقبيل أن يصبحوا .

فلما سار فنزل بين الحصن والعتيق - يعنِي في القادسية - وافقهم وقد أذن مؤذن سعد الغداة فرآهم يتحشْحَشُون- يعني يتهيئون للنهوض- فنادى في أهل فارس أن يركبوا ، فقيل له : ولِمَ ؟ قال : أما ترون إلى عدوكم قد نودي فيهم فتحشْحَشُوا لكم ! قال عيْنُه ذلك: إنما تَحَشْحُشُهم هذا للصلاة ، فقال بالفارسية وهذا تفسيره بالعربية: أتاني صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل.

فلما عبروا تواقفوا وأذَّن مؤذن سعد للصلاة - يعني صلاة الظهر- فصلى سعد ، وقال رستم : أكل عمر كبدي[٢] .

وهكذا فزع رستم من سماع الأذان ، ومن منظر المسلمين وهم

---

(١) لعل الرواية عن أبيه كما في سائر الروايات .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٢ - ٥٣٣ .

يستعدون جميعًا للصلاة بحيوية ونشاط ، ومن اجتماعهم جميعًا خلف قائدهم في الصلاة .

وكان المسئول الأعلى في المسلمين آنذاك هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فما كان من رستم إلا أن نسب إليه هذه الآثار التربوية العالية .

فكيف لو كانت هذه الحروب في عهد النبي ﷺ وسمع رستم عن معجزاته ، وحب المؤمنين وطاعتهم إياه وسياسته العالية في السلم والحرب بما لا مثيل له ، فماذا سيقول ؟

وماعمر بن الخطاب بمواهبه الفذة وسمعته العالية إلا قبس من ضوء رسول الله ﷺ .

ولو أنه تجرد من الهوى ، واستمع لإرشاد من أُعجب بمنطقهم وأخلاقهم وصلاتهم لأدرك أن النقلة العظيمة التي انتقل العرب إليها في واقعهم المذهل لم تكن من نتاج البشر مهما بلغوا من الذكاء والتربية العالية ، وإنما هي وحي إلهي أنزله الله جل وعلا على خاتم الرسل ﷺ هداية للثقلين .

وإذا كان أحد تلامذة النبي ﷺ الذين رباهم على يديه قد أفزع قادة العالم آنذاك وملأ قلوبهم كمدا فَبِمَ يوصف أثر النبي ﷺ ؟ إنه أمر عظيم يفوق حد الوصف، ولقد ظلّ مفكرو العالم آنذاك متحيرين من تلك الآثار الضخمة للدعوة الإسلامية، ولم يخرج من هذه الحيرة إلا من مسَّت أنوار الإيمان شغاف قلبه فأعلن إسلامه وتبعيته للركب العظيم الذي ساد العالم وفرض عليه حضارته وعلومه .

وإنها لشهادة بيِّنة من مفكر عالمي تُظْهر ما للصلاة والأذان من أثر

بالغ في تقويم السلوك ، وإنه لمنظر عظيم حين يـقوم جيش مكون من ثلاثين ألفا مستجيبين لنداء رجل واحد ، ويقفـون للصلاة خلف إمام واحد ، ولكن الألْفَ والعـادة يُفقدان العمل الرائع روعـته وجلاله إلا عند من رسخ الإيمان في قلوبهم ، فأصبح يتـجدد لهم اليقين مع كل صلاة ، وإذا كـان كثـير من المسلمين يـغفل عن مـزايا الأذان وصلاة الجماعة ، فإن مفكري الأعداء قد شهدوا بذلك ، والحق ماشهدت به الأعداء .

ولقد كان من مظاهر حرص الصحابة رضي الله عنهم ومن اتبعهم بإحسان على الالتزام بالسنة أن حملوا مـعهم أعواد الأراك من الحجاز وظلوا يستاكـون بها حتى كانت من ملازمتـهم إياها من المظاهر المهمة التي لفتت نظر جاسـوس رستم فأبلغه عنهـا ، وإن من عوامل النصر المهمة الالتزام بسنة رسول الله ﷺ حـتى في الأمور الصغيرة فإن هذا الالتزام دليل على كمال الطاعة لله تعالى وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم يُوْلُون التكاليف الشرعية من الاهتمـام بقدر منزلتها ، وإذا كانوا يهتمون هكذا بالسنن التي لايعاقب تاركها فإن اهتمامهم بالواجبات من باب أولى ، والمسلم يثاب على حرصه على السنة ومحاسبته نفسه عن التقصير فيها .

مواعظ جهادية :

صدرت مواعظ بليغة من وجـهاء المسلمين وقادتهم في بداية اليوم الأول من المعركة وكانت بأمـر من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لتـقوية إيمـان المسلمين وإثارة حـماسـهم ليـبذلوا في سـبيل الله كل طاقتهم، فلقد جمعهم سـعد وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما

يحق عليكم ويحق لهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذووا رأيهم ونجدتهم وسادتُهم، فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال ، فساروا فيهم .

فقال قيس بن هبيرة الأسدي : أيها الناس احمدوا الله على ماهداكم له وأبلاكم يزْدكم ، واذكروا آلاء الله ، وارغبوا إليه في عاداته، فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر، والظِّراب الخُشْن ، والفلوات التي لاتقطعها الأدلة .

وقال غالب بن عبد الله الليثي : أيها الناس احمدوا الله على ما أبلاكم وسلوه يزدكم ، وادعوه يجبكم ، يامعاشر معدّ ، ماعلَّتكم اليوم وأنت في حصونكم - يعني الخيل - ومعكم من لايعصيكم - يعني السيوف - ؟ اذكروا حديث الناس في غد ، فإنه بكم غداً يُبدأ عنده، وبمن بعدكم يُثَنَّى .

وقال ابن الهذيل الأسدي : يامعاشر معدّ ، اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجم ، وتربَّدوا لهم تربُّد النمور وادَّرعوا العجاج ، وثقوا بالله ، وغضوا الأبصار ، فإذا كلَّت السيوف- فإنها مأمورة - فأرسلوا عليهم الجنادل ، فإنها يؤذن لها فيما لايؤذن للحديد فيه .

وقال بُسر بن أبي رهم الجهني : احمدوا الله وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم الله على ماهداكم له ، ووحدتموه ولا إله غيره ، وكبرتموه ، وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ،

ولايكونَنَّ شيء بأهون عليكم من الدنيا ، فإنها تأتي من تهاون بها ، ولاتميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم ، انصروا الله ينصركم .

وقال عاصم بن عمرو : يامعاشر العرب إنكم أعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان من العجم ، وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لاتحدثوا اليوم أمرًا تكونوا شينًا على العرب غدا .

وقال ربيع بن البلاد السعدي : يامعاشر العرب قاتلوا للدين والدنيا ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمر فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم مادام للأخبار أهل .

وقال ربْعِي بن عامر : إن الله قد هداكم للإسلام ،وجمعكم به، وأراكم الزيادة ، وفي الصبر راحة ، فعَوِّدوا أنفسكم الصبر تعتادوه، ولاتعودوها الجزع فتعتادوه .

ذكر ذلك الإمام الطبري وقال : وقام كلهم بنحو هذا الكلام ، وتواثق الناس وتعاهدوا ، واهتاجوا لكل ماكان ينبغي لهم[2] .

أقول : وإن في بعض هذا الكلام ذكرًا للدنيا مع الآخرة ، وإنما أرادوا بذلك تحريض من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم وهم قليل .

يوم أرْماث :

في اليوم الأول من أيام القادسية ويسمى « يوم أرماث » وجه

---

(١) سورة آل عمران / ١٣٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٣ - ٥٣٤ .

سعد رضي الله عنه بيانه إلى الجيش قـائلا : الزموا مواقفكم لاتحركوا شيئًا حتى تصلُّوا الظهر ، فإذا صليـتم الظهر فإني مكبِّر تكبيرة فكبروا واستعـدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَه أحد قـبلكم ، واعلموا أنَّما أُعطيـتمـوه تأييدًا لكم ، ثم إذا سـمعـتم الثانيـة فكبروا ، ولتُـستَـتَمَّ عُدَّتكم، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ، ولينَشِّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم، قولوا : لاحول ولا قوة إلا بالله(١) .

وهذا نموذج من البيانات الحربية التي يلقيها القادة قبل بدء المعركة لرسم خطة بدايتـهـا ، ومن مزايا التـخطيط الحـربي لدى المسلمين أن التـوقيت وإصـدار الأوامر للقـتال يكـون بالتكبيـر ، وفي ذلك أبلغ التذكـير بمعية الله سـبحانه لأوليائه بالنصـر والتأييد ، وحينمـا يذكر المسلم ربه جل وعـلا وهو متهـيئ لخوض المعـركة فإن إيمـانه يقوَى ، ويكون الله سبحـانه بين عينيه والجنة محطُّ تفكيره ، وتتـضاءل الدنيا بكل مافـيها عنده، وحـينما يظل مصطحـبا ذكر الله تعـالى فإنه يأتي بالعجائب ولايقف له شيء ، ومن أجل أن يكبر المسلمون بقلوبهم مع ألسنتهم وأن يظلوا مصطحبين لذكر الله تعالى ، فإن سعدًا قال لهم : واعلموا أن التكبير لم يُعطَه أحد قـبلكم، واعلموا أنكم إنما أُعطيتموه تأييدًا لكم .

فالـله أكبـر تعني أنه أكبـر من الأعداء وإن كـانوا في نظر الناس أقوياء ، وأنه تعالى أكبر من كل شيء ، فـالذي يقولها من قلبه وهو يفقه معناها يستصغر قوة الأعـداء مهما عظمت ،ويحتقر مظاهر الدنيا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٥ .

وإن كانت هيمنتـها على نفسه كبيـرة فيُقْدم على قتال الأعـداء بطاقته الكاملة ، ولذلك كان التكبير تأييدًا للمسلمين من الله تعالى .

ثم يختم سعـد بيانه بتوجيه أصحابـه إلى قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » عند الزحف على الأعداء ، وهو توجيه آخر لربط المسلمين بربهم جل وعلا ، فلا تحـوُّل للمؤمن من حال القلق والاضطراب إلى حال السكينة والطمأنينة ، ومن حال الترقب والخوف من سوء العاقبة إلى العاقبة الحميدة إلا بالله جـلا وعلا ،ولاقوة للمؤمن على مواجهة الشدائد والمصائب إلا بالله تعالى ، ولذلك كان هذا التوجيه في نهاية البيان في غاية المناسبة .

وهذه الكلمـة العظيمـة تُؤتي مفعـولها في تقـوية قلب المؤمن ، ومعونته على تحمل الشدائد إذا نطق بها وهو مدرك لمعناها ، مستحضر لعظمة الله تعالى ، وأن كل شيء بيده يفعل ما يشاء ويحكم مايريد ، وأن يكون في حـال الرخاء من المتـقين لله جل وعلا ، ولذلـك كان الربَّانيون من أمثال عمر رضي الله عنه يخشون على جنود الإسلام من المعاصي أكثر من خشيتهم عليهم من الأعداء .

ولما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه إياه عمر - وكان من القـراء - أن يقـرأ سورة الجـهـاد [يعني سـورة الأنفال] وكـان المسلمـون يتعلمـونها كلهـم ، فقـرأ على الكتيـبة الذين يلونه سـورة الجهاد، فقُرئت في كل كتيبـة ، فهشَّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها[1].

وهكذا يتزود المسلمـون المتقون بالقرآن ، ويجـعلون من كلام الله

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٦ .

تعالى مادة لحماسهم وإقدامهم على القتال ، فأين منهم الذين يرددون الشعارات الجاهلية ؟ ! وماهي النتائج المرتقبة للاتجاهين في الدنيا والآخرة؟

ولما فرغ القراء كبَّر سعد ، فكبَّر الذين يلونه بتكبيره ، وكبر بعض الناس بتكبير بعض ، فتحشحش الناس [يعني تحركوا] ثم ثنَّى فاستتمَّ الناس، ثم ثلَّث فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال ، وخرج من أهل فارس أمثالهم ، فاعتوروا الطعن والضرب (١) .

وكان لأبطال المسلمين من أمثال غالب بن عبد الله الأسدي ، وعاصم بن عمرو التميمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي وطليحة بن خويلد الأسدي أثر ظاهر في النكاية بالعدو حيث قتلوا وأسروا عدداً من أبطالهم ولم يُقتل من المسلمين أحد فيما ذُكر أثناء المبارزة ، والمبارزة فَنٌّ عسير من فنون الحرب لايتقنه إلا الأبطال من الرجال ، وهي ترفع من شأن المنتصرين وتزيد في حماسهم ، وتخفض من شأن المنهزمين وتحط من معنوياتهم ، والمسلمون الأوائل متفوقون في هذا الفن على غيرهم دائمًا ، ولذلك فإنهم هم المستفيدون من المبارزة .

وبينما الناس ينتظرون التكبيرة الرابعة إذ قام صاحب رجالة بني نهد قيس بن جذيمة بن جرثومة ، فقال : يابني نهد انهدوا فإنما سميتم نهدا لتفعلوا ، فبعث إليه خالد بن عرفطة ، والله لتكفنَّ أو لأولِّين عملك غيرك، فكفَّ (٢) .

وهذه نظرة حزم وانضباط من خالد بن عرفطة ، فإن سعداً لم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٣٦.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٥٣٧ .

يؤخر التكبيرة الرابعة إلا لحكمة يقتضيها الموقف ، ولعل من ذلك أن تتكشف نقاط الضعف في جيش الأعداء ، ولعل من ذلك أيضًا أن يبرز دور أبطال المسلمين في مبارزة الأعداء ، ومطاردتهم وفي ذلك تنشيط للمسلمين وتخذيل للكافرين وإذا التحم المسلمون بأجمعهم مع الأعداء لم تظهر هذه البطولات إلا لعدد محدود من الناس .

وهذا الهدف جاء التصريح به في كلام سعد السابق حيث يقول: «ولينشِّط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا » وقد برزوا وطاردوا وكانت الغلبة لهم ، وظهر فشل الفرس في مجالي المبارزة والمطاردة ، وهذا ماكان الفرس يتحاشونه في قتالهم مع المسلمين في كل لقاء .

ولما رأى رستم تفوق المسلمين لم يمهلهم حتى يكملوا خطة قائدهم في المزيد من حرب المطاردة والمبارزة ، بل أمر جانبًا من قواته بأن تهجم هجومًا عامًا على جانب جيش المسلمين الذي فيه قبيلة بجيلة ومن لَفَّ معهم ، وكان الهجوم ملفتًا للنظر لأن الفرس وجهوا ما يقرب من نصف الجيش إلى قطاع لايمثل إلا نسبة قليلة من الجيش الإسلامي ، وهذا يدل على محاولتهم المستميتة لقطع حرب المبارزة والمطاردة التي فشلوا فيها.

وهكذا هجم الفرس على أحد جناحي جيش المسلمين بثلاثة عشر فيلا وكل فيل يصحبه حسب تنظيم جيشهم أربعة آلاف مقاتل من المشاة والفرسان ، ففرقت الفيلة بين كتائب المسلمين وكان الهجوم مركزًا على بجيلة ومن حولهم وثبت المشاة من أهل المواقف لهجوم الفرس.

وأبصرهم سعد فأرسل إلى بني أسد يقول لهم : ذَبِّبُوا عن بجيلة

ومن لافَّهـا من الناس ، فخرج طليـحة بن خويلد وحَمَّـال بن مالك وغالب ابن عبد الله والرِّبِّيل بن عمـرو في كتائبهم ، يقول المعرور بن سويد وشقيق: فشَدُّوا والله عليهم فمازالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبسنا الفـيلة عنهم، فأُخِّرت وخرج إلى طليحـة عظيم منهم فبارزه، فما لبَّثه طليحة أن قتله .

ذكر ذلك الإمـام الطبري [1] وذكـر في رواية أخرى أن فـارس لما رأوا ما تلقى الفـيلة من كتيـبة أسد رموهـم بحدِّهم ، وبدر المسلمين الشَّدَّة عليـهم ذو الحاجب والجالنوس [وهما قائـدان من قادة الفرس] والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعـد ، فاجتمعت حلبة فارس على أسـد ومعهـم تلك الفيلة ، وقـد ثبتـوا لهم ، وقد كـبَّر سـعد الرابعة، فزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد .

وحملت الفيول من الميمنة والميـسرة على خيول المسلمين، فكانت الخيول تحجم عنهـا وتحيد ، وتلح فرسانهم على المشاة ليـدفعوا بالخيل لتُقْدم على الفيلة .

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو فـقال : يامعشر بني تميم ألستم أصحاب الإبل والخيل ؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا: بلى والله، ثم نادى في رجال من قـومه رماة ، وآخرين لهم ثقـافة[يعني حذق وخفة حركة] فقال لهم : يامعشر الرماة ذُبُّوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وقال : يامـعشر أهل الثقافـة استدبروا الفيلة فـقَطِّعوا وُضُنَها [يعني آحزمتها لتسقط توابيتها التي تحمل المقاتلين] وخرج يحميهم ، والرَّحى تدور على أسـد ، وقد جالت الميـمنة والميسـرة غير بعـيد ،

---

(1) تاريخ الطبري ٣/٥٣٨ - ٥٣٩ .

وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذنابها وذباذب توابيتها [يعني مايعلق بها] فقطعوا وُضنها وارتفع عواء الفيلة فما بقي لهم يومئذ فيل إلا أُعْريَ، وقُتل أصحابها ، وتقابل الناس ونُفِّس عن أسد، ورَدُّوا فارس عنهم إلى مواقفهم فاقتتلوا حتى غربت الشمس ، ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء ، وأُصيبَ من أسد تلك العشية خمسمائة ، وكانوا ردءًا للناس، وكان عاصم [يعني وبني تميم] عادية الناس وحاميتهم ، وهذا يومها الأول وهو يوم أرماث(١) .

وهكذا انتهى اليوم الأول بما فيه من شدائد ومفاجآت ، وكانت فيه مواقف تذكر لأبطال المسلمين ، ومواقف تذكر لقادتهم .

فمما ذُكر لقائد المسلمين سعد رضي الله عنه أنه كان يقظًا متنبهًا لما يجري في ساحة المعركة ، وأنه كان يتصرف في الوقت المناسب بما يناسب المقام ، وكان لموقعه المُشْرف من القصر ما يساعد على رؤية مايجري بوضوح ،. ولئن كان الذي أقعده عن المشاركة في القتال هو المرض فإني أعتبر أن هذا المرض رحمة من الله تعالى بذلك الجيش ليتم إشراف القائد عليه وهو يرى كل جزئية فيه ، ولقد كان هذا الوضع هو المفترض حتى لو كان سعد صحيحًا في مثل هذه المعركة الكبيرة والجيش المترامي الأطراف، فإنه لو قادهم من الميدان لم يدرك كل مايجري ولفاتت أمور تحتاج إلى علاج فوري ، ومن هذه الأمور ماقام به الفرس من توجيه ثلاثة عشر فيلاً بصحبتها اثنان وخمسون ألف مقاتل إلى قبيلة بجيلة التي يبلغ عددها ألفين ومن معها من

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٣٩ - ٥٤٠ .

القبائل الصغيرة ، فلولا ما ألهم الله به سعدًا من تصرف حكيم لأُبيد هذا الجزء من الجيش ، ولكن سعدًا أبصر ذلك فأمر قبيلة أسد بالدفاع عن بجيلة وصد الفرس ، ولقد كان بإمكان قبيلة أسد أن تساند بجيلة لكن لن تفعل ذلك بالمستوى الذي قامت به لما أمرها القائد العام .

ومما يدل على مبلغ تأثير أمر سعد على بني أسد ماكان من زعيمهم طليحة بن خويلد فقد قال لقومه يومئذ : ياعشيرتاه إن المنوَّه باسمه الموثوق به، وإن هذا لو علم أن أحدًا أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ،ابتدؤوهم الشدَّة ، وأقدموا عليهم إقدام الليوث الحَرِبة فإنما سُمِّيتم أسدًا لتفعلوا فعله شدُّوا ولاتصدوا ، وكُرُّوا ولاتفروا ، لله در ربيعة أيُّ فَرْيٍ يفرون ، وأيُّ قِرنٍ يغنون ، هل يوصل إلى مواقفهم ! فأغنوا عن مواقفكم أغناكم الله ، شدوا عليهم باسم الله[1] .

ولقد كان لهذا الكلام مفعول عجيب في نفوس قومه حيث تحولوا إلى طاقات فعالة ، وتحملوا وحدهم رحى المعركة إلى أن ساندهم بنو تميم، وقدموا في هذا اليوم خمسمائة شهيد .

ثم لما استحكم الأمر وادلهمَّ على بني أسد ، ووجه إليهم الفرس قائدهم بهمن جاذويه ومعه خمسة أفيال وعشرين ألف مقاتل ، لم يتركهم سعد بل وجه إلى عاصم بن عمرو زعيم بني تميم ليثير فيه مسئولية تحمُّل الدفاع عن بني أسد ومحاولة تعطيل سلاح الفيلة ، وكان لهذه الثقة الكبيرة التي أولاه إياها سعد أثر بالغ فيما جرى من النتائج المحمودة لأن شعور الإنسان بأنه المسئول الأول عن القضية يجعله يفكر فيها بما لايفكر به الآخرون ، ومع الاعتصام بالله تعالى

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٣٨ - ٥٣٩ .

أولاً والتعمُّق في التفكير ثانيًا يتفتق الذهن عادة عن الحلول المناسبة للمشكلة ، وهذا ماحصل لعاصم حيث ابْتكر الطريقة السالفة الذكر لتعطيل الفيلة وقضى هو وقومه على راكبيها .

مواقف بطولية في اليوم الأول :

لقد جرت في اليوم الأول من أيام معركة القادسية مواقف بطولية .

فمن ذلك موقف الأبطال من قبيلة بجيلة ومن معهم من النخع وكندة وغيرهم حيث رماهم الفرس بثقلهم ففرت خيلهم من الفيلة وثبت المشاة في وجه الفرس حتى ساندتهم قبيلة أسد .

ثم مواقف الأبطال من قبيلة أسد فقد وجهوا ثقلهم لحرب الفيلة ومن عليها وصمدوا لها صمودًا مذهلا يدل على شجاعة عالية وإيمان قوي، ولم يثن من عزائمهم سقوط المئات من الشهداء بين أرجلهم ، وإن ثبات رجال هذه القبائل وعدم فرارهم مع هذا الوضع الهائل الذي صبَّه عليهم الفرس لدليل على عظمة المسلمين الصادقين، وأنهم هم رجال المواقف حقًا .

ثم ما قام به بنو تميم بقيادة عاصم بن عمرو من التصدي للفيلة بقطع أحْزِمَتها وإلقاء التوابيت من فوقها التي كانت مملوءة بالمقاتلين والقضاء عليهم، وإن الوصول إلى الفيلة بحدٍّ ذاته مطلب عسير ، ومزلق خطير، فمع ماعرف عن الفيلة من مقدرة على القتال ، وصعوبة بالغة في إصابة مَقاتلها فإن كل فيل حوله أربعة آلاف مقاتل من الفرسان والمشاة ،فإذا علمنا أن عدد الفيلة التي سيواجهها بنو تميم بعد انضمام بهمن جاذويه إلى الهجوم ثمانية عشر ، وأن عدد المقاتلين

حولهـا اثنان وسبعـون ألفًا فإننا نعـلم ضخامـة المهمة التي توجـه لها عاصم بن عمرو ومن انتخبهم من قومه من الرماة الذين كانت مهمتهم مشاغلة المقاتلين حول الفيلة ومن الذين اختارهم من الشجعان الحاذقين للوصول إلى مـؤخرة ا لفـيلة لتنفيـذ المهمة ، ولعله قـام بهذه المهـمة باختراق هذه المجـموعات واحدة بعد الأخرى لأن مهـمته التي تولاها هي حماية المجموعة التي تتولى الهجوم على مؤخرة الفيلة وهي مهمة أصـعب من مهـمـتهم ، فلـله درهم من أبطال مـغاوير ! مـا أعظم جسارتهم ! وما أبعد أثرهم !

لقـد ولَّت الفيلـة هاربة ولها عـواء ، وانشـغل الفرس بإصـلاح توابيتهـا ليلة ويومًا ، واستراح منها المسلمـون في اليوم الثاني من أيام المعركة .

وانتهى اليـوم الأول ، فماذا كان عـمل المسلمين في الليل ؟ لقد كان من رحـمة الله بهم أن توقفت المعـركة ليتـفرغوا لنقل شـهدائهم ودفنهم، ونقل الجـرحى إلى مـستشـفى الحـرب ، وأين مـوقع هذا المستـشفى ؟ إنه في «العُذَيب» حـيث تقيم نساء المجـاهدين الصابرات المحتسبات ، فيتلـقَّين الجرحى ويتولَّين علاجهم وتمريضهم إلى أن يتم قضاء الله فـيهم ، ومع ذلك فإن لهن مهمةً أعـجب من ذلك يشترك معهن فـيها الصبيان ألا وهي حـفر قبور الشهـداء ، ولئن كان تطبيب الجرحى وتمريضهم من المهـمات القريبة المنال للنساء فـإن حفر الأرض من المهمات الخـشنة ، ولكن الرجال كانوا مشغولين بالجـهاد ، فلْتقُم النسـاء بمهمـتهم عند الضـرورة ، وهنَّ أهلٌ لذلك لما يتصـفن به من الإيمان والصبر .

وتم نقل الشهداء إلى وادي مشَرِّق بين العذيب وعين الشمس في جانبيه جميعًا (١) .

وكان التحاجز بين المسلمين وأعدائهم تلك الليلة فرصة لزيارة بعض المجاهدين لأهلهم في العذيب .

ومما ذكر من الأخبار في ذلك مما فيه عبرة ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن الشعبي قال: كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية ، فقالت لبنيها : إنكم أسلمتم فلم تبدِّلوا ، وهاجرتم فلم تثوبوا(٢)، ولم تَنْبُ بكم البلاد(٣) ، ولم تُقحمكم السَّنَة(٤)، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره ، فأقبلوا يشتدُّون ، فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول : اللهم ادفع عن بَنِيَّ، فرجعوا إليها وقد أحسنوا القتال ماكُلِمَ(٥) منهم رجل كَلْما(٦) .

وهكذا تكون المؤمنات ، فهذه المرأة تحب بنيها حبًا ملأ جوانحها، ولكن حبها لبنيها لم يحملها على منع الخير عنهم ، فالخير كل الخير في أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى لمصلحتهم الخاصة في رفع درجاتهم ، ولمصلحة الأمة الإسلامية إذا أضيف إلى مجاهديها أربعة ليوث، يدافعون عن حرماتها وينشرون دين الإسلام في الأرض ،

---

(١) الطبري ٣/ ٥٤٢ - ٥٥٠ .

(٢) يعني فلم ترجعوا عن هجرتكم .

(٣) يعني ولم يستثقلكم الناس .

(٤) أي ولم يضعفكم القحط والجوع .

(٥) يعني لم يجرح .

(٦) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٤ .

ولكن كيف تجمع بين حبها المفرط لبنيها وحبها الخير لهم ولأمتهم ؟

إن السبيل هو ماسلكته من دفع بنيها إلى الجهاد ، والتضرع إلى الله تعالى في نفس الوقت بأن يدفع عن بنيها ويردَّهم إليها سالمين .

ولقد علم الله سبحانه صدق نيتها في حب الأمرين فجمعهما لها، وهو سبحانه القريب إلى عباده المتقين .

ويشبه خبر هذه المرأة ماجرى للخنساء مع بنيها الأربعة في دفعهم إلى الجهاد، فقد زارها بنوها تلك الليلة فقوَّتْ من عزائمهم وحثتهم على التعرض للبأس الشديد من القتال ،وكان مما قالت لهم : فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين ،فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين ،فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها،واضطرمت لظَّى سياقها وحلَّلت ناراً على أرواقها [جوانبها] فتيمموا وطيسها [وسطها] وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها [جيشها] تظفروا بالغنم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة[1].

وإنها لكلمات بليغة جمعت بين عمق المعنى ومتانة المبنى ، ولا عجَب في ذلك فإن الخنساء شاعرة مجيدة .

ولقد ضربت بهذا السلوك مثلا عاليًا للأم المؤمنة ، فلقد دفعت ببَنيها إلى مواطن الشهادة وهي أحوج ماتكون إليهم لكبَر سنها، ولكنها لرسوخ إيمانها تشعر بأن ماتنتظره عند الله تعالى في دار كرامته أعظم وأبقى .

وهكذا فلتكن النساء المؤمنات ، فإن لم يبلغن هذا الحد من

---

(١) الاستيعاب ٤/ ٢٨٩ .

التضحية فليكنَّ كالمرأة النخعيـة السالفة الذكر ، التي دفعت ببنيها إلى الجهاد وسألت الله عز وجل أن يحفظهم لها .

ولئن خلَّد التاريخ ذكر هاتين المرأتين فَلَكَمْ حَـوَتْ مضارب النساء في العُذَيب من نسـاء مؤمنات مضحـيات مُربِّيات ، وإن مـاقدَّمْنه من المجاهدين الذين ملئـوا ساحات القادسيـة بذلا وتضحية ، وأصـبحوا مُثُلاً عالية لمن جـاء بعدهم . . إن ماقدَّمْنه من ذلك لدليل على صدق الإيمان وسمو التربية لديهن .

ولئن سكت التـاريخ عن تسطير مـآثرهن ومآثر كـثيـر من أبطال الإسلام ، فـإن ذلك كله مسـجل في تاريخ الخلود ، وسيـجدونه في كتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها .

يوم أغواث :

كان يوم أغواث هو اليوم الثاني من أيام القادسية . وفي ليلة هذا اليوم قدمت طليعة جيش الشام يقودهم القعقاع بن عمرو التميمي .

وقد كـان أميـر المؤمنين عمـر رضي الله عنه قد أمـر أميـر الشام أبـاعبيدة بإعادة جيش خـالد بن الوليد إلى العراق مددًا للمسلمين في القادسية، فـأعادهم وأبقى خـالدا عنده لحاجته إليه ، وولَّى عـلى هذا الجـيش هاشم بـن عتـبة بن أبـي وقاص ابـن أخي سـعد وكـان هـذا الجيش تسعة آلاف حـين قـدم من العراق إلى الشام بقيادة خالد وعـاد منهم إلى العـراق ستة آلاف، وقـد ولَّى هـاشم بن عتبـة القعـقاع بن عمرو على المقدمـة وعددهم ألف مجاهد، فأسرع القعـقاع حتى قدم بهم على جيش القادسية صبيحة يـوم أغـواث، وكـان أثنـاء قـدومه قـد فـكر بعمل يرفع به مـن مـعنـوية المسلمين فقسم جيـشه إلى مائة قسم كل قسم مكوَّن مـن عشرة ، وأمـرهـم بـأن يقـدمـوا تبـاعًا كـلما

غاب منهم عشرة عن مدى إدراك البصر سرَّحوا خلفهم عشرة ، فقدم هو في العشرة الأوائل وصاروا يقدمون تباعًا كلما سرَّح القعقاع بصره في الأفق فـأبصر طائفـة منهم كبَّـر فكبر المسلمـون ونشطوا في قـتال أعدائهم، وهذه خطة حربية ناجحة لرفع معنوية المقاتلين، فإن وصول ألـف لايعــني مددًا كبيرًا لجـيش يبلغ ثلاثين ألفا ، ولكن هذا الابتكار الذي هدى الله القــعقــاع إليه قــد عوض نقص هذا المدد بما قــوَّى به عزيمة المسلمين .

وقد بشرهم بقدوم الجنود بقوله : يا أيها الناس إني قد جئتكم في قوم والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حَظْوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فـاصنعوا كما أصنع ، فـتقدم ثم نادى : من يبارز؟ فـقالوا فـيه بقـول أبي بكر : لايهزم جـيش فيهـم مثل هذا ، وسكنوا إليه، فخرج إليه ذو الحاجب [وهو قائد كبير من قادة الفرس وأبطالهم وهو الذي أصاب المسلمين يوم الجـسر] فقال له القـعقاع : من أنت ؟ [وكان لايعـرفه لأن القعـقاع يوم الجسر كـان في الشام] فقال: أنا بهمن جاذويه.

وهنا تذكَّر القعقاع مصيبة المسلمين الكبرى يوم الجسر على يد هذا القائد فأخذته حميته الإسلامية فنادى وقال: يالَثارات أبي عبيد وسُلَيط وأصحاب الجـسر ، ولابد أن هذا القائد الفارسي بالرغم مما اشـتهر به من الشجاعة قد انخـلع قلبه من هذا النداء ، فلقد قال أبو بكر رضي الله عنه عن القعقاع « لَصَوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » فكيف سيثبت له رجل واحد مهمـا كان في الشجاعة وثبات القلب ؟ ولذلك لم يمهله القعـقاع أن أوقعه أمـام جنده قتيلا فكان لقـتله بهذه

الصورة أثر كبير في زعزعة الفرس ورفع معنوية المسلمين لأنه كان قائدًا لعشرين ألف مقاتل من الفرس .

ثم نادى القعقاع مرة أخرى : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلان ، أحدهما البيرزان والآخر البندوان ، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان ابن الحارث أخو بني تيم اللات ، فبارز القعقاع بيرزان [وهو قائد مؤخرة الفرس ويتبعه أربعة وعشرون ألف مقاتل] فقتله القعقاع، وبارز ابن ظبيان بندوان وهو من أبطال الفرس فقتله ابن ظبيان .

وهكذا قضى القعقاع في أول النهار على قائدين من قادة الفرس الخمسة، ولاشك أن ذلك قد أوقع أربعة وأربعين ألف مقاتل من الفرس في الحيرة والاضطراب لفقد قائديهم إلى جانب إنكسار معنوية بقية الجيش الفارسي .

والتحم الفرسان من الفريقين ، وجعل القعقاع يقول : يامعاشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يُحصَد الناس بها، فتواصى الناس، وأسرعوا إليهم بذلك فاجتلدوا بها حتى المساء .

وذكر الرواة أن القعقاع حمل يومئذ ثلاثين حملة ، كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وجعل يرتجز ويقول :

أُزعجهم عمدًا بها إزعاجا   أطعن طعنا صائبا ثجَّاجا

أرجو به من جنة أفواجا

وكان آخر من قَتل بُزُرْجَمَهْر الهمذاني وقال في ذلك القعقاع :

حبوتُه جيَّاشةً بالنفس   هدَّارة مثل شعاع الشمس

في يوم أغواث فَلَيْلُ الفرس   أنخس بالقوم أشد النخس

حتى تفيض مَعْشَري ونفسي (١)

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٢ - ٥٤٧ .

وهكذا رأينـا هذا البطل العظيـم يطوي الأرض طيـا بـين الشـام والعراق ليمـد الجيش الإسلامي بنفسه ومن معـه ، فيواصل الليل مع النهار، حـتى إذا وصل وشاهد مايكابـده المسلمون من قتـال أعدائهم بادر إلى أشـد نوع من القـتـال وهو المبـارزة ، في الوقت الذي كـان بحاجة إلى أن يأخـذ قسطا من الراحة بعد سـفر شاقٍّ طويل ، ولكن أنَّى له أن يستـريح وهو يملك قلبًا كبيـرًا يحمل همَّ الأمة الإسـلامية ومستقبل الإسلام .

ولله در أبي بكر رضي الله عنه حـينما اكـتشف في وقت مـبكر عظمة هذا الرجل ومقدرتـه الحربية فبعثه وحـده مددًا لخالد بن الوليد في العـراق وقال عنه « لايُهـزم جيـش فيـهم مثل هذا » وقـال عنه «لَصَوتُ القعقاع في الجيش خير من ألف رجل » ، ولقد أثبتت الأيام صدق فراسة أبي بكر رضي الله عنه كما في هذه المعركة وماسبقها من معارك .

إن القعقـاع بن عمرو وأصحابه بماقدَّمـوا ذلك اليوم لأصدق دليل على أن الله تعالـى قد أودع في الجسم الإنسـاني طاقة ضخـمة ولكن الإنسان العـاديَّ لايبذل إلا جـزءًا من طاقته ، ولايمـكن أن يوجد من يبذل طاقته الكاملة في القتال إلا المسلمون الذين صدقوا مع إسلامهم، لأنهم ينسـون أنفسـهم تمامًـا في سبـيل الدفـاع عن دينهم وأمـتـهم الإسلامية، وهؤلاء يتفاوتون في بذل الطاقة حسب قوة إيمانهم .

وهذا بطبيعة الحال لايكفي عن التدريب البدني الطويل المتواصل، ولكن هذا التدريب متوفر لدى العرب منذ الجاهلية لكثرة مايقوم بينهم من الحـروب ، وجـاء الإسـلام فـحث المسلمين على ركـوب الخـيل والرماية والسباحة وغيـر ذلك من إعداد القوة البدنية ، مع مارسخ في

قلوبهم من العقيدة الإيمانية التي تجعل هدف المسلم الأعلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية ، فتجردوا لله تعالى ونسوا ذواتهم في سبيله جل وعلا، فأتوا بالعجائب ودوخوا الأمم وأقاموا دولة الإسلام العظمى ، لأنهم بلغوا الغاية في الأمرين : التدريب البدني ، والقوة الروحية .

فأما حين يحصل الضعف والخلل في الأمرين أو أحدهما فإن الإنسان لايبذل إلا جزءًا من طاقته ويهدر بقيتها لضعف الدوافع التي تدفعه لإبراز الطاقة المدخرة .

بطولات أخرى في هذا اليوم :

إضافة إلى بطولات القعقاع بن عمرو التميمي المذكورة فقد برزت في هذا اليوم مواقف بطولية تستحق الذكر والثناء ، فلقد جاء في تاريخ الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن رجلا من الفرس خرج ينادي : من يبارز ؟ فبرز له « علباء بن جحش العجلي» فنفحه علباء فأسحره [يعني أصابه في رئته] ونفحه الآخر فأمعاه [يعني أصابه في أمعائه] وخرًا ، فأما الفارسي فمات من ساعته ، وأما الآخر فانتثرت أمعاؤه فلم يستطع القيام ، فعالج إدخالها فلم يتأت له حتى مر به رجل من المسلمين فقال: ياهذا أعنّي على بطني ، فأدخله له ، فأخذ بصفاقيه [يعني جلد بطنه] ثم زحف نحو صف فارس مايلتفت إلى المسلمين ، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعًا من مصرعه إلى صف فارس وقال:

أرجو بها من ربنا ثوابا   قد كنت ممن أحسن الضِّرابا (١)

---

(١) تاريخ الطبري ٥٤٦/٣ .

فهذا الفارس الصريع يزحف إلى جيش الأعداء وهو ممسك بطنه حتى لاتخرج أمعاؤه مرة أخرى ، وكأنه يعطي من نفسه نموذجًا لبذل آخر ما في الوسع والطاقة في قتال الأعداء ، وهو في أثناء زحفه يحتسب هذه الخطوات عند الله تعالى ،وهو منظر مَهيب مذهل لمن شاهده من الأعداء، فإنه لم يزحف نحو المسلمين ،ولو فعل لم يكن ملومًا فقد بذل مايجب عليه وأصبح عاجزًا عن القتال ،ولكنه زحف نحو الأعداء إمعانًا منه في تحديهم والنكاية بهم ، وتقربا إلى الله تعالى بتلك الخطوات ، وتقوية لعزائم المسلمين الذين مازالوا بكامل قواهم، وهذا نموذج من السمو الذي كانت الأمة الإسلامية تتمتع به في عصورها الزاهرة.

ومثل آخر يبين لنا ماكان يتمتع به أولئك الأعلام من مقدرة فائقة في القتال والخروج من الأزمات ، فقد روى الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه : أن رجلا من أهل فارس خرج فنادى : من يبارز؟ فبرز له " الأعرف بن الأعلم العُقَيلي " فقتله ، ثم برز له آخر فقتله، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه ، وندر سلاحه عنه فأخذوه، فغبَّر في وجوههم بالتراب حتى رجع إلى أصحابه (1) .

فهذا البطل المقدام حينما سقط سلاحه واجتمع عليه عصابة من أهل الكفر حوَّل تراب الأرض سلاحًا فصار يغبِّر في وجوه الأعداء وهو يتراجع إلى الوراء حتى لحق بأصحابه ، وهذا بقَدر مايُظهر أبطال المسلمين بمظهر الجمع بين الشجاعة النادرة والرأي الحصيف فإنه يظهر جنود الكفر بمظهر التخاذل والاشتغال بوقاية النفس حتى من غبارٍ ثائر، وذلك يُظهر الفرق الشاسع بين جنود الإسلام وجنود الكفر .

(1) تاريخ الطبري ٣/٥٤٦ .

وكان لأبناء الخنساء الأربعة مواقف فدائية في ذلك اليوم وسبق أن ذكرنا وصيتها لأولادها في ليلة ذلك اليوم بأن يقصدوا مواطن البأس الشديد في القتال ، فلما غَدَوا ذلك اليوم اندفعوا إلى القتال بحماس وقال كل واحد منهم شعرًا حماسيًا يقوِّي به نفسه وإخوانه فقال أولهم:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة ... قد نصحَتْنا إذ دعتنا البارحة

مقالةً ذات بيان واضحة ... فباكروا الحرب الضَّروس الكالحة

وإنما تلقون عند الصائحة ... من آل ساسان الكلاب النابحة

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة ... وأنتمُ بين حياة وحياة صالحة

أو ميتة تُورِث غُنمًا رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، فحمل الثاني وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجَلَدْ ... والنَّظر الأوفق والرأي السَّدَد

قد أمرتنا بالسداد والرشد ... نصيحة منها وبرًا بالولد

فباكروا الحرب حماة في العدد ... إما لفوز بارد على الكبد

أو ميتة تورثكم عزَّ الأبد ... في جنة الفردوس والعيش الرغد

وقاتل حتى استشهد ، وحمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصي العجوز حرفًا ... قد أمرتنا حدبًا وعطفا

نصحا وبرًا صادقا ولطفا ... فبادروا الحرب الضَّروس زحفا

حتى تَلُفُّوا آل كسرى لفَّا ... أو يكشفوكم عن حماكم كشفا

إنا نرى التقصير منكم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وزلفى

وقاتل حتى استشهد ، وحمل الرابع وهو يقول :

لســت لخنسـاء ولا للأخـرم ولا لعمرو ذي السـناء الأقدم
إن لم أَرِدْ في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خِضَمٍّ خضرم
إما لفوز عاجل ومغنم أو لـوفـاة في السبيل الأكـرم

وقاتل حتى استشهد ، فبلغ الخنساء خبر بنيها الأربعة ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[1] .

هذه المرأة العظيمة التي بكت أخاها صخرًا ورثَته بالأشعار المبكية دهرًا طويلاً في الجاهلية نجدها في الإسلام تدفع بنيها جميعًا إلى حِمَام الموت، ثم تقول هذا الكلام الإيماني الرفيع بعد استشهادهم ، وهذا شاهد من الشواهد الكثيرة التي تدلنا على التحول الكبير الذي طرأ على حياة الأمة الإسلامية بعدما دخلوا في الإسلام .

وفي هذا اليوم قام القعقاع بن عمرو وبنو عمه من تميم بمكيدة بالغة التأثير على الفرس ، وذلك أنه لما علم بما فعلته الفيلة في اليوم الأول بخيول المسلمين قام هو وقومه - بتوفيق من الله تعالى - بتهيئة الإبل لتظهر في مظهر مخيف يُنَفِّر الخيول فألبسوها وجلَّلوها ووضعوا لها البراقع في وجوهها ، وحملوا عليها المشاة وأحاطوها بالخيول لحمايتها ، وهجموا بها على خيول الفرس ، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلوا بالمسلمين يوم أرماث، فجعلت تلك الإبل لاتصمد لقليل ولالكثير إلا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين ، فلما رأى

---

(١) الإستيعاب ٤/ ٢٨٩ .

ذلك الناس استنُّوا بهم، فلقي الفـرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث (١) .

وهكذا نجد أن المسلمين الأوائل يتفوقون على أعدائهم في الابتكار الحربي، فـالفرس أنهكـوا المسلمين في اليوم الأول بسـبب استـخدام الفيلة، ومادام المسلمون لايملكون الفيلة فليخترعوا مما يملكون من الإبل مايكيـدون به الأعداء فكانت هذه الحيلة الحـربية المتـازة التي أخافت خيول الأعداء فنفرت بمن عليها من الفرسان ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون مـتفوقين في مجـال الإعداد المادي بعد تفوقـهم في الإعداد الروحي .

ليلة السواد :

مازلنا مع يوم « أغـواث » وقد استـمر القـتال فيـه إلى منتصف الليل، وسميت تلك الليلة ليلة السواد ، ثم وقف القتال بعد أن تحاجز الفريقان، وكـان لوقف القتال منفعـة كبيرة للمسلـمين ، حيث كانوا ينقلون شـهـداءهم إلى مقـر دفنهم في وادي « مُـشَـرِّق » ، وينقلون الجرحى إلى « العُذَيب» حيث تقوم النساء بتمريضهم .

ولقـد شـارك في القتـال في هذه الليـلة لأول مرة أبو مـحـجن الثقفي.

قال ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه : فقالوا : ولما اشتد القتال بالسواد(٢) ، وكان أبو محْجَن قد حُبس وقُيِّد ، فهو في القصر، فصعد حين أمـسى إلى سعد يستعفيه ويسـتقيله ، فزبره وردّه ، فنزل

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٤٥ .

(٢) أي ليلة السواد .

فأتى سلْمَى بنت خَصَفَة ، فقال : ياسلمى يابنت آل خَصَفة ، هل لك إلى خير؟ قالت: وماذاك ؟ قال: تخلِّين عنِّي وتُعيرينني البَلقاء ، فلله عليَّ إن سلَّمني الله أن أرجع إليك حتى أضعَ رجلي في قَيْدي ، فقالت: وماأنا وذاك ! فرجع يرسُف في قيوده ، ويقول :

كَفَى حَزَنًا أن تَرْدِيَ الخَيْلُ بالقَنا[1] وأُتركَ مشدودًا عليَّ وثاقيا

إذا قُمْتُ عَنَّاني الحديدُ وأُغلقتْ مصاريعُ دوني قد تُصمُّ المُناديا

وقد كنتُ ذا مال كثير وإخْوَة فقد تركوني واحدًا لا أخَا ليَا

ولله عَهْدٌ لا أخيسُ بعهده لئن فُرِجَتْ ألاَّ أزورَ الحوانيا

فقالت سَلْمى : إنِّي استخرتُ الله ورضيتُ بعهدك، فأطلقَتْه. وقالت: أمَّا الفَرَس فلا أعيرها ، ورجعتْ إلى بيتها، فاقتادها فأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها ، ثم دبّ عليها ، حتى إذا كان بحيال الميمنة كبَّر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصّفَّين ، فقالوا : بسرجها ، وقال سعيد والقاسم : عُرْيًا ، ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة فكبَّر وحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصّفَّين برمحه وسلاحه ، ثم رجع من خلْف المسلمين إلى القلب فندَر أمام النَّاس ، فحمل على القوم يلعب بين الصّفين برمحه وسلاحه ، وكان يقصف الناس ليلتئذ قصْفًا منكرًا وتعجب الناس منه وهم لايعرفونه ولم يروهْ من النَّهار ، فقال بعضهم : أوائل أصحاب هاشم أو هاشم نفسه وجعل سعد يقول وهو مُشرف على النَّاس مُكبّ من فوق القصر: والله لولا مَحْبس أبي مِحْجَن لقلتُ : هذا أبو محجن وهذه البلقاء! وقال بعض الناس : إنْ

(١) يعني الرماح .

كان الخَضِر يشهد الحروب فنظنّ صاحب البلقاء الخَضِر ، وقال بعضهم: لَولا أنّ الملائكة لاتُباشر القتال لقلنا : مَلَكٌ يثبِّتنا ، ولايذكره الناس ولا يأبهون له ، لأنَّه بات في محبسه ، فلما انتصف الليل حاجز أهل فارس،وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو محْجَن حتى دخل من حيث خرج ،ووضع عن نفسه وعن دابته ، وأعاد رجلَيْه في قيديه، وقال :

لـقد علمَتْ ثَقيفٌ غيرَ فَخْر   بأنّا نحن أكرَمُهم سُيُوفَا
وأكثَرُهُم دُروعًا سابغَات   وأصبَرُهم إذا كَرهوا الوُقُوفا
وأنّا وَفدُهم في كل يوم   فإن عَميُوا فَسَل بهمُ عَريفًا
وليلةَ قادسٍ لم يَشْعُروا بي   ولم أُشْعرْ بمَخْرَجي الزُّحُوفَا
فإن أُحْبَسْ فذلكُمُ بلائي   وإنْ أترَكْ أذيقُهُمُ الحُتوفا

فقالت له سلْمى : يا أبا محْجَن ، في أيّ شيء حبسك هذا الرجل ؟ قال: أما والله ماحبسني بحرام أكلته ولاشربته ، ولكنّي كنت صاحبَ شراب في الجاهليَّة ، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، يبعثه على شفتي أحيانًا ، فُيساء لذلك ثنائي،ولذلك حبسني، قلت:

إذا متُّ فادْفنّي إلى أصل كَرْمَة   تُرَوِّي عظامي بعد موتي عُرُوقها
ولاتَدْفنَنِّي بالفَلاة فإنني   أخافُ إذا ما متُّ ألا أذوقها
وتُرْوى بخمر الُحصِّ لَحدي فإنني   أسيرٌ لها من بعد ماقد أسوقُها

فلما أصبحتْ سلمى أخبرت سعد بن أبي وقاص عن خبرها وخبر أبي محجن ، فدعا به فأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك

بشيء تقوله حتى تفعله ، قال: لاجرم لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبدًا [1] .

فهذا موقف يذكر لأبي محجن الثقفي في الشجاعة وحسن الطِّراد وسرعة الحركة في الهجوم على الأعداء ، وقد شفع له جهده الكبير الذي بذله في الجهاد ، ووفاؤه حيث عاد وأدخل رجليه في القيد ، فعفا عنه سعد، وأطلقه ليكمل دوره الجيد في الجهاد ، وقد أفاد من هذا العفو وقابله بالحسنى حيث وعد بأن لايستجيب للسانه في قوله ما لايليق من الشعر .

وموقف لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدل على بصره النافذ في الحرب ، فحينما رأى ذلك الفارس يتقلب بين الصفوف قال: والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، وفي رواية أنه قال : الطِّراد طراد أبي محجن والضَّبح ضبح البلقاء ، وهذه نباهة عالية وإدراك حربي رفيع ، مع أن سعدًا لم يشاهد أبا محجن في الحروب إلا قليلاً .

وموقف آخر لسعد حينما عفا عن أبي محجن عما كان من تجاوز لسانه الذي وازن بينه وبين بلائه الكبير في الجهاد وحفظ العهد فرجح عمله الصالح ورجا من الله أن يعفو عنه بجهاده وأخلاقه .

أما نصف ليلة السواد الأخير فإن من أبرز ماجرى فيه أن القعقاع بن عمرو اغتنم الفرصة في التخطيط لخطة يرفع بها من معنوية المسلمين في يومهم القادم ، فلقد أمر أتباعه بأن يتسللوا سرًا ثم يقدموا في النهار تباعًا على فرق كل فرقة مائة مقاتل ، وقال لهم :

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٤٨ - ٥٥٠ .

إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجداً.

فلما ذرَّ قرن الشمس والقعقاع يلاحظ الخيل وطلعت نواصيها كبَّر وكبر الناس وقالوا : جاء المدد .

وقد تأسى به أخوه عاصم بن عمرو فأمر قومه أن يصنعوا مثل ذلك فأقبلوا من جهة « خفَّان » .

فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم بن عتبة في سبعمائة من جيش الشام ، فأخبروه برأي القعقاع وماصنع في يوميه ، فعبَّى أصحابه سبعين سبعين ، فلما جاء آخر أصحاب القعقاع خرج هاشم في سبعين معه[1] .

وهنا نقف قليلاً لنشيد بموقف هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فلقد قبل الأخذ بالرأي الأمثل في التخطيط الحربي فصنع بتفريق جيشه كما صنع القعقاع بن عمرو ، ولم يمنعه اعتبار النفس والمنصب من أن يأخذ برأي قائد من قواده ، بل كان رجلاً من الرجال الذين تخرجوا في مدرسة التربية النبوية ، فأصبحوا يُلغون ذواتهم ومصالحهم الخاصة في سبيل مصلحة الإسلام ومصلحة المسلمين العامة ، وهذا من أهم أسباب نجاحهم في إقامة الدولة الإسلامية الكبرى ، والقضاء على قوى العالم آنذاك .

أما الفرس فإنهم باتوا يعالجون توابيت الفيلة التي تحطمت في اليوم الأول ، وبسبب ذلك غابت الفيلة في اليوم الثاني ، فكان غيابها

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥١ .

مع قدوم القعقاع بن عمرو وماقام به من شجاعة وابتكارات حربية سببًا في تفوق المسلمين في اليوم الثاني .

يوم عمَاس :

أما اليوم الثالث وهو يوم « عِمَاس » فقد قدَّم الفرس فيه فيلتهم بتخطيط جديد تلافوا به ماكان في اليوم الأول من قطع حبالهم ، فجعلوا مع كل فيل رجالاً يحمونه ومع الرجال فُرسانٌ يحمونهم .

وظل المسلمون يقامون الفيلة والمقاتلين من فوقها وحولها ، ولقوا منها عنتًا شديدًا .

ولما رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما يلاقي المسلمون منها أرسل إلى مسلمي الفرس الذين كانوا مع جيش المسلمين يسألهم عن الفيلة هل لها مقاتل ؟ فقالوا : نعم المشافر والعيون لاينتفع بها بعدها ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم بنَي عمرو وقال لهما : اكفياني الفيل الأبيض- وكانت كلها آلفة له وكان بإزائهما - وأرسل إلى حمَّال ابن مالك والربِّيل بن عمرو الأسديين فقال: اكفياني الفيل الأجرب ، وكانت آلفة له كلها وكان بإزائهما ، فأخذ القعقاع وعاصم رُمحَيهما ودبَّا إليه في كتيبة من الفرسان والرجال ، فقالا لمن معهما : اكتنفوه لتحيروه فأصبح الفيل ينظر يمنة ويسرة متحيرًا ممن حوله ، ودنا منه القعقاع وعاصم فحملا عليه وهو متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معًا في عيني الفيل الأبيض ، ونفض رأسه فطرح سائسه ، ودلَّى مشفره ، فنفحه القعقاع بسيفه فرمى به ، ووقع لجنبه فقتلوا من كان عليه .

وحمل حمَّال بن مالك وقال للربِّيل بن عمرو : اختر إما أن

تضرب المشفر وأطعن في عينه أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ، فاختار الضرب ، فحمل عليه حمال وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه. لايخاف سائسه إلا على بطانه [وذلك لأن المسلمين قطعوا ذلك منها في اليوم الأول] فانفرد به أولئك فطعنه حمَّال في عينه فأقعى على خلفه ، ثم استوى ، ونفحه الربيل بن عمرو فأبان مشفره ، وبصر به سائسه فضرب جبينه وأنفه بحديده كانت معه وأفلت منها الربيل وحمال .

وصاح الفيلان صياح الخنزير ، وكانت الفيلة تابعة لهما فرجعت على الفرس ورجعت معها الفيلة تطأ جيش الفرس حتى قطعت نهر العتيق وولَّت نحو المدائن وهلك من كان عليها(١) .

وهكذا أنقذ الله المسلمين بهؤلاء الأربعة الأبطال ومن كان معهم من المساعدين لهم ، وردَّ الله كيد الفرس للمرة الثانية ، وأبطل مفعول سلاحهم الأكبر ، سلاح الفيلة ، هذه المخلوقات العظيمة التي هي أشبه ما تكون بالجبال المتحركة .

ولاشك أن الفضل - بعد الله تعالى - يعود إلى قائد المسلمين سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه حيث أبصر البلاء الذي وقع على المسلمين من الفيلة فسأل مسلمي الفرس عن مقاتلها ، كما أنه أدرك ببصره الحادِّ وبصيرته النافذة أن جميع الفيلة تتبع اثنين منها ، فكلَّف أربعة من أبطال المسلمين بالقضاء عليهما ، وتم ما أراد فكانت الفيلة وبالاً على الفرس بعدما كانت سلاحًا فتاكا في أيديهم .

ولما خلا الميدان من الفيلة زحف الناس بعضهم على بعض واشتد

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٢ - ٥٥٦ .

القتال بينهم ، وكـان لدى الفرس جيش احتـياطي من أهل النجدات والبأس ، فكلمـا وقع خلل في جيـشهم ، أبلغوا "يزدجـرد" فأرسل لهم من هؤلاء .

قال الرواة : فلولا الذي صنع الله للمسلمين بالـذي ألهم القعقاع في اليومين وأتاح لـهم بِها شِم (١) كسر ذلك المسلـمين ، وقد انتهى ذلك اليوم والمسلمون وأعداؤهم على السواء (٢) .

بطولات أخرى جرت في هذا اليوم :

وجرت في هذا اليـوم بطولات ومغـامرات ، فمن ذلك مـاذكره الطبري بإسناده عن الشـعبي قال : قـال عمرو بن مـعد يكرب : إني حامل على الفـيل ومن حوله - لفيل بإزائهم - فلا تَدَعـوني أكثر من جزرجزور [يعني نحـر الناقة] فإن تأخرتم عني فـقدتُم أباثور ، فأنَّى لكم مـثل أبي ثور! فإن ادركـتمـوني وجدتموني وفي يدي السـيف ، فحمل فما انثنى حتى ضرب فيـهم ، وستره الغبار ، فقال أصحابه : ماتنتظرون ؟ مـاأنتم بخلقاء أن تدركوه ، وإن فـقدتموه فقـد المسلمون فارسهم ، فحملوا حملة فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وطعنوه ، وإن سيـفه لفي يده يضـاربهم وقد طُعن فرسـه ، فلما رأى أصـحابه وانفـرج عنه أهل فـارس أخـذ برجْل فـرس رجل من أهل فـارس ، فحركه الفارسي فاضطرب الفرس فـالتفت الفارسي إلى عمرو ، فهمَّ به وأبصره المسلمون ، فغَشُـوه ، فنزل عنه الفارسي ، وحاضر [يعني أسرع] إلى أصحـابه ، فقال عمرو : أمكنوني من لجـامه ، فأمكنوه منه فركبه(٣) .

---

(١) يعني بوصول هاشم بن عتبة وجيشه .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٢ .

(٣) المرجع السابق ٣/ ٥٥٤ .

وهذا نموذج رفيع من نماذج الشجاعة والثبات حيث ظل يقاوم مجموعة من الأعداء حتى بعدما فقد فرسه وأصيب في بدنه .

ومن البطولات التي جرت من المسلمين في اليوم الثالث من أيام القادسية ماروواه الإمام ابن جرير من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: لما كان يوم « عماس » خرج رجل من العجم حتى إذا كان بين الصفين هدر وشقشق ونادى : من يبارز ؟ فخرج رجل منا يقال له شبْر ابن علقمة - وكان قصيرًا قليلاً دميمًا - فقال : يامعشر المسلمين قد أنصفكم الرجل ، فلم يجبه أحد ولم يخرج إليه أحد فقال : أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه ، فلما رأى أنه لايُمنع أخذ سيفه وحجفته [يعني ترسه] وتقدم ، فلما رآه الفارسي هدر ، ثم نزل إليه فاحتمله فجلس على صدره ، ثم أخذ سيفه ليذبحه ، ومقود فرسه مشدود بمنطقته، فلما استل السيف حاص الفرس حيصة فجذبه المقود فقلبه عنه، فأقبل عليه وهو يُسْحب فافترشه ، فجعل أصحابه يصيحون به ، فقال : صيحوا مابدا لكم ، فو الله لا أفارقه حتى أقتله وأسلبه ، فذبحه وسلبه(١).

وهكذا رأينا هذا الرجل المؤمن الذي تضاءلت فيه عناصر الكفاءة الحربية المادية فهو قصير ضعيف الجسم ، ومن كانت هذه حاله لايدخل مجالات الحرب الشاقة كالمبارزة حيث تتطلب هذه المجالات أجسامًا قوية طويلة ، ولكنه لما رأى خلو ذلك المكان من أبطال المسلمين دفعه إيمانه إلى التصدي لذلك المبارز الفارسي مع معرفته سلفا

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٥٤ .

بنقص كفاءته في هذا الميدان ، ولكن عزَّ عليه أن يتبختر ذلك الفارسي بين الصفين ولايبرز له أحـد ، وفي ذلك تقوية لموقف الأعداء وتوهين لموقف المسلمين، فبرز لـه ثقة بالله تعالى وتوكلا عليه ، وحـمل معه مايـستطيـعه من الأسـباب المادية ، وفـوضماينقص منهـا لمولاه جل وعـلا، فنصره تعـالى بجنود لايراهم وإن كـان يؤمن بهم ، فنفـرت الفَرَس بأمر الله تعالى وسحبت صاحـبها إلى حتفه المنتظر ، وكان في ذلك إنقاذ لهذا المؤمن وتمكين له ليقضي على عدوه .

وهكذا فإن الله تعـالى دائمًا مع أوليائه المؤمنين إذا صدقـوا معه، فإن هذا الخبر فـيه أبلغ الدلالة على ذلك ، ولا يخطرنَّ بالبال أن هذا الأمر جـرى بشكل طبـيعي وأسـباب لاعـلاقة لهـا بنصر الله تعـالى لأوليائه ، فإنه لو كان هذا الأمر معـتادًا ويجري في حياة الناس لأعدَّ ذلك الفارسي للأمر عدَّته ولم يفرط في أمر يكون سببًا في هلاكه .

واستمر القتال في اليوم الثالث إلى الليل ، ثم حجز بينهم صوت طليحة بن خويلد الأسدي ، وكـان قد التف من وراء جيش الفرس، ففـزع لذلك الفـرس وتعجب المسلمـون ، فكف بعضـهم عن بعض للنظر في ذلك، وكان سـعد رضي الله عنه قد بعثـه مع أناس لحراسة مكان يحتـمل منه الخطر على المسلمين ، فتـجاوز مهمـته ، ودار من خلف الفرس وكبَّر ثلاث تكبيرات (١).

ولقد أفادت حـركته هذه حيث توقفت الحرب وكـان هناك فرصة لإعادة الصفوف والاستعداد لقتال الليل .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٥٨ – ٥٥٩ .

ليلة الهَرير :

بدأ القـتال لـيلة اليوم الرابع : وقـد بدأ المسلمـون على عـادتهم بالمطاردة، وانبعث لذلك أبطال المسلمين من أمثال القعقاع وعاصم بنَي عمرو ، ومـسعود بن مالك الأسدي وابن ذي البُـردَين الهلالي وقيس ابن هُبَيرة الأسـدي ، ولكن الفرس في هذه الليلة قد غيـروا طريقتهم في القتـال، فقـد أدرك رستم أن جيـشه لايصل إلى مـستوى فـرسان المسلمين في المطاردة ولايقـاربهم ، فعزم على أن يـكون القتال زحـفًا بجمـيع الجيش حتى يتـفادى الانتكاسات الـسابقة التي سـببت تحطيم معنوية جـيشـه، فلم يخرج أحـد من الفرس ، وإنما قدمـوا جيـشهم وجعلوه ثلاثة عشر صفا في القلب والمجنَّبتين.

وبدأ القعقاع بن عمرو القتال وتبعه أهل النجدة والشجاعة قبل أن يكبر سعد ، فـسمح لهم بذلك واستغفر لهم ، فلـما كبر ثلاثًا زحف القادة وسائر الجيش ، وكـانوا ثلاثة صفوف ، صفًا فيـه الرماة وصفا فيه الفرسان وصفا فيه المشاة .

وكان القـتال في تلك الليلة عنيـفًا ، وقد اجـتلدوا من أول الليل حتى الصباح لاينطقون ، كلامهم الهرير ، فسمِّيت ليلة الهرير .

وقد أوصى المسلمون بعضهم بعـضًا على بذل الجهد في القتال لما يتوقـعونه من عنف الصـراع ، ومما رُوي من الأقوال في ذلك مـاذكر الإمام الطبري عن دريد بن كعب النخعي أنه قال لقومه : إن المسلمين تهيئوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لايسبق الليلة أحد إلا كان ثوابه على قدر سبقه ، نافسوهم في الشهادة وطيبوا

بالموت نفسا ، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة ماأردتم.

وقال الأشعث بن قيس : يامعشر العرب إنه لاينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجرأ على الموت ولا أسخى أنفسًا عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ، ولاتجزعوا من القتل فإنه أماني الكرام ومنايا الشهداء .

وكان بإزاء قبيلة « جُعْفى » ليلة الهرير كتيبة من كتائب العجم عليهم السلاح التام ، فازدلفوا لهم فجالدوهم بالسيوف ، فرأوا أن السيوف لاتعمل في الحديد فارتدعوا ، فقال حميضة بن النعمان البارقي: مالكم؟ قالوا: لايجوز فيهم السلاح ، قال : كما أنتم حتى أريكم ، انظروا ، فحمل على رجل منهم فاستدار من خلفه فدق ظهره بالرمح، ثم التفت إلى أصحابه فقال: ما أراهم إلا يموتون دونكم ، فحملوا عليهم فأزالوهم إلى صفهم .

وكان بإزاء قبيلة كندة تُرْك الطبري [أحد قادة الفرس] فقال الأشعث بن قيس الكندي : ياقوم ازحفوا لهم ، فزحف لهم في سبعمائة فأزالهم وقتل قائدهم .

وكان القتال في تلك الليلة شديدًا متواصلاً .

وقام زعماء القبائل يحثُّون قبائلهم على الثبات والصبر.

ومما يبين عنف القتال في تلك الليلة ما أخرجه الإمام الطبري عن أنس بن الحليس قال : شهدت ليلة الهرير فكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم حتى الصباح ، أُفرغ عليهم الصبر إفراغًا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله

قط، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد ، وأقبل سعد على الدعاء حتى إذا كان وجه الصبح انتمى الناس - يعني المسلمين - فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأن الغلبة لهم[1].

وأخرج ابن جرير الطبري من خبر أبي الأعور بن بنان المنقري قال: أول شيء سمعه سعد ليلتئذ مما يستدل به على الفتح في نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قتلنا معشراً وزائدا ... أربعة وخمسة وواحدا

نحسب فوق اللِّبَد الأساودا[2] ... حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا

الله ربي واحترزت عامدا [3]

وهكذا بات سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يدعو الله تعالى تلك الليلة ويستنزل نصره ، ومما ينبغي الإشارة إليه أن سعداً كان مستجاب الدعوة ، روى ابن الأثير بإسناده عن قيس بن أبي حازم أن رسول الله ﷺ قال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك، وكان لايدعو إلا استجيب له ، وكان الناس يعلمون ذلك منه ويخافون دعاءه[4].

ولاشك أن دعاء سعد وأمثاله أمضى في الأعداء من السيوف القواطع، والسهام المسددة .

وقاتل المسلمون أعداءهم تلك الليلة حتى الصباح .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٥٥٩ - ٥٦٣ .

(٢) اللِّبَد سرج الفرس ، والأساود الحيَّات ، يعني كنا نظن أن فوق خيول الفرس رجالا شجعانا.

(٣) تاريخ الطبري ٣/٥٦٢ .

(٤) أسد الغابه ٢/٢٩١ .

يوم القادسية :

أصبح المسلمون في اليوم الرابع وهم يقاتلون ، فسار القعقاع بن عمرو في الناس فقال: إن الدَّبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر ، فآثروا الصبر على الجزع، فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح .

ولما رأت ذلك القبائل قام فيها رجال ، فقام قيس بن عبد يغوث والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معد يكرب وابن ذي السَّهمَين الخثعمي وابن ذي البُردَين الهلالي ، فقالوا : لايكونن هؤلاء [يعني السابقين] أجدَّ في أمر الله منكم ، ولايكونن هؤلاء [يعني أهل فارس] أجرأ على الموت منكم ، ولا أسخى أنفُسًا عن الدنيا .

وقام في ربيعة رجال فقالوا : أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى ، فما يمنعكم اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم[1] .

وهكذا يضيف القعقاع بن عمرو مأثرة جديدة من مآثره الكثيرة فقد جمع الله له بين الشجاعة النادرة ، والرأي السديد وقوة الإيمان، فسخر ذلك كله لنصرة الإسلام والمسلمين ، وكان قدومه في هذه المعركة فتحًا للمسلمين .

لقد أدرك القعقاع أن الأعداء قد نفد صبرهم بعد قتال استمر يومًا وليلة دون انقطاع ، وقبل ذلك لمدة يومين مع راحة قليلة ، وعرف بثاقب فكره وطول تجربته - بعد ملاحظة التوجيهات الإلهية - أن عاقبة المعركة مع من صبر بعد هذا الإجهاد الطويل .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٣ .

ولاشك أن الأعداء يدركون شيئًا من ذلك بحكم خبرتهم الطويلة في الحروب الكبيرة ، ولكنهم لايملكون الطاقة التي يملكها المسلمون لما تقدم بيانه من المزايا القتالية التي لاتتوفر في غير المسلمين .

وقد استجاب له جماعة من القادة الأبطال ثم تتابع على ذلك سائر القادة وأفراد الجيش ، واستطاع القعقاع ومن معه من الأبطال أن يفتحوا ثغرة عميقة في قلب الجيش الفارسي حتى وصلوا قريبًا من رستم مع الظهيرة ، وهنا تنزَّل نصر الله تعالى ، وأمدَّ أولياءه بجنود من عنده فهبَّتْ ريح عاصف وهي الدَّبور ، فاقتلعت طيارة رستم عن سريره ، وألقتها في نهر العتيق ، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدفاع .

وهكذا نجد أن نصر الله تعالى يتنزل على أوليائه في اللحظات الحاسمة بعد أن يبذل المسلمون كلما في وسعهم من طاقة وقوة، وإن اقتلاع سقف السرير الضخم الذي قد صنع ورُكِّب باحكام شديد ليدلنا على أن تلك الريح لم تكن عادية وإنما كانت موجهة من الله تعالى لإنهاء المعركة لصالح المسلمين ، فالفرس أمة محاربة منذ عشرات السنين وهم يدركون تأثير عوامل الجو ، وقد أعدوا لهذه المعركة مالم يعدوه لغيرها، ولا شك أنهم قد حصنوا ذلك المكان الذي يشرف منه رستم على قيادة المعركة بحيث لاتصل إليه الأيدي ولا السهام ولا عوامل الجو المعتادة، ولكن الله تعالى فوق تدبيرهم وفوق كل شيء وهو جل وعلا مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه ، وقد صدق معه أولئك المؤمنون فسخَّر لهم الريح العاصف لتقلب موازين المعركة ، فأتى الله تعالى أعداء دينه من حيث لم يحتسبوا .

وتقدم القعقاع ومن معه حتى عثروا بسرير رستم وهم لايرونه من الغبـار ، وكان رسـتم قد تركـه واستظل ببـغل من البغـال المحملة ، وضرب هلال بن عُـلَّفة [1] أحد عـدْلَى البغل فوقـع على رستم وهو لايشعر به فأزال من ظهره فقاراً ، وهرب رستم نحو نهر العتيق لينجو بنفسـه ولكن هلالاً أدركه فأمـسك برجله وسحـبه ثم قتله ، وصـعد السـرير ثم نادى : قتـلت رستم ورب الكعبـة ، إليَّ ، فأطافـوا به ومايرون السرير وكبَّروا وتنادوا ، وانهزم قلب الفرس .

أما بقيـة قادة المسلمين فإنهم تقدمـوا أيضًا فيمن يقابلهم وتقـهقر الفرس أمامـهم ، ولما علم الجالنوس بمقتل رستم قـام على الرَّدم المُقام على النهر ونادى أهل فارس إلى الـعبور فراراً من القتل فعـبروا ، أما المقترنون بالسلاسـل وعددهم ثلاثون ألفًا فإنهم تهافتوا فـي نهر العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم ، فما أفلت منهم أحد [2] .

وهكذا تحطمت مـعنوية الفرس ولاذوا بالفـرار لما قُتل قـائدهم، واعتبـروا أن المعركة انتهت لغـير صالحهم بينمـا كانوا ثابتين في الأيام الثلاثة الأولى ، حتى بعد هزيمة الفيلة وفـرارها ، وقد كانوا يعتمدون عليها في حروبهم الكبيرة .

أما المسلمون فإن معنويتهم لاتتحطم بقتل قادتهم ولايلجؤون إلى الفرار بل يثبـتون أمام الأعداء ، وقد يختـارون قائدًا لهم من أبطالهم كما في غزوة مؤتة لما استُشهد قادتهم الثلاثة .

وهذا يدل على أن هناك فرقًا جـوهريًا بين جيش المسلمين وجيش

---

(١) هو من تيم الرباب .

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٣ - ٥٦٤ .

الكفـار، فالمسلمـون لايقاتلـون من أجل البشـر ، وإن كانوا قـادتهم وزعمـاءهم ، وإنما يقاتلون من أجل رب البشـر جل وعلا، وهذا من لوازم فهمهم الصحيح لمعنى كلمة التوحيد ، وتطبيقهم مقتضاها .

فكل واحد منهم يبذل طاقته حرصًا منه على أن لايؤتى المسلمون من قبَله ، وليس للقائد مزية إلا بالتنظيم وتوجيه المعركة ، ويبقى كل فرد في الجيش الإسلامي له حرية التصرف في النكاية بالأعداء من غير تهور ينقلب إساءة إلى المسلمين ، بينما تحُول عـبادة العباد عند الكفار دون بذل الطاقة وحسن التـصرف عند فقد القـيادة أو بُعدها عن مكان المعركة، ولذلك نـرى نجاح المسلمين في هذه المعركة وغـيرها مع بعد المسافة بينهـم وبين القائد الأعلى في المدينة المنورة لعدم حاجـتهم إليه في كل التفاصيل، بينما يحتـاج أعداؤهم إلى اتصالات متكررة لمعرفة رأي من يعملون لهم.

نهاية المعركة :

تبين لنا أن المعركـة انتهت بتوفـيق الله تعالى ، ثم بجـهود أبطال المسلمين وحكمـة قادتهم ، وكانـت معركـة عنيفـة قاسيـة ثبت فيـها الأعداء للمسلمين ثلاثة أيام حتى هزمـهم الله في اليوم الرابع ، بينما كان المسلمون يهزمون أعداءهم غالبًا في يوم واحد ، وكان من أسباب هذا الثبات أن الفرس كانوا يعتبرون هذه المعركة معركة مصير، فإما أن تبقى دولتهم مع الانتصار ، وإمـا أن تزول دولتهم مع الهزيمة ولاتقوم لهم قائمة، كما أن من أسباب ثباتهم وجود أكبر قادتهم « رستم» على رأس القيـادة ، وهو قائد له تاريخ حـافل بالانتصارات عـلى أعدائهم إضافـة إلى تفوق الفرس في العَـدد والعُدد ، حيث كان عـدد الفرس

عشرين ومائة ألف من المقاتلين من غيـر الأتباع ، مع من كانوا يبعثهم يزدجرد مددًا كل يوم ، بينما كان عـدد المسلمين بضعة وثلاثين ألفا ، كما ذكر الإمام الطبري (١).

ومع ذلك كله انتصـر المسلمون عليـهم بعد أن قدمـوا خمســمائة وثمانية آلاف من الشهداء(٢) .

وهذا العدد من الشهداء هو أكبر عدد قدمه المسلمون في معاركهم في الفتوح الإسلامية الأولى ، وكـونهم قدموا هذا العدد من الشهداء دليل على عنف المعركـة وعلى استبـسال المسلمين وتعرضهم للشـهادة رضي الله عنهم ورحمهم أجمعين .

وأمر سعـد رضي الله عنه بمطاردة فلول المنهزمين فوكل القـعقاع ابن عمرو وشرحبيل بن الـسمط الكندي بمطاردة المنهزمين يمينًا وشمالا دون نهر العتيق ، وأمر زُهرة بن الحـوية بمطاردة الذين عبروا النهر مع قادتهم، وكان الفرس قد بثقوا النهر في الرَّدْم حتى لايستطيع المسلمين متابعتهم فاستطاع زهرة وثلاثمائة فارس أن يتجاوزوا بخيولهم وأمر من لم يستطع بموافاتهم من طريق القنطرة ، وكان أبعد قليلا ، ثم أدركوا القوم وكـان الجالينوس وهو أحد قادتهم الكبـار يسير في ساقـة القوم يحميهم، فأدركه زهرة فنازله فاختلفا ضربتين فقتله زهرة وأخذ سلبه، وطاردوا الفرس وقتلوا منهم ، ثم أمسوا في القادسية مع المسلمين(٣) .

وفي ذلك اليـوم حدث أمـر عـجيب يدل على مـقـدار اهتمـام

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٦ - ٥٣٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٥٦٤ .

(٣) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٥ / ٥٦٦ .

المسلمين الأوائل بأمور دينهم وما يُقَرِّبهم إلى الله تعالى ، فقد قُتل مؤذن المسلمين في ذلك اليوم وحضر وقت الصلاة ، فتنافس المسلمون على الأذان حتى كادوا أن يقتتلوا بالسيوف ، فأقرع بينهم سعد ، فخرج سهم رجل فأذن(1) .

وإن التنافس على هذا العمل الصالح ليدل على قوة الإيمان ، فإن الأذان ليس من ورائه مكاسب دنيوية ولاجاه وشهرة ، وإنما دفعهم إلى التنافس عليه تذكر ما أعده الله تعالى للمؤذنين يوم القيامة من أجر عظيم، وإن قومًا تنافسوا على الأذان سيتنافسون بطريق الأولى على ماهو أعظم من ذلك ، وهذا من أسرار نجاحهم في الجهاد في سبيل الله تعالى والدعوة إلى الإسلام .

كتاب من سعد إلى عمر :

وكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما يخبره بالفتح مع سعد بن عُمَيلة الفزاري وجاء في كتابه : أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كانوا قبلهم من أهل دينهم ، بعد قتال طويل، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بِعُدَّة لم ير الراؤون مثل زهائها [يعني مقدارها] فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سَلَبَهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لانعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دَويَّ النحل ، وهم آساد

---

(1) تاريخ الطبري ٣/ ٥٦٦ .

الناس لايشبههم الأسود ، ولم يَفْضُل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم[1] .

وإننا حينما نتأمل هذا الكتاب نجد أنه قد تحلى بتوحيد الله تعالى وتعظيمه والبراءة من حول النفوس وقوتها ، فالنصر على الأعداء إنما هو من الله تعالى وحده وليس بقوة المسلمين ، بالرغم مما بذلوه من الجهاد المضني والتضحية العالية .

وقوة الأعداء الضخمة ، ليس بقاؤها أو سلبها للبشر ، بل ذلك كله لله تعالى ، فهو الذي حَرَم الأعداء من الانتفاع بقوتهم ، وهو الذي منحها للمسلمين ، وإنما البشر مجرد وسائط يُجري الله النفع والضرر على أيديهم ، وهووحده الذي يستطيع دفع الضرر وجلب المنفعة سبحانه وتعالى .

وهكذا يكون الموحدون ،وهم الذين يستحقون النصر من الله جل وعلا .

ونجد سعداً يصف الصحابة رضي الله عنهم ومن معهم من التابعين بالتفوق في العبادة والشجاعة ، فهم عُبَّاد في الليل لهم أصوات مدوِّية بالقرآن كأصوات النحل لا تَكلُّ ولاتَمَل ، وفرسان في النهار لاتَصل الأسود الضارية إلى مستواهم في الإقدام والثبات .

وحسبنا هذه الشهادة في بيان فضل من حضر تلك المعركة مَن استشهد ومن بقي ، وهم بضعة وثلاثون ألفا ، لأنها شهادة صادرة من رجل شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ودعا له وأثنى عليه كثيراً .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٣ .

أما أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه فقـد زاد همه لما نزل رستم بالقـادسية خـوفًا علـى المسلمين ، جاء في تاريخ الطبـري من طريق سيف ابن عـمر عن مجالد بن سـعيد قال : لما أتى عَـمر بن الخطاب نزول رستم القادسيـة كان يستخبر الركبـان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهـار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله قال: فلما لقي البشير سأله من أين ؟ فأخبـره ، قال : ياعبد الله حدثني قال : هَزَم الله العدو، وعـمر يخُبُّ معه - يعني يسـرع - ويستخبـره ، والآخر على ناقته ولايعرفه ، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلِّمون عليه بإمرة المؤمنين فقال: فـهلاَّ أخبرتني رحمك الله أنك أمـير المؤمنين ! وجعل عمر يقول: لاعليك ياأخي[1] .

وإن لنا أمام هذا النص وقفتين : الأولى أمـام هذا الاهتمام الكبير من عمـر رضي الله عنه الذي دفعه إلى أن يخـرج إلى البَرِّية كل يوم لعله يجد الركبـان القادمين من العراق فيسـألهم عن خبر المسلمين مع أعدائهم، وقد كان بإمكانه أن يوكِّل بهذه المهمـة غيره ممن يأتيه بالخبر ولكن الهمَّ الكبـير الذي كـان يحـمله للمسلـمين لايتيح له أن يفـعل ذلك، وهذا منتهى الرحمة والشعور بالمسئولية .

والوقفة الثانية أمـام هذا التواضع الجمِّ من عمر رضي الله عنه ، فقد ظل يسـير ماشيًا مع الراكب ، ويطلب منه خبـر المعركة ، وذلك الرسول لايريد أن يخـبره بالتفـاصيل حتى يصل إلى أمـير المؤمنين ، ولايدري أنه الذي يخاطبـه ويعدو معه ، حـتى عرف ذلك من الناس في المدينة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٣ .

وهذه أخلاق عالية يحق للمسلمين أن يفاخروا بها العالم في تاريخهم الطويل ، وأن يستدلوا بها على عظمة هذا الدين الذي أنجب رجالاً مثل عمر في عدله ورحمته وحزمه وتواضعه .

خطبة لعمر بعد الفتح :

ولما أتى عمرَ رضي الله عنه خبر الفتح قام في الناس فقرأ عليهم الفتح وقال : إني حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك منَّا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف ، ولوددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم، ولست معلِّمكم إلا بالعمل ، إني والله ما أنا بملك فأستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عُرض عليَّ الأمانة ، فإن أبيتها [يعني أعففت نفسي من أموال الرعية] ورددتها عليكم واتَّبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت، وإن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيت ، ففرحت قليلاً وحزنت طويلاً ، وبقيت لا أُقَال ولا أردُّ فأُستَعْتِب[1] .

وهذه الخطبة تعتبر من النماذج العالية للحاكم العادل والمؤمن الورع، فقد ذكر عمر رضي الله عنه في هذه الخطبة أنه عبد من عباد الله تعالى لايزيد عن رعيته بشيء إلا أنه تحمَّل هذه الأمانة العظيمة .

فهو ليس بملك مستبدّ يستعبد الناس ويستذلهم ، ومعنى استعباد الناس أن يحاول الهيمنة على أفكارهم ومشاعرهم ، فيجعلهم يفكرون كما يفكر ، يحبون ما يحب ويبغضون ما يبغض من غير نظر إلى الحق والباطل، فهذه هي الطاغوتية التي تزعَّمها فرعون حينما قال

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٤ .

لقومه فيما حكاه الله تعالى عنه ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾[1].

أما الحاكم المسلم فـإنه يفكر كما يريد الله تعالى ويأمر رعـيته بأن يسخِّروا أفكارهم وسلوكهم لبلوغ مراد الله سبحانه .

ثم ذكر المسئوليـة العظمى في تصريف أموال الدولة ، وأنه لو آثر نفسه بشيء من هذه الأموال فإنه قد يعيش بشيء من السعادة المؤَقَّتة ، ولكن يعقب ذلك الحـزن الطويل ، في حياة أبدية لاينفع فيـها الندم ، ولايُقال فيها المذنب إذا طلب الإقاله ، ولايُردُّ لحياة العمل فيحسِّن من سيرته وسلوكه .

أمَّـا إن أعَفَّ نفســه عن أموال الرعـيـة ، وأسهـر ليله في تفقـد أحوالهم واجتهد في العدل بينهم حـتى يراهم سعداء ، فإنه يسعد في أخراه بـرضوان الله تعـالى والدرجات العُلَى في الجنة ، ويعـيش في دنياه بسعادة نفسية على أمل حظوته بالسعادة الأخروية .

كتاب من سعد إلى عمر ومن عمر إلى سعد :

هذا وقد كتب سعد إلى أمير المؤمنين رضي الله عنهما كتابا آخر ، يطلب فيه أمـره في أهل الذمة من عرب العراق الذين نقضـوا عهدهم في حال ضعف المسلمين فقام عمر رضي الله عنه في الناس فقال : إنه من يعمل بالهوى والمعصية يسـقط حظه ولايضر إلا نفسه ، ومن يتبع السنة ويَنْتَه إلـى الشرائع ويلزم السبـيل النَّهْجَ ابتغـاء ماعند الله لأهل الطاعـة أصـاب أمره وظفـر بحظِّه ، وذلك بأن الله عـز وجل يقـول

(1) سورة غافر / ٢٩ .

﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

وقد ظفر أهل الأيام والقوادس بما يليهم ، وجَلاَ أهله، وأتاهم من أقام على عهدهم ، فما رأيكم فيمن زعم أنه استُكره وحُشر وفيمن لم يدَّع ذلك ولم يُقِمْ وجَلاَ ، وفيمن أقام ولم يدَّع شيئًا ولم يَجْلُ ، وفيمن استسلم ؟ فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكفَّ لم يزده غلَبُه إلا خيرا، وأن من ادعى فصُدِّق أو وَفَى فبمنزلتهم، وإن كُذِّب نُبِذَ إليهم وأعادوا صلحهم ، وأن يُجعل أمر من جلا إليهم فإن شاؤوا وادعوهم وكانوا لهم ذمة ، وإن شاؤوا تَمُّوا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال، وأن يُخَيِّروا من أقام واستسلم الجَزاء أو الجلاء وكذلك الفلاحين (١).

هذا و إن لنا أمام هذه الخطبة وقفتين : الأولى عند تطبيق عمر رضي الله عنه مبدأ الشورى حيث كان يستشير أهل الرأي في كل أموره المهمة بالرغم مما عرف عنه من غزارة العلم وسداد الرأي ، وإن هذا السلوك الرفيع كان من أسباب نجاحه الكبير في سياسة الأمة .

الثانية : الاستفادة من هذه المقدمة التي قدمها عمر رضي الله عنه بين يَدي استشارته حيث ذكَّر الصحابة رضي الله عنهم بلزوم التجرد من الهوى وإخلاص النية لله عز وجل ، والاستقامة على المنهج القويم الذي سنه رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك عُصم من الزلل في الحكم وأصاب الحق وظفر بثواب الله تعالى .

وقد لخص عمر رضي الله عنه هذه المشورة بخطاب وجهه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جاء فيه : أما بعد فإن الله جل

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٥ .

وعـلا أنزل في كل شيء رخصـة في بعض الحالات إلا في أمـرين : العدل في السيرة والذكر ، فأما الذكـر فلا رخصة فيه في حالة ، ولم يرض منه إلا بالكثير، وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولابعيد ، ولا في شدة ولارخـاء ، والعدل - وإن رُئيَ ليْنًا - فهو أقـوى وأطفأ للجـور ، وأقـمع للبـاطل من الجور، وإن رُئـي شديدًا فـهـو أنكش للكفر، فـمن تم على عهده من أهل السواد - يعني عـرب العراق - ولم يُعِنْ عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية ، وأما من ادعى أنه استُكره ممـن لم يخالفهم إلـيكم أو يذهب في الأرض فلا تصـدقوهم بذلك إلا أن تشـاؤوا ، وإن لم تشـاؤوا فـانبـذوا إليـهم، وأبلغـوهم مأمنهم[1] .

ونجد أن عمر رضي الله عنه قـبل أن يوجه الجيش الإسلامي إلى ما يجب عمله تجـاه أهل العهد يتحفهـم بشيء مما علَّمه الله حيث بين لهم أن الله عز وجل قد يسر على عباده شريعتـه ، فجعل فيها رخصا يعلمها أهل العلم والاجتهاد ، ومن ذلك الاجـتهاد في معاملة الكفار بما يحقق مـصلحة الإسـلام والمسلمين ، واستثـنى من ذلك أمرين : العدل في السيـرة والذكر ، فالعدل في الحكم لارخصة فـيه وإن كان ذلك مع الكفار، لأن العدل في الحكم هو الدعامة الكبرى لبقاء حكم الإسلام وسـيادته وانتشار الأمن والرخـاء في بلاد المسلمين ، هذا في الدنيا وأما في الآخرة فلا مفـر من العقاب للظالمين ، لأن حقوق الله تعالى قد يغفرها لعبده ويتجاوز عنه ، أما حقوق الناس فإن الله تعالى يوقف الظالمين والمظلومين يوم القيامة فيقتصّ لبعضهم من بعض .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٥ .

وأما ذكر الله تعالى فلا بد أن يسود حياة المسلم في قلبه ولسانه وجوارحه ، فيكون تفكيره خالصا لله تعالى ، ومنطقه فيما يرضيه وعمله من أجله ، ويكون همه الأكبر إقامة ذكر الله جل وعلا في الأرض قولا وعملا واعتقاداً ، فإذا كان كذلك عصمه الله سبحانه من فتنة الشبهات والشهوات .

وقد أخذ سعد ومن معه من المسلمين بتوجيهات أمير المؤمنين فعرضوا على من حولهم ممن جلا عن بلاده أن يرجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية .

وهكذا نجد أمامنا نموذجًا من نماذج الرحمة وتأليف القلوب فهؤلاء الذين نقضوا العهد قد كلفوا المسلمين حروبًا دامت سنة كاملة بقيادة خالد ابن الوليد رضي الله عنه ، فلما آنسوا من المسلمين قلة واجتمع شمل الفرس نقضوا عهدهم مع المسلمين وأظهروا ولاءهم للفرس ، ومع ذلك عفا عنهم المسلمون لما انتصروا على الفرس، وجاء بعض هؤلاء مستسلمين للمسلمين ، وبعضهم ظل بعيدًا ينتظر ما يفعله المسلمون بالقريبين منهم .

وهذه المعاملة الكريمة حبَّبت المسلمين والإسلام لهؤلاء الناكثين فدخلوا بعد ذلك على فترات في الإسلام وأصبحوا من جنوده الأقوياء.

تاريخ المعركة :

وقبل أن ننتقل إلى مواقف مابعد القادسية نشير إلى تاريخ وقوع هذه المعركة الكبرى التي كانت فاصلة بين المسلمين والفرس، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، وللأستاذ أحمد عادل كمال

تحقيق جيد في ذلك توصل فيه إلى أنها في شهر شعبان من العام الخامس عشر للهجرة[1]، وهذا القول هو الذي تؤيده أحداث العراق والشام آنذاك .

وعلى هذا فإنها تكون هي ومعركة اليرموك في عام واحد ، وقد سبقتها اليرموك حيث إن جيش العراق الذي سبق توجيهه إلى الشام مع خالد رضي الله عنه عاد إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة بتوجيه من أبي عبيدة بن الجراح وبناء على أمر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنهم بعد أن شهدوا اليرموك فشهدوا القادسية .

فهل كان اتفاق المعركتين الكُبْرَيَين في عام واحد وفي وقت متقارب مقصودًا للأعداء ليُربكوا المسلمين ويحاولوا القضاء عليهم؟

الواقع أن التخطيط لمعركة القادسية كان قبل ذلك بعام وشهور سواء من قِبَل الفرس أو من قِبَل المسلمين ، وذلك لأن الفرس اجتمع أمرهم على ملكهم " يزدجرد" بعد فرقة ونزاع فعزموا على بعث جيش كبير لغزو المسلمين ، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وقادته أدركوا ذلك فأعدوا للمعركة الحاسمة من بداية العام الرابع عشر وصارت الإمدادات تُبعث من دار الخلافة في هذا العام وبداية العام الخامس عشر إلى العراق.

واكتفى الخليفة بما في الشام من الجند نظرًا لأن المسلمين هناك قد تغلبوا على الروم في معاركهم الأولى واستولوا على أكثر مدنهم الكبرى مثل دمشق وحمص ، ولكن الروم فاجئوا المسلمين بجموع لم يحسبوا لها حسابا ووجهوها بسرعة كبيرة كما تقدم ، والظاهر أنهم

(١) القادسية / ٢٢٦ .

اغتنمـوا فرصة انـشغال أمـير المؤمنين بالإعداد للمـعركـة الفاصلة مع الفرس فوجـهوا حشودهم الضـخمة للقضـاء على المسلمين في الشام حيث كانوا يعرفون أن إمدادهم من دار الخـلافة أقرب إلى المستحيل ، ولكن الله سلَّم فانتصر المسلمون عليهم في اليرموك انتصاراً حاسما .

لقـد تعرضت الأمـة الإسلامـية الناشـئة لغـزو منظم من دولتين تمتلكان العالـم آنذاك ، وكل دولة منهما قد حـشدت كل ما في طاقتها للقضـاء على دولة الإسلام ، ولكن هذه الأمـة الناشئـة استطاعت أن تقف بصلابة وعزم أمـام تلك القوتين حتى قضت عليـهما ، وإن هذا وحده يكـفي دليلاً على عظمـة المسلمين الصادقين وعلى عظـمة هذا الدين الذي دفعهم إلـى هذه التضحيات العـالية وأنه حق من عند الله تعالى الذي وعد بنصر دينه وأوليائه المؤمنين .

* * *

فهرس الجزأين الأول والثاني

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



دار الأمين للطباعة

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة – ت/فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق – الهرم – ت/فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩